



Bibliotheca Alexandrina



0115914

كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك

أحمد بن علي المقرئ

الجزء الأول - القسم الأول

الهيئة العامة للكتاب - المكتبة المركزية	
رقم التسجيل	١٤٩٨
رقم التصنيف	١٤٩٨
رقم الترخيص	١٤٩٨ / ١٤٩٨

محمّد ووضّح حواشي

محمد مصطفى زيادة (Ph. D.)

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

تصدير الطبعة الثانية

للقسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

المقرري

قررت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن أقوم على مراجعة هذا القسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرري ، نزولا على رغبة واسعة في إيجاد طبعة ثانية منه ، بعد نفاذ الطبعة الأولى منذ سنين . ولا شك عندي أن الحاجة العلمية النامية هي التي حثت باللجنة إلى تقرير إعادة طبع هذا القسم ، قبل إعداد قسم جديد مما لا يزال مخطوطاً حتى الآن من هذا الكتاب الطويل .

وأود التنبيه هنا إلى محافظتي في هذه الطبعة الثانية على أرقام الصفحات والحواشي وترتيب الفقرات ، كما هي في الطبعة الأولى ، ولذا اقتصرت التعديلات والتصحيحات الجديدة على إحلال لفظ صحيح محل لفظ غلط ، أو إبدال عبارة سليمة بعبارة غير سليمة ، وهذا وذلك في ضوء ما وصل إلي من أنواع النقد إبان ظهور الطبعة الأولى ، وما عثرت عليه بنفسى أثناء المراجعة . وأخص بالشكر هنا صديق الدكتور مصطفى جواد ، الأستاذ بدار المعلمين انعمالية بينا ، إذ أمدني مشكوراً بقائمة من المواضع التي احتاجت إلى إعادة النظر في بعض حقائق المتن والحواشي ، كما أمدني بملاحظات علمية دقيقة لتصحيح تلك المواضع ، وكان ذلك سنة ١٩٣٦ . وأرجو أن أكون أفدت الفائدة الكاملة من ملحوظاته ، وأن أكون أودعت هذه الطبعة الثانية جميع هذه الملحوظات . وأسدي الشكر هنا لتلميذي السابق وزميلي الحالي الدكتور سعيد عهد الفتاح عاشور ، مدرس المصور الوسطى بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، لقيامه على تصحيح بروفات هذا القسم ، كما أسدي الشكر العام كذلك إلى جميع تلاميذي الذين يدأبون على مساعدتي بالنقد الطيب ، والمطالبة الجيدة بإكمال القيام على طبع الأجزاء الباقية من هذا الكتاب ، وأرجو أن أكون عند حسن ظنهم بإخراج القسم الثالث من الجزء الثاني منه في المستقبل القريب .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة في سبتمبر ١٩٥٦
صفر ١٣٧٦

تصدير الطبعة الأولى

للقسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك

يرجع تفكيري في وجوب نشر هذا المؤلف إلى سنة ١٩٢٧ ، حين كنت أعد بحثاً لنيل الدكتوراه ، من جامعة إكزبوتل في موضوع ” العلاقات الخارجية للدولة المصرية في القرن الخامس عشر ، (Foreign Relations of Egypt in the Fiteenth Century) “^(١) أي القرن التاسع الهجري تقريباً . فقصدتُ إلى الإحاطة بمؤلفات المؤرخين المصريين في ذلك القرن ، واستوعبت معظم الموجود من مؤلفاتهم ، في التاريخ وغيره ، مطبوعة أو مخطوطة ؛ وقرأت ما استطعت أيضاً من مؤلفات كُتّاب القرنين الثامن والعاشر الهجريين . وخرجت من ذلك الميدان الفسيح ، معتقداً ومؤمناً ، بأن صاحب الصدارة بين تلك المؤلفات جميعاً ، من الوجهة التاريخية ، هو كتاب ” السلوك لمعرفة دول الملوك “ ، لمؤلفه المقرئزي ، المولود بالقاهرة سنة ٨٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ، والمتوفى بها سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤٢ م) .

ثم كان أن تحدثت يوماً مع الأستاذ هـ . أ . ر . جيب (H. A. R. Gibb) أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن ، في مؤلفات المؤرخين المصريين ، الذين عاشوا وكتبوا في القرن التاسع الهجري ، وفيما يعترض قارئ المخطوطات منها — وهي القسم الأكبر عدداً — من العثرات والصعوبات ، فسرني قوله إن من أولى تلك الكتب بالطبع والنشر ، كتاب السلوك ، إذ وافق قوله رأيي في ذلك المؤلف^(١) .

حضرت بعدئذ إلى مصر ، والتحقّت بوظيفة مدرّس للتاريخ ، في كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٠ ، فطفقت أتلّس الوسائل وأتحين الفرص ، للعمل في نشر ذلك الكتا ، حتى علّتُ أن ” لجنة التأليف والترجمة والنشر “ تفكر في إخراجه ، بمعاونة

(١) أنهت هذه الفرصة لأشكر للأستاذ جيب ، ما أسداه لي من الاقتراحات إبان بدئي العمل في

هذا الكتاب .

وزارة المعارف العمومية . ومن هذا نتج القسم الأول من الجزء الأول ، الذى تخرجه اللجنة اليوم . وإنى مبادر هنا ، برجائى إلى العاملين على إحياء النصوص التاريخية المصرية ، أن يقولوا كلمتهم فى هذا النحو الذى طُبِعَ عليه القسم الأول ، وأن يمدونى بتقديم وملاحظاتهم .

ليس هذا التصدير مجال الترجمة للمقريزى ، أو الإفاضة فى تحليل كتابه السلوك ؛ وحسبى هنا التعريف بهما فى كلمات قليلة ، لأنفرغ بعدُ لبيان الطريق الذى سلكته فى إخراج هذا القسم .

أما أحمد بن حلى المقريزى ، فلا خلاف فى تبوئه صدارة المؤرخين المصريين ، فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . ويكفى دليلاً على هذا أن فطاحل ذلك الجيل من المؤرخين فى مصر ، كانوا تلاميذ المقريزى ، مثل أبى الحسن يوسف بن تفرى بردى ، مؤلف كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة^(١) ، ومحمد بن عبدالرحمن السخاوى ، صاحب كتاب التبر السبوك فى ذيل السلوك^(٢) ؛ وأن أحمد بن حجر العسقلانى ، وبدر الدين محمود العيني ، لم يوجها كل عنايتهما إلى التاريخ ، كما فعل المقريزى ، بل كما محدثين أكثر منهما مؤرخين .

ولا خلاف أيضاً فى استحقاق كتاب السلوك أن يحل الأول ، بين كتب التاريخ فى عصره . وقد كتبه المقريزى ليكون خاتمة مؤلفاته فى تاريخ مصر : إذ ألف "كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط" ، فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية ؛ و "كتاب انماط الحفا بأخبار الخلفاء" ، فى تاريخ مصر زمن الخلفاء الفاطميين ، (انظر ص ٩ ، حاشية ١ ، ٢) ؛ ثم رأى أن يصل "ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية ، والسلطين المماليك التركية والجركسية" ، إلى زمنه ، فى مؤلف مستقل ، وسماه "كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" (انظر ص ٩ ، سطر ١-١٠) .

(١) أخرجت جامعة كاليفورنيا الأمريكية شطرا من هذا الكتاب ، فى سبعة أجزاء ، (انظر ثبت المراجع العربية ، تحت اسم ابن تفرى بردى ، صفحة ع) ؛ وتداب دار الكتب المصرية ، منذ سنة ١٩٢٩ ، فى إخراج طبعة كاملة له ، ظهر منها حتى الآن الأجزاء الأربعة الأولى .

(٢) طبع هذا الكتاب فى بولاق ، سنة ١٨٩٦ .



يقع هذا الكتاب ، كارتبه المقرئى ، فى أربعة أجزاء ؛ وتوجد منه نسخ خطية عديدة ، كاملة وناقصة ، بعضها مجلد فى أربعة أجزاء ، وبعضها فى أكثر من ذلك . وأكبر هذه قيمة ، النسخة الأصلية الأولى ، التى خطها المؤلف بيده ، ومن هذه يوجد الجزء الأول ، من أربعة أجزاء ، بمكتبة يكي جامع بالآستانة ، تحت رقم (٨٨٧) .

وتحوى مكاتب الآستانة عدة نسخ أخرى ، متفاوتة فى تاريخ كتابتها ، وفى عدد أجزائها : فى مكتبة الفاتح نسخة فى إحدى عشرة مجلدة ، تنقصها الأولى والعاشره ، كتبت سنة ٨٨٠ هـ ، وأرقامها (٤٣٨١ — ٤٣٩٠) ؛ وهى أقدم النسخ المعروفة ، وتتلو النسخة الأصلية فى القيمة . وبالمكتبة نفسها نسخة أخرى ، فى أربعة أجزاء كاملة ، أرقامها (٤٣٧٧ — ٤٣٨٠) وفى مكتبة أيا صوفيا نسختان كاملتان ، كل منهما فى أربعة أجزاء ، كتبت إحداها سنة ٨٨٣ هـ ، والثانية سنة ٨٩٤ هـ ، وأرقامها (٣٣٦٩ — ٣٣٨٦) . وفى مكتبة عاشر حفيد ، الجزء الأول من نسخة ، ذات أربعة أجزاء ، رقمها (٢٤٧) . وفى مكتبة كوبرلى جزء واحد ، من نسخة مختلفة فى تقسيمها عن الصنفين الآنفين ، ويرجح أنها كتبت فى ثمانية أجزاء ، ورقها (١١٣٧)^(١) .

يوجد عدا ذلك ، من مخطوطات السلوك ، نسخ مبعة فى شتى المكاتب والمتاحف الأوربية : منها بالمتحف البريطانى فى لندن ، الجزءان الثانى والرابع من نسخة ذات أربعة أجزاء ، (British Museum Mss. Or. 2902, 9542) ، وفى مكتبة بودليان بأكسفورد نسخة كاملة ، (Bibliotheca Bodleiana, Codicum Manuscriptorum Orientalium, Catalogus a Joanne Uri confectus' Oxonii, DCLXXXIX, DCCXXIV, DCCXXIX et DCCLI) . وفى مكتبة جامعة جوتا الجزء الأخير من نسخة ذات أربعة أجزاء ،

(١) إلى مدين بهذه المعلومات ، الخاصة بمزائن الآستانة ، إلى الدكتور ف . هـ . رتر (Ph. H. Ritter) ، وهى من خطاب منه لزميل وصديق الدكتور عبد الوهاب عزام ، مدرس اللغتين الفارسية والتركية ، بكلية الآداب بالجامعة المصرية . وأريد أن أدون شكرى لكليهما هنا ، إذ تولى الدكتور رتر تجهيز الصور الشمسية ، التى احتجت إليها من هذه المخطوطات ، وأرسلها مرفقة بتلك المعلومات المقدمة ؛ ومهد لى الدكتور عزام السبيل للاتصال بالدكتور رتر ، والاستقاء من معرفته الواسعة بالمخطوطات العربية .

(Verzeichniss der für die orientalische Sammlung in Gotha von U. J. Steetzen, 1819, Leipzig, No. 1484) ؛ وفي المكتبة الأهلية بباريس نسخة كاملة في أربعة أجزاء ونسخة أخرى عبارة عن مجلدين من الجزء الثالث ، (Bibliothèque Nationale, Paris, Fonds Arabe No. 1726-1728) ، ويوجد بدار الكتب المصرية صور شمسية لهاتين النسختين الباريسيتين (تاريخ ١٨٥٥، ١٨٦٤)، ونسخة خطية ثالثة ، منقولة حديثاً من النسخة الباريسية الكاملة.

* * *

أول ما يلزم لنشر مخطوط ، الحصول على صور شمسية لأكثر عدد ممكن من النسخ المعروفة منه ، مع الإحاطة بأوصاف ما لم يتيسر منها . وقد وُقِّتْ إلى أكثر من هذا ، فيما يخص نشر الجزء الأول من السلوك ، إذ حصتُ على صور شمسية من المخطوط الذي كتبه المقرئ يبيده ، والموجود بمكتبة يكي جامع ، فلم تعد حاجة ماسة إلى الحصول على عدة من النسخ المعروفة . وهذه النسخة هي أصل القسم الأول المنشور هنا ، وعماد ما يتلوه من بقية الجزء الأول . على أني لم أطمئن إلى إخراج الكتاب من نسخة واحدة ، رغم انتسابها إلى المؤلف مباشرة ، لما حدثته فيها من الصعوبات عند أول نظرة . لذلك استعنت بالصورة الشمسية للنسخة الباريسية الكاملة ، الموجودة بدار الكتب المصرية ، فاستهديتها في إثبات بعض ما غمضت قراءته من الألفاظ من مخطوطة يكي جامع ، واسترشدت بها في بعض العبارات والألفاظ الزائلة ، أو المحجوبة بورقة ملصقة فوقها ، (انظر ص ٧٠ ، حاشية ٣ ، ص ١٠١ ، حاشية ٣ ، ٤ ، ص ١٠٨ ، حاشية ٢ ؛ ص ١٩٦ ، حاشية ١ ؛ وغيرها كثير) .

* * *

يتمين هنا ، قبل شرح الطريقة التي اتبعتها في إخراج القسم الأول من السلوك ، أن أحصف مخطوطة يكي جامع ، وقد سميتها س في الحواشي ، ونسخة باريس ، وقد سميتها ب ، وأن أذكر الشذرات المطبوعة فعلاً من السلوك ، بلغتها أو مترجمة .

أما س فمجلد ضخم ، غلافه من جلد قوى ، مطبوع في وسطه مستطيل للزينة ، غير مذهب . وخط هذا المجلد نسخ متوسط ، واضح القراءة ؛ وعدد أوراقه ٢٥٧ ، لونها أبيض ضارب إلى الصفرة ، وقياس الورقة $\frac{1}{2} \times 25$ × ١٦ س م ، أي أكبر بقليل من الصورة الشمسية المطبوعة هنا . (انظر ص ٢) .

يبتدئ متن كتاب السلوك في هذه المخطوطة من الورقة ١٣ ، وينتهي عند ورقة ٢٥٣ . أما ما قبل ذلك ، وما بعده ، من أوراق المجلد ، فيحتوى عبارات متنوعة ، ليس المتن علاقة ظاهرة بها ، على أنها مكتوبة بخط يشبه خط متن السلوك ، ما عدا الوارد في ص ١١ . ويوجد بتلك الصفحة الأولى رسم دائرة ، في نصفها الأعلى ، بخط نسخ كبير ، وقفية نصها : ” وقف سلطان أحمد خان بن غازى سلطان محمد خان “ ، وب نصفها الأسفل طغراء ، يرجع أنها لهذا السلطان العثماني ، الذي تولى من سنة ١٦٠٣ إلى ١٦٢٧ م . وعلى ص ١ ب فقرة في منشأ الخوارج ، وفي أصل عادة حلق الرؤوس عندم ؛ وتستغرق هذه إلى آخر ص ١٢ . وعلى الصفحة ٢ ب فذلكرة في أصل الجبابة ، تنتهى في منتصف الصفحة نفسها ، ويتلوها عبارة في أنساب بعض قبائل العرب ، التي سكنت حَوف مصر .

أما العبارات التي تلى آخر الجزء الأول ، فأولها تعلية في أنواع الطلاق ، تشغل ص ٢٥٣ ب ومنتصف ص ٢٥٤ ، ويتلوها قول في أصل القصيدة المشهورة ، التي مدح الفرزدق بها على بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وتبتدئ ص ٢٥٤ ب بقول آخر في أصل القصيدة المعروفة التي أنشأها ابن زريق البغدادي ، في زمن غربته بالأندلس ؛ ثم يتلو هذا القول ، إلى آخر الصفحة ، اقتباسات قصيرة من أقوال بعض المحدثين في أهمية الإسناد في الحديث ، ورأى في مدى ملكية المالك للسلام المملوك . وتبتدئ ص ٢٥٥ أ بفصل في الجرح والتعديل ، ويشغل هذا الفصل حذً ثلثي ص ٢٥٦ ب . وعلى بقية تلك الصفحة ، حتى ثلثي ص ٢٥٧ أ ، وهي الصفحة الأخيرة من المخطوط ، فصل في الترغيب في علم الأنساب ، يتلوه ذكر وفاة أبي عثمان إسماعيل الصابوني ، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، وإشارة إلى أحد الأئمة الشافعية ، لم أستطع أن أقرأ من اسمه سوى لفظي ” مهران الاسفراييني “ ، ويتلو ذلك كله حديث نبوي .

ليس ثمت شك في أن هذه النسخة من الجزء الأول هي الأصلية الأولى ، سطرها المقرئ لنفسه ، على قوله في صفحة العنوان ، وفي ” حَزْد “ المجلد (Colophon) (انظر ص ٣ ، سطر ٦ هنا ، وكذلك ص ٢٥٣ أ في س) . ونوجد عدا هذا شواهد داخلية عدة ،

للدلالة على أن المقرئ كتب هذا الجزء بيده ، وتتضح هذه الشواهد من وصف خواص ترتيب المتن .

أول تلك الخواص أن كثيراً من صفحات هذا الجزء مرقوش بهوامش إضافية ، مكتوبة أحيانا على جوانب الصفحات ، وأحيانا على ورقة منفصلة بين صفتين ، وفي المتن عادة إشارة بعلامة إلى المكان المناسب لهذا أو ذاك الهامش من المتن . وتلك الهوامش ، بحسب ارتباطها بالمتن ، على أربعة أنواع : إما فقرة متسقة مع المتن اتساقاً تاماً ، فهى عبارة عن سقطة كتابية ، تداركها المؤلف عند المراجعة ، فأثبتها حيث استطاع ، وأشار إلى موضعها المناسب من صلب المتن ، (انظر ص ٤ ، حاشية ١) ؛ أو عبارة من عبارات المتن مكتوبة بأسلوب آخر ، (انظر ص ٢٥٥ ، حاشية ١) ، أو إضافة لا اتساق لها مع عبارة المتن ، رغم علاقتها أحيانا بموضوعه ، وأمثال هذه لا شك زيادات عثر المؤلف عليها ، فيما بعد ، فأثبتها حيث أراد ، (انظر ص ٨ ، حاشية ٢ ؛ ص ٢٩ حاشية ٣ ؛ ص ٤٦ ، حاشية ٢ ؛ ص ٦١ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٥٥ ، حاشية ١) ؛ أو عبارة تفسيرية للفظ لغوى ، (انظر ص ٨ ، حاشية ١ ؛ ص ١٧ ، حاشية ٢) ؛ أو عبارة للتنبيه إلى ما فى المتن من مواضع ، وهذا النوع الأخير مكتوب بخط مخالف ، (انظر ص ٧٩ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٠٩ ، حاشية ٢ ؛ ص ٢١٧ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٢٤ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٤١ ، حاشية ٣)

تدل هذه الهوامش ، ما عدا النوع الرابع منها ، على أن المقرئ كتب هذه النسخة من الجزء الأول بيده ، ثم راجعها بنفسه ، فتدارك بالإثبات ما فاتته ، وأضاف من الزيادات ما رأى أن يضيف ، وسر من الألفاظ ما ظنَّ غريباً . غير أنه يلاحظ أحيانا خلاف طفيف بين خط المتن وخط تلك الهوامش ، وهذا يرجع أن المقرئ راجع الكتاب بعد مضي عدة سنين من تاريخ كتابته ، بعد أن اعتري خطه شيء من الضعف والهزّة .

ومن خواص س أيضاً طريقة الرسم الإملائي ، التى اتبعها المقرئ فى كل هذا الجزء ، إذ أهمل المزرات إهمالاً تاماً ، فسّهلها بالإبدال إلى ياء فى أواسط الكلمات ، وحذفها فى أواخرها ، وأمثال ذلك الطابع (الطائم) ، وساير (سائر) ، وهولا (هؤلاء) ، وعلا (علاء) ، وخلفا (خلفاء) . وفى هذا الجزء أيضاً دأب المقرئ على إحلال الدال موضع الذال ، مثل

دخاير (دخان)، وهدان (همدان)؛ وتهاون في النقط كثيراً، حتى أن بعض الألفاظ وارد بغير نقط البتة؛ ووقع في بعض أخطاء نحوية ولغوية؛ كما ضبط بعض الألفاظ ضبطاً خطأً، وقد أشرت إلى أمثال ذلك كله في الحواشي. (انظر ص ٤، حاشية ٢؛ ص ٧، حاشية ٥، ٨؛ ص ١٠، حاشية ٢؛ ص ١٦، حاشية ٢).

يلي س في القيمة العالمية، النسخة التي كتبت عام ٨٨٠ هـ، والوجود بمكتبة القامح، لأنها أقدم النسخ الخطية المعروفة، حتى الآن، وأقربها إلى زمن المقرئ والمقرئ الأصلية الأولى. ويلها ما كُتب بعدها، وهكذا. أما نسخة باريس (ب) فتأخره بالنسبة إلى غيرها من النسخ المعروفة، لأن الجزئين الأول والثاني منها بخط المدعو منصور الأزهري، وقد فرغ من كتابتهما في أول سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣١ م)، والجزئين الثالث والرابع بخط المدعو حسن العثماني، وقد فرغ من نسخها بمكة، في أواخر سنة ٩٣٩ هـ (١٥٣٣ م). (انظر فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية، ج ٥، ص ٢١٩)

تشبه ب مخطوطة س في وضوح الخط، وفي الرسم الإملائي أيضاً؛ من تسهيل المهمزات المتوسطة، وحذف المهمزات المتأخرة؛ كما تشبهها أيضاً في الاقتصاد في النقط، وفي الأخطاء النحوية واللغوية والواقع أنها نسخة طبق الأصل، لا تختلف عنه في الأسلوب أو العبارة أو ترتيب المحتويات، إلا ما نتج عن تصرف طفيف من الناسخ، أو سهو أو إهمال، أو تقصيره في قراءة بعض المواضع المزدحة، أثناء النقل. ومن أمثلة ذلك صفحة العنوان، إذ ليس في ب شيء مما هو وارد بتلك الصفحة في س، بل يوجد بدلها الفقرة الآتية: "الجزء الأول والثاني من السلوك لمعرفة دول الملوك للشيخ الإمام العلامة المهام الرحالة المقرئ رحمه الله تعالى وأعاد علينا من بركاته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم". ونمت خلاف آخر بين النسختين، في الصفحة الأولى، ففي ب بعد البسملة عبارة: "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، قل اللهم مالك الملك... .." (قارن هذا بالعبارة الافتتاحية في س). هذا ولمعرفة أنواع الخلاف الأخرى بين النسختين، انظر (ص ٢٨، حاشية ٣؛ ص ٣٩، حاشية ١، ص ٦١، حاشية ١؛ ص ٩٠، حاشية ٤، ص ٩٨، حاشية ٢، ص ١٧٨، حاشية ٢).

ويوجد بين النسختين خلاف من نوع آخر ، لا مساس له بجوهر المتن ، بل هو عرضي بحث : ذلك أن الهوامش التي في س عبارة عن سقطات كتابية ، قد تداركها القريري بالإثبات عند المراجعة ، أو إضافة عثر عليها فكتبها حيث يريد كما تقدم ، أدمجها كاتب نسخة ب — أو كاتب النسخة التي نقل منها — حيث تَجِبُ من المتن ، أو حيث مَظَنَّة الصواب ؛ ولم يخطئ إلا قليلا في هذا الجهد المحمود ، الذي جعل ب ذات أهمية . (انظر ص ٢٨ ، حاشية ٣ ؛ ص ٦١ ، حاشية ١ ؛ ص ٩٠ ، حاشية ١ — ٤ ؛ ص ٩٨ حاشية ٢ ؛ ص ١٧٨ ، حاشية ٢) . أما ما عدا ذلك من الهوامش الواردة في س ، كالحواشي التفسيرية التي كتبها القريري ، وكالإشارات والتنبيهات الواردة بخط مخالف ، فليست موجودة في ب مطلقا . على أن في ب هوامش من نوع آخر ، امتازت بها أيضا ، وهذه عبارة عن إشارات باللغة الفرنسية لسكبار أحداث الحروب الصليبية ، أو ترجمة إلى تلك اللغة لأسماء كبار الصليبيين ، قبالة ورود أسمائهم بالمتن . (انظر ص ٩٦ ، حاشية ٧) .



ليست الطبعة المعروضة اليوم ، أول محاولة لنشر كتاب السلوك ، فقد تناوبته مجهودات المستشرقين ، كل على قدر حاجته منه ، منذ أواسط القرن الثامن عشر ، أي قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بجمل تقريبا . وأول المبكرين إلى هذا هو (Cardonne) ، إذ نشر منه في سنة ١٧٦١ م ، شذرات باللغة العربية ، في ذيل كتاب تاريخ حياة لويس التاسع ملك فرنسا (Joinville: Vie de St, Louis; ed. Cardonne. Paris, 1761) ، كما نشر منه فقرات أخرى سنة ١٨٢٤ ، ضمن مختارات عربية ، متعلقة بتاريخ فرنسا ، تحت عنوان (Petitots: Extraits de Mss. Arabes) ، في المجموعة الفرنسية المسماة (Collection des Mémoires ; Vol III, Paris 1824). بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة ، أتم المستشرق (Quatremère) ترجمة فرنسية في جزئين ، لشطر كبير من كتاب السلوك ، أوله سنة ١٨٤٨ هـ ، وآخره سنة ١٢٧٠ هـ ، تحت عنوان (Quatremère; Histoire des Sultans Mamlouks etc, Paris, 1837-1845)

وكان اعتماده في الترجمة على مخطوطة باريسية ، كانت في أيامه بمكتبة الملك (Bibliothèque du Roi) ، تحت أرقام ٦٧٢-٦٧٤ ؛ فبدأ ترجمته من ص ١١٥ منها ، وانتهى عند ص ٣١٥^(١) . ثم انتقلت تلك المخطوطة إلى (Bibliothèque Nationale) ، وصارت أرقامها ١٧٢٦ - ١٧٢٨ ؛ ومنها ترجم (Blochet) ، في سنة ١٩٠٨ ، ما فاتته (Quatremère) من الجزء الأول ، وسمى ترجمته (Blochet : Histoire d'Egypte de Makrizi) ، ونشرها في (Revue de L'Orient Latin, Tomes VI, VII-XI) وهذه المخطوطة ، التي كانت عماد الترجمتين الفرنسيتين ، ليست سوى ب هنا ، والتي أشرتُ إلى مبلغ استعانتى بها في المقالة والمقارنة^(٢) .

أما محاولتي التي تخرج باكورتها في الصحائف التالية ، فهي أول محاولة لإخراج الكتاب كاملاً ، بلغته التي كُتِبَ بها . وقد اعتمدت على مخطوطة من اعتناده كلياً ، واستعنت بنسخة ب . واسترشدت بترجمة (Blochet) . على أني تناولت تلك الترجمة ببعض النقد ، (انظر ص ٨٠ ، حاشية ٥ ؛ ص ٩٤ ، حاشية ١ ؛ ص ١١٢ ، حاشية ١ ؛ ص ١٣٥ ، حاشية ٤ ، ٥ ؛ ص ١٣٧ ، حاشية ١ ، ٢ ؛ ص ٢١٧ ، حاشية ٢) ، ونَبَّهت إلى عدد قليل من أخطائها ، التي كان منشؤها اعتماد المترجم على نسخة ب فقط ، (انظر Blochet : Op. cit. Introd. P. 53) وقصدتُ بذلك إبراز قيمة مخطوطة س ، لا التيل من نتيجة مجهود محمود ، فضله مشهود به هنا ، في كثير من الحواشي . (انظر ص ١٠ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٤ ، حاشية ٦ ؛ ص ٣٦ ، حاشية ٦ ؛ ص ٤٦ ، حاشية ١ ؛ ص ٥٠ ، حاشية ٣ ، ٨ ؛ ص ٦٠ ، حاشية ١ ؛ وغيرها) .

(١) يوافق بدء ترجمة (Quatremère) ص ٩٦ من مخطوطة س ، وينتهي في أوائل الجزء الثاني منها . والسبب الذي حثنا به إلى ذلك البدء ، واستبعاد الصفحات الأولى من السلوك ، وهي القسم الخامس بدولة الأيوبيين في مصر ، أنه كان قد فكر في مجموعة فرنسية مستقلة ، اسمها (Collection des Historiens des Croisades) ، كان المزمع قودا على إخراجها ، ولم ينجح المشروع . راجع (Quatremère : Op. cit. T. I, I Pref. P. XVIII) .

(٢) توجد أيضاً قطعة صغيرة من كتاب السلوك ، منشورة في الجزء الثاني من كتاب تاريخ عمارة اليمن ، (Derenbourg : Oumara du Yemen. Paris, 1897-1902 Tome II. PP. 650-652) . تحت عنوان "نبذة من السلوك" . (انظر ص ٥٣ ، سطر ١٠ — ص ٥٤ ، سطر ١١) .

وقد بدأت العمل بنسخ المتن المعد للطبع من ب ، وقابلته عليها ، تمهيدا لمقابلته على نسخة الأستانة . وكان اعتقادي أن النسختين ذاتا قيمة متكافئة ، بل ظننت أن نسخة باريس أهم من الأخرى ، لأن معظمها قد ترجم إلى الفرنسية ، فأصبحت ذات قيمة معروفة ، ونصها محترم . فلما رأيت بعد ذلك أن مخطوطة الأستانة بقلم المقریزی ، تضاءلت أمامها نسخة باريس ، وصارت فرعا ، ومخطوطة س أصلا .

ولم يكن البدء على هذا النحو المعكوس مضيعة لوقتي ، فإني استفدت من ب استفادة واسعة ، (انظر صحيفة و) ، واستطعت أن أدرك أوجه الشبه والخلاف بين المخطوطتين . غير أني لم أدأب على إثبات نتيجة المقابلة في الحواشي ، لأن أهمية س طغت على كل الاعتبار ، ولأنني توخيت ألا أحمل كعوب صفحات المتن أكثر من اللازم .

كتب المقریزی كتابه على نظام الحواشي ، الشائع في مؤلفات المؤرخين الشرقيين في القرون الوسطى ، فسرّد تاريخ كل سنة على حدته ، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى أبدا ، ولم يستوقف القارىء في وسط السنين إلا عند حدوث عهد جديد . وقد سار المقریزی على هذا النحو فبدأ كل سنة في سطر جديد ، وعنونها بخط أكبر من خط المتن ، وبمداد أحمر ؛ وفعل مثل ذلك عند بدء عهد سلطان جديد . وللتوفيق بين هذا النظام ومقتضيات الطبع الحديث أقيمتُ عناوين السنين في مواضعها ، في أول سطر دائماً ، وبحروف أكبر قليلا من حروف المتن ؛ ووضعتُ أوائل أسماء السلاطين في وسط السطر ، بحروف كبيرة أيضا . (انظر ص ٤١ ، حاشية ٦) .

وقد أخذت حريتي في نقط الألفاظ ، وفي الترقيم والتقسيم ؛ كما فعلت ذلك أيضا في الأخطاء الإملائية البهتة ، فأنبعت الرسم الإملائي الحديث . ولو كنت عمدت إلى الإشارة إلى جميع مواضع النقطة الناقصة ، أو الغلطات الإملائية الشائعة ، لمألت أضعاف المساحات التي شغلها الهوامش . على أني نهيت دائما ، عند الحاجة ، إلى الألفاظ التي نغطتها من عندي ، وعلى مسئوليتي . ولما كان المقریزی قد ضبط بعض ألفاظ المتن دأبت على إثبات

ضبطه دائماً حيث كان ، بغير تنبيه إليه في الحواشى ، إلاّ إذا كان هناك ما يقتضى ذلك ، أو كان الضبط خطأ ، فقد أصلحته ، ونهت إلى أصله . على أنه كثيراً ما استلزم المن ضبط كلمات أخرى ، لزيادة التوضيح . (انظر ص ٢٤ ، حاشية ٢) .

والآن ، وقد بينت في هذا التصدير المختصر معالم الترتيب الذى سرت عليه ، فواجب أن أشكر لكل من عاوننى ، بالمساعدة أو بالتشجيع ، في إخراج هذا القسم الأول من كتاب السلوك . وأبدأ بالذكر "لجنة التأليف والترجمة والنشر" وهيئتها الفنية ، لتكليف القيام بنشره ، وإعطائى الحرية في كيفية طبعه وتنظيمه ، وتواصيها بالصبر إزاء البطء الذى تطلبه نوع العمل . وأشكر أيضاً الأستاذ أحمد أمين ، الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، ورئيس "لجنة التأليف والترجمة والنشر" ، لما رمقنى به من عنايته المستمرة ، إذا قرأ جميع صفحات القسم الأول ، قبل اعتمادها نهائياً للطبع ، وعدائى باقتراحاته ، سرّة إلى مراجعة عبارة بالمتن ، وصرات لتعديل بعض الحواشى . وقد كان من حسن حظى أيضاً أن طلبتُ إلى صديقى وزميلى أحمد الشايب ، أن يعاوننى في أدوار المقارنة والمقابلة ، فقرأ معى النسخة التى أعدتها للطبع ، على نسخة باريس ، وعلى ثلثى مخطوطة الاستانة ، فأسديه شكرى ، كما أسديه إلى صديقى محمد نديم ، ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية ، فقد حرص على طبع الكتاب طبعة دقيقة . ولست أعدد تلك المساعدات توزيعاً للمسئولية النهائية على أكتاف غيرى ، بل اعترافاً بالجميل لمن قدّموها إلىّ ، فإن تلك المساعدات سهلت علىّ العمل في مختلف أدواره ، وجنّبتنى بعض الزلل . وإنى أتقدم إلى كل الذين ذكرت ، وإلى غيرهم أيضاً ، من شجعونى على المضى في العمل ، بوافر الشكر والثناء ، كما أرسل شكرى مقدماً إلى كل من بطلع على هذا القسم ، ويدلّنى على ما عساه قد وقع من خطأ ، أو على ما يقترح من إصلاح يساعدننى في إخراج الأقسام التالية .

محمد مصطفى زباد

مصر الجديدة في أوّل المحرم سنة ١٣٥٣
١٤ أبريل سنة ١٩٣٤

المراجع المذكورة في حواشى القسم الأول

مراجع عربية

- ابن الأثير (عز الدين أبى الحسين على المعروف بابن الأثير) : كتاب الكامل فى التاريخ ، ١٤ جزءا . طبعة ليدن . (Edidit Tornberg. Lugduni Batavorum. Brill, 1863).
- ابن تفرى برّدى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة جامعة كاليفورنيا^(١) . (Edited by Popper. Vols II, III, V, VI, VII; University of California Publications in Semitic Philology, 1909-1929).
- ابن حوّل (أبو القاسم) : كتاب المسالك والممالك . طبعة ليدن . (Bibliotheca Geographorum Arabicorum, edidit De Geojc. pars secunda. Lugduni Batavorum, Brill. 1873).
- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس محمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان . طبعة جوتنجن . (Edidit Wüstsnefeld, Gottingae, Deuerlich, 1835-1840).
- لهذه المؤلف ترجمة إلى الإنجليزية . انظر ثبت المراجع الأوربية ، تحت اسم (De Slane) .
- ابن شاهين (غرس الدين خليل الظاهرى) : كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك . طبعة باريس . (Ed. Ravaisse, Imprimerie Nationale Paris, 1094).
- ابن شدّاد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . طبعة باريس . (Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III, Imprimerie Nationale. Paris, 1884)
- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ثمانية أجزاء . (مكتبة القدسى ، بحوار الأزهر ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ) .

(١) أتمت جامعة كاليفورنيا نشر هذا الكتاب ، بفضل جهود الدكتور وليم لوبر ، كما أتمت دار الكتب المصرية الجزء الحادى عشر من طبعتها لهذا الكتاب .

سراج مع عربية (ف)

ابن مسكويه (أبو علي أحمد المعروف بمسكويه) : القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم ،
سبعة أجزاء . طبعة أكسفورد .

(Arabic text, edited by Amedroz, vols I-III; English translation, vols
IV-VII, Margoliouth. Oxford, Basil Blackwell, 1920-1921).

ابن النديم (أبو الفرج محمد) : كتاب الفهرست . طبعة ليبزج .
(Mit anmerkungen herausgegeben von Gustav Flügel, Leipzig, Vogel, 1872).
أبو الفداء (الملك المؤيد إسماعيل) : منتخبات من المختصر في أخبار البشر . طبعة باريس .

(Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux, Tome I.
Imprimerie Nationale, Paris, 1872).

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن) : منتخبات من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
النورية والصلاحية . طبعة باريس .

(Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux,
Tome III, Imprimerie Nationale. Paris, 1884).

أمين (أحمد): نحي الإسلام ، الجزء الأول . (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٣٣).
الأنصاري (زكريا) : شرح المنهج ، جزءان . (المطبعة الميمنية ، قرب الأزهر . القاهرة
سنة ١٣٠٥ هـ) .

البيروني (أبو الريحان محمد) : كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة ليبزج ،
(Ed. Ravaisse, Imprimerie Nationale, Paris, 1894).

هذا المؤلف مترجم أيضاً إلى اللغة الإنجليزية . انظر ثبت المراجع الأوربية ، تحت
اسم (Sachau) .

حسن (حسن إبراهيم) : الفاطميون في مصر . (المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٣٢) .
الخزرجي (علي بن الحسن) : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية . طبعة لندن .

‡E. W. J. Gibb Mem. Series, Vol. III. Parts I-V, Brill, Leiden, 1906-1918)

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد) : مفاتيح العلوم . (مطبعة الشرق ، بحوار الأزهر . القاهرة ،
١٣٤٢ هـ) .

- الزركشى (عبد الله محمد) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . (تونس ، ١٢٨٩ هـ) .
- السخاوى (محمد شمس الدين) : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . (مخطوطة دار الكتب المصرية ، ١٨ جزءاً ، رقم : تاريخ ٦٧٥) .
- الطبرى (أبو جعفر محمد) : تاريخ الرسول والملوك . طبعة ايدن .
- (Cum aliis Edidit De Geoe, Lugduni Batavorum, Brill, 1991).
- العينى (بدر الدين محمود) : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوطة دار الكتب المصرية ، ٢٣ جزءاً ، فى ٦٩ مجلداً ، رقم : تاريخ ١٥٨٤) .
- القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صيغ الأعيان فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً . دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩) .
- مبارك (على باشا) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءاً ، فى أربع مجلدات . (المطبعة الأميرية ، بولاق ، ١٣٠٦ هـ) .
- المسعودى (أبو الحسن على) : كتاب التنبية والإشراف . طبعة ايدن .
- (Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Edidit De Geoe, Pars octava, Lugduni Batavorum, Brill, 1894).
- المسعودى (أبو الحسن على) : كتاب مروج الذهب ، تسعة أجزاء . طبعة باريس .
- (Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tomes IV-V, Imprimerie Nationale, Paris, 1898-1906).
- (Herausgegeben von Sachau, Harrassowitz, Leipzig, 1923).
- المقرئى (أحمد بن على) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار ، جزءان . (دار الطباعة المصرية ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ) .
- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله) : ٦ أجزاء ، كتاب معجم البلدان . طبعة ليبزج .
- (Herausgegeben Ferdinand Fūstenfeld, Leibzig, Brockhaus, 1856).

(ف)

مراجع أوربية

- Allen (W. E. D.) : A history of the Georgian People. (Kegan Paul, London 1932).
- Bloch (E.) : Histoire d'Égypte de Makrizi. (Leroux, Paris, 1908). (Extrait de la Revue de L'Orient. Tmes VI, VII - XI).
- Brown (E. G.) : An Abridged Translation of the History of Tabaristân. Compiled by Ibn Isfandiyyar; translated by Browne. (E.W J. Gibb Mem. Series. Vol. II. Leyden, Brill, 1905).
- Butcher (Ers E.L.) : The story of the Church of Egypt, 2 vols. (Smith Elder, London, 1897).
- Cambridge Medieval History : (Camb* Med. Hist.).
- Derenbourg (H.) : Odmara du Yémen . . . 2 vols. Leroux, Paris 1897-1902). (Publications de L'École des Langues Orientales vivantes IV^{me} Serie, vol X).
- DE SLaron (Baron Mac Guérin : Ibn Khallikann's, Biographical Dictionary. Translated from the Arabic, 4 Vols. (Oriental Translation Fund. Paris 1842-1871).
- Dozy (R.) : Supplément Aux Dictionnaires Arabes. (Dozy* : Supp. Dict. Ar.). Encyclopaedia of Islam : (Enc*. Isl.).
- O.—Demobyne : La Syrie à l'Époque des Mamlouk. (Geuthner, Paris, 1922).
- Gibb (H. A R.). The Damascus Chronicle of the Crusades. Luyac, London, 1932).
- Hitti (Ph. K.) : Memoirs of Usâmah Ibn Munkidh. (Columbia University Press, New York, 1929).
- Hogarth (D.O.) : A history of Arabia. Clarendon Press, Oxford, 1922).
- King (E.J.) : The Knights Hospitallers in the Holy Land. (Methuen, London, 1931).
- Lamb (Harold) : Genghis Khan. (Thornton Butterworth, London, 1928).

(*) The astericks denote the abbreviated form, in which the authority is cited in the note.

- Lane-Poole (S.) : A History of Egypt in the Middle Ages. (Methuen, London, 1914).
- Lane-Poole (S.) : The story of Cairo. (Dent, London, 1924).
- " : Muhammadan Dynasties. (Geuthner, Paris, 1925).
- " : Saladin. Pntnam, London 1926).
- Le Strange (G.) : Palestine Under The Moslems. (Watt, London, 1890).
- Morier (J.) : The Adventures of Hajji Baba of Isphahan.
(Humphrey Miford, Oxford, 1924, 1925).
- Price (A. P.) : Holbyn's Dictionary of Medical Terms. (Bell, London, 1899).
- Quatremère (E.) : Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte. 2 vols.
(Paris, 1837-1845).
- Rappoport (A.S.) : History of Palestine. (Allen & Unwin, London, 1931)
- Recueil Des Historiens Des Croisades : Historiens Orientaux. Tomes I-V. (Rec* Hist. Or.). Paris, Imprimere Nationale 1872-1906).
- Sachau (E.) : The Chrology of Ancient Nations, . . . of Albîrûnî.
Allen, 1879. (Oriental Translation Fund).
- Scott. Sir. W.) : The Talisman. Nelson, London).
- Stevenson (W. B.) : The Crusaders in the East (University Press, Cambridge, 1907).
- Toussoun (Le Prince Omar) : Mémoire sur les Anciennes Branches Du Nil. Époque Arabe. (Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte Tome 4^{me}. 2^{me} F. Le Carie, 1923)
- Toussonn (Le Prince Omar) : La Géographie de l'Égypte à l'Époque Arabe. Tome 1^{re}. 1—2. parties (Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte. Tome, VIII, 1^{re} 2^{me} parties, Le Caire, 1926, 1928).
- Ziada (M. Mustafa) : The Mamluk Conquest of Cyprus in the Fifteenth Century. (Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt, Vol. I. Part I. pp. 90-113).

السلوك لمعرفة دول الملوك

—

(محتويات الصورة الشمسية المواجهة وهي صفحة العنوان كما في نسخة الأستانة)

(١٣) الجزء الأول

من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جَمْعُ فقيرِ عفو الله أحمد بن علي بن عبد القادر
ابن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بن عبد الصمد بن تميم ،
الشهير جده بالمقر يزي الشافعي ، غفر الله له وتغمد زلله بمنه :

سطره لنفسه * فائله وجامعه

فليعف عن زلاته * ناقله وسامعه

لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا ألك إلى قبض عوض عن جميل
أوليته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هي العليا ، وأعاذك من عز مفقود وعيش
مجهود ، وأحيك ما كانت الحياة أجل بك ، وتوفأك إذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر
مديد وسمو بعيد ، وختم بالحسنى عملك ، وبلغك في الأولى أملك ، وسدد فيها مضطر بك ،
وأحسن في الأخرى منقلبك ، إنه سميع قريب جواد مجيب .

والأكراد ينسبون إلى كُرد^(١) بن مُرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن
هوازن . وقيل هم من ولد^(٢) عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء . وقيل لأنهم من بني حميد

(١) هذا الاسم غير واضح كله في س ، ولكن المراجع العربية تبتدىء بأباء الأكراد به . قال ابن حوقل
في المسالك والممالك ، ص ١٨٧ : "لأنهم من كرد بن عمرو بن عامر" بدون ضبط . أما السعدي في مروج
الذهب ج ٣ ، ص ٢٥٠ فقد نسبهم إلى "كرد بن مرد (كذا) بن صعصعة بن هوازن" ، ونسبهم في
كتابه التنبيه والإشراف ، ص ٨٩ ، إلى كرد بن مرد بن صعصعة بن حرب بن هوازن . وكل هذه الأسباب محاولات
من الأكراد للاتصال بالنسب العربي ، ولكن الثابت أنهم من الجنس الإيراني (راجع Enc. Isl. Art. Kurds) .
ولا يشار إلى المراجع هنا بأكثر من هذا ؛ أما مكان الطبع وزمانه ، وتعيين المخطوطات ، وسائر المعلومات
الأخرى ، فهي واردة في قائمة المراجع المذكورة في المقدمة .

(٢) انظر حاشية رقم (١) في الصفحة التالية .

ابن طارق الراجح إلى حميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب^(١) وهم قبائل : ومنهم الكُورَانِيَّةُ^(٢) بنو كُورَان ، والهُذْبَانِيَّة ، والبَشَنَوِيَّة ، والشَاهَنْجَانِيَّة ، والسَّرْجِيَّة ، واليَزُودِيَّة ، والمِهْرَانِيَّة ، والزُرْزَارِيَّة ، والكيكَايَّة ، والجَلَّك ، واللر ، والدَنْبَلِيَّة ، والروَادِيَّة ، والدَيْسَنِيَّة ، والمُكَارِيَّة ، والحَمِيدِيَّة ، والوَرِكِيَّة ، والمروَانِيَّة ، والجَلَالِيَّة ، والشَنْبَكِيَّة ، والجُوبِي . وتزعم الرواية أنها من بنى مروان بن الحكم بن أبي العاص ؛ وتزعم بعض المكارية أنهم من ولد عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب . وأحياء الأكراد تكثر عن الإحصاء ، غير أنهم بجميع أحيائهم كانوا مقيمين بفارس ، فكانوا يزيدون على خمسمائة ألف بيت شعر ، يخرج من البيت الواحد نحو العشرين ، وكانوا ينتجعون المراعى فى الشتاء والصيف ، وبحال كوران ..^(٣) .

(بقية محتويات صفحة العنوان^(٤))

(أولا) العُمَرِيَّين (كذا) ، بمصر وأعمالها ، ينتسبون إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(١) العبارة البتدئة بلفظ "عمرو" فى الصفحة السابقة ، والنتيجة بكلمة "كلاب" هنا ، موجودة بهامش صفحة العنوان . وسبب ذلك سقطة كتابية من المؤلف ، تداركها هو بخطه عند مراجعة الكتاب ، وأشار إليها بعلامة بين سطور المتن للدلالة على مكانها المناسب لها . ونسخة س مملوءة بأشياء هذا الهامش ؛ فكان منها نتيجة سقطات الكتابة ، ومتسقا مع عبارة المتن أدرج فيه ، وما كان منها تفسيراً أو شرحاً لعبارة المتن ، أو كان غير متسق تماماً معه ، وضع فى حاشية فى آخر الصفحة بنصه .

(٢) معظم هذه الأسماء واردة فى المراجع الثلاثة المشار إليها فى حاشية رقم ١ ، س ١ ؛ وقد اكتفى هنا بضبط البعض الذى عنى المقرئ بضبطه . وسيجافى دائماً على ضبط المؤلف بغير تنبيه ، إلا إذا كان هناك ما يقتضى ضبطه ذلك ، أو كان خطأً فيه إليه بعد إصلاحه . على أنه كثيراً ما يحتاج المتن إلى ضبط كلمات أخرى لزيادة التوضيح . انظر أيضاً المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، س ٢٣٢ — ٢٣٣ ، حيث بعض هذه الأسماء واردة برسم مخالف . (٣) يلى هذا هامش تمدت قراءته ، وهو بالزاوية الجنوبية اليسرى من الصفحة . والمقابلة بين ما كتب المقرئى هنا فى الأكراد وبين ما جاء فى المسالك والممالك لابن حوقل ، س ١٨٦ ، يحمل على الاعتقاد بأن صاحب السلوك نقل بتصريف من ابن حوقل ، أو أنها معا نقل من مرجع واحد . وهذا ما ورد فى المسالك والممالك بعد ذكر فروع الأكراد : — "وزيدون خمسمائة ألف بيت ، ويخرج من الحى الواحد ألف فارس ، وأقل من ذلك وأكثر ، ينتجعون فى الشتاء والصيف المراعى ، إلا القليل منهم على حدود الصرود ... " .

(٤) بقية محتويات صفحة العنوان هذه هوامش مبعثرة فى نواحيها بلا ترتيب ، وليس بينها وبين ما هو وارد فى متن الصفحة اتساق أو ارتباط . وأحداهما تاريخى ، والباقي يظهر أنه دليل على من ملك الكتاب أو حازه أو اطلع عليه ، وقد أثبتت كلها فى الصلب تحت نظام عددى يحتمل (انظر الصورة الشمسية) . وفى س هوامش عدة بغير خط المؤلف سببه إليها دأما ، أما الهوامش الواردة بخطه فليست بحاجة إلى هذه الإشارة .

قال الشريف النسابة محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب الجواهر المسكون فى القبائل والبطون :
 ” وهم يكذبون فى ذلك لأن أنسابهم لا تتصل به ، وقد لقيت منهم جماعة وعرفتهم كذبهم
 بطرائق علمية وغيرها ، وعلى قدر اتساع الأوقات “ . [و] قال : ” وأمر هؤلاء المنتمين
 إلى ولد عبد الله بن عمر يحتاج إلى دليل ، وإلا فهو قول من الأقاويل الداخلة فى الأباجيل (١)
 (ثانياً) الحمد لله ، وبه أكتفى من عوادي الدهر فى نوبه ، أقل عبيد الله تعالى محمد
 ابن أحمد بن إينال العلاني الدوادار الحنفى ، عامله ربه بحفى (٢) لطفه الجلى والحنفى (٣) .

(ثالثاً) بليتُ بحظ ما ارتفع إلا اتضع ، ولا قام إلا خرت سريعاً ووقع ، ولا استوى
 إلا التوى ، [ولا ارتفع إلا] انحط و [هوى] ، ولا [تيسر] إلا تعذر ، ولا تنبه إلا وعن
 قليل رقد ، ولا نشط إلا تحبط وهبط (٤) :

لعمرك ما عدمت لواء مجد * ولا كَلَّ الجوادُ عن السباق

ولكنى بليتُ بحظ سوء * كما تبلى المليحة بالطلاق

(رابعاً) ملكه محمد المقرئى (٥) .

(خامساً) قنيد شد فى سنة ١١٣٨ (٦) [هـ] .

(١) هذا هو الهامش التاريخى وهو وارد فى الجهة اليمنى الجنوبية ، ونقطة العينين واردة هكذا منصوبة ومشكلة .

(٢) س مخفى .

(٣) عبارة هذا الهامش مكتوبة بخط محالف . أما محمد بن أحمد بن إينال العلاني الأصل القاهري الحنفى ،
 والمولود سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) ، فهو أحد أبناء الماليك الذين جمعوا بين ولاية المناصب والاشتغال بالعلم .
 تولى وظيفة الدوادار للأمير برسباى قرا رأس نوبة الوب فى عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى . وكان شديد
 العناية بقراءة النمايس من كتب العلم والتاريخ ؛ ومطالعته كتاب السلوك ، أو امتلاكه إياه وهو الأرجح ، دليل
 واضح على هذا . (السجوى : الضوء اللامع : المجلد الثانى ، القسم الأول ، ص ٧ ؛ والمجلد الثالث ، القسم الثانى ،
 ص ٣٩٨ ؛ ابن لياس : بدائع الزهور ، ح ٢ ص ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨) .

(٤) اعتري بعض ألفاظ هذا الهامش ما عاها ، وقد وضعت الألفاظ التى بين الأقواس المربعة على سبيل الترجيح .

(٥) هذه الجملة مكتوبة بخط مخالف . ومحمد هذا هو ابن أخى المؤلف (راجع ابن تقيى بردى : النجوم
 الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٨) .

(٦) عبارة تركية معناها صار تقييده فى السنة المذكورة ، ومى بخط مخالف .

(سادساً) الحمد لله على نعمه ؛ أنْهَاءُ و [كذلك ما بعده ؟] مطالعةً ، داعياً لمؤلفه بالرحمة والرضوان ، ولمالكه بالسيادة وطول العِزِّ ، محمد المدعو عمر بن فهد الهاشمي ، إلى [رابعه] سنة ٨٤٦^(١) .

(١) ما بين الأقواس يباين تقريباً في الأصل ، على أنه يوجد في آخر القسم الثالث من الجزء الرابع من الضوء اللامع للسخاوي ما يشبه هذه العبارة في أسلوبها . أما محمد بن فهد الهاشمي المشهور بعمر ؛ والمذكور في الضوء اللامع في حرف العين ، فهو سليل أسرة مكية محيدة ، توارثت الاشتغال بعلم الحديث . ولد عمر هذا بمكة في سلخ جادى الثانية سنة ٧١٢ هـ (٨ نوفمبر سنة ١٤٠٩ م) وتوفي بها في ٧ رمضان سنة ٨٨٥ هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٤٨٠ م) . على أنه تنقل في مدن مصر والشام واليمن والحجاز غير حرة ، مشغلاً بالحديث والتراجم . وقد روى عنه المقرئ في فضل البيت الحرام . أما عن سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) المدونة آخر هذه العبارة ، فإن ابن فهد كان فيها مقبلاً بمكة حسبما جاء في الضوء اللامع ، ولم يأت إلى القاهرة حتى سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) . ولما كان من المقرر أن المقرئ أقام بمكة حتى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) فقط ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٤٥ هـ فليس يبعد أن كتاب السلوك حل إلى مكة بعد ما ملكه محمد المقرئ ابن أخى المؤلف (السخاوي : الضوء اللامع ، المجلد الثالث ، القسم الثانى ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦) .

(٣ ب) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ^(١) الله المستعان

(قل اللهم ، مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ^(٢) ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . توبخ الليل في النهار ، وتوبخ النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب) . فسبحان الله من إله حكيم قادر ، ومليك مقتدر قاهر ، يعطي العاجز الحقير ، ويمنع البطل الأيّد الكبير ، ويرفع الخامل الذليل ، ويضع ذا العز النعيع والمجد الأثيل ، ويعز المحقر الطريد الجفوة الشريد ، ويذل أولى الحدّ الحديد ^(٣) ، والعدّ والعديد ، وأرباب الألوّة والبنود ، ومالكى أزمّة العساكر والجنود ؛ ويؤتي ملكه من لم يكن شيئاً مذكوراً ، ولا عرف له أباً نبياً وجداً مشهوراً ، بل نشأ كلاً على مولاه وخادماً لسواه ، تجبّه وتشتؤه الناس ، ولا يرعاه سائر الأجناس ، لا يقدر على نفع نفسه فضلاً عن الغير ، ولا يستطيع دفع ما ينزل به من مساة وضير ، مجزاً وشقاء وخملاً واختفاء ؛ وينزع نعت ^(٤) الملك ممن تهابه أسد الشرى في غيلها ، وتخضع لجلالته عتاة الأبطال يقظاً وقطيظاً ^(٥) ، وتخضع لخزوانة ^(٦) سلطانه حماة الكماة بجمعها وجميعها ، وتذل لسطوته ملوك الجبابرة وأفيالها ، ويأتمر بأوامره ^(٧) العساكر الكثيرة العدد ، ويقتدى بعوائده الخلائق مدى الأبد . والحمد لله على حالتي منعه وعطائه ، وابتلائه وبلائه ، وسرائه وضرائه ، ونعمه وبأسائه ، أهل الشناء ^(٨) والمجد ، ومستحق الشكر والمجد ، (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) (بيده ملكوت كل شيء

(١) لا توجد هذه الجملة بعد البسملة في ب (ص ٢ ب) ؛ وإنما يوجد بدلها "وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" . (راجع التصدير) . (٢) في س "تؤتي الملك من تشاء" بدون همز (راجع تصدير الطبعة الأولى) . (٣) الحد هنا البأس ، والحديد الشديد . (٤) هذه الكلمة فائضة في س ، وليس لها وجود في ب (ص ٢ ب) . (٥) كذا في س ، ب (ص ٢ ب) . والوارد في معاجم اللغة قضاها وقضيضها بالضاد ، والقض الحصى الصغار والتضيض الكبار ، والمضى أنهم يخضعون جميعاً . (٦) في س لخزوانة . وليس لهذا اللفظ بالخاء وجود في المعاجم ، أما الخزوانة بالخاء فمناها الكبير كما في المحيط في مادة خنز . (٧) في س مأموره . (٨) في س البنا .

وإليه ترجعون) ؛ ولا إله إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي (لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) ؛ والله أكبر (لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) ، ولا تدرك من عظمتها العقول إلا ما أخبر به عنه الرسل والأنبياء . وصلى الله على نبينا محمد الذي أذهب به دول أهل الشرك من الأكاسرة ، وبما بشريعته عظماء الروم القياصرة ، وأزال بملكه الأصنام والأوثان ، وأخذ بظهوره بيوت النيران ، وجمع له أسود العرب وقد كانت في جزيرتها متفرقة ، ولم يبركته شعنها بعد ما غبرت زماناً وهي متمزقة ، (١٤) وألف قلوبها على موالاته وطاعته ، وحُبب إليها المبادرة إلى مبايعته على الموت ومتابعته ، فتواصلوا بعد القطيعة والتدابير ، وتحابوا في الله كأن لم ينشأوا على البغضاء والتنافر ، حتى صاروا باتباع ملته ، والاعتداء بشريعته ، من رعاية الشاه والبعير ، إلى سياسة الجمل الفقير^(١) ، وبعد اعتقاد سنّام الناقة والقعود ، وملازمة بيت الشعر والعمود ، وأكل القيصوم والشيخ ، ونزول القفر الفسيح ، إلى ارتقاء المنابر والسرير ، وتوسد الأرائك على الحرير ، وارتباط المسومة الجياد ، واقتناء مالا يحصى من الخدم والعقّاد ، بما فتح الله عليهم من غنائم ملوك الأرض ، الذين أخذهم بالقوة والقهر ، وحووا ممالكهم بتأييد الله لهم والنصر ، وأورثوها أبناءهم وأبناء أبنائهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم . فلما خالفوا ما جاءهم به رسولهم من الهدى ، وأحطهم الزبانيا الجبيحة والردى ، وسلط عليهم من رِعاغ الغوغاء وآحاد الدهماء من ألحقهم بعد الملك والهلك ، وحطّهم بعد الرفعة ، وأذلّهم بعد المنعة ، وصيّروهم من رتب الملوك إلى حالة العبد المملوك ، جزاء بما اجتروحوا من السيئات ، واقترفوا من الكبائر الموبقات ، واستحلوا من الحرمات ، واستهواهم به الشيطان من اتباع الشهوات ، وليعتبر أولو البصائر والأفهام ، ويخشى أهل النهى مواقع نِقَم الله العزيز ذي الانتقام ، لا إله إلا هو سبحانه^(٢) .

(١) في هامش س العبارة التفسيرية الآتية : ” الجمل الفقير الجماعة ، أى ساسوا الناس جميعا “ .

(٢) في هامش س العبارة الآتية : ” روى وكيع عن كامل أبي العلاء عن حبيب بن ثابت عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعشر قريش ، إن هذا الأمر لا يزال فيكم حتى تحدثوا أعمالا تخرجكم منه ، فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه ، فالحكم كما يلتمس القضيبي » “ .

أما بعد ، فإنه لما يسر الله وله الحمد ، بإكمال كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة القسطنطينية^(١) ، وكتاب اتعاظ الخلفاء بأخبار الخلفاء^(٢) ، وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء ، وما كان في أيامهم من الحوادث والأنباء ، منذ فتحت وإلى أن زالت الدولة الفاطمية وانقرضت ، أحببت أن أصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدم من الملوك الأكراد الأيوبيين ، والسلطين المماليك التركية والجركية ، في كتاب يحصر أخبارهم الشائعة ، ويستقصى أعلامهم الذائعة ، ويحوى أكثر ما في أيامهم من الحوادث والمجريات ، غير معتنٍ فيه بالتراجم والوقيات ، لأننى أفردت لها تأليفاً بديع المثال بعيد المثال^(٣) ، فألفت هذا الديوان ، وسلكت فيه التوسط بين الإكثار المِل والاختصار الخُل ، وسميته كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . وبالله أستعين فهو المعين ، وبه أعتضد فيما أريد وأعتد ، فإنه حسبي ونعم الوكيل .

(ب) ذكر ما كان عليه الكافة قبل قيام ملة الإسلام

اعلم أن الناس كانوا بأجمعهم ، قبل مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ما بين عربى ومجمى ، سبع أمم كبارهم : الصين وهم في جنوب مشرق الأرض ، والهند وهم في وسط جنوب الأرض ، والسودان وهم جنوب مغرب الأرض ، والبربر وهم شمال مغرب الأرض ، والروم وهم في وسط شمال الأرض ، والترك وهم في شمال مشرق الأرض ، والفرس وهم في وسط

(١) ليس بدار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب . على أنه موجود بمكتبة الدولة ببرلين ، ضمن مجموعة خطية رقمها ٩٨٤٥ ، في الجزء التاسع من ٣٢٦ من كتالوج المخطوطات العربية بها . ورقم المخطوط في هذه المجموعة ٥٦ .

(٢) طبع لأول مرة من نسخة وحيدة سنة ١٩٠٩ بالقدس الشريف . وقد كتب له ناشره هوجوبونز (Hugo Bunz) مقدمة .

(٣) يقصد المؤلف بهذا كتاب الملقى الذى أراد تأليفه في تراجم حكام ومعمورى مصر في ثمانين مجلداً ، ولكنه لم ينتج منه سوى ستة عشر ، ومن هذه ثلاثة بخطه محفوظة في مكتبة لين بولندة تحت رقم ١٠٣٢ ، وجزء واحد آخر منها في باريس بالمكتبة الأهلية بالقسم العربى رقم ١١٤٤ ؛ وربما قصد القرزى بهذا كتاب درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة الذى لم ينتجه كذلك . غير أن هذا الكتاب الثانى كان مقصوراً على تراجم المعاصرين ، والجزء الأول منه المشتمل على الأسماء من حروف الألف إلى حرف العين موجود بمكتبة مدينة جوتا (Gotha) بألمانيا تحت رقم ١٧٧١ . انظر (Enc. Isl. Art : Makrizi) .

هذه الممالك ، قد أحاطت بهم هذه الأم الست ^(١) . وكانت الأم كلها في قديم الدهر ، قبل ظهور الشرائع الدينية ، صنفًا واحدًا مُسمَّينَ باسمين سمينين ^(٢) وكلدانيين ^(٣) ؛ ثم صاروا على خمسة أديان ، وهي الصابئة ، والمجوس ، والذين أشركوا ، واليهود ، والنصارى .

فأما الصابئة فإنها التي تعبد الكواكب ، وترى أن سائر ما في العالم السفلى المعبر عنه بالحياة الدنيا ناشئ وصادر عن الكواكب ، وأن الشمس هي المقيضة على الكل . [وهذا الدين أقدم هذه الأديان ، وبه كان يدين أهل بابل من الكلدانيين ، وإليهم بعث الله نوحًا وإبراهيم ، صلوات الله عليهما . وكانت الصابئة تتخذ التماثيل من الجواهر والمعادن على أسماء الكواكب وتعبدها ، فتُصلى إليها وتقرب لها القرايين ، وتعتقد أنها تجلب النفع وتدفع السوء . وبقيت منهم بقايا بأرض السواد من العراق وبحرمان والرها ، أدركوا الإسلام وعرفوا بالنبط والبحرانيين ^(٤) ، ولم يبق لهم إذ ذاك ملك منذ غلبهم فارس ، فلما كانت أيام المأمون أسقطوا عن أنفسهم اسم الكلدانيين ، وتسموا بالصابئين .

وأما المجوس فإنهم الذين يقولون بالهين اثنين ، أحدهما فاعل الخير وهو النور ، والآخر فاعل الشر وهو الظلام ، ويقال لهم الثنوية أيضًا . واتخذوا لهم بيوت نيران لا تزال تَقْدُ أبدًا ،

(١) هذا التقسيم يخالف لما تواتر في كتب جغرافي العرب ورياضيهم كياقوت (انظر معجم البلدان : ج ١ ، ص ٢٥ — ٣٥) . وقد اتبع المقرئى هنا التقسيم المذكور القائم على أساس تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم يقع السابع وهو فارس والبلاد الإيرانية في وسطها . (Blochet : Hist. d'Ég. P. 59, N. 1.) .
(٢) كذا في س ب وهي مترجمة إلى (Samanéens) في (Blochet : Op. cit P.60) . ويفسر هذه القاموس الفرنسي (Ora. Dict.) بأنها اسم أطلقه كتاب اليونان على بعض معتكفة المنود تميزا لهم عن المزييين . وعلى هذا تكون بضم السين نسبة إلى معبد بلدة سَمَنَات الذي كان قائما بشاطئ شبه جزيرة كُشَاوَار بالهند (Enc. Isl. Art. Sūmānāt) . ولم يكن مذهب السنين مقصورا على الهند ، بل كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام في القديم على هذا المذهب ، وقد عُرف أيضا بين المسلمين في العصر العباسي . (أحمد أمين : فحى الاسلام ، ص ٢٤١ — ٢٤٢) . على أن هذا كله لا يوضح عبارة المقرئى ، وقد ورد في الخوارزمي (مفاتيح العلوم ، ص ٢٥) ” وكان الناس على وجه الدهر سمينين وكدانيين ، فالسنيون هم عبدة الأوثان ، والكدانيون هم الذين يسمون الصابئين ... ” .

(٣) في س كلدانيين بالتثنية ، وقد وردت أيضا في نفس الصفحة بالذلل وهي القراءة المتواترة .

(٤) نسبة إلى بلدة حَرَّان الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة الرها . وقد ساق ابن النديم هذه النسبة في

كتابه (ابن النديم : كتاب الفهرست ، ص ٣١٨ ؛ والخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢٥) .

وكانت إلى هذه النيران صلواتهم وقرايئتهم ، ويعتقدون فيها النفع والضر . وعلى هذا الاعتقاد كانت الأكاسرة ملوك فارس بالعراق . وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيام كسرى أنوشروان . وأزال العرب ملكهم في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وملكوا منهم المدائن وجولاء وغيرها ، وقتل يزديجرد آخر ملوكهم في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يبق بعده قائم من الأكاسرة ، وتمزق الفرس وذهب ملكهم إلى اليوم . وقد تقدّم في كتاب عقد جواهر الأسفاط ذكر ملوك الفرس فراجع .

أما الذين أشركوا فإنهم وإن وافقهم الصائبة والجوس في عبادة التماثيل والنار من دون الله ، فإن العرب الذين بعث الله فيهم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يقال لهم المشركون سميّة لهم ، واسماؤهم . وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت^(١) من دون الله ، فيسجدون ويصلون ويذبحون الذبائح لتماثيل عندهم ، قد اتخذوها من الحجر والخشب وغيره ويزعمون أنها تجلب لهم النفع ، وتدفع عنهم الضر . ويعتقد المشركون مع ذلك (١٥) أن الله سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو الذى وجدهم ثم يميّتهم ، وهو الذى يرزقهم ، وأن عبادتهم للأصنام وسيلة تقربهم إلى الله سبحانه . وكانوا إذا مسهم الضر في البحر من شدة هبوب رياحه وعظم أمواجه ، وأشرفوا على الهلاك ، نسوا عند ذلك الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ودعوا الله يسألونه النجاة . وقد محّا الله ، وله الحمد ، نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، الشرك من العرب حتى دخلوا في دين الله أفواجا ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، إلى أن ظهر دين الإسلام بهم على سائر الأديان ، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها مما تطوّه الدواب ، وتمر فيه السفن . وقد ذكرنا أيضاً في كتاب عقد جواهر الأسفاط قبائل العرب وبطونها ذكراً شافياً فتأمل . وأما اليهود فإنهم أتباع نبي الله موسى بن عمران ، صلوان الله عليه ، وكتباهم التوراة . وكلهم أبناء إبراهيم الخليل ، ويعرفون أيضاً ببنى إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، صلوات الله عليهم . وكانوا اثني عشر سبطاً وملكوا الشام بأسره إلا قليلاً منه إلى أن زالت

(١) في س الطواغيت بالثاء .

دولتهم على يد بختنصر ، ثم على يد طيطش^(١) ، وجاء الله بالإسلام وليس لهم ملك ولا دولة ، وإنما هم أمم متفرقون في أقطار الأرض ، تحت أيدي النصارى . وقد ذكرنا أيضاً جميع ملوكهم في كتاب عقد جواهر الأسفاط .

وأما النصارى فإنهم أتباع نبي الله المسيح عيسى بن مريم ، صلوات الله عليه ، وكتابهم الإنجيل . وجاء الله بالمسيح إلى بنى إسرائيل فكذبوه إلا طائفة منهم . ثم انتشر دينه بعد رفعه بدمه ، فدخل فيه الروم والقيط والحبيشة وطائفة من العرب ، وما زالوا على ذلك حتى جاء الله بالإسلام ، فقاتل المسلمون من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم هرقل آخر الملوك القيصرة وأتباعه حتى ملكوا منه بلاد الشام وأرض مصر ، وأخرجوه إلى جزائر البحر . ثم قاتل المسلمون القوط والجلالة^(٢) ، وملكوا منهم إفريقية والأندلس وسائر بلاد المغرب ، وتابعوا الحرب والقتال للروم حتى انقضى ملكهم ، وقام من بعدهم الإفرنج . وقد ذكرنا في كتاب عقد جواهر الأسفاط . وفي كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جملة من حروب الروم والفرنج للمسلمين . وإلى وقتنا هذا ملوك الفرنج ورعيته ، وملوك أكثر بلاد الحبيشة ورعيته ، يدينون بدين النصرانية .

فهذه ، أعزك الله ، ديانات أهل الأرض عند (ه ب) مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت الممالك يومئذ على خمسة أقسام : مملكة فارس ويقال لمن ملك منهم كسرى ؛ ومملكة

(١) مختصر واسمه في المراجع الأوربية نبوخاد ززار (Nebuchadrezzar) ، هو ملك بابل من ٦٠٤ إلى ٥٦١ ق . م . وقد خربت جيوشه بيت المقدس عاصمة اليهود مرتين ، سنق ٥٩٧ و ٥٨٦ ق . م . أما طيطش (Titus) فهو إمبراطور الدولة الرومانية من ٧٩ إلى ٨١ م ، وكان قبل ذلك أحد القواد المهرة في الدولة ، وعلى يديه فتح بيت المقدس سنة ٧٠ م ، في حكم أبيه الإمبراطور فسباسيان (Vespasian) . وقد كان طيطش وأبوه قبل أن يصبح إمبراطورا ، يشتركان في حرب اليهود منذ أواسط القرن الأول الميلادي .

(Rappoport : History of Palestine. PP. 170, 216-218).

(٢) نسبة إلى جهات جليقية (Galicia) في الشمال الغربي من شبه جزيرة لميريا . وقد ساق هذه النسبة ياقوت في معجم البلدان (راجع ج ١ ، ص ٣٧٦ وح ٢ ، ص ١٩٠) . والجلالة نسبة جغرافية إلى هذه الجهات ، أما من حيث الجنس فمعظم سكان جليقية أيام الفتح الإسلامي للأندلس هم عنصر السويقي Suevi ، وقد حلوا فيها منذ سنة ٤١١ م ، وأسسوا بها مملكة عاشت حتى سنة ٥٨٥ م ، حين قضى عليها القوط ؛ فاستحال ولاية قوطية تابعة .

(Camb. Med. Hist. Vol II, pp. 170, 259.)

الروم ويقال للملكها قعصر ، وكانت الحرب لا تزال بين الروم وفارس ويدهما أكثر المعمور ؛
ومملكة الترك وكانت ملوكهم تحارب ملوك القرس ، ولم يكن لهم قط فيما بلغنا من أخبار
الخليفة غلبة على الممالك ؛ ومملكة الهند وحسب ملوكهم ضبط ما بيدها فقط ؛ ومملكة
الصين ؛ وأما بنوحام من الحبشة والزنج والبربر فلم يكن لهم ملك يُعْتَد به .

ذكر القائمين بالملة الإسلامية من الخلفاء

اعلم أن الله بعث نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، صلى الله
عليه وسلم ، على رأس أربعين سنة من عمره ، فدعا قومه من قريش بمكة ثلاث عشرة سنة ،
وهاجر من مكة إلى المدينة فأقام بها عشر سنين ، وتوفاه الله وعمره ثلاث وستون سنة ، وقد
ذكرنا جملة سيرته في أول كتاب عقد جواهر الأسفاط . فقام بعد وفاته ، صلى الله عليه
وسلم ، بأمر الإسلام والمسلمين ، الخلفاء الراشدون مدة ثلاثين سنة ، وعدتهم خمسة : هم
أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، واسمه عبد الله بن عثمان أبي خُفافة مدة سنتين وثلاثة أشهر
غير خمس ليال ؛ وعمر بن الخطاب بن نُفَيْل العدوى مدة عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ؛
وعثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مدة اثنتي عشرة سنة
إلا اثني عشر يوماً ، وقيل إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً ، وقيل
ثمانية عشر يوماً ؛ وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم مدة أربع سنين وتسعة أشهر
 وستة أيام ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعة عشر يوماً ؛ والحسن بن علي بن أبي طالب مدة
خمس أشهر ونحو نصف شهر ، وقيل ستة أشهر ، وبه تمت أيام الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .
وصارت الخلافة مُلكاً عَصُوضاً ، أى فيه عسف وعنف ، وانتقل الأمر إلى بنى أمية .
وأول من ولى منهم معاوية بن أبي سفيان ، واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن
عبد مناف ، ومدته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وقيل ثلاثة أشهر إلا أياماً . وقام من بعده
ابنه يزيد بن معاوية مدة ثلاث سنين وستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك ، وليس
بشئ . فولى بعده معاوية بن يزيد بن معاوية ثلاثة أشهر ، وقيل أربعين يوماً . وقام بعد يزيد

أيضاً عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بالحجاز ، وخالف عليه مروان بالشام ؛ فكانت مدة ابن الزبير إلى أن قتل بمكة تسع سنين . وقام بعد معاوية ابن يزيد بالشام مروان بن الحكم بن أبي العاصي (١٦) بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، مدة عشرة أشهر . وقام من بعده ابنه عبد الملك بن مروان ، واستعمل الحجاج بن يوسف الثقفي على حرب عبد الله بن الزبير قتلته ، وأقام عبد الملك بعد قتل ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال . وقام بعده ابنه الوليد بن عبد الملك مدة تسع سنين وسبعة أشهر . وقام بعده أخوه سليمان بن عبد الملك سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وقيل إلا خمسة أيام . وقام بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم سنتين وخمسة أشهر . ثم قام بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان مدة أربع سنين وشهر وأيام . وقام بعده أخوه هشام بن عبد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وواحد^(١) وعشرين يوماً ، وقيل ثمانية أشهر ونصف . وكان قد اتخذ طرازاً له قَدْر ، واستكثر منه حتى كان يحمل ما أثر^(٢) فيه طرازه على سبعمائة جل ، فهذه ثيابه التي لبسها ، فكيف بما كان عنده مما لم يلبسه ؟ فقام من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويعرف بيزيد الناقص ، مدة سنة وثلاثة أشهر ، وقيل وشهرين واثنين وعشرين يوماً . فبيع بعده ابنه يزيد بن الوليد ، وفي أيامه اضطربت الدولة ، وولى مدة خمسة أشهر وأياماً . فقام بعده أخوه إبراهيم بن الوليد مدة أربعة أشهر ، وقيل سبعة يوماً ، ولم يتم له أمر . وقام بعده مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، ويعرف بمروان الجعدي ومروان الحمار . وفي أيامه ظهرت دولة بني العباس ، وحاربوه حتى قتلوه بأرض مصر ، وله في الخلافة منذ بويج خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوماً . وانقرضت بمقتل مروان دولة بني أمية . وقامت من بعدها دولة بني العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف مدة خمسمائة سنة وثلاث وعشرين سنة وعشرة أشهر وأيام ، فيها افتقرت كلمة الإسلام ، وسقط اسم العرب

(١) في س واحد .

(٢) كذا في س بهذا الضبط . وفي محيط المحيط : أثر في الشيء ترك فيه أثراً ، فلعل المراد هنا ما استعمله الخليفة من الثياب . وقد ترجم هذا اللفظ بمعنى أثر أي اختار في (Blochet Op. cit. P. 67.)

من الديوان ، وأُدْخِلَ^(١) الأتراك في الديوان ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، وصارت لهم دول عظيمة جداً ؛ وانقسمت ممالك الأرض عدّة أقسام ، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويمسكهم بالقهر . وكان أول من قام من خلفاء بني العباس السفاح ، واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، مدّة أربع سنين وثمانية أشهر ويوم . وكان سريعاً إلى سفك الدماء ، سفك ألف دم فاتبه عماله في الشرق والغرب في فعله ، وكان مع ذلك جواداً بالمال ، فاقتدى به في ذلك عماله أيضاً . ثم [ولى بعده] أخوه أبو جعفر المنصور ، واسمه أيضاً عبد الله بن علي ، فأقام مدّة إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً . وهو أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد علي بن أبي طالب ، وكان قبل ذلك أمرهم واحداً ؛ وهو أول خليفة قرب النجمين ، وعمل بأحكام النجوم ؛ وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات ؛ وأول من استعمل مواليه وغلماؤه في أعماله ، وقدمهم على العرب ، فاقتدى به من بعده من الخلفاء ، حتى سقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها ، وذهبت مراتبها . وكان قد نظر في العلم ، فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت علومهم . فقام بعده ابنه المهدي أبو عبد الله محمد [مدّة] عشر سنين وشهر ونصف ؛ وكان سخيّاً جواداً ، فسلك الناس في ذلك مسلكه ، واتسعوا في معاشهم ؛ وأمن في قتل الملحدين لظهورهم في أيامه ، وانتشار كتبهم ؛ وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين ، فصنفت في أيامه ؛ وعمر مسجد مكة والمدينة والقدس ، ثم ولى بعده ابنه المهدي بالله أبو محمد موسى سنة وثلاثة أشهر ؛ وكان جباراً ، وهو أول من مشى الرجال بين يديه بالسيوف المرفعة ، والأعمدة المشهورة ، والقسي الموترّة ، فاقتدى به عماله ، وكثر السلاح في محضره . فقام بعده أخوه هارون بن محمد الرشيد ، مدّة ثلاث وعشرين (٦ ب) سنة [و] شهرين وثمانية عشر يوماً ، وقيل وشهر وستة عشر يوماً ؛ وكان مواظباً على الحج ، متابعاً للغزو ، واتخذ المصانع^(٢) والآبار والبرك والقصور بطريق مكة ، وبمكة ومنى وعمرات والمدينة النبوية ،

(١) في س ادخل بالحاء المهلة وينير ضبط ، وفي محيط المحيط : دخل وأدخل دخل في الدحل وهو النقب الذي فيه شيق وجوفه متسع .

(٢) جمع مصنع وهو كالخوض يجمع فيه ماء المطر . والمصانع أيضا القرى والباني من القصور والحصون بحيط المحيط .

وعَمَّ الناس إحسانه وعدله ؛ وبنى الثغور ، ومدّن المدن ، وحصن فيها الحصون ، مثل طرسوس وأذنة^(١) ؛ وعمر المصيصة ومرعش وغير ذلك ، فاقتدى الناس به . وهو أوّل خليفة لعب بالصوالة في الميدان ، ورعى بالنشاب^(٢) في البرجاس ، ولعب بالكرة ، ولعب بالشطرنج ، وقرب أرباب هذه الأمور ، وأجرى لهم الأرزاق ، فاقتدى به الناس . وكانت أيامه كأنها من حسناتها أعراس . فبيع بعده ابنه الأمين محمد بن هارون ، وأقام أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، فقدم الخدم ، ورفع منازلهم ، وشُفِّفَ بهم ، فاتخذت له أمه الجوارى الغلايات^(٣) فاتخذ الناس في أيامه [ذلك] . فقام من بعد أخوه المأمون عبد الله بن هارون ، مدّة اثنتين وعشرين سنة منذ سلّم عليه بالخلافة ، ومدّة عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ، وقيل وخمسة وعشرين يوماً ، بعد قتل أخيه ، وكان أولاً ينظر في أحكام النجوم ويعمل بموجبها ، ويكثر النظر في كتب القدماء من الحكماء ؛ لما قدم بغداد أعرض عن ذلك كله ، وقال بأقوال المعتزلة ، وقرب أرباب العلوم ، وطلبهم من الآفاق ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فرغب الناس في العلوم الجدلية ، وصنف كل أحد فيها ما ينصر به مذهبه ، وكان كريماً عفواً ، فاقتدى الناس به في أحواله كلها : وقام بعد المأمون أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد ابن هارون ، مدّة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وهو أوّل من أدخل الأتراك الديوان ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يغلب عليه الفروسية ، ويتشبه بالعجم في عامة أحواله^(٤) ... وقام من بعده ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون بن محمد ، مدّة خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام . وفي أيامه كانت الحنة^(٥) ؛ وكان كثير الأكل ، واسع الطعام . فقام من بعده المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ، مدّة أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام ؛

(١) في س "واذ" ، وباقي الحروف غير ظاهر . (٢) في س بالنسب .

(٣) كذا في س ، ب (س ١٦) . والغلاليات الجوارى مُيَسَّنَ لباس العلماء

. (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٤) بقية هذه العبارة لم تتيسر قراءتها تماماً . على أنه من المحتمل أن تقرأ هكذا "وكان لهم إلف به ،

فكثروا في ... " .

(٥) يشير المؤلف هنا إلى محنة خَلَقَ القرآن ، التي اشتدُّ أوارها في عصر المأمون والمعتصم

والواثق ، والتي كان من ضحاياها في عهد الواثق أحمد بن نصر (راجع الطبري . تاريخ الرسل والملوك ،

ج ٣ ، ص ١٣٤٣ — ١٣٥٠) .

وقتل الأتراك ، وتحكموا من حينئذ في ممالك الدنيا^(١) ، وهو الذي رفع الحنة ، ونهى عن الجدل وعاقب عليه ، وأمر بإظهار رواية الحديث . وأقاموا بعده ابنه المنتصر محمد بن جعفر ، فمات بعد ستة أشهر تنقص أياما . وأقيم بعده المستعين بالله أحمد بن محمد المعتصم ، فأقام ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وخلعه الأتراك وعذبوه ، ثم قتلوه بعد تسعة أشهر من خلعه . والمستعين أول من أحدث لبس السكّام^(٢) الواسعة ، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، وصغر القلائس وكانت قبله طوالا . وأقيم بعده المعتز بالله محمد بن المتوكل ، ثم خلعه الأتراك وعذبوه بالضرب حتى مات ، فكانت خلافته مدة ثلاث سنين وستة أشهر وواحد^(٣) وعشرين [يوما] ، وقيل وأربعة وعشرين يوما . وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب — وكان من قبله من خلفاء بني أمية وبني العباس يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق — واتخاذ السيوف والسروج واللّجُم ؛ فلما ركب المعتز بحلية الذهب تبعه الناس في فعل ذلك . وأقيم بعده المهتدي بالله محمد بن الواثق ، ثم قتل الأتراك بعد أحد عشر شهرا وتسعة عشر يوما ، وأقيم بعده المعتمد بالله أحمد بن المتوكل ، فخلعه الأتراك ، واستبد عليه أخوه الموفق بالله أبو أحمد طلحة ؛ وخرج في أيامه صاحب الزنج^(٤) ، فخاربه الموفق أعواما كثيرة . ثم مات [الموفق] بعد قتله صاحب الزنج ، فاختلفت أمور المعتمد وقُتل ، وكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما . وهو أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به . فقام من بعده المعتضد أحمد بن الموفق طلحة واستبد بالأمر ؛ وخرجت القرامطة في أيامه ، ومات وله في الخلافة مدة عشر سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام ، وقيل تسع سنين وسبعة

(١) إذا هذه العبارة في س هامش على ورقة منفصلة ، وهو يشتمل على آراء متعددة في أصل بي بويه . ويظهر أن لاصق هذه الورقة قصد أن يضعها تجاه ما ورد في الكتاب عن دولة بني بويه ، ولهذا الاحتمال أرجح ؛ إيراد هذا الهامش حتى يجيء ما في صلب الكتاب عن هذه الدولة (انظر ص ٢٣) .

(٢) ” السكّام جمع سَكَمَة وهي نوع من القلائس “ . عن هامش بهذا الضبط في س .

(٣) في س واحد .

(٤) أطلقت هذه التسمية على زعيم تلك الثورة العلوية ، وهو علي بن محمد بن عبد الرحيم ، لأنه ” جمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباح “ بالبصرة (راجع الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ، ص ١٧٤٣ — ٢١٠٣) .

أشهر واثنين وعشرين يوما . ولما مات كفن في ثوبين قيمتهما ستة عشر قيراطا . فولى بعده ابنه المكتفى بالله على ، وجداً في حرب القرامطة وهزمهم ، وأزال دوله بنى طولون من مصر والشام ، ومات وله مدة ست سنين وستة أشهر وستة عشر [يوماً] ، وقيل تسعة عشر يوماً . فأقيم من بعده أخوه المقتدر بالله جعفر ابن المعتض ، وعمره ثلاث عشرة سنة وشهران^(١) وثلاثة أيام ، لم يبلغ الحلم . (١٧) وهو أول من ولي الخلافة من الصبيان ، فغلبت على أموره النساء والخصيان ، وأكثر من قتل الوزراء وتغييرهم ، فاضطربت عليه الأمور ، فلم يبق غير أربعة أشهر . وخلع بعبدة الله بن المعتز ، ثم قُتل ابن المعتز بعد يوم وليلة . وأعيد^(٢) المقتدر ، وخرجت القرامطة في أيامه ، وأخذوا الحجر الأسود من الكعبة إلى بلادهم ؛ وخرج عليه أيضاً الديلم ؛ وظهر عبيد الله المهدي بإفريقية ودعا لنفسه ، وقطع دعوة بنى العباس من بلاد المغرب وبرقة . ثم إن المقتدر خلع مرة ثانية ، وأقيم بدله القاهر بالله محمد ابن المعتض . ثم أعيد المقتدر ، وغلب عليه أصحاب الدواوين ، ولم يجعلوا له أمراً ينفذ ، وصارت تُنزل^(٣) القهرمانه إحدى جواريه تجلس للظالم ، ويحضرها الوزراء والقضاة والنقهاء . وفي أيامه انقطع الحج ، وكثر الهزل والجون ، وآخر أمره أنه قتل بعد ما أقام في الخلافة أربعاً وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام ، وقيل واحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً ، عند ما خرج على الجنود قد شغبوا وهو متشح بالبردة النبوية ، فقتل وتلوث بالدم . فقام من بعده القاهر بالله محمد بن المعتض ، ثم خلع وكحل بسمار ، وفدح في النار مرتين ، حتى سالت عيناه بعد سنة وستة أشهر وعثمانية أيام . وآل أمره أن كان يقوم يوم الجمعة بالجامع ، ويسأل الناس فيقول : ” يا معاشر الناس ، أنا بالأمس كنت خليفتمكم ، واليوم أسألكم ما في أيديكم “ فَيَتَصَدَّقُ عليه وقام من بعده في الخلافة الراضية بالله محمد بن المقتدر ، وفي أيامه استولى الروم على عامة الثغور ؛ وكان مغلوباً عليه مع مواليه ، لا يقدر على شيء ، ومات بعد ست سنين وعشرة أشهر وعشرة

(١) في س وشهرين .

(٢) في س ” واستمر “ .

(٣) ضبط هذا الاسم مكاناً نقلاً عن ناشر ابن مسكويه (القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم ،

ج ١ ، ص ٨٤) . راجع أيضاً الجزء الأول من الترجمة الإنجليزية للكتاب عنه ، ص ٩٣ ، حيث يرد اسم هذه القهرمانه مترجماً (Thumal) .

أيام ، وقيل وتسعة أيام من خلافته . والراضى آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال ، وآخر خليفة بنى ، وآخر خليفة خطب يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء ، ووصل إليه الندماء^(١) ، وآخر خليفة كانت نفقته وجواثره ، وعطاياه وخدمه ، وجراياته وخزائنه ، ومطابخه وشرابه ، ومجالسه وحجابه وأموره ، جارية على ترتيب الخلافة الأول ، وآخر خليفة سافر بزى الخلفاء القدماء ، وقد سافر بعده المتقى والطائع . ثم قام بعده أخوه المتقى لله إبراهيم بن المقتدر ، وكان خيراً عابداً ؛ وفي أيامه تغلب بنو حمدان على الجزيرة والشام ، وكثر الاختلاف عليه ، فخلعه توزون التركي ، وكhle كما كل القاهرة ، ثم حبسه مع القاهرة وهما مكحولان ، فقال القاهرة :

صرتُ وإبراهيم نَحْيَ عَمِي لا بد للنَّحْيِ من صَدْرٍ^(٢)

ما دام توزون له إمرة مطاعة فالعِيسل في الجَمْرِ

وكان ذلك بعد ثلاث سنين وأحد عشر شهراً ، ومات بعد خلعه بنحس وعشرين سنة . وقام من بعده لما خلع ، المستكفي^(٣) بالله عبد الله بن المكتفى ، فاستولت الديلم على البلاد ، ووقع الاختلاف عليه ، فقبض وكحل على يد معز الدولة أحمد بن بويه ، فكانت أيامه سنة وأربعة أشهر ويومين . وأقيم من بعده المطيع لله الفضل بن المقتدر ، فأقام تسعاً^(٤) وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحد^(٥) وعشرين يوماً ، ليس له سوى الاسم ، والمدير للأموال معز الدولة ، و[قد] فرّض لنفقة المطيع في كل يوم مائتي دينار . وفي أيامه قدمت عساكر المعز لدين الله أبي تميم معد إلى مصر ، وانقطعت الدعوة العباسية من مصر والشام . وأقام [المطيع] إلى أن خلع نفسه ، وأقام ابنه الطائع لله عبد الكريم ، فكث [الطائع] سبع عشرة سنة وتسعة أشهر

(١) في س الندما .

(٢) السَّخَّةُ والنَّخَّةُ البَقَرُ العوامل والمُحَرُّ ؛ وأما الصَّدْرُ فهو مصدر من صَدَرَ ، فيقال صدر فلان بغيره أى شدَّ حبلاً من حزامه إلى ما وراء الكركرة (محيط الخط) .

(٣) بلى هذا هامش في س ، ولما لم تستقم عبارته تماماً مع المتن رؤى ليرده هنا وهو : " طَلَبَ [المستكفي] الفضل بن المقتدر لما بينها من العداوة ، فقر [الفضل] إلى أحمد بن بويه ، فأواه إلى أن مات توزون ، [ثم] قدم به بغداد . وكان المستكفي يتظاهر بالتشيع وموالة علي بن أبي طالب ، وقد كُحل أيضاً ، فكُلَّ صَدْرُ النَّحْيِ الذي قال القاهرة في شعره " .

(٤) في س تسعة . (٥) في س واحد وعسرين .

وسنة أيام محكوماً عليه بينى بُوَيه ، ثم خُلِعَ وحِيس قتيلاً ذليلاً حتى مات . وكان [الطامح] كثير الانحراف على آل علي بن أبي طالب ، وسقطت الهيبة في أيامه حتى هجاء الشعراء وطولوا . وقام من بعده القادر (٧ ب) بالله أحد بن إسحاق بن المقتدر ، فأقام إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وقيل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً ، وكان ديناً^(١) باراً [بأهله]^(٢) وبالطالبيين . وفي أيامه عظمت الديلم والباطنية ، واشتهر مذهب الاعتزال ، ومذاهب الباطنية والرافضة ، وانتشر ذلك في الأرض . وفي أيامه ظهر السلطان يمين الدولة محمود بن سُبُكْتَكِين^(٣) ، وغزا الهند . وقام من بعده ابنه القائم بأمر الله عبدالله ، فثار عليه أرسلان البساسيري^(٤) ، وصار يُدْعَى له على منابر العراق والأهواز ، فكتب القائم إلى السلطان طغرل بك بن ميكائيل^(٥) بن سلجوق التركاني ، وأول ملوك بني سلجوق ، فقدم بغداد وفر منه البساسيري بمن معه من الأتراك ، وانتمى إلى المستنصر بالله معد بن الظاهر الفاطمي صاحب مصر ، فأمدّه بالأموال حتى أخذ بغداد ، وقطع منها دعوة بني العباس ، وخطب للمستنصر بها نحو سنة ، والقائم محبوس . ثم قدم طغرل بك وأعاد القائم إلى الخلافة ، وقتل البساسيري ، وتحكم في سائر الأمور ، فلم يزل القائم في الخلافة حتى مات ، وله مدة أربع وأربعين سنة وثمانية أشهر . وكان ديناً خيراً كثير الصلاة ، إلا أنه كان كثير الإصغاء إلى من يشير عليه . فاتفق أن وزَّله رجل من سوقة بغداد يعرف بابن المسلمة^(٦) ، فحسن له مجيئ الغز ، لأنه كان منحرفاً عن الشيعة ،

(١) يمكن قراءة هذه الكلمة في س "أديا" ، وقد اعتبرها كاتب نسخة ب هكذا (س ١٨) . غير أن الدين هو الصفة التي امتاز بها القادر من معظم العباسيين ، فقد جاء فيه "أنه سلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه . فكان راهب بنى العباس حقاً وزاهدهم صدقاً ، ساس الدنيا والدين ، وأغاث الإسلام والمسلمين" . انظر الروذراوري : ذيل كتاب تجارب الأمم ، ص ٢٠٧ .

(٢) ليست موجودة في س ، ولكنها في ب (س ١٨) .

(٣) هكذا ضبطها مارجليوث في ترجمته لكتاب ابن مسكويه (القسم الأخير من كتاب الأمم ،

ج ٢ من الترجمة ، ص ١٢٠ ، وكذلك الفهرس في مادة (Sabuktakin) . أما في س فهي سبكتكين بهذا الضبط .

(٤) في س البساسيري وأحياناً بلا نقطة على النون (راجع ابن الأثير . الكامل في التاريخ ،

ج ٩ ، ص ٢٩٨) .

(٥) هكذا ورد في ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٤١١) ، وهو في س ميكال .

(٦) في س «ابن السلة» بغير ضبط ، وقد نقلها كاتب نسخة ب بناءً مفتوحة (س ١٨) ،

والصحيح ما هنا . انظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٠٠ .

فكاتبهم القائم ، فلما جاءوا كان من أمرهم وأسر البساسيري ما كان . وقام من بعده المقتدى بأمر الله عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم ، فلم يكن له سوى الاسم ، لا يتعدى حكمه بابه ، والتدبير إلى ملك شاه بن عضد الدولة ، وأقام على ذلك تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين ، وقيل لإخمسة أيام . وأقيم بعده ابنه المستظهر بالله أحد ، فأقام محكوماً عليه خمسا وعشرين سنة ، وقيل أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحد وعشرين^(١) يوما ، ومات . وفي أيامه أخذ الفرنج بيت المقدس من المسلمين ، واستمر ملكهم^(٢) به . وقام من بعده ابنه المسترشد بالله الفضل بن أحمد ، وقُتل بعد سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما . فقام بعده ابنه الراشد بالله منصور ، وخُلِعَ ثم قُتِل ، فكانت خلافته سنة تنقص عشرة أيام . وبويع [قبل ذلك] المقتنى لأمر الله محمد بن المستظهر ، فصفت له الدنيا ، وسعد بوزيره عون الدين يحيى بن محمد بن هُبَيْرَة ، وقَبِضَ على جماعة من المتغلبين ، وخرج بنفسه وحارب من ناوَاه ، وأقام أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحد وعشرين^(٣) يوما . فبويع [بعده] ابنه المستنجد بالله يوسف ، وأقام إحدى عشرة سنة وشهرا واحداً ، ومات . فبويع [بعده] ابنه المستضيء بأمر الله الحسن ، وفي أيامه أعيدت الخطبة العباسية بالقاهرة ومصر ، بعد انقطاعها مائتين وخمس عشرة سنة ، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي الكردى ، (١٨) ومات [المستضيء] بعد عشر سنين تنقص أربعة أشهر . فقام بعده ابنه الناصر لدين الله أحمد ، مدة ست وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وفي أيامه ابتداء ظهور جنكيزخان . ورؤي [الناصر] مرة وعليه [قباء] أبيض برسوم [ذهب] فيه ، وعلى [رأسه] قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من فَنَكْ أو نحوه يتشبه [بزى] الأتراك^(٤) . وقام من بعده

(١) في س واحد وعشرين .

(٢) يشير المؤلف إلى ابتداء الحروب الصليبية ، والتي تتوجت بفتح المسيحيين لبيت المقدس في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ ، الموافق ١٥ يولييه سنة ١٠٩٩ م .

(٣) في س واحد وعشرين .

(٤) هذه العبارة كلها من أول " ورؤي " إلى كلمة " الأتراك " موجودة بهامش في س ، وبالزاوية اليمنى العليا من الصفحة ، وبعض ألقاؤها ضائع ، ولا يدل على بعضها الآخر سوى الحرف الأول . غير أن نسخة ب (ص ٨ ب) تحوى العبارة كاملة ، ما عدا كلمة " الناصر " التي أضيفت هنا للإيضاح . أما الفتنك فغيوان فروته ثمينة ، قيل هو نوع من جراء الثعلب التركي . انظر زكريا الأنصاري : شرح المنهج ، ج ٥ ، ص ٢٧١) . والعبارة كلها مستمدة فيما يبدو من ابن جبير : حيث يوجد وصف طويل لقصر الخلافة ، وشخص الخليفة ، وأهل بغداد

ابنه الظاهر بأمر الله محمد ، فأقام تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً ، ومات . فقام بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور مدة سبع عشرة سنة غير شهر ، وقيل خمس عشرة سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام ؛ وفي أيامه قصد التتار^(١) بغداد ، فاستخدم [لحربهم] العساكر ، حتى بلغت عدتها نحو مائة ألف . وقام من بعده ابنه المستعصم بالله عبد الله ، فجمع الأموال ، وقطع كثيراً من العساكر ، فقدم التتار بغداد ، وقتلوه في سادس صفر سنة ست وخمسين وستائة ، وله في الخلافة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام ؛ وانقرضت دولة بني العباس بزواله ، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين [وستائة] . فأقيم [في تلك السنة] خليفة بمصر قديم إليها من بغداد ، لُقِّبَ بالمستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر ، وسار يريد بغداد فخار به التتار وقتلوه ، قبل أن تتم له سنة منذ بويج بمصر . فصار من بعده ملوك مصر الأتراك يقيمون رجلاً يسمونه الخليفة ، ويلقبونه بلقب الخلفاء ، وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة ، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة ، لتهنئتهم بالأعياد والشهور ، وسيأتي ذكرهم إن شاء الله .

(١) كذا في س بغير ضبط . ويكتب المؤايد هذا الاسم في سائر هذا الجزء أحياناً بالرسم الوارد هنا ، وأحياناً "التز" بغير ضبط أيضاً ، وأحياناً أخرى "الططر" ؛ هذا ولاسم "التز" رسم ثالث هو "التاتار" ، ولكنه غير وارد في هذا الجزء من الكتاب ، وكلها أسماء لمسى واحد . (Enc. Isl. Art. Tatar)

ذكر دولة بني بويه الديلم^(١)

ويقال في أصل الديلم إن باسل^(٢) بن ضبة أد بن طابحة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان خرج مغاضباً لأبيه ، فوقع في أرض الديلم ، فتزوج امرأة من العجم ، فولدت له ديلم بن باسل فهو أبو الديلم كلهم^(٣) . وهم أخذوا وعشائر ، ومنهم ملوك بني بويه . وكان سبب ظهورهم أن الحسن بن علي بن الحسن بن زيد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن

(١) الديلم تسمية جغرافية للصق الجلي من بلاد جيلان ، الواقعة في الجنوب الغربي من بحر قزوين ، ويحده في شماله جيلان نفسها ، وفي شرقه طبرستان المعروفة أيضاً بجازنداران ، وفي جنوبه جهات قزوين ، وفي غربه آذربيجان . والديلم أيضاً تسمية جنسية لمن يسكن هذا الصقع ، غير أن بني بويه ليسوا من الجنس الديلمي ، بل هم فرس " نسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم " . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٩٧) و (Enc. Isl. Arts. Dailam and Büyids) . ويوجد هامش في س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٦ ب و ٧ يشتمل على بعض الروايات في أصل بني بويه ، وهذا نصه . " ذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي ذكر كتابه ، الذي سماه الناس أن بويه هو ابن فناخسرو (في س فناخسره) بن ثمان بن كوهي بن شوزيل الأصغر بن شيركده بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفته بن سنان شاه بن سسن خرة بن شوزيل بن سسناذد بن بهرام جور [الملك] . وذكر أبو الحسن بن علي بن فانا في كتابه ، الذي اختصر فيه أخبارهم ، أنه بويه بن فناخسرو بن ثمان ؟ ثم قال بعضهم ثمان بن كوهي بن شيرزيل الأصغر ، وأنكر بعضهم كوهي فقالوا شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفته بن سسنان شاه بن سسن خرة بن شوزيل (في س خيره بن شوزيل) ابن سسناذد بن بهرام جور ؟ ثم اختلفوا في بهرام ، فمن نسبهم إلى الفرس قال هو بهرام جور وساق النسب ، ومن نسبهم إلى العرب قال هو بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الديلم بن باسل بن ضبة بن أد . وذكر في جملة الآباء لا هو بن الديلم بن باسل ، فقالوا وبهذا الاسم يسمى ولده لياهج . قال أبو الريحان [البيروني] : أول من عرف من هذه القبيلة هو بويه بن فناخسرو وليست تلك الأمم معروفة بحفظ الأنساب ، ولا مذكورة بأنها كانت تعرف ذلك من قبل انتقال الدولة إليهم " . ويظهر أن المقرئ نقل هذا كله حرفياً ، باختصار طفيف في العبارة الأخيرة فقط ، من كتاب الآثار الباقية للبيروني (انظر منه ص ٣٨) . وقد نشر هذا الكتاب الدكتور أدوارد زحاو (Eduard Sachau) ، ونعمره هو ثانياً مترجماً إلى الإنجليزية ، وقد استعملت النسختان لتصحيح أسماء الأعلام وتحقيق العبارة كلها (انظر الترجمة الإنجليزية ، ص ٤٥) .

(٢) في س باسل بثلاث قطع تحت السين . وفي نسخة س كلمات متنوعة منقولة سنيها هكذا أحياناً .

(٣) هنا حاشية تفسيرية على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٧ ب ، ٨ أ . وهذا نصها ما عدا ما بين القوسين المستديرين في آخرها ، فإنه أضيف للتوضيح اللازم : — " يقال ولد ضبة بن أد بن طابحة سعد بن ضبة ، وسعيد بن ضبة ، وباسل بن ضبة ، وهو أبو الديلم فيما يقال . قال هشام بن محمد الكلبي : حدثني أبي قال : خرج باسل مغاضباً لأبيه ، فتزوج امرأة من العجم فولدت له ، فيقال إن الديلم ولد باسل هذا ، وهم ينسبون إليه . وقال غير ابن الكلبي : وقع بين باسل وبين أخيه سعد شر ، فاقْتَتَلَا فَنَضَبَ [باسل] ووقع بالديلم ، فغظله أهلها حتى عبدوا رجله إلى أن ذهبت الرجل ، وجعلوا له مثلاً من ملين فعبوده ، فبعض من الديلم من ولده . (ومعنى " غضب " هو أنه قطعت رجله ، وهي واردة في س بغير نقط ما خلا نقطة الضاد) .

أى طالب الزيدى الأطروش^(١) دخل الديلم، وأقام نحو أربع عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العُشر، ويدافع عنهم، فأسلم منهم خلق كثير، وتلقب بالناصر للحق، واجتمعوا عليه، وبني في بلادهم مساجد، وحشَّهم على الخروج معه إلى طبرستان حتى أجابوه، وقاتل [بهم] أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوك وهزمه، وقتل من أصحابه سبعة آلاف، وعاد إلى آمل^(٢) ظافراً، واستولى على طبرستان في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة، وعاد (٨ب) إلى بغداد. ومات الناصر — بعد [أن] ملك طبرستان ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأياماً — في شعبان سنة أربع وثلاثمائة، وله تسع وسبعون سنة. بقيت بعده طبرستان في أيدي العلوية اثنتي عشرة سنة، ثم انتقلت عنهم إلى أسراء الديلم. ولما مات الناصر ولّى ابنه أبو الحسين، فقدم جرجان وأقام بها، وصاحبُ جيشه سُرخاب بن وهسودان^(٣)، فكانت له حروب وأبناء مع عساكر السعدي نصر بن أحمد صاحب خراسان إلى أن مات سرخاب. فاستخلف أبو الحسين ابن الناصر بعده ما كان بن كالى^(٤) على استراباد^(٥)، فاجتمع إليه الديلم، وقدموه وأمروه على أنفسهم، فكانت له بتلك النواحي أخبار كثيرة إلى أن قوى أبو الحجاج مرداويج بن زيار، وقيل — مرداويج بن قافيج^(٦) — الجليل^(٧) الديلمي، وملك جرجان وغيرها من ما كان، وعاد إلى أصفهان ظافراً. ودامت الحرب بينهما عدة سنين، فقوى مرداويج واستولى على بلاد الجبل^(٨) والرعى، وأتته الديلم من كل ناحية، فعظمت جيوشه. وكان من الديلم رجل يقال له بُوَيه، وكنيته أبوشجاع؛ متوسط الحال؛ وله ثلاثة أولاد: أبو الحسين على أكبرهم؛ وأبو على

(١) لم يذكر ابن الأثير اسم زيد بين آباء الحسن هذا (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦٠).

(٢) مضبوطة هكذا في س، وكذلك في ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٦٨) وتسمى هذه المدينة الكبيرة آمل طبرستان، تميزها لها من آمل جيحون، والمعروفة باسم آمل الشط أيضاً.

(٣) في س سرخاب بن بهسودان، بغير ضبط. ولم يضبط ابن الأثير من الاسمين سوى السين بالضم في سرخاب (ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٨، ص ٩٦).

(٤) هو ابن عم سرخاب بن وهسودان (ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٨، ص ٩٦).

(٥) في س استراباد. (٦) هذا الاسم غير واضح تماماً في س، وهو وارد في ب (ص ١٩).

كما أثبت هنا. وقد روج ابن الأثير وابن اسفنديار وابن مسكويه والبيروني و (Enc. Isl. Art Mardāwidj) لتحقيقه فلم يوجد فيها. أما (Blochet: Op. cit. P. 78) فقد ترجم هذا الاسم إلى (Kafidj) مع التشكك. (٧) نسبة إلى بلاد الجبل أو جيلان. (٨) في س الجبل (راجع ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٢٨، ص ١٦٧) و (Enc. Isl. Art. Mardāwidj).

الحسن أو سطهم ، وأبو الحسين أحد أصغرهم . وكان ينتسب إلى الفرس ، ويزعم أنه أبو شجاع بويه بن فنا خسرو^(١) بن ثمان^(٢) بن كوهي بن شيرزيل الأصغر بن شيركذ^(٣) بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرويه بن سسناذر شاه بن سيس فيروز بن شيزوزيل بن سسناذر^(٤) ابن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك^(٥) . فبنو بويه من قبيلة من قبائل الديلم يقال لها شيرزيل أوندازه^(٦) . ثم إن أبا شجاع بويه رأى في منامه كأنه يبول ، فخرج من ذكره نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ، ثم انفجرت فصارت ثلاث شعب ، وتولد من تلك الشعب عدة شعب ، فأضأت الدنيا بتلك النيران ، ورأى البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران . فقصه على منجم ، فقال له : ” إنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ، ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت تلك النار ، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب “ . فقال له أبو شجاع : ” أنسخربى وأنا رجل فقير ، وأولادى هؤلاء فقراء مساكين يصيرون ملوكا ؟ “ فقال المنجم : ” أخبرني بوقت ميلادهم “ فأخبره ، فجعل يحسب ، ثم قبض على يد أبي الحسن على الذي لقب بعد ذلك عماد الدولة فقبلها ، وقال : ” هذا والله يملك البلاد ، ثم هذا من بعده “ ، وقبض على يد أخيه أبي علي الحسن ، الذي لُقّب بعد ذلك ركن الدولة ” ثم هذا “ ، وقبض على يد أخيهما أبي الحسين أحمد ، الذي لقب معز الدولة . فاغتاض منه أبو شجاع وقال لأولاده : ” اصنعوا هذا فقد أفرط في السخرية بنا “ ، فصغموه وهو

(١) في س فناخسره ، مضبوطة .

(٢) كتب المؤلف هذا الاسم ” أتمام “ ، ولعله اتبع في ذلك ابن الأثير الذي كتبه ” تمام “ ، (راجع حاشية رقم ٥) ثم أصلحه إلى ما هو وارد هنا .

(٣) ورد ” شيركند “ في ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٩٧) .

(٤) في س سسناذر في المرتين ، وكذلك فيزور بالزاي قبل الواو ، وفي ابن الأثير (نفس المرجع والصفحة) ” سستان شاه ابن سيس فيروز من شيزوزيل بن سنباد بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك ... “ .

(٥) تقدمت هذه النسبة الطويلة في ص ٢٣ حاشية رقم ١ ، مضبوطة على البيروني المنقولة عنه فراجعها ، غير أن هناك اختلافا جوهريا بين ما هو وارد هنا وبين النص السابق ، ويظهر أن هذا الخلاف ناشئ عن اعتماد القرينزي هنا على مرجع آخر لعله ابن الأثير . وقد قول هذا عليه فلو حفظ اختلاف في بعض الأسماء تبع إليه (راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١٩٧) .

(٦) كذا في س ، وهي بالراء بدل الزاي في ب (ص ٩ ب) . وهي مترجمة إلى (Ondarah) في

(Blochet : Op. cit. P. 76) .

يستغيث (١٩) وهم يضحكون منه ، ثم أمسكوا . فقال لهم [المنجم] : ” اذكروا لي هذا إذا قصدتكم وأتم ملوك “ ، وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم . فلما خرج الديلم مع ما كان ابن كالي كان أولاد أبي شجاع من جملة قواده ، إلى أن استولى مرداويج على ما بيد ما كان من طبرستان وجرجان وانهزم ما كان ، قال له على والحسن ابنا أبي شجاع بويه ، وكانا ضَعْفَةً^(١) عَجْزَةً : ” نحن في جماعة ، وقد صيرنا ثِقْلاً عليك وعِيالاً ، وأنت مُضَيِّق ، والأصلح لك أن تفارقك لتخف عنك مؤونتنا^(٢) ، فإذا صلح أمرك عدنا إليك “ . فأذن لهما فصارا إلى مرداويج ، واقتدى بهما جماعة من قواد ما كان وتبعوهما . فأقبل عليهم مرداويج ، وخلع على ابني بويه ، وقلد عماد الدولة على بن بويه كَرَجَج ، فأحسن السيرة وافتتح قلاعاً ظفر منها بذخائر كثيرة ، فاستمال الرجال حتى شاع ذكره وقصده الناس . فاستوحش منه مرداويج ، واستدعاه فدافه ثم سار [عماد الدولة]^(٣) من كرج إلى أصبهان ، وقاتل المظفر محمد بن ياقوت وهزمه ، وملك أصبهان يوم الأحد الحادي عشر من ذي القعدة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . فعظم في أعين الناس ، لأنه كان في تسعمائة رجل هزم بهم ما يقارب عشرة آلاف . وبلغ ذلك الخليفة القاهر بالله محمد بن المعتضد فاستعظمه ، وخاف مرداويج عاقبته ، فأخذ يتحيل في أخذه . وأخذ بن بويه أيضاً أَرْجَانَ من أبي بكر بن ياقوت ، في ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وقوى بها . وبعث أخاه ركن الدولة الحسن ، فأخذ كَزْرُونَ . ثم ملك [عماد الدولة] شيراز في جمادى الآخرة سنة اثنتين^(٤) وعشرين ، فلما ملك شيراز وفارس كتب إلى الخليفة الراضي بالله محمد بن المعتز ، وقد أفضت إليه الخلافة ، وإلى وزيره أبي علي محمد بن علي بن مقلة ، يعرفهما أنه على الطاعة ، ويطلب أن يُقَاطع على ما بيده من البلاد ، وبَدَل ألف ألف درهم ، فأجيب إلى ذلك . وسُيرت له الخِلمع واللواء ، فلبس الخِلمع ونشر اللواء بين يديه ، وغالط

(١) مضبوطة مكنا في س .

(٢) في س مؤونتنا ، وهي في ابن الأثير مؤننتا (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١٩٩) . وظهر أن صريح المقرئ هنا ، فيما كتبه عن بني بويه ، هو كتاب السكامل لابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١٩٧ وما يليها) .

(٣) أضيف ما بين القوسين نقلاً عن ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٢٠٤) .

(٤) في س اثنى .

الرسول بالمال ، فمات الرسول عنده سنة ثلاث^(١) وعشرين . وعظم شأنه ، وقصده الرجال من الأطراف ، فقام مرداويج وقعد ، فقدر الله قتله على يد غلماناه ، يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة . وسار أكثر أصحابه إلى ابن بويه ، ومضى كثير منهم إلى بُجَنَكُم^(٢) فقدم [بهم] بغداد . ثم سار عماد الدولة بن بويه إلى كِرمَان في سنة أربع وعشرين ، وكانت له بها حروب ظفر فيها . ثم قدم عليه أبو عبد الله أحمد بن محمد البريدي^(٣) في سنة ست وعشرين ، وأطعمه في العراق والاستيلاء عليه ، فسار وملك عدة بلاد ، وسير أخاه ركن الدولة على عساكر ، وكانت لها أنباء وقصص . وجرت في (٩ب) بغداد حوادث عظيمة آلت إلى مسير معز الدولة أبن الحسين أحمد بن بويه إلى بغداد ، في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، فخار به أمير الأسراء توزون في ذى القعدة ، وهزمه عن بغداد . فلما مات توزون قدم [معز الدولة] بغداد ، واستولى عليها في يوم السبت حادى عشر جمادى الأول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة . قال الوزير أبو علي محمد بن علي بن مقله : ” إننى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم ، لأنى كاتبته الديلم وقت إنفاذى إلى أصبهان ، وأطعمتهم في سرير الملك ببغداد ، فإن اجتنيبت ثمرة ذلك في حياتى ، وإلا فهى تُجتنى بعد موتى “ ، فكان كما قال . ولما ملك معز الدولة بغداد خلع الخليفة المستكفى بالله عبد الله ، ونهب الديلم دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء ، وأقام المطيع لله الفضل بن المقتدر ، ولم يجعل له أمراً ولا نهياً ولا رأياً ، ولا مكنه من إقامة وزير ، بل صارت الوزارة إليه يستوزر لنفسه من يريد ، وشنع هو والديلم على بنى العباس ، بأنهم غضبوا الخلافة وأخذوها من مستحقها . وأراد معز الدولة إبطال دعوة بنى العباس ، وإقامة دعوة المعز لدين الله أبن تميم معد الفاطمى ، حتى رجعه أصحابه عن ذلك . وبعث نوابه فتسلخوا العراق ، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة ، إلا ما أقطعه مما لا يقوم ببعض حاجته ، وملك البصرة والموصل وعامة البلاد . ومات عماد الدولة

(١) كانت تعليمات الرسول ألا يسلم الخلع أو اللواء إلا بعد قبض المال ، فلما وصل خرج عماد الدولة إلى لقاءه ، وطلب منه تسليمها ، فذكر له الشرط ، فأخذها منه قهراً . (ابن الأثير : قس المرجع ، ج ٨ ، ص ٢٠٧) .

(٢) مضبوطة مكنا في س .

(٣) مضبوطة مكنا في س .

أبو الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز في جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وعهد إلى ابن أخيه عضد الدولة أبي شجاع فناخسرو^(١) بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه ، فكانت مدة إمارته ست عشرة سنة ، ولم يترك غير بنت واحدة . وكان عماد الدولة في حياته هو أمير الأمراء ، فلما مات صار أخوه ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه أمير الأمراء . وكان معز الدولة أبو الحسن أحمد هو المستولى على العراق والخلافة ، وهو كالثائب عنهما إلى أن مات ببغداد ، لثلاث عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، فكانت مدة ملكه لبغداد إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين . وقام من بعده ابنه عز الدولة أبو منصور بختيار ، فسار إليه ابن عمه عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة في سنة أربع وستين ، وقبض عليه ثم أطلقه ، وضرب عليه الجند^(٢) ، وعاد من بغداد . فمات ركن الدولة لخمس بقين من المحرم سنة ست وستين وثلاثمائة ، واستخلف على مملكته ابنه عضد الدولة ، فسار إلى العراق ثانيا وأخذ بغداد من بختيار^(٣) ، وخطب له بها ، ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد سوى الخليفة . وضرب [عضد الدولة] أيضا على بابه الطبول ثلاث نوبات ، ولم تجر بذلك عادة من تقدمه ، ونعت الملك السيد شاهنشاه الأجل المنصور^(٤) ولي النعم تاج الملة عضد الدولة أباشجاع^(٥) فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن أبي شجاع بويه بن فناخسرو بن ثمان^(٦) بن كوهي . وقُتِل بختيار في الحرب لاثنتي عشرة بقيت من شوال سنة سبع وستين وثلاثمائة ، فكانت مدته إحدى عشرة سنة وستة أشهر . وعظم أمر عضد الدولة (١١٠) إلى أن مات لثمان خلون من شوال سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، ومدته منذ مات عمه عماد الدولة بفارس أربع وثلاثون سنة ، ملك منها ببغداد خمس سنين وستة أشهر

(١) في س فناخسره ، وبغير ضبط هنا وفيها يل.

(٢) توجد في س عبارة مكلمة هي : " حتى زال ملكه " ، ولكنها مشطوبة .

(٣) في هامش س الجملة : " ففر بختيار " . وهي ليست متسقة مع عبارة اللز ، ولا سيما أن المؤلف لم يشير كعادته إلى المكان المناسب لها . غير أنه أدبها كاتب نسخة ب (س ١٠ ب) قبل عبارة " وخطب له بها " .

(٤) مضبوطة في س " ونعت الملك السيد ... المنصور " بضم الآخر .

(٥) في س " أبو شجاع " .

(٦) في س تمام . انظر س ٢٥ ، حاشية رقم ٢ .

وأربعة أيام . فقام من بعده صنّصام الدولة أبو كاليجار المرزبان^(١) ببغداد ، أربع سنين وخمسة أشهر واثنتين وعشرين يوماً . وغلبه أخوه شرف الدولة أبو القوارس شيرزِيل ، في رمضان سنة ست وسبعين وثلاثمائة ، ثم سَمَلَه وقام بالأمر ، فلقبه الخليفة الطائع بشرف الدولة وَزَيْنَ الملة . ومات [شرف الدولة] بعد سنتين وثمانية أشهر وأيام ببغداد ، في ثاني جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة . فملك بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر خُرَّه فيروز ابن عضد الدولة ، ولقبه الطائع بهاء الدولة وضياء الملة ، ثم زاد القادر في ألقابه غياث الأمة شاهنشاه ، ثم زاده قِوام الدين ونقله عن مولى أمير المؤمنين إلى صِفي أمير المؤمنين ، ومات بأرجان في خامس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة ، فكانت مدته اثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . وقام من بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع فنا خسرو ، فكانت أيامه ببغداد — سنة واحدة وستة أشهر تنقص ثلاثة أيام — على انزعاج ، لكثرة مطالب الأتراك^(٢) ، فخرج^(٣) [منها] ، وقد رتب أخاه مشرف الدولة أبا علي الحسن ، وسار إلى الأهواز ، واستقرّ مشرف الدولة في ملك العراق خمس سنين وشهرين وأياما . ومات سلطان الدولة بفارس ، لأربعين بقين من شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فكانت إمارته اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر وأياما . ومات بعده أخوه مشرف الدولة ببغداد ، لثمان بقين من ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة ، فسار [أخوها] جلال الدولة أبو طاهر فيروز خره بن بهاء الدولة من البصرة إلى بغداد ، باستدعاء الخليفة القادر ، لما حصل في بغداد من مصادرات الأتراك للناس ، فلما قدمها تلقاه القادر ولقبه ركن الدين جلال الدولة . وفي أيامه انحل أمر الخلافة

(١) كذا في س بغير ضبط ، ولم يضبط ابن الأثير شيئا من هذه الأسماء . (الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٦) . غير أن كاتب نسخة ب (ص ١١١) أو رد اسم كاليجار بالنون بدل الياء فأصبحت " كالنجار " ، وتبعه في ذلك (Blochet) فترجم الاسم كله إلى (Šamšām-ad-Daūlah-Abou-Kalandjār-
(Al-Merzēbān) راجع (Ibid : Op. cit. P. 82.)

(٢) في س " خسره " دائما . (راجع ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٧٤) .
(٣) بل هذه الكلمة إشارة إلى هامش غير متسق مع المتن ، فروى إبراهيم هنا وهو : " وضرب [سلطان الدولة] الطبول على يابه في أوقات الصلوات الخمس " .

(٤) في س " وخرج " (راجع ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٤٤) .

والسلطنة ببغداد ، وانطلقت الأيدي ، وعجز جلال الدولة عن إقامة الأمر إلى أن مات في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فكانت مدته ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً . فاستدعى الجندُ ابنه الملك العزيزاً بمنصور خره فيروز ، فلم ينتظم له أمر ، واستنجد الملوك فلم يجدوه ، فكانت عسكرُ بغداد عزَّ الملوك أبا كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة أبي شجاع فنا خسرو بن بهاء الدولة أبي نصر خره فيروز بن عضد الدولة ، ولقبه الخليفة القائم بأمر الله شاهنشاه عزَّ الملوك ، وُحِلَّت إليه الخلع واللواء وخطب له ، فسار وقدم بغداد ، ومات سنة أربعين وأربعمائة . وملك [بعده] ابنه الملك الرحيم (١٠١) أبو نصر خره فيروز بن عز الملوك ، وكان [عز الملوك^(١)] قد سار إلى كرمان ، فهلك في طريقه لأربع سنين من ولايته . فقام من بعده ببغداد الملك الرحيم بمبايعة الجند له ، وثار في أيامه الأمير أرسلان البساسيري^(٢) وملك بغداد ، ثم قدم طغرل بك والسلجوقية ، وقبض على الملك الرحيم وسجنه حتى مات . فكانت عدة من ملك بغداد من بني بويه أحد عشر ، ومدتهم ببغداد إلى أن انقضوا على يد السلجوقية مائة وثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، أولها يوم وصل معز الدولة إلى بغداد ، وآخرها يوم وصول طغرل بك بغداد ، ومدتهم منذ ملك عماد الدولة بلاد فارس مائة وخمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

ذكر دولة السلجوقية

وكان ابتداء أمر السلجوقية أنهم أخلاط من الترك ، كانوا يصيِّفون في بلاد البُلغار^(٣) ويشتون في تركستان ، وينهبون ما طرقوه . وكان من مقدمهم رجل يقال له دقاق^(٤) ، فولد له سلجوق فنَجَّب ، وقدَّمه^(٥) بيغو ملك الترك ، فقوى وكثر جمعه فخافه بيغو ، فخرج [سلجوق] بجموعه

(١) أضيف هذا بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٧٣ — ٣٧٤) .

(٢) في س البساسيري . (٣) في حوض نهر الفولجا بالروسيا الحالية .

(٤) صحح ناشر ابن الأثير هذا الاسم إلى " دقاق " (الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٣٣) .

على أن هناك ما يحمل على تفصيل الرسم الوارد هنا (انظر Enc. Isl. Art. Seldjūks) وقد ضبطت الأعلام الواردة هنا على هذين المرجعين .

(٥) في س " بيغو " مضبوطة ، وفي نفس السطر " بيغو " بالضبط عنه . ولرسم هذا الاسم بالياء

أولاً أنصار . (انظر Enc. Isl. Art. eldjūks)

مهاجراً من دار الحرب [إلى ديار] (١) الإسلام] وأسلم وأقام بنواحي بخارى وصار يغزو الترك ، وكان له من الولد أرسلان (٢) وميكائيل وموسى . ومات سلجوق بجنْد (٣) وراء بخارى ، عن مائة وسبعة أعوام ، وبقي ولده على ما كان عليه من غزو الترك ، فقتل ميكائيل شهيداً . وخلف [ميكائيل] بيغو وطفربك ويَنال وجفري بك داود (٤) . ثم إنهم قربوا من بخارى فأساء أميرها جوارهم ، فرجعوا إلى بُغراخان ملك تركستان وجاوروه ، وتعاهد طفرلبك وأخوه داود ألا يجتمعا عند بُغراخان وحاول على مجتمعهما فلم يطق ، فقبض على طفرلبك وأرسل عسكره إلى أخيه داود ، فأنهزم المسكر وأتبعوه وخلصوا طفرلبك من أسره ، وعادوا إلى جنْد ، وأقاموا بها إلى انقراض الدولة السامانية وملك أيلك خان بخارى ، فعظم عنده محل أرسلان بن سلجوق (٥) ولما رجع أيلك خان عن بخارى ولي عليها على تكيين (٦) فبقى معه أرسلان إلى أن عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى ، وهرب على تكيين فدخل أرسلان وقومه المفازة ، وكاتبه محمود ولاطفه حتى قدم عليه ، فقبضه ونهب أحياءه ، وأجازهم النهر وفرقهم في نواحي خراسان ، ووضع عليهم الخراج ، فلحقهم جور العمال . فسار منهم جماعة أرسلان إلى أصبهان ، وحاربهم علاء الدين بن كاكوته حروبا كثيرة ، إلى أن ساروا إلى آذر بيجان ، وكانوا يعرفون بين الترك بالغر (٧) . وسار طفرلبك وأخوه داود وبيغو من خراسان إلى بخارى ، وجمع على تكيين عسكره

(١) ما بين القوسين منقول عن ابن الأثير ، لضرورة انسجام العبارة (الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٢) .

(٢) في س بفتح على السين فقط . (٣) في س بفتح على النون فقط .

(٤) في س "ينال وجعربك وداوود" راجع (Enc. Isl. Arts. Caghri Beg and Tughrilbeg)

(٥) لعدم وصوح هذه العبارة تماما ، مع الحرص على إيرادها كما هي ، روى قل ما يقابلها عن ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٣) وهي : " واستقر الأمر بين طفرلبك وأخيه داوود أنهما لا يجتمعان عند بُغراخان ، إنما يحضر عنده أحدهما ويقم الآخر في أهله ، خوفا من مكر يكره بهما ، فبقوا كذلك . ثم إن بُغراخان اجتهد في اجتماعهما عنده فلم يفعلا ، فقبض على طفرلبك وأسرته ، نثار داوود في عشائره ومن يتبعه وقصد بُغراخان ليخلص أخاه ، فأنفذ إليه بُغراخان عسكرا ، فاقتتلوا فانهزم عسكر بُغراخان وكثر القتل فيهم ، وخلص [داوود] أخاه من الأسر ، واضرقت إلى جنْد وهي قريب بخارى ، فأقاموا هناك . فلما انقرضت دولة السامانية ، وملك أيلك الخان بخارى ، عظم محل أرسلان بن سلجوق عم داوود وطفرلبك بما وراء النهر " .

(٦) هو أخو أيلك خان (نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٢٣) .

(٧) "الغر" (مضبوطة) لفظ يقع على ما يتوالد بين العجم في المدن من نسائهم ؛ وقيل الغر لفظ يقع على جنس العجم كله . وقيل الغر في جنس العجم كالمولدة في العرب ؛ وقيل لفظة الغر تقع على التركي والتركياني والقفش والجنس الولد : وقيل هم كل من ولد عامور بن يافت بن نوح ؛ وقيل الغر يجنس التركياني والتركي أفند ؛ وقيل الغر جيل من الشام . عن هامش في س ، ص ١٠ ب .

وأوقع بهم ، فعادوا إلى خراسان وخيموا بظاهر خوارزم ، في (١١١) سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، واتفقوا مع خوارزم شاه هارون بن التوتناش^(١) ، ثم غدر بهم وكبسهم ، فساروا إلى جهة مَرُو . فأرسل إليهم مسعود بن محمود بن سبكتكين جيشا فهزمهم ، واشتغل أصحابه بالفنائم فرجع [الغز] وهزمهم ونهبهم^(٢) ، فاستألم مسعود بعدها وكان يبلخ ، فطلبوا منه لإطلاق عمهم أرسلان الذي قبضه محمود بن سبكتكين ، فشرط حضورهم فأبوا . وعادت الحرب وهزموا عساكره ، وقوى أمرهم واستولوا على غالب خراسان ، وفرقوا المال وخطب لطرلبيك في نيسابور . وسار داود إلى هراة ، فقرت عساكر مسعود ، وتركوا خراسان حتى أتوا غَزَنَةَ ، وسار مسعود من غزنة إلى خراسان في جيوشه ، فقروا^(٣) أمامه وهو يتبعهم ، حتى قتل الأزواد وطال الأمد ، ودخلوا البرية ومسعود في إتباعهم مدة ثلاث سنين ، فانتفض عليه عسكره ، ورجع السلجوقية وهزمهم أقيح هزيمة ، وولى مسعود وغنموا منه ما لا يحصى ، وعادوا إلى خراسان فلذكروها ، وثبتت أقدامهم بها ، وخطب لهم على منابرهما . ووصل مسعود إلى غزنة ، واختلف عليه أمراؤه حتى قتل . وملك طغرلبيك جرجان وطبرستان ، وملك بعد ذلك خوارزم ، ثم سار إلى بلد^(٤) الجبل واستولى عليها ، فأسلم من الترك خمسة آلاف خرّكاه^(٥) وتفرقوا في بلاد الإسلام ، ولم يتأخر عن الإسلام سوى الخطا والتتار بنواحي الصين . وبعث طغرلبيك أخاه إبراهيم بنال بن ميكائيل ، فملك همدان والدينور ، ثم استوحش منه وقتلته وأخذه ، فبعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبيك وهاداه ، وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطرلبيك^(٦) . ثم سار^(٧) طغرلبيك وحاصر أصبهان حتى أخذها صلحا ، ونزلها

(١) في س الطن طاش (راجع ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٩٤ ، ٣٢٥) . وكذلك (Enc. Isl. Art. Altūntāsh) .

(٢) في س فتراجموا وهزموه ونهبوه . (انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٢٥) .

(٣) في س قفروا . (٤) في س بلاد الجبل . (راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨) . (٥) كلمة فارسية معناها خيمة أو نجع .

(٦) العلاقة بين ما جرى لطرلبيك مع أخيه بنال وبين ملك الروم ، أن بنال كان قد غزا البلاد الرومية سنة ٤٤٠ هـ . (١٠٤٨ م) . بجمع من الفر حتى وصل بهم إلى طرابزون ، وظل يقاتل من يقابله من الجيوش الرومية وقتل ويسبي ويغنم ، حتى لم يبق بينه وبين القسطنطينية سوى خمسة عشر يوما . فلما وقعت الوحشة بين الأخوين ، انتهزها ملك الروم وصالح لطرلبيك على الشروط الواردة هنا . (ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٦٠ — ٣٧٢ و ٢٨٠ — ٣٨١ ، وكذلك Camb. Med. Hist. Vol. III, pp. 111, 384-385.) (٧) في س فسار .

وقتل إليها ذخائره ، وأتاه ملك الأكراد فأقره على بلاده شهر زور وغيرها . ثم أنفذ رسوله إلى الخليفة القائم بأمر الله بالهدايا ، وسار يريد بغداد ، فدخلها الخميس بقين من رمضان سنة سبع وأربعين^(١) وأربعمائة . ونعت يالسلطان ركن الدين أبي طالب محمد طغرل بك بن ميكائيل ابن سلجوق بن قينق^(٢) بن جبريل بن داود بن أيوب بن دقاق بن إلياس بن بهرام بن يوسف ابن عزيز بن أحمد بن دهقان ، وقبض على الملك الرحيم أبي نصر وعلى قواده ، وأزال دولة بني بويه . ثم توجه (١٠١ ب) إلى نصيبين وديار بكر ، واستولى على الموصل ، وترك عليها أخاه بنال^(٣) إبراهيم ، فخالف^(٤) على طغرل بك ، وتوجه إلى همدان ، فسار إليه [طغرل بك] وقتله . ثم عاد إلى بغداد وقد ملكها أبو الحارث أرسلان البساسيري ، فأعاد القائم إلى الخلافة وقتل البساسيري ، ثم سار إلى بلاد الجبل فأتى بالري ، في ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، فكانت مدة ملكه ثمانياً وثلاثين سنة تنقص عشرين يوماً ، ولم يخلف ولداً . فملك بعده ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جفري^(٥) بك بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق ، وسار إلى حلب وأقر صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس عليها ، ولقي ملك الروم وهزمه ، وبعث جيوشه فأخذت القدس والزملة من خلفاء مصر [الفاطمين] ، وحصرت دمشق . ومات ألب أرسلان بعد ما رجع من حلب إلى ما وراء النهر ، في ربيع الأول سنة خمس وستين . وملك بعده ابنه السلطان جلال الدولة أبو الفتح محمد ملك شاه بن عضد الدولة أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق تسع عشرة سنة وشهراً ، ومات في نصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وعمره سبع وثلاثون سنة وخمسة أشهر . وكان يُخطب له من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن ، وفي أيامه ملك دمشق أنيسر^(٦) ، ثم أخذها منه تنقش^(٧) بن ألب أرسلان ، فاستمرت بأيدي الترك ؛ وبعث ملك شاه أيضاً آقسنقر قسيم الدولة

(١) في س ، ب "وثلاثين" (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤١٥ — ٤٢٠) .

(٢) في س يفتح القاف وكسر النون ، (انظر Enc. Isl. Art. Seljūqs) .

(٣) كذا في س . انظر ص ٣٢ .

(٤) في س غالف ، (راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٤٣٩ — ٤٤٠) .

(٥) في س جفري بفتح جيم .

(٦) في س "أنيسر" بغير ضبط .

(٧) في س تنقش بغير ضبط أو تقطع على التاء الثانية .

فلك الموصل ، وأَقْسَنْقَرُ هذا هو والد عماد الدين زَنْكِي^(١) . ثم قدم ملك شاه إلى حلب وسلمها إلى آقسنقر ، وعاد إلى بغداد . ومَلَك بعد ملك شاه ابنه محمود وعمره أربع سنين ، فقامت أمه تَرْكُكُن^(٢) خاتون بتدبيره ، فنار عليه أخوه بَرْكِيَارُوق بن ملكشاه واستبد بالأمر ، وكانت^(٣) له [أيضاً] حروب مع أخويه محمد وسَنْجَر إلى أن مات ثاني شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ، عن خمس وعشرين سنة ، منها مدّة وقوع اسم السلطنة عليه اثنتا عشرة^(٤) سنة وأربعة أشهر ، قاسى فيها من الحروب واختلاف الأمور ما لم يقاسه غيره . وأقيم بعده ابنه ملكشاه بن بركياروق^(٥) ، وعمره أربع سنين وثمانية أشهر ، ولقبه جلال الدولة . وقام بأمره الأمير أياكز الأتابك إلى أن قُتِل في ثالث عشر جمادى الآخرة ، بعد ما سلم أمر الدولة إلى السلطان محمد بن ملكشاه بن الب أرسلان . فقام محمد بأمر المملكة إلى أن مات ، في رابع عشرى^(٦) ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، عن ست وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، منها مدّة اجتماع الناس عليه اثنتا عشرة سنة وستة أشهر ، ولقى مشاق^(٧) وأخطاراً كثيرة . فأقيم بعده ابنه محمود بن محمد بن ملكشاه ، وعمره أربع عشرة سنة ، فنارعه عمه (١١٢) السلطان^(٨) ناصر الدين معز الدولة أبو الحارث سَنْجَر ابن ملكشاه بن ألب أرسلان وقاتله ، فانهزم منه محمود ، وخطب لسنجر ببغداد في سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطعت خطبة محمود . ثم اصطلحوا وجعل سنجر ابن أخيه محمود^(٩) ولي العهد بعده ، وكتب إلى جميع الأعمال التي بيده بأن يخطب للسلطان محمود بعده ، وأعاد عليه جميع ما أخذ من البلاد ، فخطب لها ببغداد وغيرها . وعاد سنجر إلى ولايته ، واستمر محمود في السلطنة ، فتكرر الحال بينه وبين الخليفة المسترشد بالله

(١) في المصنف : " أقسنقر هذا هو جد نور الدين الشهيد " . (٢) ضبط هذا الاسم على

منطوقه الإنجليزى (Türkän) . انظر (Enc. Isl. Art. Malikshāh) .

(٣) الهاء عائدة على بركياروق . (٤) في س " اثنا عشر " (٥) في س : بركياروق .

(٦) في س " عشرين " باثبات النون ، وأغلب ما ترد على هذه الصورة ، وستصلح دائماً بدون تنبيه .

(٧) في س : مشاف . (٨) هذا بدء هامش طويل متنسق مع المتن ، ولم تكن هناك حاجة

إلى الإشارة إليه لولا أنه بخط غير خط المؤلف . وأكبر الظن أن ورقة هذا الهامش تعرضت للتلف ،

فكتبها أحد المتأخرين بخط نسخ جميل على ورقة أخرى ، ووضعها مكان الأولى . (٩) في س محمود .

واقْتتلا، ثم اصطالحا في عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين . وسار محمود عن بغداد ،
وَوَلَّى عماد الدين زنكي بن آقسنقر شَحْنَكِيَّتْهَا^(١)، ثم نقله إلى الموصل ، وأضاف إليه الجزيرة ،
فاشتدت وطأته بها حتى ملك حلب أول المحرم سنة ثنتين وعشرين ، ثم ملك حماة وعدة
حصون بالشام . ومات السلطان محمود في شوال سنة خمس وعشرين [وخمسمائة] بهمذان
عن سبع وعشرين سنة ، منها ولايته السلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما .
فأُقْعِدَ بعده في السلطنة ابنه داود بن محمود [بن محمد^(٢)] بن ملكشاه ، فنازعه عمه السلطان
مسعود ، وقاتله ثم اصطالحا . وطلب مسعود من الخليفة المسترشد أن يخطب له ببغداد ،
فأجاب بأن الحكم في الخطبة إلى السلطان سنجر ، [وأرسل إلى سنجر^(٣)] ألا يأذن لأحد
في الخطبة ، وأن الخطبة ينبغي أن تكون له وحده ، فوافق ذلك غرض سنجر . فاشتد ذلك
على مسعود ، وعزم على أخذ السلطنة ، فسبقه [أخوه] السلطان سلجوق شاه بن السلطان
محمد إلى بغداد ، وكانت أمور آلت إلى أن يكون مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه سلطانا ،
وسلجوق شاه ولي عهده ، وقُطِعَت خطبة سنجر من العراق جميعه . وكان عماد الدين زنكي
قد قدم نصره لمسعود ، فهزمه أصحاب سلجوق شاه هزيمة قبيحة ، فلما وصل تَكَرَّبَتْ أقدام له
نجم الدين أيوب بن شاذي الدُّزْدَار^(٤) بها المَعَابَر حتى خلص إلى بلاده ، فشكر ذلك لنجم الدين
وقرَّبه ، فكان ذلك سبباً لاتصال نجم الدين به والمصير في جلته ، حتى آل بهم الأمر إلى
مُلك مصر والشام وغيرهما . واقتتل مسعود^(٥) وسنجر ، فانهزم مسعود وقتل أصحابه ، ثم أحضر
إلى سنجر فمات به ، وأعادته إلى كَنْجَة^(٦) ، وأجلس^(٧) [ابن أخيه] الملك طغرل بن السلطان محمد

(١) أي رئاسة الشرطة بها ، ويسمى متوليها صاحب الشحنة . (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) في س اثنا .

(٣) راجع . (Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, Table facing P. 152.)

(٤) ليس لما بين الفوسين وجود في س ولكنه في ب (س ١٣ ب) ، وهو يطابق تماما ماورد
في ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٧٤) . وربما استعان كاتب نسخة ب بهذا المرجع
في توضيح ما غمض عليه .

(٥) في س الدردار . أما الدزدار فكلمة فارسية معناها "حاكم حصن" . (Enc. Isl. Art. Diz.)

(٦) في س محمود . (٧) في س كيخته . انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٤٧٧

و ٤٨٣ ؛ وكنجة مدينة كبيرة ، وهي قسبة بلاد أَرَّان (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٠٨) .

(٨) في س "واجلسه الملك طغرل" . (راجع ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٧٧) .

في السلطنة ، وخطب له في جميع البلاد ، وذلك في ثامن رجب سنة ست وعشرين . فلما كان في رمضان اقتتل الملك طغرل بن محمد هو وابن أخيه الملك داود بن محمود ، فانهزم داود ؛ فلما سمع ذلك السلطان مسعود بن محمد سار إلى بغداد ، فاقبىه داود ودخل معه إليها ، في صفر سنة سبع وعشرين ، وأعيدت له الخطبة بها ولداود معه ، وخلع عليهما الخليفة . ثم سارا لمحاربة طغرل ، فخارباه وهزمناه في شعبان ، فامتدت الحرب بينهم إلى شوال . ثم عاد طغرل بن محمد ، وأجلى أخاه مسعوداً^(١) عن بلاده في رمضان سنة ثمان وعشرين ، فقدم [مسعود^(٢)] بغداد في نصف شوال ، فأكرمه الخليفة المسترشد وأنزله وأنعم عليه . ثم قدم^(٣) الخبر بوفاة طغرل بن محمد ، في المحرم سنة تسع وعشرين ، فسار مسعود إلى همدان واستولى عليها ، و [كان قبل^(٤)] ذلك قد نافر الخليفة ، فقطع [المسترشد] خطبته من بغداد وسار لقتاله ، فبرز إليه [مسعود] ، وقاتله في عاشر رمضان وأخذه أسيراً ، وبعث إلى بغداد فقبض على أملاك الخليفة ، وكسر منبره وشباكها . ثم قُتل الخليفة بيد الباطنية ، وأقيم بعده الراشد^(٥) (١١٢) خليفة . فسار الملك داود بن السلطان محمود في عسكر آذر بيجان إلى بغداد ، فقدمها رابع صفر سنة ثلاثين وخمسمائة ، وأقام برتقش^(٦) على شُحْنَكِيَّتِها . وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب لداود ، فسار مسعود إلى بغداد وحصرها نيفا وخمسين يوماً ، فكانت أمور آت إلى عود الملك داود إلى بلاده في ذى القعدة ، و [إلى] تفرق الأمراء [الذين كانوا معه^(٧)] ،

(١) في س : مسعود . (٢) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٦ .
 (٣) في س : فقدم . (٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٠ ، ١٤ — ١٦) . (٥) هنا ينتهي الهامش المشار إلى مبدئه في ص ٣٤ ،
 حاشية رقم ٨ . (٦) في س رتقش . وفي ابن الأثير برتقش بازدار بدون ضبط ، وكان صاحب قزوين . (نفس المرجع ؛ ج ١٠ ، ص ٢٣) . راجع أيضا (Rec. Hist. Or. II. 2. pp. 88, 92)
 حيث رسم هذا الاسم هكذا (Berenkach) . أما البازدار فهو الذي يحمل الطيور الجوارح المدة للصيد على يده . (الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٤٦٩) . (٧) يظهر هنا بوضوح أن الميرزي كان ينقل من ابن الأثير مباشرة أو عن مرجع آخر مصدره ابن الأثير . على أن عبارة الميرزي هنا مقتضبة ، وهي بحاجة إلى توضيح أكثر ، رغم ما أضيف بين القوسين (انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٢٢ — ٢٤ ، ٢٦ — ٢٧) .

وسار الخليفة الراشد [من بغداد] إلى الموصل في نفر يسير مع عماد الدين ^(١) زنكي ، [فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة ^(٢) الخليفة وزنكي بغداد سار إليها] ، ودخلها ^(٣) في نصف ذي القعدة ، وخرج الراشد وأقام المقتنى لأمر الله أبا عبد الله محمد بن المستظهر في الخلافة ، وزوجه أخته فاطمة على مائة ألف دينار صداقا . فسار الراشد بالله من الموصل إلى سمرأغة ، فأناه الملك داود في جماعة ليرده إلى الخلافة ، فسار السلطان مسعود من بغداد في شعبان سنة اثنتين ^(٤) ، وثلاثين ، وحاربهم وهزمهم ، فحمل عليه بعض من انحاز منهم إلى تل ، [فلم يثبت لهم وانهمز ^(٥)] ، وما زال حتى صار إلى آذر بيجان ، وقصد داود همدان ومعه الراشد ، وسار سلجوق شاه بن محمد إلى بغداد ليليلها ففتح منها ، وسار مسعود ليمنع داود من أخذ الراشد ومسيره به إلى العراق ، فترك داود الراشد ، وعاد إلى فارس ، فقتل الراشد بيد الباطنية أيضا . وضاعت الأمور على السلطان مسعود ، وكثرت الخوارج عليه : وسار عماد الدين زنكي إلى دمشق ، وحصرها مرتين وملك بعلبك ؛ وحارب السلطان سنجر بن ملكشاه خوارزم شاه أنسر ^(٦) بن [قطب الدين] محمد بن أنوشكين ، فقتل ابن خوارزم شاه ، فبعث خوارزم شاه إلى الخطاوم بما وراء النهر ، فأطمعهم في البلاد وتزوج منهم ، فساروا في ثلاثمائة ألف فارس ، فحاربهم سنجر ، فقتلوا منه نحو مائة ألف ، وهزموه في صفر سنة ست وثلاثين ، فأخذ خوارزم شاه مدينة مرو . فسار السلطان مسعود إلى الري ، وقد استقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر ، وأخذ خوارزم شاه نيسابور أيضا ، وقطع خطبة السلطان سنجر أول ذي القعدة ، وخطب باسمه ، وعاث أصحابه في خراسان وعملوا أعمالا فيبيحة . ثم آل أمر أنسر ^(٧) خوارزم شاه إلى مصالحة السلطان سنجر ،

(١) كان الخليفة وزنكي من حلفاء داود ضد مسعود . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢ — ٢٣) .

(٢) روى إضافة ما بين القوسين من ابن الأثير للتوضيح (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٢٦) .

(٣) في س " ودخلها السلطان مسعود " . (٤) في س " شي " .

(٥) في س " وهزمهم " . وهذا يخالف ما جاء في ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٠) . أضيف منه ما بين القوسين بصرف طفيف .

(٦) في س المسر . (٧) في س المسر . يلاحظ أن المؤلف عكس ترتيب الاسم هنا .

في سنة ثمان وثلاثين ، وأقام بخوارزم على ما كان عليه ، وأقام سنجر بمر . ومات أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والشام ، قتله بعض مماليكه (١٢٠) في خامس ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فسار أبته نور الدين محمود بن زنكي إلى حلب فملكها ، وملك سيف الدين غازي بن زنكي الموصل . ومات السلطان مسعود بن محمد ابن ملكشاه بهمدان ، أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، ومات (١) معه سعادة بني سلجوق ، فلم يبق بعده لم راية يعتديها . فقام بعده ملكشاه بن السلطان محمود ، وخطب له ، فلما بلغ الخليفة المقتنى لأمر الله موت (٢) [السلطان مسعود] أحاط بداره ودُور أصحابه ، وأخذ كل ما لهم ، وجمع الرجال والعساكر ، وأكثر من الأجناد ، وجهر (٣) إلى الحالة والكوفة وواسط العساكر فأخذوها . ثم إن الأمير خاص بك (٤) قبض على ملكشاه وبعثه إلى خوزستان ، واستدعى أخاه محمد بن محمود من خوزستان ، وأجلسه على تخت السلطنة ، في أوائل صفر سنة ثمان وأربعين ، فقتل محمد [خاص بك] ثاني يوم قدومه . وملك نور الدين محمود بن زنكي دمشق في صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، واستولى شمله (٥) التركاني على خوزستان في سنة خمسين وخمسمائة ، وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد . وضعفت يد السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، حتى لم يبق له إلا اسم السلطنة ، وأخذ الغزنيسابور بالسيف ، ففر منهم سنجر في رمضان سنة إحدى وخمسين إلى ترمذ (٦) ، ثم إلى جيحون يريد خراسان ، ثم عاد إلى دار ملكه بمر . وسار السلطان محمد شاه بن محمود من همدان ، وحضر بغداد في ذي الحجة منها (٧) ، لا متناع الخليفة من الخطبة له ، إلى أن عاد إلى

(١) في "ومات" . (٢) في "موته" . (٣) في "وجهو" .

(٤) كان خاص بك — واسمه الأصل أرسلان بن بلنكري — أقرب الأمراء إلى السلطان مسعود . وهو الذي أجلس ملكشاه على عرش عمه بالعراق . (Enc. Isl. Art. Mas'ūd) ، وكذلك ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٠٥ — ١٠٧) . (٥) بدون ضبط في س وابن الأثير ، واسمه أيدغدي التركاني وكان معروفًا بشمله (ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٠٦) .

(٦) في س ترمذ . والنطق الثبوت هنا هو "التداول على لسان أهل تلك المدينة" زمن ياقوت ، وغيره كثير (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١١ ، ص ٨٤٣) . (٧) يقصد المؤلف سنة إحدى وخمسين التقدمة الذكر (انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٤٠ — ١٤٢) .

همذان في أخريات ربيع^(١) الأول سنة ثنتين^(٢) وخمسين ، ولم ينل طائلا من بغداد . ومات السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان في ربيع الأول سنة ثنتين^(٣) وخمسين ، و[قد] خطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة ، وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة . واستخلف^(٤) بعده على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخته . ومات السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد في ذي الحجة سنة أربع وخمسين بهمذان ، عن اثنتين وثلاثين سنة ، وترك ولدا صغيراً ؛ فاختلف الأسراء بعده : فمنهم من أراد أن يملك ملكشاه بن محمود ، ومنهم من طلب سليمان شاه [بن محمد] ، وطلب قوم أرسلان [شاه]^(٥) بن طغرل . فسار ملكشاه من خوزستان إلى أصفهان وملكها ، خالف^(٦) عليه أهل همذان وطلبوا سليمان شاه ، فسار (١١٣) من الموصل أول سنة خمس وخمسين يريد همذان ، فقبض عليه بها في شوال سنة ست وخمسين ، وخطب لأرسلان شاه بن الملك طغرل بن محمد . ومات ملكشاه بن محمود بن محمد بن ألب أرسلان بأصفهان في أثناء السنة ، وخطب بعده بها لسليمان شاه ، واستقرّ ملكه بتلك البلاد . ثم قتل السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه في ربيع الأول ، وخطب بعده لأرسلان شاه بن طغرل^(٧) بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جفري^(٨) بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بهمذان وأعمالها . وطلب [أرسلان شاه] من الخليفة المستنجد بالله أن يخطب له ببغداد ، كما كانت العادة في أيام السلطان مسعود ، فأهين رسوله وأعيد إليه على أقبح حالة ، فكثر الخلاف والقتال بين عساكر السلجوقية ، فمات أرسلان في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . وأقيم من بعده

(١) في ب (م ١٥ ب) "شهر ربيع الأول" ويحدث هذا التصرف الطفيف أحيانا ، أما الغالب في نسخة ب فهو حذف كلمة "شهر" حيث توجد ، وسينه إلى هذا النوع الآخر من التصرف في مكانه مرة واحدة . (٢) و(٣) في س سي . (٤) في س استخلف .

(٥) راجع (Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, Table facing p.152)

(٦) في س خالف . (٧) في س "طغرل" . (٨) في س "حمرلك بن داود" .

ابنه طغرل^(١) بن أرسلان آخر السلاطين السلجوقية ، وكان تحت أمر قزل أرسلان إيلديز^(٢) ، ثم استبدت بسلطنته ، وفارق قزل أرسلان . فأقام قزل عوضه معز الدين سنجر بن سليمان بن محمد ابن ملكشاه ، وطرده ثم ظفر به وسجنه ، ثم خلص وقتل في محاربة خوارزم شاه قريبا من الري ، في رابع عشر ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة ، وحمل رأسه إلى بغداد فكان آخر السلجوقية ، وملك بعده خوارزم شاه . فكانت مدتهم ، من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة إلى سنة تسعين وخمسمائة ، مائة وثمانيا وخمسين سنة . وكان أسد الدين شيركوه بن شادي قد تقدم عند نور الدين محمود بن زنكي ، وبعثه أمير الحاج من دمشق ، ثم سيره مع شاور^(٣) بن مجير السعدي وزير الخليفة العاضد [الفاطمي] ، على عسكر من الفز إلى مصر . وكان شيركوه هذا وأخوه نجم الدين من بلد دوين^(٤) أحد بلاد آذربيجان ، وأصلهما من الأكراد ، فحدا مجاهد الدين بهروز وشحنة^(٥) بغداد ، فجعل أيوب مستخفيا^(٦) لقلعة تكرر بت ، فسار إليها ومعه أخوه شيركوه ، وهو أصغر منه

(١) في س "طغرل" .

(٢) في س "قزل أرسلان بن ابل دكر" ، بدون ضبط . أما هذا السلطان الأخير من سلاجقة العراق فقد تولى الملك فاصرا صغيرا ، وكان صاحب أمره أولا الأتابك البهلوان محمد بن إيلدكر ، ثم بعد وفاته أخوه قزل أرسلان ، واسمه عثمان بن إيلدكر . وقد تمرد هذا السلطان الأديب لما أقيم على قزل ، وطل يدفع عن شرف الدولة السلجوقية واستقلالها بالعراق حتى مات في ميدان القتال سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) . راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ و ٣٧١ — ٣٧٣ ؛ وأيضاً ج ١٢ ، ص ١٥ — ١٦ و ٤٩ — ٥٠ و ٦٩ — ٧٠) ، وراجع أيضاً (Enc. Isl. Art. Tughril, II.)

(٣) اسم هذا الورير " أبو شجاع مجير الدين بن مجير السعدي " . ومن هنا يتبين خطأ كاتب نسخة ب (ص ١١٥) إذ أورد الاسم على أنه " شاور بن مجير الدين السعدي " .
(٤) مضبوطة هكذا في ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٣٢) ، وهي واقعة حسبها جاء في نفس المرجع ، في اران في آخر حدود آذربيجان بقرب تفليس .

(٥) وطيفة الشحنة هي الشحنة (انظر ص ٣٥ ، حاشية رقم ١) . أما بهروز مجاهد الدين النياثي فقد كان صاحب الشحنة ببغداد مرات متعددة ، بين سنتي ٥٠٢ ر ٥٤٠ هـ (١١٠٨ و ١١٤٥ م) . وأصله عبد روى من دوين ، ثم كانت قلعة تكرت من ضمن أملاكه ، فولى عليها صديقه وابن بلدة أيوب سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) . راجع ابن الأثير : السكامل في التاريخ ج ١٠ ، ص ٣٣٠ ، ٤٧٥ و ج ١١ ، ص ٧٠ و ٢٢٥ وأيضاً (Lane-Poole : Saladin, p. 5.) وكذلك (Enc. Isl. Art. Aiyūbids) .
(٦) أي حاكما على تلك القلعة (Dozy : Supp. Dict. Ar.) وانظر أيضاً ص ٣٥ حاشية ٥ .

سنا، فقدم الشهيد زنكى لما انهزم، فشكر له^(١) ذلك. ثم إن شيركوه قتل رجلاً بتكرت، فطرد هو وأخوه من القلعة، فسارا إلى زنكى فأحسن إليهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، ثم جعل أيوبَ مستحفظاً لقلعة بعلبك، ثم ترقى وصار من أمراء دمشق. واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى، وخدمه في أيام أبيه، فلما ملك حلب بعد أبيه، كان لنجم الدين أيوب عمل كبير في أخذه دمشق، فزادت مكاتهما عنده، ولم ير أحداً يليق به أن يسير مع شاور إلى مصر سوى شيركوه^(٢)، فبعثه إليها ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف، فكان من أمره ما ذكر في أخبار العاضد^(٣)، فلما مات شيركوه قام من بعده صلاح الدين يوسف، كما ستقف عليه فيما يأتي إن شاء الله تعالى^(٤).

(١٤) السلطان الملك الناصر صلاح الدين^(٥)

يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان بن أبي علي [بن عنقرة] الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هُدْبَة بن الحصين بن الحارث بن سِنَان بن عمرو بن مرة بن عوف. ومن هنا اختلف النسابون: فقيل عوف^(٦) بن أسامة بن نَبَش بن الحارثة [صاحب الحَمَالَة] ابن عوف بن ابن أبي حارثة بن مرة بن نُشْبَة بن عَظِيز بن مرة بن عوف بن^(٧) سعد بن دُبْيَان ابن بَغِيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قيس [بن] عيلان بن مضر^(٨) بن نزار بن معد بن عدنان. ويقال إن علي بن أحمد يعرف بالخراساني، مدحه المتنبى بقصيد منها: —

(١) انظر ص ٣٥ . (٢) وقعت هذه الحادثة سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) .
(٣) بهامش الصفحة تفسير لهذا الاسم أنه : " معنى شيركوه اسد الغابة " .
(٤) لا يوجد كثير من أخبار العاضد هنا ، وليس بالنسخة المطبوعة من كتاب انطاخ الخلفاء بأخبار الخلفاء شيء ، فإن آخر موضوعاته قتل الخليفة الحاكم بأمر الله (انظر ص ٩ ، حاشية رقم ٢) .
(٥) لى يتبدى المؤلف الموضوع التالى على ورقة جديدة ، ترك بقية هذه الصفحة (١١٣)
والتي تليها بيضاء .

(٦) يبدأ المؤلف فى س ، والناسخ فى ب ، عناوين الموضوعات الجديدة أول سطر دائماً بقلم عريش ، بخط نسخ ، بمداد أحمر غالباً . غير أن بعضها طويل ، إذ ينتهى عنوان هذا الموضوع عند لفظ " شادى " (سطر ٩) فى المتن ، وقد اكتفى منه بالقطعة الأولى .

(٧) فى س " يهس بن الحرث " . وبغير ضبط . (٨) فى س ذبيان بن بغيض ، وبغير ضبط .
(٩) ليس لهذه النسبة ، أو ما يشابهها من الأنساب العربية للأكراد ، نصيب من الصحة (انظر ص ٣ ، حاشية رقم ١) . ومع هذا فقد صححت الأعلام الواردة هنا على ماورد فى ترجمة صلاح الدين بالجزء المختار من وفيات الأعيان فى (Rec. Hist. Or. III, p. 400) .

شرق الجسوة بالغبار إذا سار على بن أحد القمام

وقيل إن مروان من أولاد بني أمية ، زعم ذلك إسماعيل بن طفتكين بن أيوب ، وأنكر ذلك عمه الغادل أبو بكر . وذكر ابن القادسي^(١) أن شادي كان مملوكا لبهروز الخادم . والحق أنه من الأكراذ الروادية أحد بطون الهذبانة^(٢) ، من بلد دوين^(٣) في آخر آذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج . وكان له ابنان ، أكبرهما أيوب ثم شيركوه ، قدم بهما العراق فحكما عند بهروز ، فجعل أيوب على قلعة تكريت وكانت في إقطاعه ، وقيل جعله بعد أبيه شادي ، فخدم أيوب وشيركوه عماد الدين زنكي لما انهزم إليها ، ثم قتل شيركوه رجلا ، فأخرجه بهروز من تكريت هو وأخاه أيوب ، وقد ولد يوسف بن أيوب تلك الليلة . فلحقا بزنكي ، واتصل أيوب بولده غازي بن زنكي ، وخدم شيركوه محمود بن زنكي . فأقام عماد الدين غازي أيوب بن شادي على قلعة بعلبك ، وما زال يترقى [حتى صار من أسراء دمشق] . ولد [صلاح الدين يوسف] قلعة تكريت في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وكان أبوه نجم الدين أيوب والياً بها ، ثم انتقل بابنه يوسف إلى الموصل ، وصار منها إلى الشام ، فأعطى بعلبك ، فأقام بها مدة . ونشأ يوسف وعليه لوائح السعادة ، وجالس مشايخ أهل العلم ، فجمع [له الشيخ^(٤) الإمام] قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري^(٥) عقيدة تحوى

(١) انظر بعض أخباره في (Blochet : Op. cit. p. 98, N. 1) .

(٢) راجع ص ٤ ، وأيضاً . (Rec. Hist. Or. III. p. 899) .

(٣) مضمولة هكذا في س . (٤) الراجع أن القرينى استعان بكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ، في ترجمة صلاح الدين . غير أنه قضب العبارة كثيراً ، جعلها في حاجة إلى كثير من الإضافة بين أقواس مربعة ، ولهذا رأى لإيراد ما جاء في ابن شداد ، وهو : " وكان [صلاح الدين] رحمة الله عليه حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل ، بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء . وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يده يقول فيه قولاً حسناً ، وإن لم يكن بمسألة الفقهاء . فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر الشبه ، غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه ، حارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء . وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ... " (Rec. Hist. Or. III. p. 7) .

(٥) بهامش الصفحة إشارة فارغية ، ونصها : " ولد مسعود هذا في سنة خمس وخمسمائة ، ومات بدمشق سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وكان إماماً فاضلاً في علوم الديانة " .

جميع ما يحتاج إليه ، فن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده وبأخذها عليهم ، وكان يواظب الصلاة مع الجماعة ، حتى قال يوما : "لئى سنين ماضيت إلا فى جماعة" . وكان إذا مرض استدعى الإمام وحده ، وصلى خلفه . وصار فى خدمة نور الدين محمود بن زنكى ، فخرج مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر ، فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وقدمها . ثم عاد إلى الشام ، وقدمها ثانيا مع عمه ، وحضر وقعة البابين^(١) ، وحصره الفرنج بالإسكندرية . ثم خرج مع عمه إلى الشام ، وسار معه فى السكرة الثالثة على كره منه فى السير إلى مصر ، فقدمها فى سنة أربع وستين ، ولما تقاعد شاور عن إجابة شيركوه . وإعطائه ماتقدم به الوعد لنور الدين والعسكر ، تشاوروا على الإحاطة به والقبض عليه ، فلم يجسر عليه أحد منهم إلا صلاح الدين : فإنه لما قدم عليهم شاور على عادته فى كل يوم ، وساروا معه لقصد أسد الدين ، سار صلاح الدين إلى جانبه وأخذ بتلاييه ، وأمر العسكر بأخذ أصحابه ، ففروا عن شاور ، ونهب الغزما كان معهم ، وسبق شاور إلى الخيم وقتل^(٢) . فاستقر أسد الدين [شيركوه] بعده فى وزارة العاضد إلى أن مات ، فى ثانى عشرى جمادى الآخرة من سنة أربع وستين . ففوّض العاضد وزارته إلى صلاح الدين ، ونعته بالملك الناصر ، فشئ الأحوال ، وبذل الأموال ، واستعبد الرجال ، وتاب عن الخمر فترك معاقبته ، وأعرض عن اللهو . ودّر الأمر فى نوبة نزول الفرنج على دمياط أحسن تدبير ، حتى رحلوا عنها خائبين ، فنهبت آلاتهم وأحرقت مجانيقهم ، وقتل منهم خلق كثير . وتمكن^(٣) [صلاح الدين] فى مصر ، فقدم عليه أبوه نجم الدين أيوب وإخوته وأهله . ثم إنه دأب فى إزالة الدولة الفاطمية وقطع دابرها ومحو آثارها ، فأعانه الله على ذلك ،

(١) تقع هذه البلدة عند مسافة عشرة أميال جنوبى النيا ، وقد اشتبك عندها ، فى ١٨ إبريل سنة ١١٦٧ م ، شيركوه مع شاور وحليفه عمورى (Amaury) ملك الدولة الصليبية بيت المقدس ، وانتصر شيركوه عليهما بفضل قائد قلب جيبه صلاح الدين . (Lane-Poole : Saladin, pp. 88 - 89) .
(٢) بعد قتل شاور ، طلب الخليفة العاضد أيضا "ولد شاور الملك الكامل ، وقتله فى الدهليز؛ وقتل أخاه" كذلك (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٠ — ٢٢٤) .

(٣) فى "مناجيقهم" . ويشير المؤلف هنا إلى حصار الصليبيين دمياط فى نوفمبر سنة ١١٦٩ م ، وإلى جلاشهم عنها فى ديسمبر من السنة نفسها . (Lane-Poole : Saladin, pp. 103-106)

ومات العاضد وقد قطع [صلاح الدين] خطبته ، وأمر الخطباء بالدعاء (١٤ ب) للمستضى .
[بأمر الله العباسي] ، فاستولى على القصر^(١) وما يحويه ، في عاشر المحرم سنة سبع وستين . وأخذ
يتأهب لغزو الفرنج ، وقد انفرد بسلطنة ديار مصر . وكتب العماد الإصهاني بشارة تُقرأ
في سائر بلاد الإسلام بإقامة الخطبة العباسية بمصر ، وبشارة ثانية تُقرأ بمحضرة الخليفة المستضى
بنور الله في بغداد ، على يد القاضي شهاب الدين المطهر بن شرف الدين بن عَصْرُون . فسار
[القاضي] ، ولم يترك مدينة ولا قرية إلا وقرأ فيها المنشور ، حتى وصل بغداد ، فخرج الناس
إلى لقائه ، ودخل يوم السبت ثاني عشره ، فَعَلَّقَتْ أسواق بغداد بالزينة ، وخليع عليه .

وفي يوم الجمعة رابع^(٢) عشره أخرج الكامل شجاع بن شاور ، من المكان الذي قُتل فيه
بالتصردفن فيه ، فوجدت الجثة مختلطة بجمي^(٣) عمه وأخيه ، فجمعوا في تابوت حمل^(٤) إلى قبر
شاور ، فنبش عنه وأخرج منه ، وكان في مكان غامض ، وحمل في تابوت . وساروا بالتابوتين إلى
تربة طي^(٥) بن شاور فدفنوا بها . وفي تاسع عشره رحل السلطان الملك الناصر من القاهرة ؛
ونزل البئر البيضاء^(٦) يريد بلاد الشام ، فوصل إلى الشوبك ، فواقع الفرنج ، وعاد على أيلة ،
وهلك منه نحو الخمسة آلاف رأس ، ما بين حمل وفرس ، في هذه السفرة .

وفيهما فرقت الزكوات في ثالث ربيع الأول على الفقراء والمساكين ، وأبناء السبيل
والتارمين ، ورفع إلى بيت المال سهم العاملين والمؤلفة وفي سبيل الله وفي الرقاب ، وأخذت

(١) قصور الفاطميين بالقاهرة كثيرة ، ولعل المقصود هو القصر الكبير الذي بدأ ببناءه القائد جوهر
المقل سنة ٩٦٩ م . (Lane-Poole : Cairo 126-128) .

(٢) أي المحرم سنة ٥٦٧ هـ . ويقع هذا التاريخ يوم الجمعة بالصبط .

(٣) لعل المقصود هو صبح أخو شاور ، الذي جرح جرحاً بليغاً مات منه في تلك الأيام (حسن
إبراهيم حسن . الفاطميون في مصر ، ص ٣٠٣) .

(٤) في س "وحمل" .

(٥) أولاد شاور ثلاثة ، وهم : طي وشجاع وسليمان والأول أكبرهم ، وقد قتل سنة
١١٦٣ م ، بعد قليل من سفر أبيه شاور إلى الشام ، لاستنجد نور الدين على ضرغام . (Enc. Isl.
Art. Shawar) ثارن هذا ما هو وارد في حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

(٦) لم يرد هذا الاسم في معجم البلدان لياقوت ، غير أن "البيضاء" فقط "اسم لأربع قرى بمصر ،
الأولى من كورة الشرقية" ، والراجح أن هذه القرية هي ما قصد المقرئ هنا (ياقوت : معجم البلدان ،
ج ١ ، ص ٧٩٣) .

الزكاة من البضائع ، وعلى ما اقتدر عليه من المواشى والنخل والخضرافات ، وقررت السكة باسم المستضىء بأمر الله ، وباسم الملك العادل نور الدين ، فنُقش اسم كل منهما في وجه ، وذلك في سابع شهر ربيع الآخر . وفيه قُلعت المناطق الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة التي فيها أسماء الخلفاء الفاطميين ، وكان وزنها خمسة آلاف درهم فضة نُقرة^(١) . وفيه أنزل الغز بالقصر الغربى ، وأخرج من كان ساكناً فيه . وَوَرَدَ الخبر بأن الخمر — بعد تعطيلها ، وغلق حاناتها وقطع ذكرها ، بالإسكندرية — أعيدت ببذل مال لديوان نجم الدين أيوب ، ففتحت مواضعها وظهرت مناكرها^(٢) . وفي جمادى الآخرة قُرّرَ دينار الأسطول^(٣) بنصف وربع دينار ، بعد أن كان بنصف وثمان دینار . وفي سابعه ولد عثمان الملك العزيز^(٤) وفي ثالث عشره كشف حاصل القصر بالخزائن الخاصة ، فوجد فيها مائة صندوق كسوة فاخرة ، ما بين مُوشَّح ومُرَصَّع ، وعقود ثمينة ، وذخائر فخمة ، وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر عظيمة . وكان الذى تولى كشفها بهاء الدين قرأقوش^(٥) . وفيها كثرت عادية القار فى أكل ثمار النخل والأقصاب والأشجار ، وأنتهى الحال إلى أن اعتصر من مائه فدان مزروعة قصباً ستون أبلوجاً^(٦) . ومع هذا فالأسعار^(٧)

(١) الفضة النقرة عبارة عن سبيكة من الفضة والححاس الأحمر ، بنسبة اثنين من الفضة وثلاث من الححاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ ، (٢) فى "فتحت مواضعها وظهرت مناكرها" . (٤٦٧ — ٤٦٦) .

(٣) عى الفاطميون بالأسطول ، وكان قواده فى أيامهم عشرة ومرتباهم من ديوان الجيش ، وهذه تختلف من عشرين ديناراً إلى دينارين وعبرتها واجعة إلى الإقطاعات التى تعرف بأبواب الغزاة ، والى منها رواتبهم ، ولهذا كان يصل دينارهم — أى دينار الأسطول — بالنسبة إلى الصف . وقد اعتنى صلاح الدين أيضاً بالأسطول ، فأفرد له ديواناً خاصاً يعرف بديوان الأسطول ، وعين له نواحى عديدة من المراح ، كما زاد فى إقطاعاته وفى دياره إلى ما هو مبین ثالث (المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٢ — ٤٨٣ وح ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩٧) . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ — ٤٤٣ . (٤) ثانى أولاد صلاح الدين . انظر أخبار سلطنته فيما يلى .

(٥) فى س ، ب (ص ١٦ ب) "قرأقوش" ، وسيصحح إلى الرسم الوارد هنا فى سائر المتن بلا تذهيب . واسمه بهاء الدين بن عبد الله الأسدى الرومى المالكي ، وأصله عبد طواش ، أعقبه أسد الدين شيركوه ، وأصبح فى أوائل أيام وزارة صلاح الدين حاجباً ، وقد نبط به بعد ذلك أعمال هامة كبناء قلعة الجبل بالقاهرة ، واستمر موصى ثقة صلاح الدين ، وولده عثمان من بعده كما سيأتى ذكره . (Enc. Isl. Art. Karakūsh)

(٦) فى س ابلوجه ، ويفسره (Dozy: Suqq. Dict. Ar.) بأنه (pain de sucre) أى قمع سكر .

(٧) فى س الأسعار .

رخيصة ، (١٥) والفلة كل ثلاثة أراذب من القمح بدينار ، والشعير كل ثمانية أراذب بدينار ، والفول كل أربعة عشر أردبا بدينار ، والسكر كل قطار بثلاثة دنانير . وفي تاسع رجب وصلت الخلع التي نُفِّذَتْ إلى نور الدين من الخليفة ببغداد ، وهي فَرَجِيَّة سوداء وطوق من ذهب ، فلبسها نور الدين ، وسيرها إلى الملك الناصر ليلبسها ، وكانت نفذت له خِلعة ذُكِرَ أنه استقصرها واستنزرها واستصفرها دون قدرة . فبات الواصل بالخلع برأس الطاوية ؛ فلما كان العاشر منه خرج قاضي القضاة صدر الدين بن دَرْبَاس^(١) والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة ، وهو من الأصحاب النجمية ، وزُيِّنَت البلد . وفيه ضُربت نُوبُ الطبلخاناه^(٢) بالباب الناصري ثلاث مرات في كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب النوري . وفي حادي عشره ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة ، فلما بلغ باب زويلة نزعا وأعادها إلى داره ، وبرز للعب الكرة . وفيها عمت بلوى الضائقة بأهل مصر ، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا ، وعُدِمَا فلم يوجد ، ولَمَّحَ الناس بما عَمَّهُم من ذلك ، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكروا حرمة الغيور له ، وإن حصل في يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له . ومقدار ما يُحْدَس أنه

(١) مضبوطة على منطوقها الفرنسي في (Blochet : Op. cit. p 106) .

(٢) الطبلخاناه — بالماء — لفظ مركب من كلمة طبل وهي عربية ، وكلمة خاناه وهي فارسية ، ومعناه مكان الفرقة الموسيقية السلطانية ، أو الفرقة الموسيقية نفسها . وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون حجة السلطان في الأسفار والحروب . (القفاشندي : صبح الأعشى ، ح ٤ ، ص ٨ — ٩ و ١٣) . وانظر أيضا : (G. - Demombynes : La Syrie, Introd. P. LIV) . وفي هامش الصفحة عبارة تفسيرية لأصل نظام نوبات الطبلخاناه ، وهذا نصها : ” أصل ذلك أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه لما عم على المسير إلى العراق ، وخالف على الخليفة الناصر ، ضرب لنفسه نوبة ذى القرنين تعاطل ، وهي [في] وفق الثرورق والغروب ، بعد ما كانت ، بعد ما كانت تضرب له خمس نوب في أوقات الصلوات الخمس ، فعوضها لأولاده بضربونها في الأقاليم التي سماها لهم على أبواب دور سلطنتهم ، فلذلك كان نور الدين يضرب بدمشق النوب الخمس . أول يوم ضربها خوارزم شاه اختار لصربها سبعة وعشرين ملكا من أكابر الملوك وأولادهم ، وكانت آلات النوبة من الذهب “ .

(٣) في مر ، ” زم “ ، وهي في ب (ص ١٧) ” ثم لعب “ .

من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وطبوس^(١) وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفي به مُلك الأكاسرة، ولا تتصوره الخواطر، ولا تشتتل على نيله الممالك، ولا يتقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة. وفيها عرض السلطان العربان الجذاميين^(٢)، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس، فاستقرت على ألف وثلاثمائة فارس لا غير، وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب، وكان أصله ألف ألف دينار؛ وكُلِّف الثعالبية [مثل] ذلك فامتعضوا، ولو حووا بالتحيز إلى الفرنج. وفي ثاني عشر رجب أقيمت الخطبة في صلاة الجمعة بمصر والقاهرة، وقد نصبت على المنابر الأعلام السود، ولبس الخطباء ثياباً سوداً أرسل بها من بغداد. وجُرس في البلد ألا يتأخر أحد عن الجمعة وحضورها، والفریضة وأدائها؛ ومن عُثِر عليه (١٥ ب) عومل بالحبس والتقييد واللوم والتفنيذ، فحضر من لا يريد الحضور. وفي ثالث عشر به خُلع على الوفد الشامي خلع مذهبات من بقايا ما أخذ من القصر، وأقيمت ضيافتهم وأُدرت أزازاتهم. وفي شعبان وقع بَرَد في الدقهلية والمرتاحية^(٣) كأنه الأحجار المدوّرة، فاستهلك الغلات، وأصاب منها واحد رأس ثور فمات من ساعته، وبلغ وزنها ما بين رطل كل بَرَدَة إلى رطلين. وفيه سارت الرسل من القاهرة إلى نور الدين بلبس الخلع، وبقرار ما أمر به [صلاح الدين] من المال في كل سنة. وفيه أمر السلطان بصرف أهل الذمة والمlec من استخدامهم في أمر سلطاني ولا شغل ديواني، فصُرف جماعة، ولم ينصرف واحد منهم من كتابة الغز، وأُرْجِف بإخراجهم من البلد وأخذ مساكنهم. فلما كان الخامس عشر منه صُرفت جماعة من وجوه [أهل] الذمة من الأشغال السلطانية، وبقي بعضهم، وكتاب الغز على حالهم،

(١) كذا في س والصحيح "الطباسي" جمع "طبسي" وهو الإناء الصغير. أما الطبوس فهي جمع طبس وهو الدئب. (Dozy: Supp. Dict. Ar.) (٢) في "الجذاميون".

(٣) الدقهلية والمرتاحية هما الجزء الشمالي من مديرية الدقهلية الحالية، وكانا قسمين إداريين إلى عصر الممالك البحرية، ثم صارا قسماً واحداً. وتنسب الدقهلية إلى دقهلة، التي تقع حسبما جاء في ياقوت (معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٨١) على أربعة فراسخ جنوبى دمياط. وكان من حدود هذه السكورة أو القسم الإدارى الحديدى فى الجنوب بلدة السميلان، وفى الشمال قرب بلدة شربين. وأما الأراضى الواقعة على شفتى فرع دمياط، فيما يلى هذه السكورة إلى البحر، فكانت تسمى نهر دمياط (Omar Toussoun: P. 221). La Geog. de L'Egypte ... Arabe, T. I. P. 221)

وامتنعوا من صرفهم بأنهم قد دبروا أمرهم ، ويخشون بإخراجهم ضياع أمورهم . وفي حادى عشرية خرج السلطان إلى الإسكندرية ، وسبب خروجه إليها كثرة رجاله وقلة أمواله بحيث ضاق به التدبير ، فقبل له إن في بلاد برقة أموالاً^(١) متسعة ، وليس بها إلا عربان غير مانعة ، فخرج لذلك . وعقد بالإسكندرية مشوراً ، حضره [أبوه] نجم الدين أيوب وشهاب الدين [الحارمى] وتقى الدين^(٢) [عمر] ، بسبب المسير إلى بلاد الغرب ، ومبادرة زرعها قبل حصاده . وكوتب من بمصر والقاهرة من الجند بالحضور ، وتجهيز الأسواق من السقطيين^(٣) والبياطرة وغيرهم ، وكوتب العربان بطلب الزكوات والإنكار عليهم في قطع الطريق على الجلائين . واتضح أنه عُد في هذه السنة مائة ألف رأس من الغنم . واستقر الرأي على أن تبقى الدين عمر بن شاهنشاه بن [نجم الدين] أيوب يتوجه بـسكركه ومعه خمسمائة فارس آخر ، وتقررت حوالتهم في النفقة عليهم على [كورة] البحيرة . وفي ذى القعدة كثرت المناسر^(٤) وهجموا [على] الدروب بالسلح والشموع ، وحاربوا الناس ، وأخذوا المنازل ، وأحرقوا الدور بمصر . وفي ذى الحجة وصل رسول متملك الحبشة بهدية وكتاب إلى [الخليفة] العاضد ، فقرأ كتابه وأخذت هديته . ووصل عسكر ملك النوبة إلى القرى المتاخمة لثغر أسوان .

وفيها ابتدأت الوحشة والنفرة بين الملك العادل (١٦١) نور الدين محمود وبين السلطان صلاح الدين يوسف : وذلك لأن نور الدين بعث إلى صلاح الدين يأمره بجمع الساكر المصرية ، والمسير بها إلى بلاد الفرنج ومحاصرة الكرك ، ليجتمع هو وإياه على ذلك . فبرز [صلاح الدين] وكتب إلى نور الدين بذلك ، فخوفه أصحابه من الاجتماع بنور الدين . وكان نور الدين قد جمع عساكره ، وأقام ينتظر الخبر ، فلما أتاه الخبر بأنه قد برز رحل عن دمشق ، ونازل الكرك وهو ينتظر قدوم صلاح الدين ؛ فأتاه كتابه يعتذر عن الوصول باختلال بلاد مصر والخوف

(١) في س اموال .

(٢) شهاب الدين خال صلاح الدين ، وتقى الدين هو عمر بن شاهنشاه ، أى ابن أخى صلاح الدين

(انظر ما يلى) .

(٣) الغالب أن المؤلف يقصد بهذا الاسم صغار الباعة عموماً ، على أنه يحتمل أيضاً أنه أراد باعة

السقط والكروش . انظر (Dozy Supp. Dict. Ar.) ، و (Blochet : Op. cit. p. 108) .

(٤) المنسر بفتح الميم وكسرهما شذوذة من السكر . (محيط المحيط) .

عليها ، ويعلمه أنه عاد إلى القاهرة ؛ فعظم ذلك على نور الدين ، وعزم على دخول مصر وقْلَع صلاح الدين منها . فبلغ ذلك صلاح الدين ، فخاف وجمع أهله وخواصه واستشارهم ، فقال تقي الدين عمر ابن أخيه : — ” إذا جاء قائلنا كلنا ، وصددناه عن البلاد “ ، وواقفه جماعة من أهله على ذلك . فسبهم نجم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذارأى ومكر ، وقال لابن ابنه تقي الدين : ” أقعد “ ، وسبّه . والتفت إلى ولده السلطان صلاح الدين وقال : ” أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك ! أنتظن في هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر منا ؟ “ قال : ” لا “ . فقال [نجم الدين] : ” والله لو رأيتُ أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ، ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى السلطان نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات في سرجه ، وما يسهه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه ، فإن أراد عزلك فأى حاجة إلى الحجى ؟ بأسرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولى البلاد من يريد “ . وقال للجماعة كلهم : ” قوموا عنا ، فنحن ممالك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد “ . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بهذا الخبر . ثم إن نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له : ” أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم ترَ معك أحدا من هذا العسكر ، وأسلموك إليه . وأما بعد هذا المجلس فإنهم سيكتبون إليه بقولى ، فاكتب أنت إليه أيضاً في المعنى (١٦ -) وقل له : ” أى حاجة إلى قصدى ؟ نجاب يحى ، فياخذنى بحبل يضعه في عنقي ، فإنه إذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو في شأن “ . ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين ، ومات نور الدين .

(١) كذا في س بغير ضبط .

وفيها اتخذ نور الدين محمود بالشام [الحام الهوادي لنقل البطاني^(١)] . وفيها ولي أمير
الينيع خطابة الجامع العتيق ، بعد موت الشريف تاج الشرف^(٢) حسن بن أبي الفتوح
ناصر في الحرم .

سنة ثمان وستين وخمسمائة . فيها خرج صلاح الدين بعساكره يريد بلاد السكر والشوبك :
فانه كان كلما بلغه عن قافلة أنها خرجت من الشام تريد مصر خرج إليها ليحميها من الفرنج ،
فأراد التوسيع في الطريق وتسهيلها . وسار إليها وحاصرها ، فلم ينل منها قصداً وعاد . وفيها جهز
[صلاح الدين] الهدية إلى السلطان نور الدين ، وفيها من الأمتعة والآلات الفضية والذهبية
والبثور واليشم^(٣) أشياء يعز وجود مثلها ، ومن الجواهر والآلات^(٤) شيء عظيم القدر ، ومن
العين ستون^(٥) ألف دينار ، وكثير^(٦) من الغرائب المستحسنة ، وفيل وحمار عتاني^(٧) ، وثلاث
قطع بلخش^(٨) فيها ما وزنه نيف وثلاثون مثقالا ، وكان ذلك في شوال . وفيها خرج العبيد من
بلاد النوبة لحصار أسوان ، وبها كنز الدولة^(٩) ، فجهز السلطان الشجاع البعلبي في عسكر كبير
فسار إلى أسوان ، وقد رحل العبيد عنها ، فقبضهم ومعه كنز الدولة ، وواتهمهم وقتل منهم كثيراً ،
وعاد إلى القاهرة . وفيها سار الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين تورانشاه بن أيوب ، أخو^(١٠)
السلطان صلاح الدين ، إلى بلاد النوبة ، وفتح قلعة إرريم^(١١) وسبى وغنم ، وعاد إلى أسوان ؛

(١) أصيف ما بين الفوسين من اب الأنير (السكامل في التاريخ ، ح ١١ ، ص ٢٤٦) لتعذر
قراءته في س ، سبب وروده بهامش بين ملتصق الصحتين ١٦ ب ، ١١٧ .

(٢) في س السرف . (٣) حيز ثمين قريب من البرجد (Blochet :
Op. Cit. P. 116) (٤) في س شيا . (٥) في س ستين . (٦) في س كثيرا .

(٧) الطالب أن المؤلف يقصد نوعا من حيد الوحش ، لأن كلمة "عتاني" تطلق على صنف من فاش
خشن محطط بحمرة وصفرة ، وإراء حمار الوحش محطط أيضا . (Dozy : Supp. Dict. Ar.)
(٨) نوع من الياقوت ، والعامية تميزه من غيره بهذا الاسم ، غير أن التسمية الصحيحة هي "الياموت
البدخشي" نسبة إلى جهات بدخشان في أقصى شرق أفغانستان . انظر (Blochet : Op. cit. P. 110) وكذلك
(Quatremère: Maml. II. I. P. 71)

(٩) اسمه أيضا "الكنز" فقط ، وهو مصري من الصعيد ، انتزع إلى أسوان لما شرد صلاح
الدين الجنود السودانية الفاطمية بعد كشف مؤامرة الطواشي ومؤتمن الخلافة . وقد جمع الكنز إليه بقايا تلك
الجنود ، وحاول معهم إعادة الدولة الفاطمية (ابن شداد النواذر السلطانية ، ص ٥٦ في Rec. Hist. Or.
(Vol. III) . (١٠) في س "أخي" .

(١١) صبط هذا الاسم على منطوقه في (Blochet : Op. cit. P. III) .

وأقطع إريم رجلا يعرف بإبراهيم الكردي ، فسار إليها في عدة من الأكراد ، وانبثوا يشنون الغارات على بلاد النوبة ، حتى امتلأت أيديهم بالأموال والمواشي بعد فقر وجهد . فوافي كتاب ملك النوبة إلى شمس الدولة وهو بقوص مع هدية ، فأكرم رسوله وخلع عليه ، وأعطاه زوجين من نشاب ، وقال له : ” قل للملك مالك عندى جواب إلا هذا “ . وجهر معه رسولا ليكشف له خبر البلاد ، فسار إلى دُمقلة^(١) وعاد إليه ، فقال : ” وجدت بلاداً ضيقة ، ليس بها من الزرع سوى الذرة ونخل صغير منه أدامهم ؛ ويخرج الملك وهو عريان على فرس عُرمي ، وقد التفت في ثوب أطلس ، وليس على رأسه شعر . فلما قدمت عليه وسلمت ضحك وتغاشى ، وأمرني فكُويت على يدي هيئة صليب ، وأنعم عليّ بنحو خمسين رطلا من دقيق . وليس في دُمقلة^(٢) (١٧) عمارة سوى دار الملك ، وباقيها أخصاص “ . وفيها عظم هم [السلطان] نوالدين بأمر مصر ، وأخذَه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد ، وأكثر من مراسلته بحمل الأموال ، ثم بعث بوزيره صاحب موفق الدين خالد بن محمد بن نصر بن صغير^(٣) القيسراني إلى مصر ، لعمل حساب البلاد ، وكشف أحوالها ، وتقرير القطيعة على صلاح الدين في كل سنة ، واختبار طاعته ؛ فقدم إلى القاهرة وكان من أمره ما يأتي ذكره إن شاء الله . وفيها مات أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب نجم الدين الملقب بالملك الأفضل أبي سعيد الكردي ، والد السلطان صلاح الدين يوسف . وذلك أنه خرج من باب النصر بالقاهرة ، فألقاه الفرس إلى الأرض يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي الحجة ، فحمل إلى داره في تاسع عشره وقيل لثلاث بقين منه ، فتمبر عند أخيه أسد الدين شيركوه ، ثم نقل إلى المدينة النبوية في سنة ثمانين وخمسمائة .

(١) كذا في س دأما ، وهي أيضاً صحيحة بالتون بدل الميم (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٩٩ و ٦١١) .
(٢) بين الصفحتين ١٦ ب و ١٧ هاشم على

ورقة منفصلة . وقد لصق هنالك خطأ ، وموضعه المناسب حيث حواد سنة ٥٧٥ ، فليُنظر هناك .

(٣) في س ” صغير “ ، وقد صححت على منظومها في (Blochet : Op. cit. P. 112) .

سنة تسع وستين وخمسمائة . فيها وصل إلى القاهرة موفق الدين أبوالبقاء خالد ابن محمد بن نصر بن صغير المعروف بابن القيسراني من عند السلطان الملك العادل نور الدين ، مطالباً لصالح الدين بالحساب عن جميع ما أخذ من قصور الخلفاء وحصل من الارتفاع^(١) . فشق ذلك عليه وقال : "إلى هذا الحد وصلنا ؟" وأوقفه على ما تحصل له ، وعرض عليه الأجناد ، وعرفه بمبالغ إقطاعاتهم وجامكياتهم^(٢) ، ورواتب نفقاتهم . ثم قال : "وما يضبط هذا الإقليم العظيم إلا بالمال الكبير ، وأنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها ، وأنهم معتادون بالنعمة والسعة وقد تصرفوا في أما كن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن ينقص من ارتفاعها " ، وأخذ يجمع المال . وفيها سار الأمير شمس الدولة تورا نشاء ، أخو السلطان صلاح الدين ، إلى اليمن : وذلك لشدة خوف صلاح الدين وأهله من الملك العادل نور الدين أن يدخل إلى مصر وينزعهم منها ، فأحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون إليها ، وكان اختيارهم قد وقع على النوبة ، فلما سار إليها لم تعجبه وعاد ، وكان الفقيه عُمارة اليماني قد انتطح إلى الأمير شمس الدولة ، ومدحه واختص به وحدثه ، عن بلاد اليمن وكثرة الأموال بها ، وهون أسرها عنده ، وأغراه بأن يستبد بملك اليمن ، وتعرض لذلك في كلمته التي أولها :

الْعِلْمُ^(٣) مَذْكَانٌ مَحْتَاجٌ إِلَى الْعِلْمِ * وَشُقْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغْنِي عَنِ الْقَلَمِ

ومنها : —

فَأَخْلَقْتُ لِنَفْسِكَ مَلَكًا لَا تُضَافُ بِهِ * إِلَى سِوَاكَ وَأَوْزِرُ النَّارَ فِي الْعِلْمِ
هَذَا ابْنُ تَوَمَرْتٍ قَدْ كَانَتْ بَدَايَتُهُ * كَمَا يَقُولُ الْوَرِيُّ ، لِحَا عَلَى وَضَمِّ

(١) الارتفاع ما يتحصل من الدواوين عامة . راجع الفهرس .

(٢) الجامكيات الرواتب عامة (Dozy : Supp. Dict. Ar.) وفي الفقهشدي (صبح الأعشى ، ج

٣ ، ص ١٥٧) أن نفقة ممالك السلطان كانت عبارة عن "جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك" .

(٣) كثير من أبيات هذه القصيدة وارد في ترجمة عمارة اليمني وقد قبل الوارد هنا عليها . انظر

(Derenbourg: Oumara du Yemen, T. I. PP. 352—355, T. 2° PP. 619—620)

(١٧ ب) وكان شمس الدولة مع ذلك جواداً كثير الإنفاق ، فلم يقنع بماله من الإقطاع بمصر ، وأحب التوسع ، فاستأذن صلاح الدين في السير ، فأذن له واستعد لذلك ، وجمع وحشد ، وسار مستهل رجب . فواصل إلى مكة فزار ، ثم خرج منها يريد اليمن ، وبها يومئذ أبو الحسن علي بن مهدي ، ويقال له عبد النبي . فاستولى على زبيد في سابع شوال ، وقبض على عبد النبي ، وأخذ ما سواها من مدائن اليمن ، وتلقب بالملك المعظم ، وخطب له بذلك بعد الخليفة المستضيء بأمر الله في جميع ما فتحه ، وبعث إلى القاهرة بذلك . فسير السلطان صلاح الدين إلى الملك العادل يعلمه بذلك ، فبعث بالخبر إلى الخليفة المستضيء ببغداد^(١) . وفي سادس شعبان قبض على أولاد العاضد وأقاربه ، وأخرجوا من القصر إلى دار المظفر بحارة برجوان ، في العشر الأخير من رمضان .

وفيها اجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد ، وأن يفتكوا بصلاح الدين^(٢) ، وكانوا الفرنج : منهم القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن عبد الله ابن كامل القاضي ، والشريف الخليل ، ونجاح الحماسي ، والفقير عمارة بن علي اليماني ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي الأعز سلامة التتوريس^(٣) متولى ديوان النظر^(٤) ثم القضاء ، وداعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ، والواعظ زين الدين بن نجا ، فوشى [ابن نجا^(٥)] بنجرهم إلى السلطان ، وسأله في أن ينعم عليه بجميع ما لابن كامل الداعي من الدور

(١) قبالة هذه العبارة كلمة "انظر" بالهامش .

(٢) قصة هذه المؤامرة منشورة بنصها في كتاب تاريخ عمارة اليماني تحت عنوان "نبذة من كتاب السلوك ... " (Derenbourg: Oumara, T. II, PP. 650—652) وقد قول ما هنا عليها .

(٣) بغير ضبط في س .

(٤) ناقص منصب الوزارة بمصر منذ عصر الأيوبيين ، وشارك الوزير في أعماله وتصريفها النظار ، وتوعدت ألقاب هؤلاء بحسب الأعمال التي آلت إليهم : فناظر الجيش هو الذي يتحدث في أموال الجيوش وينظر في حسابها ؛ وناظر الخاس هو الذي ينظر في حاسر أموال السلطان ؛ وناظر الدولة وعمله مشاركة الوزير في التصرف عامة ، والنظر في المالة وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة . واسمه أيضاً ناظر الدواوين ، وأحياناً ناظر النظار أو صاحب الشريف ، ومقره ديوان النظر . ومعاونته في أعماله متولى الديوان ، وهو ثاني رتبة الناظر . القفشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٥ — ٤٦٦ ،

(G. — Demombynes: Op. cit. P. LXVIII)

(٥) أنشيف مابن القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٦٧ — ٢٦٤) .

والموجود كله ، فأحيب إلى ذلك ، فأحيط بهم وشنقوا في يوم السبت ثاني شهر رمضان بين القصرين : فشُنق عمارة وصلب فيما بين بابي الذهب و باب البحر ؛ وابن كامل في رأس الخُرُوقيين التي تعرف اليوم بسوق أمير الجيوش ، والعوريس على درب السلسلة ، وعبد الصمد وابن سلامة وابن المُظَيَّي^(١) الأمير ومصطنع الدولة والحاج ابن عبد القوى بالقاهرة ، وشنق ابن كامل القاضي بالقاهرة يوم الأربعاء التاسع عشر شوال ، وشنق أيضاً شُبرماً^(٢) وأصحابه وجماعة من الأجناد والعبيد والحاشية وبعض أسراء صلاح الدين ، وقبض [صلاح الدين] سائر ما وجد عنهم من مال وعقار ، ولم يَكُنْ ورثتهم من شيء البتة ؛ وتتبع من له هوى في الدولة الفاطمية ، فقتل منهم كثيراً وأسر كثيراً ، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد . وقُبِض على رجل يقال له قديد بالإسكندرية ، من دعاة الفاطميين ، يوم الأحد خامس عشرى رمضان وقُبِض على كثير من السودان ، وكووا بالنار في وجوههم وصدورهم^(٣) .

وفيها جهز السلطان مع الوزير ابن القيسراني ما تحصل عنده من المال ، وأصبحه هدية انور الدين : وهي خمس خَتَمَات إحداها في ثلاثين جزءاً ، مغشاة بأطلس أزرق ومُضَبَّبة بصفايح ذهب ، وعليها أقال من ذهب مكتوبة بخط ذهب ؛ وأخرى في عشرة أجزاء مغشاة بديباج فُسْتُقِي ؛ وأخرى في جلد مخط ابن البَوَّاب بقفل ذهب وثلاثة أحجار بِلَآخَش ، منها حجر زنته اثنان وعشرون مثقالاً ، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً ، وآخر عشرة مثاقيل ونصف ، وست قضبات زمرد إحداها^(٤) وزنها ثلاثة مثاقيل ، وحجر ياقوت أحمر ، وزنه سبعة مثاقيل ، وحجر ياقوت أزرق وزنه ستة مثاقيل ، ومائة عقد جوهر زنتها ثمانمائة وسبعة وخسون مثقالاً ، وخسون قارورة دهن بلسان ، وعشرون قطعة (١٨) بلور ، وأربع عشرة قطعة جَزَع ما بين

(١) في س الملعي بنير ضبط .

(٢) في س شرما بشي منقوله فقط . وبغير ضبط .

(٣) في س قديم .

(٤) هنا تنتهي الفقرة المنشورة بكتاب تاريخ عمارة المني (انظر ص ٥٣ ، حاشية ٤) .

(٥) في س احدها .

زبادى وسَكَارَج^(١)، وإبريق يشم^(٢) وطشت يشم^(٣) وسفرك^(٤) مينا مذَهَب، بعروة فيها حبتا لؤلؤ وفي الوسط فص ياقوت أزرق، وصحون وزبادى وسَكَارَج من صيني عدتها أربعون قطعة، وعود قطعتين كبارا، وعنبر منه قطعة زنتها ثلاثون رطلا، وأخرى عشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس، وأربعة وعشرون بَقِيَاراً^(٥) مذهبا، وأربعة وعشرون ثوبا وشيا حريرية بيضاء^(٦)، وحلة فللى مذهب، وحلة سرايش^(٧) أصفر مذهب، وحلة سرايش أزرق بذهب، وحلة سرايش بقصب أحمر وأبيض، وحلة فستقي بقصب مذهب، وقماش كثير^(٨)، قدر قيمتها بمائتي ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار. وساروا بذلك، فبلغهم موت نور الدين، فأعيدت وهلك بعضها. وفيها مات السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي، في يوم الأربعاء عاشر شوال، بعلة الخوانيق^(٩)، وكان قد تجهز لأخذ مصر من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد خطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن. وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل، وعمره إحدى عشرة سنة فخطب له السلطان صلاح الدين بمصر، وضرب السكة باسمه. وفيها نزل أسطول الفرنج بصقلية على ثغر الإسكندرية، لأربع بقين من ذى الحجة^(١٠) بغتة، وكان الذى جهز هذا الأسطول

(١) سَكَارَج جمع سكرجة وهي الصلصة، وزبادى جمع زبدية وهي وعاء الشراب. أما الجزع فهو الخبز الباني، فيه سواد ويابس، وإنما المقصود هنا الآنية المصنوعة من الصبي الخزج، أى الذى فيه سواد ويابس، أو ذى الألوان المختلفة (محيط المحيط و Dozy: Supp. Dict. Ar.) (١).

(٢) انظر ص ٥ حاشية ٣.

(٣) كذا فى س يغير ضبط، وهي مترجمة مع التشكك إلى (Shakrak) فى (Blochet: Op. cit. P. 116). على أنه يوجد نوع من التبيذ الحبشى اسمه سقرقه (Lane: Lexicon)، وربما كان المقصود ها الوعاء الخاص بهذا الشراب.

(٤) كلمة فارسية معناها سجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل (Johnson: Dict.)، ومعناها أيضا فى (Dozy: Op. cit.) نوع من العمام الكبار، كالتى يلبسها الوزراء وأصحاب القلم.

(٥) فى س "وشى حريرية بيضاء". (٦) فى س "مراش". (٧) فى س "قماش كثيرا".

(٨) فى المرص المسمى بالدبجة، (Dozy: Supp. Dict. Ar.)، ومن أنواعه الدبجة الصدرية (Angina Pectoris) انظر (Price: Holbyns Dict. of Med. Terms).

(٩) كانت هذه الحملة البحرية ذبلا للمؤامرة الثورية التى اتهم بتدبيرها الشاعر عمارة البلى. وقد تقدم أن المتآمرين كانوا الفرنج (انظر ص ٥٣) ومن هؤلاء وليام الثانى (William II) النورماندى ملك صقلية، وهو ابن وليام الأول، وجده روجر الأول (Roger) مؤسس مملكة النورماندين فى صقلية منذ سنة ١١٠٣ م. بعد التعل على دولة المسلمين بها بقليل (Camb, Med. Hist. Vol. V. PP.184-207). أما عن هذه الحملة التى وصلت مراكبها إلى الإسكندرية بعد فشل المؤامرة، فالسبب فى ذلك أن ملك صقلية لم يعلم بما حاق بالمتآمرين، فمعت مراكبه إلى الإسكندرية حسب الاتفاق المبت معهم. (Lane-Poole: Saladin. P. 127)

غليالم بن غليالم بن رجار^(١) ممتلك صقلية ، ولى ملك صقلية بعد أبيه في سنة ستين وخمسمائة وهو صغير ، فكفلته أمه ، وتولى التدبير خادم اسمه باتر^(٢) مدة سنة ، ثم فر إلى السيد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن [صاحب البلاد^(٣) المغربية] . ثم استبد غليالم بتدبير ملكه ، واحتفل في سنة إحدى وسبعين بعمارة [هذا] الأسطول ، فاجتمع له ما لم يجتمع لجده رجار ، وحمل في الطرائد^(٤) ألف فارس ، وقدم على الأسطول رجلا من دولته يسمى أكيمة موزقة^(٥) ، وقصد الإسكندرية ، ومات غليالم في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . ولما أرسى هذا الأسطول على البر ، أنزلوا من طرائدهم ألفاً وخمسمائة فارس ، وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل ، مابين فارس وراجل ، وعدة طرائدهم ستا وثلاثين طريده^(٦) تحمّل الخيل ، ومائتي شيني^(٧) في كل شيني مائه وخمسون رجلا ، وعدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار ست سفن ، والتي تحمل الأزواد والرجال أربعين مركباً ، فكانوا نحو الخمسين ألف راجل . ونزلوا على البر بما يلي المنارة ، وحملوا على المسلمين حتى أوصلوهم إلى السور ، وقتل من المسلمين سبعة . وزحفت سراكب الفرنج إلى الميناء ، وكان بها سراكب المسلمين ففرقوا منها ، وغلبوا على البر وخيموا به ، فأصبح لهم على البر ثلاثمائة خيمة ، وزحفوا لحصار البلد ، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها^(٨) ، وثلاثة مجانيق

(١) كذا في س ، وبغير ضبط . انظر الحاشية السابقة . (٢) كذا في س ، وبغير ضبط . والاسم الصحيح هو . (Stephen of Perch) ولم يكن حادماً ، بل هو ابن عم الملكة مارجريت (Margaret) أم الملك وليام الثاني . (Camb. Med. Hist. Vol. V. P. 197) . (٣) ما بين القوسين من أبي شامة (كتاب الروضتين في (٤) جمع طراد أو طراوة ، وهي نوع من المراكب الحربية ، أكثر شبيهاً بالبرميل المائل من السفينة ، وكانت تستعمل غالباً في حمل الحبوب والقرسان : (Dozy: Supp. Dict. Ar.) وانظر أيضاً المرجع والصفحة المذكورتين في الحاشية السابقة .

(٥) كذا في س ، وبغير ضبط . وهو مترجم إلى (Akim-Moudhaka) في (Blochet : Op, cit, P, 117) مع عدم اعتناء المترجم إلى شخصية صاحب الاسم . هذا وليس بين أسماء مجلس الملك ويليام الثاني من يشابه اسمه الرسم الوارد هنا . انظر (Camb, Med, Hist, Vol, V, P, 197) .

(٦) كذا في س . (٧) سفينة حربية كبيرة ، يقابلها في الفرنسية (Galère) ، ومثلها العينية ، والجم شون وشوانى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) (٨) الدبابات جمع دبابة ، وكانت عبارة عن شبه برج متحرك ، له أحياناً أربعة أدوار ، أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص (Plomb) ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر ، ويتحرك هذا البرج المائل على مجلات ، وتصعد إلى طبقاته الجنود لهجمة الحصون وتسلق الأسوار . أما لفظ السكباش ، ففرده كبش ، وجمع على كبوش وأكبش ، وهو آلة متصلة بالدبابة ، لها رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الأسوار تهدمها (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

كبارا تضرب بمجارة سود عظيمة . وكان السلطان على فاقوس ، قبله الخبر ثالث يوم نزول الفرنج ، فشرع في تجهيز العساكر ، والقتال والرمي بالمجانيق^(١) مستمر . فوصلت العساكر ، وفتحت الأبواب ، وهاجم المسلمون الفرنج ، وحرقوا الدبابات ، وأيدم الله بنصره ، واستمر القتال يوم الأربعاء إلى العصر ، وهو الرابع من نزول الفرنج . ثم حلوا حملة ثانية عند اختلاط الظلام على الخيام ، فسلموها بما فيها ، وقتلوا من الرجال عدداً كثيراً ومن الفرسان . فافتحم المسلمون البحر ، وأخذوا عدة مراكب خسفوها ففرقت ، (١٨ ب) وولت بقية المراكب مُنْهَزِمَةً ، وقتل كثير من الفرنج ، وغنم المسلمون من الآلات والأمتعة والأسلحة ما لا يقدر على مثله إلا بعناء ، وأقلع باقي الفرنج مستهل سنة سبعين .

وفيها ، أعفى سنة تسع وستين [وخمسمائة] ، وقف السلطان صلاح الدين ناحية نقادة من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى ، وثلاث ناحية سَنَدَيسَ من القليوبية ، على أربعة وعشرين خادماً لخدمة الضريح الشريف النبوي ، وضمن ذلك كتاباً ثابتاً تاريخه ثامن عشر شهر ربيع الآخر منها ، فاستمر ذلك إلى اليوم . وكان قاع النيل ستة^(٢) أذرع وعشرين أصبعا ، وبلغ سبعة عشر^(٣) ذراعاً وعشرين أصبعا .

[سنة سبعين وخمسمائة^(٤)] . وفيها جمع كنز^(٥) الدولة وإلى أسوان العرب والسودان ، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية ، وأنفق في جموعه أموالاً جزيلاً ، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هوام ، فقتل عدة من أسراء صلاح الدين . وخرج في قرية طود رجل يعرف بعباس ابن شادي ، وأخذ بلاد قوص ، واتهب أموالها . فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك

(١) في س "بالمجانيق" . (٢) في س ست . (٣) في س سبع عشرة .

(٤) ليس لعنوان هذه السنة وجود في س ، ولعل السبب أن المقرئ اكتفى بكلمة "فيها" ، على أن تعود هاؤها إلى عبارة "سنة سبعين" الواردة بالسطر الثامن من هذه الصفحة . انظر ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٧٣) حيث يرد ذكر هذه الحادثة أول سنة سبعين .

(٥) العبارة الآتية واردة بالهامش : "كنز الدولة هذا يرجع نسبته إلى مسروق بن ممدى كرب (كنة) بن الحارث بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدول ، واسمه كنز الدولة" . ويلاحظ أن يسم هذه الأسماء مضبوط في س .

العاذل فى جيش كثيف ، ومعه الخطير مذهب بن مسماني^(١) ، فسار وأوقع بشادى وبدد جموعه وقتله ، ثم سار فلقية كنز الدولة بناحية طود ، وكانت بينهما حروب فز منها كنز الدولة ، بعد ما قتل أكثر عسكره ، ثم قتل [كنز الدولة] فى سابع صفر ، وقدم العادل إلى القاهرة فى ثامن عشره .

وفىها ورد الخبر على السلطان بسير الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن نور الدين إلى حلب ، ومصالحته للسلطان سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فأهقه وخرج يريد المسير إلى الشام . فنزل ببركة الجلب^(٢) أول صفر ، وسار منها فى ثالث عشر ربيع الأول ، على صدر^(٣) وأيلة ، فى سبعة فارس ؛ واستخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل . ونزل بضرى وخرج منها ، فنزل الكسوة يوم الأحد تاسع عشر ربيع الأول ، وخرج الناس إلى لقائه ؛ فدخل إلى دمشق يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر ، وملكها من غير مدافع . وأنفق فى الناس مالا جزيلا ، وأمر فنودى بإطابة النفوس وإزالة المكوس ، وإبطال ما أحدث بعد نور الدين محمود من العبائح والمنكرات والضرائب ، وأظهر أنه إنما جاء لتربية الصالح بن نور الدين ، وأنه ينوب عنه ويدبر دولته ، وكانب الأطراف بذلك . وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع ، فأنزل بها أخاه ظهير الإسلام طفتكين بن أيوب ، وبعث بالبشارة إلى القاهرة ؛ وخرج مستهل جمادى الأولى ، فنزل حمص حتى تسلمها فى حادى عشره ، وامتنعت عليه قلعتها ، فأقام على حصارها طائفة ، وسار إلى حماة فنزل عليها فى ثالث عشره ، وسها عز الدين جورديك^(٤) ، فسلمها إليه .

(١) لعله ابن مسماني صاحب كتاب قوانين الدواوين (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٦) . وقد اخطأ كاتب نسخة ب (س ١٢١) قراءة هذا الاسم فقال : ومعه الخطيب مذهب بماتى فارس .

(٢) متسنزه بظاهر القاهرة من بحريها ، وكان صلاح الدين يبرز ليلها للصيد ، ويقم فيها الأيام ، ومثل ذلك الملوك قبله وبعده . وقد تغير اسمها زمن المبريزى — أى فى القرن الثامن الهجرى — إلى بركة الحاج ، لنزول الحاج بها عند سيرهم من القاهرة وإليها موسم الحج (المبريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٩) .

(٣) قلعة خراب بين القاهرة وأيلة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥) .

(٤) تصح كتابة هذا الاسم " جورديك " أيضا ، انظر (Rec. Hist. Or. Vol. III. Index) . وأصل جورديك من ممالك السلطان نور الدين ، ولقبه النورى . وكان ممن رافقوا أسد الدين شريكه إلى مصر ، وهو الذى اشترك مع صلاح الدين فى الفتك بالوزير شاور (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤) . أما عن تفصيل موقفه بلقاء مجىء صلاح الدين إلى الشام ، فانظر نفس المرجع والجزء ص ٢٧٦ ، وستأتى بقية أخباره فيما يلى .

وفي جمادى الأولى ولى ابنُ عَصْرُون القضاء بديار مصر . وسار [صلاح الدين] إلى حلب ، وبعث إلى الصالح [إسماعيل] في الصلح مع جرديك ، فأبى أصحابه ذلك ، وقبضوا على جرديك وقيده ، فبلغ ذلك صلاح الدين ، وقد سار عن حماة يريد حلب ، فماد إليها . ثم سار منها إلى حلب ، ونزل جبل جَوْشَن^(١) ثالث جمادى الآخرة ، واستمَدَّ أهل حلب وخرجوا لقتاله ، وقاتلوه قتالا شديداً إلى أول رجب . فرحل (١١٩) صلاح الدين يريد حمص ، وقد بلغه مسير القومص^(٢) ملك الفرنج بطرابلس ، بمكاتبة أهل حلب ، وأنه منازل لخص . فلما قرب من حمص عاد القومص إلى بلاده ، فنزل صلاح الدين قلعتها ، ونصب المجانيق عليها إلى أن تسلمها بالأمان ، في حادى عشرى شعبان ؛ وسار إلى بعلبك ، فحصرها حتى تسلم قلعتها في رابع رمضان ، وعاد إلى حمص . وكانت بينه وبين أصحاب الصالح وقعة على قُرُون حماة ، في يوم الأحد تاسع عشره ، انتصر فيها صلاح الدين ، وهزمهم وغنم كل ما معهم ، ولم يقتل فيها أكثر من سبع^(٣) أنفس ؛ وسار حتى نزل على حلب ، وقطع الخطبة للصالح ، وأزال اسمه عن السكة في بلاده ، فبعث أهل [الصالح] إليه يلتمسون منه الصلح ، فأجاب إليه على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ، واستزاد منهم الممرة وكفَرطاب^(٤) ، وكُتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين ، بعد ما حلف وعاد إلى حماة .

[وكان صلاح الدين] قد كتب إلى بغداد يعدد فتوحاته وجهاده للفرنج ، وإعادته الخطبة العباسية بمصر ، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها ، وأنه قدم

(١) في س "جبل حوشن" بغير ضبط . انظر ياقوت ؛ معجم البلدان . ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(٢) كذا في س بغير ضبط ، والقومص تعريب حرفي للكلمة اللاتينية (Comes) التي صارت إلى (Comte) في اللغة الفرنسية . أما الشخص المقصود هنا ، فهو الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية ، ولقبه الصنجلي في بعض المراجع الإسلامية (Le Comte Raymond descendant... de Saint Agilles Prince de Tripoli) راجع ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ٢٧٧ ، وكذلك نفس المرجع في (Rec. Hist. Or. Vol. I. p. 619) (٣) في س سبعة

(٤) بغير ضبط في س ، ومعى بلدة بين الممرة ومدينة حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ،

إليه في هذه السنة وفد سبعين راكباً ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً . وطلب [صلاح الدين] من الخليفة تقليد مصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما يفتحه بسيفه^(١) . فوافته بحماة^(٢) رسل الخليفة المستنصر ، بأمر الله ، بالتحريف والأعلام السود ، وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها . فسار ونزل على بعيرين ويقال بارين^(٣) ، وحاصر حصنها حتى تسلمه في العشرين منه ، ورجع إلى حماة . وفيها تقرر العماد الإصفهاني نائباً في الكتابة عن القاضي الفاضل بسعاية نجم الدين محمد بن مُصَّال^(٤) . وسار صلاح الدين إلى دمشق ثم رحل عنها ، فنزل مرج^(٥) الصُّقَر ، ووافته به رسل الفرنج في طلب الهدنة ، فأجابهم إليها بشروط أشرطها . وأذن للعساكر في السير إلى مصر كجذب^(٦) الشام فساروا ، ورجع هو إلى دمشق في محرم [سنة] إحدى وسبعين ، وفوض أمرها إلى [ابن أخيه] تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

[سنة إحدى وسبعين وخمسمائة] . وفيها^(٧) سار شرف^(٨) الدين قراقوش — أحد أصحاب تقي الدين عمر — إلى بلاد المغرب في حادي عشر محرم في جيش ، فأخذ من صاحب أوجلة^(٩) عشرين ألف دينار فزّقتها في أصحابه ، وعشرة آلاف دينار لنفسه ، وسار منها إلى غيرها ؛ ثم بلغه موت صاحب أوجلة ، فعاد إليها وحاصر أهلها ، وقد امتنعوا عليه حتى أخذها عنوة ، وقتل من أهلها سبعائة رجل ، وعمم منها غنيمة عظيمة ، وعاد إلى مصر .

(١) كان الخطيب شمس الدين بن أبي المصاء رسول صلاح الدين إلى الخليفة المستنصر بأمر الله ، تلك المرة . (٢) في س "بها" .

(٣) في س "بعيرين" والطب الأول الذي في المتن هو ما يقول به العامة ، والثاني هو الصحيح . وتقع بارين بين حلب وحماة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٦٥) .

(٤) صسط هذا الاسم على منطوقه في (Rec. Hist. Or. Iv. P. 130)

(٥) أحد المروج الواقعة حول مدنه دمشق . (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٨٨) .

(٦) في س لمذهب . (٧) ليس اسموا هذه السنة وجود في س ، انظر ص ٥٧ حاشية رقم

٤ ، وراجع أيضاً ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٨٢ ، وما بعدها) .

(٨) في س بها الدين ، وقد خلط المقرئ بين بهاء الدين قراقوش المتقدم ذكره وبين شرف الدين

هذا . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٩) مدينته في جنوبي بركة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٩٧) .

وفيهما تجمهز الحلبيون لقتال صلاح الدين ، فاستدعى عساكر مصر ، فلما وافته بدمشق في شعبان سار في أوّل رمضان^(١) ، فلقبهم في عاشر شوال . وكانت بينهما وقعة (١٩ ب) تأخر فيها السلطان [سيف الدين] غازي صاحب الموصل ، فظن الناس أنها هزيمة ، فولّت عساكرهم . وتبعهم صلاح الدين ، فهلك منهم جماعة كثيرة ، وملك خيمة غازي ، وأسرا عاتيا عظيما ، واحتوى على أموال وذخائر وفُرش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف . وقدم عليه [أخوه] الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه [بن أيوب] من اليمن ، فأعطاه مرادق السلطان غازي بما فيه من الفرش والآلات ، وفرق الإسطبلات^(٢) والخزائن على من معه ، وخلع^(٣) على الأسرى وأطلقهم . ولحق [سيف الدين] غازي بمن معه ، فالتجأوا [جميعا] لحلب ، ثم سار إلى الموصل [وهو لا يصدّق أنه ينجو ، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده^(٤) بالموصل] . ورحل صلاح الدين ونزل على حلب في رابع عشر شوال ، فأقام عليها إلى تاسع عشره ، ورحل إلى بُزْاعة^(٥) ، وقاتل أهل الحصن حتى تسلمه . وسار إلى مَنبِيج ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشره ، ولم يزل يحاصرها أياما حتى ملكها ، وأخذ من حصنها ثلاثمائة ألف دينار ، ومن القضة والآنية والأسلحة ما يناهز ألفي ألف دينار . ورحل إلى عَزَاز^(٦) ، وحاصرها من يوم السبت رابع ذى القعدة إلى حادى عشر ذى الحجة ، فتسلمها وأقام فيها من يثق به ، وعاد إلى حلب . وفي يوم الثلاثاء رابع عشره وثب عدّة من الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين ، فظفر بهم بعد ما جرحوا عدّة من الأمراء والخواص ثم سار^(٧) إلى حلب فنزل عليها في سادس عشره ،

(١) الصارّة الآتية واردة بهامش الصفحة في س ، ونصّها : " وفي يوم الاثنين ثامن عشرى رمضان كسفت الشمس جميعها ، وأظلم النهار ورؤيت النجوم " . وقد أدبجها كاتب ب (س ١٢٢) في المتن بعد لفظ " رمضان " .

(٢) في س الاسطبلات : (٣) في س اخلع .

(٤) أضيف ما بن القوسين من ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٨٣) لتوضيح الصارّة .

(٥) في س براعا ، وهي بلدة من أعمال حلب ، واقعة بينها وبين منبج . ويطلق أهل حلب هذا الاسم أحيانا بكسر الباء ، وأحيانا بالألف المقصورة بذل التاء (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٠٣) .

(٦) في س عزار ، وهي بليدة شمالي حلب . (نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٦٦٧) .

(٧) قصة وثوب الإسماعيلية هذه واردة بهامش الصفحة في س ، وبهامش أيضا فقرة طويلة عن حلة بصرية أتت من صقلية لمحاصرة الإسكندرية ، وهي في تفاصيلها وعدد مرابطيها =

وأقطع عسكره ضياعها ، وأمر بحماية أموالها ، وضيق على أهل حلب من غير قتال ، بل كان يمنع أن يدخلها أحد أو يخرج منها^(١) .

[سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة^(٢)] . فلما كان رابع المحرم سنة اثنتين وسبعين ركب العسكران وكانت الحرب ، فقتل جماعة من أصحاب صلاح الدين . ثم قرّر الصلح بينه وبين الملك الصالح ، على أن يكون للصلح حلب وأعمالها . ورحل [صلاح الدين] في عاشره ، فنازل مصتيا^(٣) ، وفيها راشد الدين سنان بن سلمان بن محمد ، صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الباطنية ، وإليه تنسب الطائفة السنانية . ونصب عليها المجانيق والعرادات^(٤) من ثالث عشره إلى أيام ، ثم رحل ولم يقدر عليهم ، وقد امتلأت أيدي أصحابه بما أخذوه من القرى . وفوض [صلاح الدين] قضاء دمشق لشرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون ، عوضا عن

== وحنودها وأزوادها تشبه الحملة التي تقدم ورودها في ص ٥٥ ، تحت سنة ٥٨٩ ، وليس في المراجع المتداولة في حواشي هذا الكتاب ما يشير إلى وصول حملة ثانية من صقلية إلى الإسكندرية ، فأكبر الظن أن المؤان سى ما أورده أولا عن تلك الحملة ، فكتبها مرة ثانية في مكان غير مناسب تاريخيا . وهذا نص الفقرة بتمامه : — " وفيما وصل من صقلية إلى الاسكندرية مائتان وستون مركبا تحمل الرجال ، وستة وثلاثون طريدة تحمل الخيل ، وستة مراكب تحمل آلة الحروب ، وأربعون مركبا تحمل الزاد ، فكانت [عدة] من فيها من الرجال خمسة ألاف ، ومن الحياتة ألاما (ي س الف) وخمسمائة فارس ، فقاتلهم أهل الثغر أشد قتال ، وأنتهم العساكر من القاهرة . ثم قدم السلطان صلاح الدين بهرم الله الفرنج ، وعزم المسلمون منهم غنائم كثيرة ، وأحرقوا عدة من مراكبهم ، وأسروا طائفة ، وذلك في المحرم [سنة سبع وخمسمائة] " .

(١) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة ، وليس لها علاقة بالمص . ولذا وضعت هنا ، ونصها : — " وفي سنة إحدى [ي] وسبعين مات الشيخ أبو حمص عمر بن يحيى بن محمد بن وانوديس (كذا) بن علي بن أحمد بن والال (كذا) أحد العشرة أصحاب مهدي الموحدين أبي عبد الله محمد بن تومرت بسلا . وإلى أبي حمص هذا ينسب ملوك تونس من إفريقية فيقال لهم الحفصيون " . انظر الزركشي (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ١٤٩) .

(٢) ليس لعنوان هذه السنة وجود في س ، والسبب هو اتصال أجبار السنة السابقة بمحوادث هذه السنة ، وعدم وجود عليه حقيقة للفصل .

(٣) في س مصيات وهو خطأ ، واسمها . صياف أيضا عند العامة ، وهي بساحل الشام قرب طرابلس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٦) .

(٤) جمع عمادة ، وهي من آلات الحرب ، أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة المرمى البعيد (محيط المحيط) .

كمال الدين الشهرزورى بعد وفاته . وفيه أغار^(١) الفرنج على البقاع^(٢) ، فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم من بعلبك ، فأوقع بهم وقتل منهم وأسر . وخرج إليهم المعظم شمس الدولة من دمشق فلقى بهم بعين الجر ، وأوقع بهم ، ثم سار إلى حماة وبها صلاح الدين ، فوافاه في الثاني من صفر . ثم سار السلطان منها ودخل دمشق سابع عشره ، فأقام بها إلى رابع شهر (١٢٠) ربيع الأول ، وخرج منها إلى القاهرة ، واستخلف على دمشق أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، فوصل إليها لأربع بقين منه .

وفيها أمر السلطان ببناء السور على القاهرة والقلعة ومصر ، ودَوَّرَهُ تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان بذراع العمل . فتولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وشرع في بناء القلعة ، وحفر حول السور خندقاً عميقاً ، وحفر واديه وضيق طريقه . وكان في مكان القلعة عدة مساجد منها مسجد سعد^(٣) الدولة ، فدخلت في جملة القلعة ، وحفر فيها بئراً ينزل إليها بدرج منحوتة في الحجر إلى الماء . وفيها أمر السلطان ببناء المدرسة بجوار قبر الشافعى بالقرافة ، وأن تعمل خزانة الأشربة التي كانت للقصر مارستاناً للمرضى ، ففعل ذلك . وسار السلطان إلى الإسكندرية في ثاني عشرى شعبان ، ومعه ابنه الأفضل على والعزیز عثمان ، فصام بها شهر رمضان ، وسمع الحديث على الحافظ أبى الطاهر أحمد السلفى^(٤) . وأمر بتعمير الأسطول بها ، ووقف صادر الفرنج^(٥) على الفقهاء بالإسكندرية . ثم عاد إلى القاهرة ، فصام بها بقية رمضان . وفيها عاد [شرف الدين] قراقوش غلام تقي الدين إلى بلاد المغرب ، وعاد فأخذ جماعة من

(١) في س غار . (٢) أرض واسعة بين دمشق وبعلبك وحس ، فيها قرى كثيرة ، وأكثر شرب أهاليها من عين تخرج من جبل ، ويقال لها عين الجر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ . ص ٦٩٩ ، ح ٣ ، ص ٧٦٠) . (٣) لم يذكر القرزى في المواعظ والاعتبار اسم صاحب هذا المسجد كاملاً (نفس المرجع ، ح ٢ ، ص ٢٠٢) ، وأمله سعد الدولة الطواشى مملوك الأفضل أمير الجيوش ، وزير الخليفة المستنصر العاطمى (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٤٩) .

(٤) انظر ص ٧١ ، حاشية ٢ . (٥) لعل المتصور بذلك الضريبة التي كانت تفرض على تجار الفرنج الواصلين بالتاجر من بلادهم إلى ثغر الإسكندرية ، وكان مقدارها زمن الفلشندى ، أى في القرن الثامن الهجرى ، خمس قيمة البضائع التي يحملونها (الفلشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣) .

الجند ، وخرج إلى الغرب ، فأمر العادلُ الأميرَ خطيباً^(١) بن موسى وإلى القاهرة بالقبض عليه ، فسار إلى الفيوم وأخذه محمولا إلى القاهرة . وفيها أبطل السلطان المكس المأخوذ من الحجاج في البحر إلى مكة على طريق عَيْذَاب^(٢) ، وهو سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان ، وكانوا يؤذون ذلك بعذاب أو بجدة ، ومن لم يؤذ ذلك منع من الحج ، وعذب بتعليقه بأثنيه ؛ وعرض أمير مكة عن هذا المكس بألفي دينار ، وألف أردب قمح ، سوى إقطاعات بصعيد مصر واليمن ؛ وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية^(٣) آلاف أردب قمح تحمل إليه إلى جدة .

* * *

[سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة] . وخرج السلطان من القاهرة ، لثلاث مضي من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، لجهاد الفرنج . وسار إلى عَسْقَلَان ، فسبى وغنم وقتل وأسر . ومضى إلى الرملة ، فاعترضه نهر تل^(٤) الصافية في يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة ، فزادهم الناس بأنقاهم عليه . وأشرف الفرنج عليهم ، ومقدمهم البرنس أرناط^(٥) صاحب السكر ، في جموع كثيرة . فانهزم المسلمون وثبت السلطان في طائفة ، فقاتل قتالا شديداً ، واستشهد جماعة وأخذ الفرنج أُنُقَالَ المسلمين ، فربهم في مسيرهم إلى القاهرة من العناء ما لا يوصف ، ومات منهم ومن دوابهم كثير ، وأسر الفرنج جماعة منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري . ودخل السلطان إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة ، خلف لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج ،

(١) كذا في س ، وبدون ضبط ، وهي في ب (ص ٢٣) خطباى بدون ضبط أيضاً ، ومترجمة إلى (Khoultobai) في (Blochet : Op, cit, p' 129) (٢) نهر تجارى عظيم في القرون الوسطى ، وهو واقع على الشاطئ المصرى للبحر الأحمر (بحر القلزم) قبالة جدة على الشاطئ الآخر ، (ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥١) ، وهو في س عيذاب ، وأكثر وروده بهذا الرسم ، وسيصح دائماً ، ير تنبيه (٣) في ب (ص ٢٣ - ١) ثلاثمائة [و] ثمانية آلاف .

(٤) حصن بنواحي الرملة قرب بيت جبرين (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦٧) .

(٥) في س ارباط ، وهو (Le prince Arault seigneur de CaraC) واسمه الأصل قبل أن يأتي الشام (Renaud de Chatillon) . انظر ابن الأثير (الكامل في التاريخ (Rec. Hist. Or. Vol. I. pp. 627, 675

وقطع أخباز^(١) جماعة من الأكراد ، من أجل أنهم كانوا السبب في هذه الكسرة ، وفيها نزل الفرنج على حماة ، فقاتلهم الناس أربعة أيام حتى رحلوا عنها ، ونزلوا على حارم فحاصروها أربعة أشهر ، ثم رحلوا إلى بلادهم . وفيها أطلق شرف الدين قراقوش التقوى ، وسار (٢٠٠) إلى أوجلة وغيرها من بلاد المغرب ، وخرج السلطان في سادس عشرى شعبان سنة ثلاث وسبعين من القاهرة يريد الشام ، واستخلف بديار مصر أخاه العادل ، فلم يزل مقيما على بركة الحب إلى أن صلى صلاة عيد الفطر . فبلغه نزول الفرنج على حماة ، فأسرع في المسير حتى دخل دمشق في رابع عشرى شوال ، فرحل الفرنج عن حماة . ووافته بدمشق رسل الخليفة بالتشريفات . وفيها سار الفرنج إلى قامة صذر ، وقاتلوا من بها فلم ينالوا قصدا ، فساروا يريدون الغارة على ناحية فاقوس ، ثم عادوا بنية الحشد والعود . وفيها عصى شمس الدين بن المقدم بمدينة بعلبك على السلطان . وفيها ولد الملك الزاهر مجير الدين داود ، شقيق الظاهر غياث الدين غازي بن السلطان صلاح الدين ، لسبع بقين من ذى القعدة ، وفيها غلت الأسعار ببلاد الشام لكثرة الجذب ، واشتد الأمر بحلب . وفيها سار الأمير ناصر الدين إبراهيم ، سلاح^(٢) دار تنقي الدين [عمر] ، في عسكر إلى بلاد المغرب فوصل إلى قراقوش التقوى ، وسارا إلى مدينة الرُّوحان^(٤) ، فنازلاها أربعين يوماً ، حتى فتحت وقتل حاكمها ، وقررا عليها أربعة عشر ألف دينار^(٥) ، وملكها مدينة غُدَامِس^(٦) بغير قتال ، وتقرر على أهلها اثنا عشر ألف

(٧) في س أخبار . والأخباز جمع خبز يضم الحاء وسكون الباء ، ومعناه إقطاع من الأرض ، ويقابله (appanage) في نظم العصور الوسطى في غرب أوروبا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وما يوجب الالتفات أن هذه الكلمة مشتقة في اللغات الأوروبية من اللاتينية (panis) ، ومعناها خبز .

(٢) في س بها الدين . (٣) السلاح دار هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذي هو في خدمته ، ومن وظيفته أيضاً الإشراف على السلاح خاناه ، وما هو من توابع ذلك . ولفظ السلاح دار مركب من كلمتين ، أولاهما عربية ، ومعناها آلة القتال والثانية فارسية ومعناها ممسك ، ويكون المعنى ممسك السلاح (الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ ، ٤٦٢) .

(٤) في س دوح فقط ، وهي من نواحي برقة (يا قوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٢٩) .

(٥) في س ديناراً . (٦) يصح أيضاً نطق اسم هذه المدينة بفتح النين ، وهي أقصى حدود برقة ، فيما يلي تونس الحالية (يا قوت : نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٧٧٦) .

ديننا^(١)، وسار إبراهيم إلى [جبال]^(٢) نفوسة، فلك عدة قلاع، وصار إليه مال كثير ورجال، وسار البعث من عند قراقوش إلى بلاد السودان، فغنموا غنيمة عظيمة. وفيها ظهر العمل في سور القاهرة، وطلع البناء، وسلكت به الطرق المؤدية إلى الساحل بالمقس^(٣). وفيها مات الأمير شهاب الدين محمود تكش الحارمي^(٤)، خال السلطان صلاح الدين ونائب حماة، في سابع عشر جمادى الآخرة بحماة، وحمل إلى حلب فدفن بها، وكان شجاعاً عاقلاً سيوساً مدحاً.



[سنة أربع وسبعين وخمسمائة]. وفي أوائل شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين، هجم العدومن الفرنج على مدينة حماة، فنهض إليهم المسلمون وأسروا مقدمهم في جماعة، وبعثواهم إلى السلطان بدمشق، فضرب أعناقهم، وفيها جهز السلطان أخاه شمس الدولة تورانشاه إلى محاربة شمس الدين بن المقدم بيبليك، في جيش كثيف، فحاصروها مدة. ثم سار إليه السلطان، وأقام على الحصار حتى دخل الشتاء، فوقع الصلح وتسلمها السلطان، وسلمها لأخيه تورانشاه في شوال. فبنى الفرنج في مدة اشتغال السلطان بيبليك حصناً على مخاضة بيت الأحران، وهو بيت يعقوب عليه السلام، وبينه وبين دمشق نحو يوم، ومنه إلى طبرية وصفد نصف يوم. فعاد السلطان إلى (١٢١) دمشق، وقدم عليه من الديوان العزيز^(٥) خادم [أسمه فاضل]. فأصبحه معه للغزو، حتى وقف على الحصن؛ وتحطف من حوله من الفرنج،

(١) في س اثني ... ديناراً

(٢) تقع هذه الجبال في أقصى الشمال الشرقي من غدامس، وهي قريبة من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وبينها وبين مدينة طرابلس ثلاثة أيام، وتبعد عن القيروان مسافة ستة أيام (ياقوت: نفس المرجع، ج ٤، ص ٨٠٠).

(٣) فرصة القاهرة منذ عصر العاطميين، ومكانها قرب الأزبكية الحالية ثم تحول عمرى النيل وانحسر ماؤه، في أواخر القرن السادس الهجري عن بولاق الحالية، فأصبحت هذه فرصة القاهرة منذ الدولة الأيوبية. (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢١، ١٣٠).

(٤) في س الحارمي، وقد تولى ولده قلة ثلاثة أيام. أبو شامة (كتاب الروضتين، ص ١٩٣ في (Rec. Hist. Or. Vol. IV). (٥) اصطلاح المؤرخون المسلمون على إطلاق هذه التسمية على ديوان الخليفة العباسي ببغداد. وقد ذكر اسم الرسول للتوضيح (نفس المرجع، ص ١٩٥ في (Rec. Hist. Or. Vol. IV).

ثم عاد إلى دمشق . فتواترت الأخبار باجتماع الفرنج لغزو بلاد المسلمين ، فأخرج [السلطان ابن أخيه] الأمير عز الدين فرخشاه^(١) أمامه ، فواقعه الفرنج وقعة قُتِل فيها جماعة من مقدمي الفرنج وغيرهم ، منهم المنفري^(٢) وصاحب الناصرة ، فانهزموا وأسر منهم جماعة . فبرز السلطان من دمشق إلى الكسوة لنجدة عز الدين ، فوافته الأسرى والرءوس ، فُسِر بذلك وعاد إلى دمشق . وفيها أغار ابرنس ملك الفرنج^(٣) بأنطاكية على شَيْزَر ، وغدرا القومص^(٤) ملك طرابلس بالتركان . وفيها سار شمس الدولة إلى مصر بعدة من العسكر لجذب الشام في سادس عشرى ذى العقدة . وأغار السلطان على حصن بيت الأحزان وعاد بالغنائم والأسرى ، ووالى الغارة والبعث إلى بلاد الفرنج . وفيها قوى قراقوش التقوى وإبراهيم السلاح دار ببلاد المغرب ، وأخذ عدة حصون .

ودخلت سنة خمس وسبعين [وخمسمائة] . والسلطان مواصل الإغارة على بلاد الفرنج ، وكان نازلاً على بانياس . وسَرَح العساكر ومقدمها عز الدين فرخشاه بن أيوب ، فأكثر من قتلهم وأسرهم . وفتح بيت الأحزان في رابع عشرى ربيع الآخر ، بعد قتال وحصار ، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة ، وشيئا كثيراً من الأقوات وغيرها ، وأسر عدة نحو السبعائة ، وخرَّب الحصن حتى سوى به الأرض ، وسدَّ البئر التي كانت به ، وعاد بعدما أقام عليه أربعة عشر يوماً ، فأغار على طبرية وصور وبيروت ، ثم

(١) بغير ضبط في س . انظر نفس المرجع والصفحة بالهامشية السابقة . (٢) في س "المنفري" ، وهو (Honfroi) صاحب حصن بانياس جنوبي غربي دمشق . نفس المرجع والصفحة وما يليها . وانظر أيضاً Lane-Poole Saladin, p. 157 حيث الاسم (Humphrey of Toron) (٣) اسمه (Doémond) (ou Bohémond II.) وسماه أبو شامة (نفس المرجع ص ٨٩ في Rec. Hist. Or. V) "البرنس الأتلاكي يميند" . انظر أيضاً (Hitti r Usamah, pp. 98, 155) حيث يسمى "ابن يمينون" .

(٤) انظر ص ٥٩ ، حاشية ٢ .

رجع إلى دمشق ، وقد مرض كثير من العسكرومات عدّة من الأمراء . وفي يوم^(١) الأحدنا من المحرم ركب السلطان ومعه صمصام الدين^(٢) أجك والى بانياس في عسكره ، فلقية الفرنج في ألف رمح وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل ، فاقتتلوا قتالا كثيرا انهزم فيه الفرنج ، وركب المسلمون أفنيتهم يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل . وعاد السلطان إلى مخيمه ، وقد مضى أكثر الليل ، وعرض الأسرى^(٣) : فقدم أولهم بادين بن بارزان ، ثم أودمقدم الدّاوية^(٤) ، وابن القومصية ، وأخو صاحب جُبَيْل في آخرين ، فقيّدوا بأجمعهم وهم نحو المائتين وسبعين ، وحلوا إلى دمشق فاعتقلوا بها . وعاد السلطان إلى دمشق ، فقُدّي ابن بارزان بعد سنة بمائة وخمسين ألف دينار وألف أسير من المسلمين ، وقُدّي ابن القومصية بخمسة وخمسين ألف دينار صُورية^(٥) ، ومات أود فأخذت جيفته بأسير أفرج عنه . وقدم الخبر بأن الملك المظفر تقي الدين أوقع

(١) ليس للسطور التالية وجود بهذه الصفحة من س ، ولكنها واردة في ب (س ٢٤) على ترتيب ورودها هنا . وهي عبارة عن الهامش المكتوب على ورقة منفصلة بين الصفحتين (١٦ ب ، ١٧) اطـ ص ٥١ حاشية ٢ ؟ وفي هذا ما يحمل على الاعتقاد بأن كاتب ب تدارك هذه الغلطة بنفسه ، أو أنه نسخ من س قبل حدوث هذا الخطأ أثناء عملية التجليد ، وهذا طبعاً بفرض أن المقرئ أحل هذا الهامش بحالة المناسب من الأصل . (٢) مضبوطة هكذا في س .

(٣) بمس أسرى هذه الواقعة من كبار الفرنج ، كما جاء في أبي شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٩٨ — ١٩٩ في (Rec. Hist. Or. IV.) ثم (Odol le grand maltre des Templiers, celui des Hospitaliers, le seigneur de Tiberiade, le frère du seigneur de Djobeil, le fils de la Comtesse (de Tripollie, le fils de Barizan (Balian II d'Iblin) seigneur de Ramla...) . فإذن هذا ما جاء في (Lane-Poole : Saladin. p. 157) . (٤) أطلق المؤرخون المسلمون هذا الاسم على جمعية فرسان المعبد (Templiers) ، كما أطلقوا لفظ الإسماعيلية على جمعية فرسان المستشفىين (Hospitaliers) . وقد أسس الجمعية الأولى (Hugh de Payns) سنة ١١١٩ م . لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس . أما الجمعية الثانية فيرجع تأسيسها إلى سنة ١٠٩٩ م على يد (Blessed Gerard) بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وكانت دارها (Hospice) به قبل ذلك زمن طويل مأوى الحجاج والمرضى من المسيحيين . ثم تحول كل من الجمعيتين إلى هيئة حرية دينية ، فكان لرؤسائهما وفرسانهما شأن كبير في تاريخ الإمارات الصليبية بالشام . (King : Knight2) (Hospitallers. pp. 1-33) . (٥) الدنانير الصورية أو الشخصية أو الإبرنتية هي الإبرنتية ، وميزتها عن الدنانير المصرية الإسلامية في العصور الوسطى أن صور ملوكها منقوشة على وجوها . (الفلشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤١) .

بمسكر قلنج أرسلان صاحب الروم [السلجوقية]، فهزهم وأسروهم جماعة. فكتب السلطان البشائر بظفر تيج على سرج^(١) عيون، و بظفر أخيه بمسكر الروم، وسيرها إلى الأقطار فأتته تهاى الشعراء من الأمصار. ثم اهتم السلطان بأسر بيت الأحزان، وكتب إلى الفرنج يأمرهم بهدمه فأبوا، فراجهم مرة ثانية فطلبوا منه ما غرموا عليه، فبذل لهم حتى وصلهم إلى مائة ألف دينار فلم يقبلوا. فكتب حينئذ إلى التركان وأجناد البلاد يستدعيهم، وحمل إليهم الأموال والخيول والتشريف، فقدم إليه خلق كثير. وسار الملك المظفر من حماة، فقدم دمشق أول شهر ربيع الآخر، وقد تلقاه السلطان. ثم سار السلطان من دمشق يوم الخميس خامسة، في عسكر عظيم، ونزل على حصن بيت الأحزان يوم الثلاثاء حادى عشره. وكانت قلعة صفد للداوية، فأمر بقطع كروم ضياع صفد، وحاصر الحصن ونقبه من جهات، وحشاه بالخطب وأحرقه، حتى سقط في رابع عشره، وأخذة فقتل من فيه وأسروهم، ووجد فيه مائة أسير من المسلمين، فقتل عدة من أسرى الفرنج، وبعث باقيهم في الحديد إلى دمشق. وأخرب الحصن حتى سوى به الأرض، فكانت إقامته عليه أربعة عشر يوما. وعاد إلى دمشق، فمدحه عدة من الأمراء والشعراء وهناؤه بالفتح^(٢).

وفي صفر ظهر قدام المقياس بمصر وسط النيل الحائط الذى كان في جوفه قبر يوسف الصديق وتابوته، ولم ينكشف قط منذ نقله موسى عليه السلام إلا حينئذ، عند نقصان الماء في قاع المقياس، فإن الرمل انكشف عنه وظهر للناس، وأكث الناس ما علموا ما هو. وفيها نافق جلدك^(٣) الشهابى بالواحاح، فأخذة العادل بالأمان وسيره إلى دمشق. فيها أغار عز الدين فرخشاه على صفد، فأكثر من القتل والسبي وأحرق الربض^(٤) في رابع عشر ذى القعدة، وعاد إلى دمشق.

(١) بقعة بساحل الشام، فيها نبت كثير تخرج فيها الدواب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨٨).

(٢) هنا ينتهى الهامش المشار إليه في ص ٦٨ حاشية ١. (٣) في س "الشهابى"، وقد ضبط الأسم

على منطوقه في (Blochet : Op. cit. P. 137)، ولعله الأمير شجاع الدين جلدك التقوى، المذكور في أبي الفداء

(المتنصر في أخبار البصرى في (Rec. Hist. Or. I. P. 98). (٤) بغير ضبط في س. وهو سور المدينة،

وما حولها من مساكن وبيوت، وماوى النمل والأبقار (محيط المحيط).

وفيها مات الخليفة المستضيء^(١) بأمر الله أبو المظفر يوسف بن المقتدي لأمر الله محمد، يوم الجمعة لاثنتي عشرة مضت من شوال، وكانت خلافته عشر سنين غير أربعة أشهر. واستخلف من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد؛ فخرج الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا إلى الملوك وإلى السلطان [صلاح الدين]، وسار (٢١ ب) معه إلى مصر [شهاب الدين بشير الخالص] كما يأتي ذكره^(٢). وفيها ختن السلطان ابنه الملك العزيز عثمان، وسلّمه إلى [صدر]^(٣) الدين بن الحجاور معلّاه. وفيها فشا الموت بمصر والقاهرة وعامة أعمال مصر، وتغيرت رائحة الهواء، ومات بالقاهرة ومصر في أيام يسيرة سبعة عشر ألف إنسان.

ودخلت سنة ست وسبعين [وخمسمائة]. فيها سار السلطان إلى حرب عز الدين قليج^(٤) أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان [السلجوقي] صاحب قونية، وعاد بغير قتال، فدخل دمشق أول شهر^(٥) رجب، وفيها مات السلطان سيف الدين غازي بن السلطان قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، في ثالث صفر، وجلس أخوه عز الدين مسعود مكانه. فكتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يسأل أن يُفَوِّضَ إليه، فوصل شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم، وشهاب الدين بشير الخالص، بالتفويض والتقليد والتشريف في رجب. فتلقاهم السلطان وترجّل لهم، ونزلوا له وبلغوه سلام الخليفة، فقَبِلَ الأرض، ودخل دمشق بالخلع، وأعاد الجواب مع بشير، وصحبته ضياء الدين الشهرزوري. وسار [السلطان] إلى بلاد الأمن لقمع ملكهم^(٦)،

(١) في س "المستضي بالله" (٢) انظر ما يلي - (٣) مكان هذه يباس في س، ولكنها في ب (س ١٢٥). (٤) في س قليج، بدون ضبط، وأحيانا بغير الياء، وسيحافظ على الرسم الوارد هنا بالمتى دائما. (Enc. Isl. Art. Kildj Arslan). (٥) في ب (س ١٢٥) أول رجب. انظر س ٣٩، حاشية ١. (٦) اسمه (Leon, roi d'Arménie) ويسميه المؤرخون المسلمون ليفون ولافون وابى لاوت. (Rec. Hist. Or. Vol. V. Index).

فأوغل فيها وأطاعه ملكهم ، ثم عاد بعد ما وصل إلى بهسنا^(١) وأحرق حصنا وخربه ، وخرج من دمشق يريد مصر في ثامن عشر رجب ، ومعه شيخ الشيوخ [صدر الدين] ، فوصل إلى القاهرة ثالث عشر شعبان ، وخرج شيخ الشيوخ إلى مكة في البحر ، وعاد منها إلى بغداد . وفيها مات المحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفه السلبي^(٢) في يوم الجمعة خامس ربيع الآخر بالإسكندرية عن نحو مائة سنة ، ومات الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شاذي في خامس صفر بالإسكندرية ، ومُحِل إلى دمشق فدفن بها ، وفيها ولدت امرأة غرابا . و [فيها] كان قاع^(٣) [النيل] ثلاثة أذرع وعشرين أصبعا ، وبلغت الزيادة ستة عشرة ذراعا وثلاثي ذراع .

* * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة . في محرم خرج الأمر بالحوطة على مُسْتَقْلَات^(٤) العربان بالشرقية ، وأمسروا بالتعدية إلى البحيرة ، ووقعت الحوطة على إيقاع جذام وثعلبة ، لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الفرنج . وكثر القار بالمقائى والغلال بعد حصادها ، فأتلف شيئا كثيرا . واحترق النيل حتى صار يُخاض ، وتشمر الماء عن ساحل المقس ومصر ، وربى جزائر^(٥) رَمَلَة خيف منها على المقياس أن يتقلص الماء عنه ، ويُحتاج إلى عمل غيره . وبُعد الماء عن السور بالمقس ، وصارت قوته من بر الغرب . وخيم السلطان في بركة الحب للصيد

(١) بشير ضبط في س ، وهي قلعة حصينة ، في شمال الشام ، بقرب مرعش وسيمساط ، ومن أعمال حلب (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧٠) (٢) مضبوطان عن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٨) . وقد اعتمد ياقوت على أبي الطاهر في كثير من معلوماته (انظر فهرس الأعلام في معجم البلدان) . (٣) في س القاع . (٤) جمع المستنل بفتح النين ، وهو كل ما أوعل من أرس أو عقار أو حانوت أو سوق أو طاحون . والمستنل بكسر العين ما يأتي من المال أو غيره من هذه الأشياء (Dozy, Supp. Dict. Ar.) . (٥) في س حراير رميله . (٦) يحتل أن يكون هذا بدء تسيير مجرى النيل الذي نشأت عنه بولاق فيما بعد ، إذ يقول القرزى في المواعظ والاعتبار ، (ج ٢ ، ص ١٣٠ — ١٣١) في هذا الصدد : ” إن الماء انحسر بعد سنة سبعين وخمسمائة عن جزيرة تعرف بجزيرة النيل ، وتقلص الماء عن سور القاهرة الذي ينتهي إلى المقس . وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة إلا وهي تكثر ... ” . انظر ص ٦٦ ، حاشية ٣ .

ولعب الأكره ، وعاد بعد ستة أيام . وورد الخبر بأن الأبرنس أرناط^(١) ملك الفرنج بالسكرك جمع وعزم على السير إلى تيماء ودخول المدينة النبوية ؛ فخرج عز الدين فرخشاه من دمشق بعساكره إلى السكرك ، ونهب وحرق ، وعاد إلى أطراف بلاد الإسلام فأقام به ، وورد الخبر من نائب قلعة أيلة بشدة الخوف من الفرنج .

وفي صفر قدم رسول ملك (١٢٢) القسطنطينية إلى القاهرة ، فوقع الصلح مع صاحبها ، وأطلق في جمادى الآخرة مائة وثمانين أسيراً من المسلمين . وسار صارم الدين خطلبا إلى القيوم ، وقد أضيفت إليه ولايتها ، وأفردت برسمه الخاص ، ونقل عنها مقطوعها . ثم صُرف عن ولاية القيوم بآبن شمس الخلافة ، وأحضر خطلبا يسير إلى اليمن ، وكُتب إلى دمياط بترتيب المقاومة على البرجين^(٢) ، وسدّ مراكب السلسلة وتسييرها ليقاقل عليها ، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها .

وفي ربيع الأول طرق الفرنج ساحل تينيس^(٣) وأخذوا^(٤) مراكبا للتجار ؛ ووصلت مراكب من دمياط كانت استدعت من خمسين مراكبا لتكون في ساحل مصر ، وكل بناء برج بالسويس^(٥) يسع عشرين فارساً ورُتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد ، التي يجلب منها الشب إلى بلاد الفرنج^(٦) ؛ وأمر بعمارة قلعة تينيس . ووَرَدَ تجار الكارم^(٧) من عدن ، فطلبت منهم زكاة^(٨) أربع

(١) في س " أرياط " . (٢) في س عا وهي بليد (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ،

س ٩٠٧) في أطراف الشام بين الشام ووادى القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق .

(٣) يرجع إنشاء هذين البرجين والسلسلة التي بينهما ، على سبيل الترجيح ، إلى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) في عهد الخليفة التوكل العباسي (المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، س ٢١٣ - ٢٢٧) .

(٤) في س " تينيس " . وبغير ضبط ، وهي بلدة بمزيره صغيرة اسمها تينيس أيضا ، واحة بالناحية الشمالية الغربية من بحيرة المنزلة قرب بور سعيد الحالية . انظر ياقوت معجم البلدان (ج ١ ، س ٢٨٨) .

(٥) في س " واحد " . (٦) في هامش س قبالة هذه السطور العبارة الآتية : " انظر بناء

البرج بالسويس لحفظ طريق الصعيد " . (٧) كان معدن الشب ، زمن القلقشدي (صبح الأعشى ،

ج ٣ ، س ٢٨٨ ، ٤٥٩) من محركات الدولة المصرية ، يستخرج من أسوان والواحات وبلاد أخرى

بالصعيد ، ويحمل منها إلى سواحل قوس وأخميم وأسيوط والبهنسي لينقل إلى الإسكندرية ، فيباع أكره

اتجار بلاد الفرنج ، حيث يستعمل في أشياء كثيرة أهمها صبح الأحمر . انظر أيضا (Blochet : Op. cit

p. 148. N.1) . (٨) العنبر الأصفر ، وكان لتجاره فندق خاص بهم بالفسطاط (القلقشدي : نفس

نفس المرجع والجزء ، س ٤٦٩) . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 143. N. 8) .

(٩) كان التجار وغيرهم يدفعون الزكاة على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وعلى ما يأتون به من

متجر ، وحال عليه الحال . ثم زادت كمية ما يؤخذ على التاجر زمن القلقشدي (نفس المرجع والجزء

س ٤٦١ - ٤٦٢ ، ٤٦٨ - ٤٧٠) فأصبح " المرتب السلطاني " عشرين قيمة البضائع ، " مع

لواحق أخرى تكاد أن تكون نحو المرتب السلطاني أيضاً " .

ستين . وكثرت بيوت المزر^(١) بالاسكندرية ، فهدم منها مائة وعشرون بيتاً . ووصل المقر^(٢) في حادى عشرى ربيع الأول بالفاء في سابع عشره ، فأوفى [النيل] بمصر في سادس عشرية [الموافق] يوم السادس عشر من مسرى ، ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ في زمن متقدم . فركب السلطان لتخليق المقياس في غده ، وخلع على ابن أبى الرَّدَاد في سلخه . وفتح الخليج في رابع ربيع الآخر ، والماء على خمسة عشر اصبعاً من سبعة عشر ذراعاً ، بمحضر والى القاهرة^(٣) . وفيه أنفق السلطان في الأجناد البَطَّالين وجردهم إلى الثغور ، وأنفق في رجال الشوانى وجردهم للغزو . وورد الخبر بكثرة ولادة الحيوان الناطق والصامت للتوأم ، وأن ذلك خرج عن الحد في الزيادة على المهود ، وأن الغزال في البرية كله أنام ، وكذلك^(٤) النسوان أنامن أكثر من الإفراد ، وكذلك الطير فإنه كثر ظهوره كثرة ظهرت .

وفيه مانت امرأة الصالح بن رزيك عن سن كبيرة وضعف حال وعى ، بعد الدنيا والملك الذى كانت فيه . وركب السلطان في أول جمادى الأولى لفتح بحر أبى المنجا ، وعاد إلى قلعة الجبل ، وركب منها إلى الخيم بالبركة . وسار متسلماً الأمير صارم الدين خطيباً إلى اليمن . وانتصب السلطان ليلاً ونهاراً في ترتيب أحوال الأجناد ، واقتطع من إقطاعات العربان الثلاثين ، وعوض به مَطْعَمُ الغيوم ، وصارت أعمال الغيوم كلها للسلطان . وفيه قُرِدِيوان^(٥) الأسطول (٢٢ب) وفيه الغيوم والحبس الجيوشى والخراجى والنطرون ، وضمن الخراج بثمانية آلاف دينار .

(١) المزر نوع من الحبة يصنع من الذرة أو الشعير أو الحنطة . محيط المحيط . (٢) مضبوطة على منطوقها في (Blochet : Op. cit. p. 193) حيث هي مترجمة أيضاً إلى (Maximum) أى غاية ارتفاع النيل . (٣) انظر وصف حفلات تخليق المقياس وفتح الخليج في القلقشندى (صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٥١٦ — ٥٢١ ، وفى المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٩ ، ٤٩٣) .

(٤) البطالون من الأجناد والأمراء هم الماطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها ، نتيجة غضب السلطان أو كبر السن ، أو اضطراباً إلى الاعتكاف والاختفاء ، أو لجرد حب الانزواء والابتعاد : (O.— Demombynes Op. cit. Introd. p. XLVII. N 3) (٥) فى س كذلك .

(٦) انظر ص ٤٥ ، حاشية ٣ .

[وفي هذه السنة^(١) رُبِيت المقاتلة على البرجين بدمياط] ، وجُهزت خمسمائة دينار لعمارة صورها والنظر في السلسلة التي بين البرجين . وعُمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان في القديم ، فجاء ثلاثة آلاف دينار . وكُتب إلى قوص بإبطال المكوس التي تستأدى من الحجاج وتجار اليمن . وورد كتاب إبراهيم السلاح دار من المغرب أنه فتح بلاد هَوَارة^(٢) ، وزَوَاوة^(٣) ، ولَوَاة^(٤) ، وجبل نفوسة ، وغدامس^(٥) ، وأعمالا طولها وغرضها خمسة وعشرون يوما ، وأنه خطب على منابرها للسلطان وضربت السكة باسمه ، وأنه إذا أُنِم عليه بتقوية بلغ أغراضا بعيدة ، وسير أموالا اعتيدة . وأنشئت أربع حرايق^(٦) بصناعة^(٧) مصر برسم من تَجَرَّد إلى بلاد اليمن ، وجردت أسراء العسكر السَّائرين إلى اليمن . وكبر^(٨) في بحر تنيس تعدى الرمان على المراكب ، وعمرت عليهم حرايق فيها ، فلم يُظفر بهم لإيوائهم إلى الجيش .

وفي جمادى الآخرة قطع الفرنج أكثر نخل العريش وحاولوه إلى بلادهم ؛ وسُيرت مراكب بالزاد والعلوقات والأسلحة إلى اليمن ؛ وأسند أمر الجسور إلى والى الغربية و[والى] الشرقية ،

-
- (١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة المقرئ (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٥) .
 (٢) بغير ضبط في س ، وهي قبيلة من البربر سكنت جبال نفوسة . (انظر ص ٦٦ حاشية ٢ ؛ وياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٩٩٥ ؛ و N 3 . Blochet : Op. 145) .
 (٣) في س زوارة وبغير ضبط ، وزوارة بلد صغير بين إفريقية والمغرب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٥٣) . (٤) في س لمائة بنتجة على اللام والميم والنون ، وهي قبيلة من البربر أيضاً . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٧) . انظر أيضاً (N 3 . Blochet : Op. elt. p. 148) .
 (٥) انظر ص ٦٥ ، حاشية ٦ . (٦) المفرد حرافة وتجمع على حرايق أيضاً ، وهي نوع من السمن الحليفة (Dozy : Supp. Dict. Ar) ، والمالب أنها كانت تستعمل في النيل فقط ، لنقل الأجناد إلى الثغور البحرية . انظر المقرئ (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .
 (٧) كان بالقاهرة ثلاث دور لبناء السفن ، تعرف كل منها بالصناعة ، وأولها صناعة الجزيرة بالروضة الحالية ، إذ أنشئت سنة ٥٤٤ هـ ؛ ثم صناعة مصر ؛ بناها محمد بن طهغ الإخشيد بساحل مصر القديم ، وكانت تعرف أيضاً بصناعة المائر ؛ ثم صناعة القس ، وهي من منشآت المزلدين إله الفاطمي (المقرئ) : المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٧) . (٨) كذا في س ، بشير ضبط .

ليتوفر على عمارتها ؛ وكتب إلى الأمير فخر الدين^(١) نشو الملك بن فرحون وإلى البحيرة ومشارفها بذلك .

وفي رجب استقرت^(٢) عدة الأجناد ثمانية آلاف وستمئة وأربعين ، وأمرأه مائة أحد عشر ، وطواشيه ستة آلاف وتسعمائة [و] ستة وسبعين ، وقرأ غلامية^(٣) ألف وخمسمائة وثلاثة وخسين . والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمئة ألف وسبعون ألفا وخمسمائة دينار ، خارج عن الحلولين^(٤) وعن العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة والكنكانيين^(٥) والمصريين والفقهاء والقضاة والصوفية والدواوين ، ولا يقصر [مامهم] عن ألف ألف دينار . ووصل الإبرنس [أرناط] إلى أيلة ، وسار عسكره إلى تبوك . وفي شعبان كثر المطر بأيلة حتى تهدمت قلعتها ، وشرع في بناء سور دمياط ، وذرعه أربعة آلاف وستمئة وثلاثون ذراعاً ، و[شرع أيضاً] في بناء برج [بها] .

وفي شوال مات منكوريس^(٦) الأسدى أحد الأمراء الماليك ، وأخذ إقطاعه ياز كنج^(٧) الأسدى . وقبض على سيف الدولة مبارك بن منقذ بن كامل الكنكاني ، نائب شمس الدولة ببلاد اليمن ، وأخذ منه ثمانون ألف دينار وأفرج عنه . وسار خطباً إلى مصر واليا على زبيد ، وصحبته خمسمائة رجل ، و[مامهم] الأمير باخل ، وقد بلغت النفقة فيهم عشرين ألف^(٨) ألف

(١) كذا بشر ضبط في س . انظر (Blochet: Op. cit. P. 146) حيث ترجم الاسم إلى "Fakhr-ad-Din Nasr (?) al-Moulik-Ibn-Fardjouin" . (٢) في س "استقرت عدة الأجناد ثمانية آلاف وستمئة وأربعين وأمرأه مائة أحد عشر وطواشيه ستة آلاف وسبعين وقرأ غلامية ألف وخمسمائة وثلاثة وخسين" . (٣) جماعات الضبطية ، وعمامهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . (٤) هذه الكلمة مترجمة إلى (indisponibles) أي من لا عمل لهم ولا منهم فقه ، (Blochet : Op. cit. 146) مع التشكك . غير أن المقصود هنا بالحلولين الدين انحلت عنهم إقطاعاتهم أو رواتبهم فأصبحوا بطالين . راجع ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٢ ؛ ج ٦ ، ص ٣٠٦ ، ٣٣٨ ، ٤٨٥ ، ٦٣٧ ؛ ج ٧ ، ص ١٠٧ ؛ وكذلك المقرري : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ . (٥) انظر الفلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٦٧ — ٧٢) لمعرفة قبائل العربان بديار مصر منذ الأيوبيين . (٦) ضبط كل من هذين الآسمين على منطوقهما في فهارس (Rec. Hist. Or I-V.) . (٨) في س عشرين .

دينار، وكتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل (١٢٣) منهم على الين، إن كان من الإقطاعية، وللبطالين والمرتجلة في الشهر ثلاثة وثلاثون ديناراً؛ وسُيرت الحراريق — وهي خمس — وقد شحنت بالرماء، وفي سابع عشرة سار السلطان إلى الإسكندرية، فدخل خامس عشرى شوال، وشرع في قراءة الموطأ يوم الخميس — ثاني يوم دخوله — على الفقيه أبي الطاهر ابن عوف؛ وأنشأ بها مارستاناً وداراً للغاربة، ومدرسة على ضريح المعظم توران^(١) شاه؛ وشرع في عمارة الخليج^(٢)، ونقل فوخته إلى مكان آخر. وسار منها أول ذى القعدة إلى دمياط، وعاد إلى القاهرة في سابعه. وفي تاسعه أمر بفتح المارستان الصلاحي، وأفرد برسه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار، وغلات جهتها الفيوم، واستخدم له أطباء وغيرهم. وفي حادى عشره خرج السلطان إلى بركة الجب، لتجريد السáكر والمسير إلى الشام، وخرج الملك العادل في ثالث عشره إلى الخميم، ونزل ناحية [بركة الجب؟]. وسومح برسوم الولاية بمصر والقاهرة، ورسوم الفيوم ورسوم الصعيد الأعلى؛ وأخرجت منجنيقات إلى الخيام برسم الفزاة. وفي حادى عشره سار سيف الإسلام [طُفْتُكَيْن أَخُو^(٣) السلطان صلاح الدين] إلى الخميم، لجباة الجسوالى^(٤) والنظر في أمر الثب، وظفروا إلى قوص برجلين من أهل إسنا يدعوان إلى مذهب الباطنية. وفي ثالث عشره عُقد نكاح بنات العادل على أبناء السلطان صلاح الدين، وهم: غياث الدين غازى، ومظفر الدين خضر، ونجم الدين مسعود،

(١) في س تورشاه.

(٢) يقصد المؤلف قناة الإسكندرية التي كانت تخرج من فرع رشيد عند بلدة زاوية البحر، جنوب مدينة كفر الزيات الحالية، P. Omar Toussoe : Mem. Sur Anc. Branches Du Nil. pp. 196 et seq.) على أنه لا يوجد في هذا المرح ذكر لما أحدثه صلاح الدين بذلك الخليج.

(٣) انظر (Lane-Poole : Saladin. Table II. in pocket) (٤) "هى ما يؤخذ من

أهل الدمة من الجزية المقررة على رعايهم في كل ستة. وعلى علي قسين : ما في حاضرة الديار المصرية من القساطر والقاهرة، وما هو خارج عن ذلك. فأما ما يحاضرة الديار المصرية فإن لهذه الجهة بها ناظرًا بولى من جهة السلطان وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها، فإن جزية أهل الدمة في كل بلد تكون لمصالح تلك البلد من أمير أو غيره، تجرى بجرى مال ذلك الإقطاع، وإن كانت تلك البلد جارية في بعض الدواوين السلطانية، كان ما يتحصل من الجزية من أهل الدمة بها جارياً في ذلك الديوان". (الفقشندى : سبج الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٢ — ٤٦٣).

شرف الدين يعقوب ؛ والصدّاق في كل كتاب عشرون ألف دينار . وعقد السلطان المدنة مع رسول القومص ملك الفرنج بطرابلس ؛ ونودي بمنع أهل الذمة من ركوب الخيل والبغال ، من غير استثناء طبيب ولا كاتب . ومات الملك الصالح بجير الدين إسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي صاحب حلب في يوم الجمعة خامس عشر رجب ، فقام من بعده ابن عمه السلطان عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي . وكان موت الصالح هو المحرك للسلطان [صلاح الدين] على السفر ، وكتب لابن أخيه المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة وغيره من النواب بالتأهب ، وكاتب الخليفة الناصر يسأل ولاية حلب .

* * *

[سنة ثمان وسبعين وخمسمائة] . وأهلت سنة ثمان وسبعين ، والسلطان مبرز بظاهر القاهرة ؛ فلما خرج الناس لوداعه ، وقد اجتمع عنده من العلماء (٢٣ ب) والفضلاء كثير ، وهم يتناشدون ما قيل في الوداع ، فأخرج بعض مؤدبي أولاد السلطان رأسه من الخيمة ، وقال .

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

فتطير الحاضرون من ذلك ؛ وصحت الطيرة ، فإن السلطان رحل من ظاهر القاهرة في خامس المحرم من هذه السنة ، ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة ، فسلك في طريقه على أيلة ، فأغار على بلاد الفرنج ، وسار على سمت السكر ، وبعث أخاه تاج الملوك بالسكر على الدرب . وخرج عز الدين فرخشاہ من دمشق ، فأغار على طبرية وعكا ، وأخذ الشّمْثَيْفَ^(١) [أَرْزُون] ، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم ، وأنزل فيه طائفة من المسلمين . وأتى الرّيحُ بُطْسَةً للفرنج إلى بردمياط ، فأسر منها ألف وستمائة وتسعون نفساً سوى من غرق ، فدخل السلطان

(١) قلعة حصينة قرب بابياس ، من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل . وتسمى في كتب المؤرخين الفرنج (Beaufort) ، انظر (Rec Hist. Or. V. Index) . وأضيف إليها اسم أرنون تمييزاً لها من شقيف دركوش وشقيف دين ، وكلها بالشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٢) نوع من السفن . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، وانظر أيضاً (Makhairas : Chron. of Cyprus, Vol. II. p. 141) ، وكذلك (Rec. Hist. Or. IV. P. 216. N. 3) . وفي محيط المحيط : البطسة مركب للحرب أو التجارة بلغة إسبانيا ، ج بلس .

إلى دمشق ، يوم الإثنين لثلاث عشرة بقيت من صفر ، فأقام بها يسيراً ؛ ثم أغار على طبرية ، واشتد القتال مع الفرنج تحت قلعة^(١) كوكب ، واستشهد جماعة من المسلمين ؛ وعاد إلى دمشق في رابع عشر ربيع الأول ، وخيم بالقوار من عمل حوران ، وأقام به حتى رحل إلى حلب . وخرج سيف الإسلام ظهير الدين طفتكين بن أيوب بن شاذى ، من القاهرة إلى اليمن ، بعد مسير السلطان ، ووصل إلى زبيد فملكها ، وأخذ منها ما قيمته ألف ألف دينار ، واحتوى على عدن أيضاً .

وخرج السلطان من دمشق يريد حلب ، فنزل عليها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى ، ونازلها ثلاثة أيام ؛ ثم رحل إلى الفرات ، فخم على غرى البيرة ، ومدّ الجسر ، وكاتب ملوك الأطراف ؛ ورحل إلى الرها فسلمها ، وسار عنها إلى حران فرتبها ، وانفصل عنها إلى الرقة فملكها وما حولها ؛ ونازل نصيبين حتى ملكها وقلعتها . فورد الخبر بقصد الفرنج دمشق ونهبهم القرى ؛ فسار ونازل الموصل في يوم الخميس حادى عشر رجب ، وألح في القتال فلم يزل غرضاً ؛ ورحل يريد سنجار ، فنازلها وصايقها من يوم الأربعاء سادس عشرى شعبان ، ودخل رمضان فكف عن القتال ، ثم تسلمها بالأمان يوم الخميس ثانية ؛ وأعطاه [ابن أخيه] الملك المظفر تقي الدين [عمر] ، ورحل إلى نصيبين فأقام بها لشدة البرد وسار عنها إلى حران ؛ ثم رحل ونزل على آمد لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة .

وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز ، وأنشأ البرنس أرباط^(٢) صاحب الكرك سفناً ، وحملها على البر إلى بحر القلزم ، وأركب فيها الرجال ؛ وأوقف منها مراكبين على حرزة^(٣) قلعة القلزم^(٤) ، لمنع

(١) قلعة حصينة بالجبل المطل على مدينة طبرية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٢٨) .
(٢) الفوار واد بالقرب من حصن الأكراد من عمل طرابلس ، به يتر يعرف بهذا الاسم .
(الفلقشدى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧٤) . (٣) فى س ارباط .

(٤) كذا فى س بعبير صط . ومى فى محيط المحيط بكسر الحاء الموضع الحصين .
(٥) الراجع أن المؤلف يقصد بلدة أيلة كما فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٣) . أما القلزم فوضع على البحر قريب من مدينة السويس الحالية ، وكان فرصة مصر والشام ، ومه تحمل للتاجر إلى الحجاز واليمن . ثم أنه أصبح خراباً زمن ياقوت ، فتعولت التجارة إلى موضع السويس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥٨ — ١٦١) .

أهلها من أستقاء الماء . وسارت البقية نحو عَيْذاب ، فقتلوا وأسروا ، وأحرقوا في بحر القلزم نحو ست عشرة مركبا ؛ وأخذوا بعذاب مركبا يأتي بالحجاج من جدّة ؛ وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعذاب ، وقتلوا الجميع ؛ وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ؛ وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين ؛ وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلا ، ولا وصل قبلهم روى إلى ذلك الموضع ؛ فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم^(١) واحد ، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة (٢٤١) النبوية . فجهز الملك العادل ، وهو يخلف السلطان بالقاهرة ، الحاجب حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم ؛ فعمر سراكب بمصر والإسكندرية ، وسار إلى أيلة ، وظفر بمراكب للفرنج ، فخرقها وأسر من فيها ، وسار إلى عذاب ؛ وتبع سراكب الفرنج ، فوقع بها بعد أيام واستولى عليها وأطلق من فيها من التجار المأسورين ، وردّ عليهم ما أخذهم ؛ وصعد البر ، فركب خيل العرب حتى أدرك من فرّ من الفرنج وأخذهم ، فساق منهم اثنين إلى منى ونحرهما^(٢) بها كما تنحر البُدن ، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذى الحجة ، فضربت أعناقهم كلهم ، وعاد الأسطول [من بحر^(٣) الروم] بعد نكابة أهل الجزائر ، ومعه بطسة للفرنج كانت تريد عكا ، بها أخشاب ونيف وسبعون رجلا .

ومات عز الدين فرخشاه الملقب بالملك المنصور في دمشق في أول جمادى الآخرة . ومات الشيخ الزاهد رُوَزيهَار بن أبي بكر بن محمد بن أبي القاسم الفارسي الصوفي^(٤) ، يوم الأربعاء الخامس من ذى القعدة ، ودفن بقرافة مصر . وفيها انقضت دولة آل سبكتكين ، وكان ابتداءها سنة ست وستين وثلاثمائة ، فلكوا مائتي سنة وثلاث عشرة سنة . وأولهم محمود بن

(١) توجد بالهامش لزاء هذه السطور العبارة الآتية : " انظر قصد المرج بلاد الحجاز " ، وهي بخط مخالف . (٢) في س ونحرهما . (٣) الراجح أن هذه المعركة البحرية كانت قرب إحدى الجزائر الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط . انظر أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ٢٣٥ ، في Rec. Aist. Or. IV.) ، وابن الأثير (الكمال في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٢٦) .

(٤) انظر بعض أخباره في (1) Blochet : Op. cit. p. 155. N. 1) .

سبكتكين، وأخرم خسرو شاه بن بهرام بن شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين^(١). وقام بعدهم القوريّة، [وأولم عز الدين حسن، صاحب بلاد^(٢) الغور].

وفيها ورد الخبر بأن الماء الذي [في] زقاق^(٣) سبته قل، حتى ظهرت القنطرة التي كان يعبر الناس عليها في قديم الدهر إلى أن غلب عليها البحر وطغى؛ فلما قل الماء في هذه السنة عنها لم يبق عليها منه سوى قامتين، ورأى الناس آثار بنيانها، وأن مركباً انكسر عليها.

* * *

[سنة تسع وسبعين وخمسمائة]. وأهلت سنة تسع وسبعين والسلطان على آمد، فتسلها في أوائل المحرم، فقدمت عليه رسل ملوك الأطراف يطلبون الأمان. وخرج الفرنج إلى نواحي الداروم^(٤) ينهاون، فبرز إليهم عدّة من المسلمين على طريق صدر وأيلة، فأظفروهم الله، وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين. وفيه سار الأسطول من مصر فظفر ببطسة فيها ثلاثمائة وخسة وسبعون غلجاً^(٥)، قدموا بهم في خامس المحرم إلى القاهرة. وتوجه سعد الدين كشبه^(٦) [الأسدي] وعلم الدين قيصر إلى الداروم، فأوقفوا بالفرنجة على ماء، وقتلهم جميعاً وقدموا بالرؤوس [إلى]

(١) آخر ملوك هذا البيت هو تاج الدولة خسرو ملك، وقد جاء بعد خسرو شاه المذكور هنا. (Lane-Poole: Muh. Dyns. p. 289) (٢) راجع (Ibid: Op. cit. pp. 291 et seq)

(٣) الزقاق مجاز البحرين بين طنجة والحريرة المصراة في بلاد المغرب (محيط المحيط)، وسبته (Ceuta) مدينة حصينة بإسبانيا على شاطئ جبل طارق. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٠، و Enc. Isl. Art. Ceuta). (٤) بغير ضبط في س، وهي بليدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ، وهي بعد غرة في الطريق إلى مصر، وبها قلعة، الواقف عليها يرى البحر. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢٥، ٥٢٧). (٥) الملح الرجل الصخيم من كفار المعجم، وبعض العرب يطلق الملح على الكافر مطلقاً، ج علوج وأعلاج (محيط المحيط). وفي (Dozy: Supp. Dic. Ar.) هو الرجل الشهواني المستهتر، والذي كان مسلماً فتصر، أو نصرانياً فأسلم. وقد ترجمها (Blochet: Op. cit, p, 156) إلى (Matelots) أي بحارة. (٦) كذا في س بغير ضبط، وهو مترجم في (Blochet: Op. cit, p, 156) إلى (Kamsaba). انظر أباشامة (كتاب الروصتين، ص ٣٤٦، ٣٨١، ٣٨٢، في Rec, Hist, Or, IV. حيث ترجم إلى (Kemchebeh).

(٧) هذا اللفظ غير واضح في س، وكذلك بعض الكلمة السابقة له.

القاهرة في رابع عشره . ورحل السلطان عن آمد ، وعبر الفرات يريد حلب ، فلك عَيْن تَاب^(١) وغيرها ، ونزل على حلب — بكرة يوم السبت سادس عشرى المحرم — وقد خرب السلطان عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قلعته^(٢) في جمادى من سنة ثمان وسبعين [خمسائة] . وتسلمها [صلاح الدين] بصلح ، يوم السبت ثامن عشر صفر ، على أن تكون لعماد الدين سنجار . ومات تاج الملوک بُورِي^(٣) بن أيوب بن شادى في يوم الخميس ثالث عشره بحلب . وسار عماد الدين إلى سنجار . فولى السلطان قضاء حلب محيى الدين محمد بن الزكى على القرشى قاضى دمشق ، فاستناب بها زين الدين ندا بن الفضل بن سليمان البانياسى ؛ وولى يازكج قلعته ، وجعل ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى^(٤) ملكا لها ، ورحل عنها ثمان بقين من ربيع الآخر . فدخل دمشق ثالث جمادى الأولى ، وأقام بها إلى سابع عشره ؛ وبرز وسار إلى بيسان^(٥) ، فعبر [نهر] الأردن^(٦) في تاسع جمادى الآخرة ، وأغار على بيسان فأحرقها ونهبها . وفعل ذلك (٢٤ ب) بعدة قلاع ، وأوقع بكثير من الفرنج واجتمع بعين جالوت من الفرنج خلق كثير ، ثم رحلوا ، وأسر [السلطان] منهم كثيرا ، وخرب من الحصون حصن بيسان وحصن عَقْرَبَلَا^(٧) وزَرْعِينَ^(٨) ، ومن الأبراج والقرى عشرة . وعاد إلى دمشق است بقين من جمادى الآخرة ، ثم خرج في يوم السبت ثالث رجب يريد السكرك ، فنارله مدّة ولم ينل منه

(١) في س عنتاب ، وهى قلعة حصينة بين حلب وأطاكية ، وكانت تعرف بدلوك . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٠٩) . (٢) يتضح من (Blochet : Op. cit p. 157 N. 3) ، أن القرى خلط هنا بين حلب وعزاز .

(٣) انظر بعض أخباره في (Blochet : Op. cit. 157. N. 4) .

(٤) في س ياركوك . (٥) في س ايلعازى . انظر (Blochet : Op. cit. p 157. N. 5) . (٦) في س نسان بغير ضبط ، وهى مدينة بين حوران ولسطيس . (ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٨٨ ، و Blochet : Op. cit. p. 158. N. 3) .

(٧) بغير ضبط في س . (انظر ياقوت : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ، و Blochet : Op. cit. p. 158 N. 4) (٨) قرية صغيرة بين بيسان ونابلس (ياقوت : نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٧٦٠) . وبهامش الصفحة العبارة الآتية : " وكانت يومئذ بلدة عامرة ، يزرع بها قصب السكر على عيناها التى يقال لها عين جالوت " .

(٩) بغير ضبط في س ، وهى بلدة بغور الأردن قرب بيسان وطرية . (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ، ص ٦٨٨) . (١٠) مضبوطة على منطوقها في (Blochet : Op. cit. p. 159) ولعلها ادريس أو زرين المذكورة في (O-Demembynes : Op. cit. p. 243 , Le Strange : Palestine Under Moslems . 441.)

غرضًا . فسار إلى دمشق ، وقد وصل إليه أخوه الملك العادل من من مصر في رابع شعبان . فاجتمع السلطان بأخيه الملك العادل على الكرك ، وقد خرج إليه بمسكر مصر . وفي يوم الخميس خامس عشره رحل الملك المظفر تقي الدين من الكرك إلى مصر ، عوضا عن العادل وارتجع عن العادل إقطاعه بمصر ، وهو سبعمائة ألف دينار في كل سنة . فجهز إليها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ومعه القاضي الفاضل ، وأنعم على تقي الدين بالقيوم وأعمالها مع القبايات ^(١) و بوش ، وأبقى عليه مدينة حماة وجميع أعمالها .

ووصل السلطان إلى دمشق لثمان بقين من رمضان ، وبعث بالملك العادل إلى حلب في ثاني رمضان . فقدم الظاهر على أبيه بدمشق ومعه يازكيج ^(٢) ؛ وقدم شيخ الشيوخ صدر الدين وشهاب الدين بشير من عند الخليفة الناصر ، ليصلحا بين السلطان وبين عمر الدين صاحب الموصل ، ومعهما القاضي محيي الدين أبو حامد بن كمال الدين الشهرزوري ، وبهاء الدين بن شداد ، فأقاموا مدة ورحلوا بغير طائل ، في سابع ذي الحجة .

وفيها ظهر بقرية بُوَصِير ^(٣) بيت هرمس ، فخرج منه أشياء ، منها كباش وقرود وضفادع يازهر ^(٤) ودَهْنَج ^(٥) وأصنام من نحاس . وفيها قتل شرف الدين برغش على الكرك في ثاني عشرى

(١) في س القبايات ، انظر ص ٩١ ماشية ٣ ، والقبايات بالنبأ الحالية ومركرها معاغة على حافة الصحراء العربية ؛ وبوش في بي سوب ومركرها بي سوب نفسها .

(٢) في س تركوج . (٣) يوجد بمصر أربع قرى بهذا الاسم . (Blochet : Op. cit. p. 160. N. 2) ، والراجح أن القصود هنا بوضير فوريدس بالقيوم ، التي تمل فيها مروان بن محمد ، آخر ملوك بني أمية سنة ١٣٢ هـ . (المقرئى : الواعظ والاعتبار : ج ١ ، ص ٣٤ ؛ والقلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨١) .

(٤) بغير ضبط في س ، وهو حجر خفيف هش يسبب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم ، ويسمى أيضاً بادزهر ، وهو لقط نرسي مركب من كلمتين ، الأولى ناد ومعناها طارد ، والثانية زهر ومعناها سم . (محيط المحيط و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هذا وبالقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١١١) فصل طويل عن الباد زهر وخصائصه .

(٥) بغير ضبط في س ، وهو جوهر كالزهر ، ويتكون من معدن النحاس . (محيط المحيط ، و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وبالقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٠٧) أن الدهنج مسكن للسموم أيضاً . (٦) ضبط هذا الاسم على منطوقه في (Blochet : Op. cit. p. 161) ، وله سمي مترجم إلى (Barghash) في (Rec. Hist. Or. I. Index)

رجب ، فحمل إلى زُرْع^(١) ودفن في تربته . [و] في سنة تسع وسبعين هذه وقعت^(٢) بالوجه البحرى [قطع] برد كييض الأوز أخربت ما صادفته من العاصم ، ودَمَرَت الزروع ، وأهلكت كثيرا من لماشية والناس .

* * *

سنة ثمانين وخمسمائة في خامس المحرم توجهت قافلة بغلات وسلاح وبَدَل^(٣) مجرد إلى قلعتى أيلة وصدر وخرج من الشرقية جماعة يحفرونها مع قيصر وإلى الشرقية ، فأوصلها إلى أيلة وصدر . وعاد في خامس عشره ، وكان العدو قد نهض إليها وعاد عنها . وأهلت [هذه السنة] والسلطان بدمشق ، فبعث إلى الأطراف يطلب المساكر ، فقدم عليه ابن أخيه تقي الدين بعساكر مصر ومعه القاضي القاضى . [و] خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأول إلى جسر الخشب^(٤) ، وقدم الملك العادل من حلب — ومعه نور الدين بن قرا أرسلان^(٥) — إلى دمشق يوم الخميس رابع عشره ، وخرجوا إلى الكسوة^(٦) . فرحل السلطان في ثانى ربيع الآخر من رأس الماء يريد الكرك وخرج تقي الدين في عسكر مصر ، ومعه أولاد الملك العادل وأهله ، يوم الأربعاء مستهل ، فساروا إلى أيلة ، ووصلوا إلى السلطان في تاسع عشره وهو على الكرك . وسارت أولاد العادل في حادى عشره ، فلقوا العادل وهو على الفوارى خامس عشره ، ووصل معهم زرافة . فاجتمعوا به وساروا إلى حلب ، ومعههم بكش^(٧) من عين الدولة الياقوتى ، وعلى

(١) بنير ضبط في س ، وهو اسم يطلق على بلاد بعلطين والأردن (Le Strange : Palestine Under Moslems, p. 556 . also Index) . (٢) في س وقع .

(٣) المقصود بهذا اللفظ جماعة من الحد أرسلت خصيصا لإبدال ما هالك من الذين طالت إقامتهم ، واستحقوا الرجوع إلى بلادهم . انظر (Dozy : Supp Dict. Ar.) .

(٤) موضع بظاهر دمشق ، ويعرف أيضاً بمنازل المساكر . (أبو شامة : كتاب الروستين ، س ٦٦ ، ٢٥٩ ، في (Rec. Hist. Or. IV.)) (٥) في س قرارسلان .

(٦) بنير ضبط في س ، ومع أول منلة للقوافل الدامبة من دمشق إلى مصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، س ٢٧٥) .

(٧) كندا في س بنير ضبط ويرجح (Blochet : Op. cit. p. 162. N. 1) أن صحته (Beklash)

ابن سليمان بن جندَر^(١)، ونزل العسكر الحلبي على عَمَّان مدينة البلقاء^(٢) في ثامن جمادى الأولى، ورحل عنها في ثاني عشره إلى الكرك. وقدم العادل وابن قرا أرسلان إلى الكرك في سابع عشرة، وعملت المجانيق إلى ليلة الخميس حادى عشره، ثم رُميت تلك الليلة. ورحل العسكر كله لخبروزد عن اجتماع الفرنج، وساروا إلى اللجون^(٣)، ونزل الفرنج بالواله^(٤). ثم سار العسكر إلى ناحية البلقاء، فنزلوا حَسْبَاك^(٥) تجاه الفرنج، إلى نصف نهار الإثنين سادس عشره. فرحل الفرنج إلى الكرك، والعسكر وراءهم إلى نابلس، فهاجمها^(٦) العسكر يوم الجمعة سُلخه. وحرقوها ونهبوها؛ وساروا فأخذوا أربعة حصون^(٧)، ونزلوا على حِثِين^(٨)، وتقبوا قلعتها حتى وقعت، وقتل تحتها من النقاين عدّة، وأخذت عنوة وغنم منها شيء كثير. ورحلوا في ليلتهم إلى زرعين [عين] جالوت، وأحرقوها في الليل، وعبروا الأردن يوم الأحد ثاني جمادى الآخرة، ونزلوا القوار رابعة.

ودخل السلطان دمشق يوم السبت سابعة، ومعه عساكره كلها. وقدم أخوه العادل من حلب، وأتته العساكر الشرقية وعساكر الحصن^(٩) وآمد؛ وسار بهم يريد الكرك لأخذها من الفرنج. فنازلها في ربيع عشر جمادى الأولى، ونصب عليها تسعة مجانيق رماها بها. وقدمت الأمداد من الفرنج، فرحل السلطان إلى نابلس، ونهب كل ما مرّ به من البلاد؛ وأحرق نابلس وخرّبها ونهبها، وقتل وسبى وأسر، وأستنقذ عدّة من المسلمين كانوا أسرى، وصار إلى حِثِين، وعاد إلى دمشق. فقدم عليه رسل الخليفة، وهما الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد أحمد، و[شهاب الدين]^(١٠) بشير الخادم، ومعهما خلع

(١) بغير ضبط في س. انظر (Rec. Hist. Or. I, pp. 663, 678).

(٢) جهات واسعة بين دمشق ووادي القرى. انظر (Blochet : Op. cit. p. 162, N. 2).

(٣) بغير ضبط في س، وهو بلد بالأردن، بينه وبين طرية عشرون ميلا. (ياقوت : معجم البلدان،

ج ٤، ص ٣٥١). (٤) بغير ضبط في س، انظر (Rec. Hist. Or. IV, p. 248).

(٥) بغير ضبط في س، انظر (Blochet : Op. cit. p. 162 N. 4).

(٦) في س فهججها. (٧) في س اربع.

(٨) في س حِثِين، وبغير ضبط، وهي بلدة بين نابلس وبيسان. (ياقوت : معجم البلدان ج ٢،

ص ١٨٠). (٩) يقصد المؤلف حصن كيفا، وهو قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٧).

(١٠) انظر ص ٨٢، وكذلك ابن الأثير (الكمال في التاريخ، ج ١١، ص ٣٣٥).

للسلطان والملك العادل ، فلبسها . وطلب^(١) [الرسولان] تقرير الصلح بين السلطان وبين عمر الدين صاحب الموصل ؛ فلم يتقرر بينهما صلح ؛ وخرجا من دمشق ، فأتا قبايل وصولهما إلى بغداد . وخلع السلطان على جميع العساكر ، وأذن لهم في السير إلى بلادهم ، بعد ما أعطاهم شيئا كثيرا ، فساروا . وفي نصف شعبان سار المظفر تقي الدين بعساكر مهريريد العود إلى القاهرة ، وقرئت وصية سلطانية ، تصمت ولاية الملك العزيز عثمان ابن السلطان لمصر بكفالة ابن عمه تقي الدين عمر ، وولاية (٢٠) للملك الأفضل [أكبر أبناء السلطان^(٢)] على الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب ؛ وأن مدة الكفالة إلى أن يعلم المسلمون باستقلال كل واحد بالأمر ، ويستقر الكافلان في خبزيهما وما بأيديهما ، ومن عدم من الولدين قام الأمثل من إخوته مقامه ، أو من الكافلين قام الباقي منهما مقام الآخر ، واستخلف الحاضرون من الأمراء ؛ وولى قراءة العهد بذلك القاضي المرتضى بن قريش . وسومح بهلالى البهنسا^(٣) ،

(١) ق س و ط ل ن (٢) اطر (Lane-Poole : Saladin, Table II., in pocket) .

(٣) البهنسا مدينة بصعيد مصر الأذن غربى النيل ، وتضاف إليها كورة كبيرة ، وهي عامرة كثيرة الدخل . (ناقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧١ ؛ والمقري : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨) . وفى الآن قرية صعبة قرب بى زرار (Enc. Isl. Art. Bahnsā) . والهلالى المكوس التى تحى فوق الحراج بالديار المصرية ، وفيها يقول المقرئ (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٣ وما بعدها) ما نصه : " أعلم أن مال مصر فى زمننا يقسم إلى قسمين : أحدها يقال له خراسى ، والآخر يقال له هلالى . فمال الخراسى ما يؤخذ مساهمة من الأراضى التى تزرع حبوا ونحلا وعنباً وفاكهة ، وما يؤخذ من الفلاحين هدية ، مثل العنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف . والمال الهلالى عدة أبواب ، كلها أحدثوها (كذا) ولاية السوء شيئا بعد شيء وأول من أحدث مالا سوى مال الحراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر ، بعد سنة خمسين ومائتين ، فإنه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب . فابتدع فى مصر بدعا سارت مستمرة من بعده لا تقص : فأحاط بالنطرون ، وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس ، وقرر على السكلا الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراسى ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصيد ، إلى غير ذلك . فاقسم حيثنذ مال مصر إلى خراسى وهلالى ، وكان الهلالى يعرف فى زمنه بالمرافق والمعافى . فلما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون إمارة مصر ، وأضاف إليه أمير المؤمنين العتمد على الله (١٠٤) الحراج والثور الشامية ، ورغب وتزهر عن أدناس المعافى والمرافق ، وكتب بإسقاطها فى جميع أعماله ، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار فى كل سنة ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عند ما صفت ، وصارت تعرف بالمكوس . فلما استبد السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بملك مصر أمر بإسقاط =

وهو ألف ومائتا دينار؛ وسومح بالأتبان، وما تقصّر عن ألفي دينار؛ ومنع من ضمان الزر والجر والملاهي، وترك ما كان يؤخذ من رسم ذلك للسلطان بديار مصر. وخرج السلطان من دمشق يريد البلاد الشرقية؛ فأقام بحماة بقية السنة، وكان تزوله عليها في عشرين ذى القعدة. وفي هذه السنة أقيمت خطبة في سابع المحرم عند قبر سارية^(١) يلخف^(٢) الجبل، في غير بنيان وبغير سكان، وتم ذلك بعصبية جماعية. ثم أحدث جامع عند قبة موسك^(٣) وبقيت سنين. وبلغ النيل ثلاث عشرة إصبعا من تسع عشرة ذراعا، فأضرّ ذلك بالقرى، وخرج أهلها منها لسقوط جذرائهم. وغرقت البساتين والأقصاب، وفاضت الآبار، وانقطعت الترع^(٤)، وكثر الضرر، كما حصل في سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

[وفي هذه السنة] مات السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، لاسمع خلون من رجب. ومات إيلغازي [بن نجم الدين] بن ألبی^(١) بن تمر تاش بن إيلغازي بن أرتق قطب الدين^(٢)، صاحب ماردين^(٣)، في جمادى الآخرة. وفيها مات

= مكوس مصر والقاهرة، فكتب عنه العاصي العاصل مرسوما بذلك، وكان حمله ذلك في كل سنة مائة ألف دينار (١٠٥) وذكر ابن أبي طي أن الذي أسقطه السلطان صلاح الدين، والذي سامح به لعدة سنين آخرها ستة أربع وستين وخمسمائة، يعلمه عن نيف (كندا) ألف ألف دينار وألف ألف أردب، سامح بذلك وأطله من الدواوين، وأسقطه عن العاملين، فلما ولي السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أعاد المكوس وزاد في شنائعها "انظر أيضاً (نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٦٧ - ٢٦٨، والفاشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧١). (١) بغير صبط في س. وهذا القر من مرارات القاهرة ومشاهدها، وهو بالقرافة، وصاحبه ساريه ابن أبي زعيم البساطي، وهو الذي ناداه الخليفة عمر بن الخطاب على المنبر "ناسارية الجبل!". (ياقوت: معجم البلدان: ج ١، ص ٧٨٨، ج ٣، ص ٦٤٥، ج ٤، ص ٢٤٧، ٤٨٥، ٥٥٥). (٢) أي قاعدة الحل. (محيط المحيط).

(٣) غير صيط في س، ولعله مبر موسك بن الحل بن رعيم الأكراد البجنية. (انظر ابن الأنبار: السكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٤١٦). وهذا وقد كان للسلطان صلاح الدين ابن خال اسمه عن الدس موسك، مقشئ قنطرة الموسكى بالقاهرة، غير أنه مات بدمشق سنة ٥٨٤ هـ. (القرينزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٤٧). (انظر ص ١٣). (٤) في س التراع.

(٥) في س التي. رجع ابن الأنبار (السكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٣٥).

(٦) ضطت هذه الأسماء على منطوقها في (Blochet: Op. cit., p. 166).

(٧) قلعة حصينة على قنة جبل الجزيرة، مشرفة على نصيبين. (ياقوت: معجم البلدان ج ٤، ص ٣٩٠).

آقسنقر الساقى ، صهر قراجا الهام ، بحلب فى يوم الجمعة حادى عشر رجب . وفيها رسم
السلطان بتمقيد أولاد [الخلفية] العاضد [الفاطمى] ومن بقى من أقاربه .

(تتمة^(١) سنة ثمانين وخمسمائة) . أول المحرم يوم الاثنين ، فيه ابتدئ بالتدريس
فى المدرسة الفاضلية بدرب ملوخيا من القاهرة . وفى خامسه توجهت القافلة بالبديل المجرد^(٢)
إلى قلعتى صدر وأيلة مع قيصر والى الشرقية . وفى سابعه أقيمت الخطبة عند قبر سارية بلحف
الجيل فى غير بنيان ولا سكان . وفى ثامنه وردت كتب السلطان من دمشق ، باستدعاء العساكر ،
وجمع الأموال والأسلحة والأمتعة . وفى حادى عشره كانت فنة بين العرب الجذاميين ، فخرج
عسكر إلى الشرقية . وعدى الملك المظفر إلى الجيزة بأولاده ، لدعوة عملها الطواشى قراقوش^(٣)
عندقناه طرّة^(٤) ، وعاد من القد . وفى ثامن عشره وردت كتب السلطان من دمشق ، لاستنهاض
العساكر لغزاة الكرك ، وأن يستصحبوا من الراحل ما قدروا عليه فبرزت الخيام إلى بركة الحب
فى عشرية وخرج من الغد الملك المظفر تقي الدين النائب بمصر . وفى ثانى عشرية ورد
الخبر من ناظر قوص بفرق أربع جلاب^(٥) ، بها ألف وثلثمائة رجل من الحجاج ، هلكوا
[كلهم] . وفى خامس عشرية عاد قيصر والى الشرقية من صدر ، بعد أن أوصل القافلة إلى أيلة ،
وعاد بالقافلة العائدة ، وكان العدو قد نهض إليها ، ثم عاد عنها . وفى سلخه ورد الخبر بأن
المؤيد سيف الإسلام ملك بلاد اليمن ، واعتقل خطاب بن منقذ بزريد .

[وأهل] صفر ، فى رابعه ورد الخبر بوصول تانوقى نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ،
إلى المدينة النبوية ، ودفنهما بها . وكان قد حُمل بهما إلى قوص ، وعدى بهما من بحر عيذاب

(١) هذا بدء هامش مكتوب على ورقتين منفصلتين فى س ، بين صفحتى ٢٤ ب ، ٢٥ ا . وليس
لما ورد به وجود فى ب . (٢) انظر ص ٨٣ ، ويلاحظ أن هذه الأخبار وبعض ما بعدها قد
تقدم ذكره . (٣) فى س قراقوش ، وبالهامش العبارة الآتية بخط مخالف : " ذكر ابن الأثير أن
هذا قراقوش بالقافين ، وأنه هو الذى عمر قلعة الجبل ، والمؤلف يسميه قراقوش ، والله أعلم " . انظر
ص ٦٠ ، حاشية ٨ .

(٤) فى س قناطرة ، بغير ضبط . انظر (p. Omar Toussoun : Op. cit. T. I.I., p. 190)

(٥) نوع من سفن التجارة خاس بالبحر الأحمر ، ومفرده جلبة . (Dozy : Supp. Dict. A r.)

إلى المدينة ، وكان سيرهما في أوّل السنة الماضية . وفي سادسه سار الأسطول ، وهو أحد وثلاثون شينياً^(١) وحرّاقة . وفي سابعه جرت فتنة بين الأشاعرة والحنابلة ، سببها إنكار الحنابلة على الشهاب الطوسي تكلمه في مسألة [من مسائل] الكلام في مجلس وعظه . وترافعوا إلى [الملك] المظفر بمخيمه ، فرسم برفع كراسي وعظ الفريقين ؛ وقد أطلق كلٌّ من الفريقين لسانه في الآخر . وفي ثامنه وقع مطر عظيم ، ورعد قاصف وريح عاصف ، و برق خاطف وبرد كثير كبير^(٢) . فخل بالعسكر البرز بلاء شديد ، وعطبت الثمار ، وتفسخت الأشجار ، وانقرع النخل ، وعمت الجائحة الثمار والزرّوع ، التي لم تُحصَد وما حصد ، وتلفت المقائى . وفي عاشره عقد مجلس لأصحاب الدواوين [للمفاضلة ما بين] ابن شكرو ابن عثمان : فنسّم ابن عثمان الدواوين ، بعد أن أخذ خطه زيادة خمسة عشر ألف دينار على الارتفاع ؛ ثم صُرف بان شكر في ثالث عشره . [وأهل] شهر ربيع الأول . في تاني عشره سار المظفر تقي الدين من بركة الحب ، يريد السلطان بدمشق . وعاد ابن السلار إلى القاهرة نائباً عن المظفر . وعاد ابن شكر ناظر الدواوين [إلى القاهرة ؟] في خامس عشره ، ومعه ولد المظفر ، فخرج الناس لتلقيه . [وأهل] شهر ربيع الآخر . في عشريه قدم المظفر على السلطان [صلاح الدين] بالقرب من الكرك .

[و] في عاشر جمادى الآخرة أُخِلّت أهل بلبليس [لديهم] في ليلة واحدة ، وقد سمعوا بمسير الفرنج إلى فاقوس . واضطرب الناس بالقاهرة ومصر والجيرة ، فسميت الهبة الكدابة . وقدم الخبير بأن سيف الإسلام قتل خطاب بن منقذ ومثّل^(٣) به ، واستصفي أمواله باليمن ، وقبض على أزمائه . وكان العسكر عقيب الهبة خرج إلى بلبليس ، فنهبا الغلمان ، وأخذ الفرنج نحو مائتين وعشرين أسيراً ، وساقوا أغناماً لا تدخل تحت حصر .

وفي رابع عشري شعبان قدم المظفر تقي الدين إلى القاهرة بالعسكر ، بعد شدة لحقتهم في طريقهم . وفي ذى القعدة ورد كتاب سيف الإسلام بأنه فتح باليمن مائة وثلاثة وبعين

(٢) في س وبرد كبير كبار .

(١) في س شينى .

(٣) في س وقته

حصناً ، وقدم أهل خطاب بن منقذ وأخوه محمد إلى مصر . وخرج تقي الدين [ابن] أخى^(١) صلاح الدين إلى البحيرة ليكشف أحوالها . و[كان] معه كاتبه الرضى بن سلامة ، فاستدفع من الدواوين حساباتهم ، وسار بها على بغل صحبة تقي الدين ، فأرسل الله صاعقة من السماء أحرقت البغل وما عليه من الحساب ، وعاد تقي الدين^(٢) .

[سنة إحدى وثمانين وخمسمائة] . وأهلت سنة إحدى وثمانين ، فسار السلطان وبلغ حران في يوم الجمعة ثامن عشرى صفر ، فقبض على صاحبها مظفر الدين كوكبرى^(٣) ، واستولى عليها . ورحل عنها في ثاني ربيع الأول ، فوافته رسل الملك قلعج^(٤) أرسلان بن مسعود [السلجوقي] صاحب الروم ، باتفاق ملوك الشرق بأجمعهم على قصده ، إن لم يعد^(٥) عن الموصل وماردين . فسار يريد الموصل ، وكاتب الخليفة بما غنم عليه من حصر الموصل ، ونزل عليها وحاصر أهلها وقتلهم . فورد الخبر بموت شاه^(٦) أرمن بن سقان [الثاني ناصر الدين محمد بن إبراهيم] صاحب خلّاط^(٧) في تاسع ربيع الأول ، فرحل [صلاح الدين] في آخره يريد خلّاط ، ثم عاد ولم يملكها ، [وسار] إلى ميّافارقين^(٨) فتسلّها . ثم عاد إلى الموصل ، ونزل على دجلة في شعبان ، وأقام إلى رمضان ، فرض مرضاً مخوفاً ، فرحل في آخر رمضان ، وهو لما به وقد أيس منه . فتنزل بحران ، فتقرر فيها الصلح بينه وبين الموصل في يوم عرفة ، وخطب

(١) في س أخو ، وليس بالمراجع المتداولة في هذه الحواشي ما يشير إلى أخ صلاح الدين بهذا اللقب .

(٢) آخر المامش المشار إليه بصفحة ٧٨ حاشية ١ .

(٣) بغير ضبط في س ، انظر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤١) .

(٤) في س قلعج . (٥) في س ضم الياء وفتح العين ، والظاهر أن المؤلف عكس موضع

الحركتين خطأ . (٦) في س شاهر من بن سقان . وقد أضيف ما بين القوسين من

(Blochet : Op. cit. p. 166) . انظر أيضاً ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٣٨) .

(٧) بغير ضبط في س ، وهي قصبة أرمينية الوسطى . (ياقوت معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ ؛

و (Blochet : Op. cit. p. 166N. 2) . (٨) بغير ضبط في س ، وهي من مدن ديار بكر . (ياقوت :

معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ — ٧٠٨) .

له بجميع بلاد الموصل ، وقطعت خطبة الساجوقية منها ؛ وخطب له في ديار بكر وجميع البلاد الأرمنية ، وضربت السكة باسمه ، وأمر بالصدقات جميع ممالكه .

[و] في^(١) يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول حدثت بمصر زلزلة ، وفي مثل تلك الساعة كانت [زلزلة] في بعلبك أيضا . وفيه كانت بالإسكندرية فتنة بين العوام ، نهوا فيها المراكب الرومية ، فقبض على عدة منهم ومثل بهم^(٢) .

ومات [في هذه السنة] الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حصص ، ليلة عيد الأضحى . واتهم السلطان بأنه سمه : فإنه لما اشتد مرض السلطان تحدث بأنه يملك من بعده . ومات فخر الدولة إبراهيم بن محمد بن (٢٥ ب) إبراهيم بن أحمد بن نصر الأسواني ابن أخت الرشيد والمهذب ابني الزبير فيها . وهو أول من كتب الإساءة للسلطان ، ثم كتب لأخيه العادل . ومات^(٣) سعد الدين بن مسعود بن معين الدين بآمد . ومات الأمير مالك بن ياروق في منبج ليلة السبت مستهل رجب ، فحمل إلى حلب ودفن بها . وماتت أمنة خاتون بنت معين الدين [أنار] ، التي تزوجها السلطان [صلاح الدين] بعد نور الدين محمود لما ملك دمشق ، وكانت وفاتها يوم الإثنين ثالث ذي العقدة .

[^(٤) و] فيها خرج المظفر [تقي الدين عمر] إلى كشف أحوال الاسكندرية . وشرع في عمل سور على مدينة مصر بالحجر ، فلم يبق فقير ولا ضعيف إلا^(٥) خطّ فيه ساحة (٩) من درب الصفا إلى المشهد النفيسى ، وأتصلت العمارة في خط الخليج إلى درب ملوخيا^(٦) بمصر حتى بين الكومين (٩) ونجوار جامع ابن طولون والكباش ، فعمّر أكثر من خمسة آلاف موضع بشقاف

(٢١) ما بين الرقين واردة بهامش الصفحة في س ، ولم يشر المؤلف كماداته إلى المكان المناسب له من المتن ، وابست في ب (٣٠ ب) .

(٣) بقية تلك الوفيات واردة بهامش الصفحة في س ، وليس بالمتن إشارة إلى مكانها المناسب منه ، هي موجودة في ب (٣٠ ب) . على أنه لا شك في وقوعها سنة ٥٨١ هـ . انظر Enc. Isl. Art. Khātu . (٤) الفقرة الآتية أيضاً إلى آخر السنة ، واردة بهامش الصفحة في س ، قبل بدء كلام عن السنة التالية . وليس منها في ب (٣٠ ب) شيء .

(٥) بغير ضبط في س ، والمبارة كلها إلى علامة الاستفهام بالمتن ، غير واضحة تماماً .

(٦) في س المرخا . انظر المقرئى (المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٣٨) .

القَنْز^(١) والحُرْشَف^(٢) وتراب الأرض . وتحول الناس لجهة جامع ابن طولون والبركة وجانب القلعة . وفي شعبان ورمضان وقع وباء بأرض مصر و [فشأ] موت الفجأة ، و [كثُر الوباء] في الدجاج أيضاً .

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وأهلت سنة اثنتين وثمانين ، وقد أبل السلطان من مرضه ، فرجل من حرّان ؛ [و] نزل حلب في رابع عشر المحرم ، ومصر من حلب إلى حمص ، فرتب أمورها وأسطط المكوس منها . ودخل إلى دمشق في ثاني ربيع الأول ، وأستدعى ابنه الأفضل علياً من مصر ، لمنافرة كانت بينه وبين ابن عمه المظفر تقي الدين ، فقدم عليه بأهله وحشمه ، لسمع بقين من جمادى الأولى . وصُرف العادل عن حلب ، وتقرّر عوضه بها الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان ، وعوّض العادل الشرقية بديار مصر .

وصُرف المظفر تقي الدين عمر من ديار مصر ونيابتها ، فغضب لذلك ، وعبر بأصحابه إلى الجزيرة يريد اللحاق بفلامه شرف الدين قراقوش التقوي ، وأخذ بلاد المغرب وجعل مملوكه

(١) في س القند ، وبغير ضبط . والقنر الحزف — محيط المحيط . وفي (Dozy : Supp. Dict. Ar.) القنر الحجارة الكبيرة . (٢) في س الحرشف ، بغير ضبط ؛ والحرشف هو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأربال وغيرها . هذا ومن أخطاها القاهرة خط الحرشف ، بين حارة برجوان والكافوري ، ويتوصل إليه من بين القصرين ، ومدخله قبو يعرف بقبو الحرشف . وإنما سمي هذا الخط بالحرشف لأن الحليفة المنز القاطمى بنى فيه الاصطبلات من هذه المادة للنحرة . (المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٧ . (٣) العبارة الآتية واردة في هامش على ورقة مفصلة بين الصّحفتين ٢٥ ب ، ٢٦ ا : " كان لإقطاع المظفر تقي الدين عمر البحيرة جميعها ومى بأربعمائة ألف دينار ، والعيوم بثلاثمائة ألف دينار ، وقاى وقايات وبوش ومى يسعين ألف دينار ؛ ثم عوض عن بوش بسمند والواحات ، ومى بستين ألف دينار ، وقوة والمزاحتين ومى بأربعين ألف دينار ، وحوف رمسيس وهو ثلاثين ألف دينار ، والمرتب في كل شهر على الإسكندرية ألف وخمسمائة دينار " . ويلاحظ أن مدلول هذه الأقسام الإدارية أيام الأيوبيين ليس كمدلولها الحال ، فقد تعبر حكم بعضها منذ عصر المماليك البحرية ، بإضافته إلى غيره من الأعمال مع بقاء أسمائه ، ودرس اسم بعضها الآخر ولسى : فسمند مثلاً كانت كورة بذاتها ، ثم أضيفت إلى عمل القرية ؛ وكورة المزاحتين كانت تشمل ما جاور قناة الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط ، فضلاً عن بعض الأراضي بالبر الشرق من فرع النيل ، وكانت حاضرتها قوة . وكان على كورة المزاحتين بالجهات الغربية البحيرة ، ثم حوف رمسيس . راجع القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ — ٤١٠ ؛ و P.Omar Toussoun : Op. cit. T. I. 1, 2.)

(٤) في س بها الدين .

بورى^(١) في مقدمته . فبلغ ذلك السلطان ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه . ففتح الأكابر عليه مشاقته^(٢) السلطان وحذروه ، فأجاب وتوجه إلى دمشق ، فوصلها ثالث عشرى شعبان . واستمر على ما بيده من حماة والمرة ومنبج وأضيف إليه مياقارقين ؛ وكتب إلى أصحابه فقدموا عليه من مصر ، ما خلا زين الدين بورى^(٣) مملوكة ، فإنه سار إلى المغرب ، وملك هناك مواضع [كثيرة] . ثم قصده صاحب المغرب وأسره ، ثم أطلقه وقدمه . ووصل الأفضل على بن السلطان من القاهرة إلى دمشق يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى ، وهو أول قدومه إليها . وسار الملك العزيز عثمان إلى ملك مصر ومعه عمه العادل أتابكا . وكان خروج العادل من حلب ليلة السبت رابع عشرى صفر ، فدخل إلى القاهرة في خامس رمضان .

ووقع الخلف بين الفرنج بطرابلس ، فالتجأ القومص^(٤) إلى السلطان ، وصار يناصحه ؛ واستولى الإبرنس^(٥) ملك الفرنج بالكرك على قافلة عظيمة ، فأمر من فيها ، وامتنع من إجابة السلطان إلى إطلاقهم ، فتجهز [السلطان] لمحاربتة ، وكانت الأطراف بالمسير لقتاله . وفيها مات بمصر عبد الله بن أبي الوحش برى بن عبد الجبار بن النحوى ، ليلة السبت ثلاث بقين من شوال ، ومولده [بدمشق] في خامس رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

* * *

[سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة] وأهلت سنة ثلاث وثمانين ، وقد برز السلطان من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت أول المحرم ، وأقربانه الأفضل على رأس^(٧) الماء ، ونزل بصرى^(٨) ،

(١) في س بوزته بغير ضبط ، انظر (Blochet : Op. cit. p. 169, N. 6.) هذا واصلاح الدين أخ اسمه تاج الملوك بورى . (Jane-Poole: Saladin, Table II, in pocket).

(٢) في س " ففتح الإكابر عليه مشاقته " . (٣) في س بوزبه .

(٤) هو الكونت رايون صاحب طرابلس الذى تقدم ذكره . (انظر ص ٥٩ حاشية ٢) .

(٥) هو الأمير أرنو صاحب الكرك الذى تقدم ذكره (انظر ص ٦٤ حاشية ٥) .

(٦) بغير ضبط في س ، واسمه كما جاء في (Enc. Isl. Art. Ibn Barri) أبو محمد عبد الله برى بن عبد الجبار ابن برى المقدسى المصرى .

(٧) بغير ضبط في س ، واسمها أيضاً الديلى . (O. Demombynes : Op. cit. p. 244. N. 1) .

(٨) بغير ضبط في س ، وموقعها بالشام من أعمال دمشق ، وهى قصبة كورة حوران . (ياقوت

معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٥٤) .

فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا في آخر صفر . فسار إلى الكرك ، في اثني عشر ألف فارس ، ونازلها وقطع أشجارها ؛ ثم قصد الشَّوْبَك^(١) ، ففعل بها [مثل] ذلك ، وخرج الحاجب (١٢٦) لؤلؤ على الأسطول من مصر ، وهو خمسة عشر شينا ، يسير إلى الإسكندرية ، وخرج العادل من القاهرة في سابع المحرم إلى بركة الجب ، وسار إلى الكرك ، فرّ على أيلة ، والتقى مع السلطان على القَرَيَتَيْنِ^(٢) ، وعاد إلى الكرك ، فنازلاها في ربيع الأول . وضايق [السلطان] أهلها ، ثم رحل عنها ، ونازل طبرية ؛ فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بأرض عكا ، ورفعوا صليب الصليبوت^(٣) . فافتتح السلطان طبرية عنوة في ثالث عشرين ربيع الآخر ، وفاظ ذلك الفرنج وتجمعوا ، فسار إليهم السلطان ، وكانت وقعة حِطَّين^(٤) ، التي نصر الله فيها دينه ، في يوم السبت رابع عشرينه . وانهزم الفرنج بعد عدّة وقائع ، وأخذ المسلمون صليب الصليبوت ، وأسروا الإبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك ، وعدّة ملوك [آخرين] ، وقتل وأسر [من سائر^(٥) الفرنج] ما لا يعد كثرة ، ثم قدّم الأبرنس [أرناط^(٦)] ، وضرب السلطان عنقه بيده ، وقتل جميع من عنده من الفرنج الدّاوية والإسبتارية^(٧) . ورحل [السلطان] إلى عكا ، فنازلها سلخ ربيع الآخر ، ومعه عالم عظيم .

(١) بعير صبط في س ، وهي قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلم قرب الكرك . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ ؛ اطر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 472. N. 1) .
(٢) بعير صبط في س ، وهي بلدة كبيرة من أعمال حمص ، وتدعى حوارين ، وبينها وبين تدمر مرحلتان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٨) .

(٣) جاء في ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٥٣) أن صليب الصلوت هو الصليب الأعظم عند المسيحيين ، وأنهم يسمونه بهذا الاسم لأن " فيه قطعة من الخشب التي صلب عليها المسيح عليه السلام في رعمهم " . ولهذا الصليب أخبار كثيرة منها ، فصلا عما سيرد فيما يلي ، أنه نقل إلى جزيرة قبرص ، بعد خروج الصليبيين من الشام ، ثم استولى عليه المسلمون عند فتحهم لثلك الجزيرة سنة ١٤٢٦ م على أنه بقي بقبرص ، ورآه هناك أحد الرحالة الأوربيين سنة ١٤٨٨ م . راجع (Ziada : Mainl. Conquest of Cyprus, p. 102. N. 89) (٤) بعير صبط في س ، وهي قرية بالشام بين أرسوف وقيسارية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٩١) .

(٥) في س منهم . (٦) يوجد في (Blochet : Op. cit. p. 173. N. 1) وصف مسهب لقتل هذا الأمير . وقد ذكر الكاتب الإنجليزي (Sir Walter Scott) في روايته (Talisman) تفاصيل تلك الحادثة . (٧) استثنى صلاح الدين من القتل واحداً فقط من رجال هاتين الهيئتين الدينتين ، وهو (Gerard de Ridfort) رئيس الدّاوية . (King : Knights Hossitallers. pp. 128 129) .

قال العلامة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى : « كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما ، ذا مساحة فسيحة ، فيه مائة وأربعون دكان بيطار . وعددت عند طبائح واحد ثمانيا وعشرين قدرا ، كل قدر تسع^(١) رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين ، لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق ، وأظنها سبعة آلاف دكان ، وليست مثل دكاكين المدينة ، بل دكان واحد مثل مائة دكان ، لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات ، ويقال إن العسكر أنفت منزلتهم لطول المقام ، فلما ارتحلوا غير بعيد ، وزن ستمائة أجرة نقل متاعه سبعين دينارا ، وأما سوق البرّ العتيق والجديد ، فشئ بهر العقل . وكان فى العسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة ، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا ، ويسرونه بحطب وحصير ، ويقطعون حطبا من البسائين التى حولهم ، ويحتمون الماء فى قدور ، وصار حماما ينسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر . » .

فلم يزل [صلاح الدين] على محاصرة^(٢) عكا إلى [أن] تسلمها بالأمان ، فى ثانى جمادى الأولى ، واستولى على ما فيها من الأموال والبضائع ، وأطلق ما كان بها من المسلمين مأسورا ، وكأوا أربعة آلاف نفس . ورتب فى كنيسها العظمى منبرا ، وأقيم فيها الجمعة ، وأقطع عكا لابنه الأفضل عتّى ، وأعطى جميع ما للداوية من إقطاع وضياع للفقير ضياء الدين عيسى الهكاري . وسار المنار بعساكر مصر إلى مجدليا^(٣) ، فحصره وفتح وغنم ما فيه . وافتتحت عدة حصون حول عكا . وهى الناشرة ونيسارية وحيفا وصفورية ومعليا^(٤) والشقيف والتولع^(٥)

(١) هذه الكتابة مترجمة فى (Blochet : Op. cit. p 174) إلى (neuf) أى الرقم العددي تسعة

(٢) يعبر ضبط فى س ، ويطلق على الثياب والأمتعة والأسلحة . (محيط المحيط) .

(٣) فى س " فلم يزل على محاصرتها " . (٤) فى س " مجدليا " بغير ضبط ، انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤١٨) ، وموقعها قرب الرملة . انظر أيضاً (Bolchet : Op. cit. p 175. N. 2) (٥) فى س " معلما " بغير ضبط ، وهى من نواحي الأردن بالشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٧٨) . (٦) فى س " التوله " بغير ضبط ، وهى قرية بالشام (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٥) .

والطُّور^(١)، ونهب ما فيها، وسييت النساء والأطفال، فقدموا بما سد القضاء، وأخذت سَبَسْطِيَّة^(٢) ونابلس، وكتب [السلطان] للخليفة بخبر فتح هذه البلاد^(٣). ونزل العادل على يافا، حتى ملكها عنوة ونهبها، وسبى الحرير وأسر الرجال. ونازل المظفر تقي الدين عمر تَنْين^(٤)، وأدركه السلطان فوصل إليها في حادى عشر جمادى [الأولى]، وما زال محاصراً لها حتى تسلمها في ثامن عشر بأمان؛ وجلا أهلها عنها إلى صور، وتسلم [السلطان] العدد والدواب والخزائن. وسار فأخذ صَرْخَد^(٥) بغير قتال، ثم رحل إلى صَيْدَاء^(٦)، ففر أهلها وتركوها، فتسلمها السلطان في حادى عشرية (٢٦ ب). ونازل بيروت وضائقها ثمانية أيام، إلى أن طلب أهلها الأمان، فأجابهم واستولى عليها في تاسع عشرية. وأخذ جُبَيْل^(٧) فكان من استنقذ الله من المسلمين المأسورين عند الفرنج، في هذه السنة، ما يزيد على عشرين ألف إنسان، وأسر المسلمون من الفرنج مائة ألف أسير.

وهلك [في هذه السنة] القومص صاحب طرابلس. وقدم المركيس^(٨) — أكبر طواغيت الفرنج — إلى صور، وقد اجتمع بها أمم من الفرنج؛ فتملك عليهم، وحصن البلد. فسار السلطان بعد فتح بيروت، وتسلم الرملة والخليل وبيت لحم؛ واجتمع بأخيه العادل، ونازلا عَسْتَمَلان^(٩) في سادس عشر جمادى الآخرة، ونصبا المجانيق عليها. ووقع الجدل في القتال،

(١) مير صبط في س، وهو جبل على بعد أربعة فراسخ من طبرية. راجع (Blochet : Op. cit. p. 175. N. 9) (٢) بغير صبط في س، ومي من أعمال نابلس راجع (Blochet : Op. cit. p. 176 N. 1) (٣) انظر في نفس المرجع والصفحة (2. N)، ترجمة لكتاب أوصله صلاح الدين إلى حاكم تَبَسْ بعد وقعة حطين. (٤) في س تَنْين بغير ضبط، وهي بلدة صغيرة بين دمشق وصور، وتقع في جبال بى عامر المطلّة على بلد بابياس. (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٢٤)، وراجع أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 177. N. 1). (٥) بغير ضبط في س في الموضع، وصرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. وصيداء مدينة على ساحل الشام من أعمال دمشق أيضاً. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨٠، ٤٣٩). (٦) بغير صبط في س، وهي من أعمال دمشق، على بعد أربعة فراسخ من بيروت. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣).

(٨) يقصد المؤلف (Conrad, Marquis de Montferrat) الذى وصل الشام من أوروبا قبل سقوط عكا بثلاثة أيام. (Stevenson : Crusaders In The East. p. 251)

(٩) توجد في (Blochet : Op. cit. p. 179. N. 1) تفاصيل مهمة عن أخذ السلطان ذلك الحصن منها أن ملك بيت المقدس ورئيس الداوية نصحا لأهل البلد من الفرنج بالتسليم سرعاً، فلم ينتصحو حتى وقع الجدل في القتال.

إلى أن تسلّم [السلطان] البلد في سلخه ، وخرج منه الفرنج إلى بيت المقدس بعد أن ملكوه خمسًا وثلاثين سنة . وتسلّم [السلطان] حصون الداوية : وهى غزة والنطرون^(١) وبيت جبريل^(٢) . وقدم عليه بظاهر عسقلان ابنه العزيز عثمان من مصر ، و [وافته^(٣)] الأساطيل [و] عليها الحاجب لؤلؤ . وكانت الشمس قد كُست ، قبل أخذ عسقلان بيوم ، حتى أظلم الجو وظهرت الكواكب ، في يوم الجمعة ثامن عشره .

وسار السلطان — وقد اجتمعت إليه العساكر — يريد فتح بيت المقدس ، فنأزله يوم الأحد خامس عشر رجب ، وبه حشود الفرنج وجميعهم^(٤) . فنصب المجانيق ، واقتتل الفريقان أشد قتال ، استشهد فيه جماعة من المسلمين . وأيد الله بنصره المسلمين ، حتى تمكنوا من السور وقبوه ، وأشرفوا على أخذ البلد . فسأل الفرنج حينئذ الأمان ، فأعطوه بعد امتناع كثير من السلطان ، على أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية ، سواء كان غنيًا أو فقيرًا ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل من الذكور والإناث دينارين . ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار . وتسلّم المسلمون القدس ، يوم الجمعة سابع عشر رجب ، وأخرج من فيه من الفرنج ، وكأوا نحو الستين ألفًا ، بعد ما أسر [منهم] نحو ستة عشر^(٥) ألفًا ، ما بين رجل وامرأة وصبي ، وهم من لا يقدر على شراء نفسه وقبض [السلطان] من مال المفاداة^(٦) ثلاثمائة ألف دينار مصرية ، سوى ما أخذه الأسراء ، وما حصلت فيه الخيانة .

(١) بغير ضبط في س ، وهو حصن كان للداوية قرب الرملة بجنوب فلسطين ، واسمه أيضًا الأطرون . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣١٠) ؛ وانظر أيضًا (Rec. Hist. Or. I. pp. 57 , 697) .
(٢) بغير ضبط في س ، وهو بليد بين بيت المقدس وغزة ، ويسمى أيضًا بيت جبرين . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧٦)

(٣) أنشيف ما بين التوسين للتوصيح ، وبعد مراجعة أبي شامة (كتاب الروصتين ، ص ٣١٦ ، في (Rec. Hist. Or. IV.) (٤) في س "حايهم" .

(٥) في س ألف . (٦) توجد في (Blochet : O. p. cit. p. 179. Ns. 1, 2) نبذة طويلة عن أخذ صلاح الدين لبيت المقدس ، وهى من كتاب سير الأباء البطارقة ، وبها تفصيلات أخرى نادرة . (٧) قبالة هذه السطور في ب (ص ١٣٢) العبارة الآتية : "Les Mahometans prennent Jerusalem sur les francs" ويوجد في نسخة ب كثير من أمثال هذه الحاشية بالفرنسية ، ولا سيما قبالة أسماء كبار الصليبيين ، وربما كتبها المستشرق (Quatremère) أو (Blochet) بعده ، حين ترجم كل منهما جزءًا من السلوك إلى الفرنسية .

والتحق من كان بالقدس من الفرنج بصور ، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقدس ، فأتوه رجالا وركبانا من كل جهة لزيارته ، حتى (١٢٧) كان من الجمع ما لا ينحصر . فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان ، وخطب القاضي محيى الدين بن الزكي بالسواد خطبة بليغة ، دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين ؛ وانتصب بعد الصلاة زين الدين بن نجما ، فوعظ الناس . وأمر السلطان بترخيم الحراب المسمى القديم ؛ ومحل منبر^(١) مليح من حلب ، ونصب بالمسجد الأقصى ، وأزيل^(٢) ما هناك من آثار النصرانية ؛ وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد ، وبخرت وفرشت ؛ ورتب في المسجد من يقوم بوظافته ، وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية . وغُذِّت كنيسة قمامة^(٣) ، ثم فُتحت ، وقرَّر على من يرد إليها من الفرنج قطعة يؤديها . وخرجت البشائر إلى الخليفة بالفتح ، وإلى سائر الأطراف . ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا ؛ وسار العزيز عثمان إلى مصر فكان آخر العهد به . وسار العادل مع السلطان ، فنزلا على عكا أول شهر رمضان ؛ ثم رحل [السلطان] منها ؛ ونزل على صور في تاسعه ، وكانت حصينة ، وقد استعدَّ الفرنج فيها ، فتلاحقت العساكر بالسلطان ، ونصب على صور عدة من المجانيق وحاصرها . واستدعى [السلطان] الأسطول من مصر ، فقدم عليه عشر شوانى ، وصار القتال في البر والبحر ، فأخذ الفرنج خمس شوانى . ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان ، وفيها غلظة وإنكار أمور ، فأجاب بالاعتذار ، ورحل عن صور في آخر شوال . وعادت العساكر إلى بلادها ، وأقام السلطان بعكا ، وسار العادل

(١) لما أمر صلاح الدين بعمل منبر للمسجد الأقصى ، قيل له : " إن نور الدين محموداً كان قد عمار بجلب منبراً ، أمر الصناع بالمبالغة في تحصينه وإتقانه ، وقال هذا قد عملناه ليصيب بالبيت المقدس ، فعد النصارى في عدة سنين ، لم يعمل في الإسلام مثله ، فأمر [صلاح الدين] بإحضاره ، فحمل من - ونصب بالقدس " . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ ج ١١ ، ص ٣٦٥) .

(٢) في س " وارانل " .

(٣) أطلق المسلمون هذا الاسم على كنيسة القيامة ببيت المقدس منذ عصر صدر الإسلام : itrange

(Palestine Under Moslems. p. 202.)

إلى مصر ، فطرق الفرنج قملة كوكب ، وقتلوا بها جماعة من المسلمين ، ونهبوا ما كان بها . وأنته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم^(١) والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس . وفي هذه السنة ، أعفى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة^(٢) ، اجتمع الشمس والقمر والمريخ والزهرة وعطارد والمشتري وزحل و [أظفار^(٣)] الذئب ، في برج الميزان ، أربع عشرة ساعة ، فاجتمع المنجمون كلهم ، وحكموا بكون طوفان الريح ، وأنه كائن وواقع ولا بد ، فتقلب الأرض من أولها إلى آخرها ، وأنه لا يبقى من الحيوان شيء إلا مات ، ولا شجرة ولا جدار إلا سقط . وكان^(٤) معظم هذه الحكومة عن بلاد الروم^(٥) . وأرجفوا بأنها هي القيامة ، فآخذقوم الكهوف والمغائر في الجبال ، وبالقوا في الاعتداد لمول ذلك اليوم . وقال القوم : « كتب القدماء كلها أحالت على هذا الاجتماع ، وإن فيه دمار الدنيا » . وكان ذلك في مسرى ، وفي جمادى الآخرة للسابع والعشرين منه ، [وهو] يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء إلى يوم الأربعاء فلم تهب ريح ، ولا تحرك نيل مصر ، وهو في زيادته في مسرى ؛ ومن العادة أن تهب الريح من العصر إلى العشاء في وجه الماء ، ليقف بإذن الله ، فتكون فيه الأمواج . فلم يحدث تلك الليلة ، ولا ثاني يوم ولا قبلها بيوم ، شيء من ذلك . وطلع الناس بالسُرُج الموقدة على السطوحات لاختبار الهواء ، فلم تتحرك نار ألبنة . وكان أشد الناس إرجافاً بهذا الكواكب الروم ، فأكذبهم الله ، وسلط عليهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف .

(١) بعد فتح بيت المقدس ، أرسل صلاح الدين إلى إمبراطور الدولة البيزنطية لإسحاق الثاني بشتاً ليخبره بما تم على يديه من الفتح ، وليلزم إليه مائة وتسعين رجلاً من رعايا الدولة البيزنطية ، كانوا قد وقعوا في يده أثناء حروبه ضد الصليبيين . وتنح عن هذا البحث أن عقد الإمبراطور والسلطان حلفاً سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩) ، كان من آثاره عداء عواهل غرب أوروبا للدولة البيزنطية . Blochet : Op. cit. p. 183. N. 1) وراجع أيضاً (Camb. Med. Hist. iv. pp. 488, 603)

(٢) هنا مثل جديد من أمثلة الخلاف بين النسختين س ، ب إذ اكتفى كاتب النسخة الثانية (٣٢ ب) بقوله " وفيها " بدل هذه العبارة كلها (٣) في س الذئب ، وأظفار الذئب كواكب صفا . قدام الذئبين ، وما كوكبان أبيضان ، بين الموائذ والفرقدين . (محيط المحيط) .

(٤ ، ٥) هذه العبارة مترجمة في (Blochet : Op. cit. p. 184) إلى : 'ce fut surtout de Roum

" (ar-Roum) qui fut maltraité par ce phénomène surnaturel . . . "

فأخذ كبارهم وكسرم ، وملأ الأرض من الأسرى شرقاً وغرباً ، وأخذ القدس . وأصاب جماعة ممن كان يُرْحَف بهذه الرياح آفات ، ما بين موت بعضهم واعتلال بعضهم . وفيها خرج في سادس عشر جمادى الآخرة قفل شامى إلى مصر ، وهو أول قفل سلك بلاد الساحل ، بلا حق يدفعه ولا مكس يؤديه . وفيها سار قراقوش التقوى ، واستولى على القيروان ، وحاربه ابن عبد المؤمن سلطان المغرب على ظاهر تونس فانكسر منه ، وأقيمت الخطبة في ربيع الأول بتلك البلاد للسلطان صلاح الدين . فجمع ابن عبد المؤمن ، وواقع قراقوش وهزمه ، ففر قراقوش في البرية .

وفيها أمر [السلطان] بأن تبطل النقود التي وقع الاختلاف فيها وتضرر العامة بها ، وأن يكون ما يضرب من الدينارين ذهباً مصرياً ، ومن الدراهم الفضة^(١) الخالصة ، وابطل الدراهم السود لا يستتقال الناس الميزان^(٢) ، فسَرَ الناس ذلك .

* * *

(٢٧ ب) سنة أربع وثمانين [وخمسمائة] . فيها نازل السلطان حصن كوكب أياماً ، ولم ينل منها شيئاً ، فأقام الأمير صارم الدين قايمار النجمي في خمسمائة فارس عليها ، ووكل بصغد الأمير طغرل الخازنذار في خمسمائة فارس ، وبعث إلى السكر والشوبك الأمير سعد الدين كمشبه^(٣) الأسدى . واستدعى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى من مصر ، فاستخلف على عمارة سور القاهرة ، وقدم والسلطان على كوكب ؛ فتدبه لمارة عكا ، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها ، بمن قدم به معه من مصر من الأسرى والأبقار والآلات والدواب .

وسار السلطان يريد دمشق ، فدخلها سادس ربيع الأول ، وقد غاب عنها سنة وشهرين وخمسة أيام ، كسر فيها الفرنج ، وفتح بيت المقدس . فلأزم الجلوس في دار

(١) الدراهم الفضة هي النقرة (انظر ص ٤٥ ، حاشية ١) . أما الدراهم السوداء فأسماء على غير مسميات ، كدينار الأسطول والدينار الجليشى (انظر ص ٤٥ حاشية ٣) . وكل درهم منها معتبر في المرد بثلاث دراهم نقرة (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٤٣) .

(٢) في س بالميزان بكسر الباء . (٣) في س كمشيا . انظر ص ٨٠ ، حاشية ١ .

العدل بحضرة القضاة ، وكتب إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد . وخرج بعد خمسة أيام على بعلبك ، فوافاه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار على أعمال حمص ، ففلا على بحيرة قدس^(١) . وبعث [السلطان] ابنه الظاهر وابن أخيه المظفر صاحب حماة لحفظ طريق أنطاكية ، وسار أول ربيع الآخر وشن الغارات على صافيتا وتلك الحصون [المجاورة] . وسار في ربيع جمادى الأولى على تعبئة^(٢) لقاء العدو ، فأخذ أنطرسوس^(٣) ، واستولى على ما بها من المغنم ، وخرب سورها وبيعها ، وكانت من أعظم البيع ، ووضع النار في البلد فأحرق جميعه . وسار يريد جبلة^(٤) ، فنالها لاثنتي عشرة بقيت منه ، وتسلمها بغير حرب . ثم أخذ اللاذقية بعد قتال ، وغنم الناس منها غنيمة عظيمة . وسار إلى صهيون^(٥) ، فقاتل أهلها إلى أن ملكها ، في ثاني جمادى الآخرة . واستولى على [قلعتي] الشُّفَر وبِكَاس^(٦) وعدة حصون ، وأسرمن فيها ، وغنم شيئاً كثيراً . فلما فتح بفراس^(٧) ، بعث الإبرس ملك^(٨) أنطاكية يسأل الصلح ، فأجيب إلى ذلك ، على شريطة أن يطلق من عنده من الأسارى المسلمين ، وهم ألف إنسان . وعاد صاحب سنجار إلى بلده ؛ وسار السلطان إلى حلب ، فأقام بها ثم سار

(١) ورد هذا الاسم في (Blochet · Op. cit. p. 187. N. 1) بهذا النسط ، ولكن ياقوت في

(معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٦٥) ضبطه بفتح القاف والذال ، ومن هذه البحيرة يخرج نهر العاصي .

(٢) ثم يرد ذكر هذا البلد في معجم البلدان ياقوت ، وهو قرب بلدة عرق (بكسر العين) آخر

عمل دمشق . شرق طرابلس . انظر (G. Demombynes: Op. cit. p. 117. N. 2)

(٣) كذا في س بغير ضبط ، وهي صحيحة لمة ، على أن تعبئة أكثر شيوعاً . (محيط المحيط) .

(٤) بغير ضبط في س ، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الشامية الساحلية . (ياقوت : معجم

البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٨) . (٥) بغير ضبط في س ، وهي قلعة بساحل الشام ، من أعمال

حلب قرب اللاذقية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٥) .

(٦) بغير ضبط في س ، وهي حصن من أعمال حمص ، قرب ساحل البحر . (ياقوت : معجم البلدان ،

ج ٣ ، ص ٤٣٨) .

(٧) بغير ضبط في س ، وهما قلعتان حصينتان قرب أنطاكية ، على رأس جبلين بينهما واد كالمدق .

(ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٠٤ ؛ ج ٣ ، ص ٣٠٣) .

(٨) بغير ضبط في س ، وهي مدينة في لطف جبل السكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ .

(ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٩٣ — ٦٩٤) .

(٩) كان أمير أنطاكية في ذلك الوقت (Boémond III) (Rec. Hist. Or. III. Index) .

عنها ، ودخل إلى دمشق في آخر شعبان . وما زال كشيبة^(١) محاصرا للكرك حتى تسلم قلعتها ، ومعها الشوبك والسلم^(٢) ، وعدة حصون هناك ، في رمضان . فلما وردت البشري بذلك على السلطان سار من دمشق ، ونازل صفد حتى ملك قلعتها [بالأمان^(٣) ، في رابع] عشر شوال ، ولحق من كان فيها من الفرنج [بصور . ثم سار^(٤) إلى كوكب] وضابقتها حتى تسلمها ، في نصف ذي القعدة (١٢٨) بأمان ، وأرسل أهلها إلى صور . فكثرت بها جموع الفرنج ، وكاتبوا لإفرنج صقلية والأندلس ، وكتب السلطان إلى الخليفة الناصر يخبر هذه الفتوح ، ورحل فنزل في صحراء بيسان .

وفيها ثار بالقاهرة اثنا عشر رجلا من الشيعة في الليل ، ونادوا : «يا لعل على ! يا لعل على !» وسلخوا الدروب وهم ينادون كذلك ، ظننا منهم أن رعية البلد يلبثون دعوتهم ، ويقومون في إعادة الدولة الفاطمية ، فيخرجون من في الحبوس ، ويملكون البلد . فلما لم يجبههم أحد تفرقوا .

وسار السلطان إلى القدس ، فخل به في ثامن ذي الحجة ، وسار بعد التحرر إلى عسقلان ؛ وجهر أخاه العادل إلى مصر لمعاوضة الملك العزيز ، وعوضه بالكرك عن عسقلان ، وكان قد وهبها له . ثم نزل بمكا .

[سنة خمس وثمانين وخمسمائة] . ودخلت سنة خمس وثمانين ، فسار السلطان عن عكا ، ودخل دمشق أول صفر ، فورد عليه في ثاني عشره ضياء الدين عبد الوهاب ابن سكيته ، رسول الخليفة الناصر ، بالخطبة لأبنة ولي العهد ، عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد ، فأقيمت له . وجُهر الرسول ، ومعه ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ؛ وبعث معه بهدايا وتحف وأسارى من الفرنج للخليفة ، ومعهم تاج ملك الفرنج والصليب الذي كان

(١) في س كشبا . (٢) بفر ضبط في س ، وهو حصن بوادي موسى عليه السلام بقرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١١٧) . (٣) ما بين الأقواس موجود في ب (٤٣) . (٤) ولكنه في س محجوب بورقة ملصوقة فوقه .

فوق صخرة بيت المقدس ، وأشياء كثيرة . فدفن الصليب تحت عتبة باب الثنوي [وهو أحد أبواب دار الخلافة ببغداد^(١)] ، وديس عليه ، وكان من نحاس مطلي بالذهب .

وخرج السلطان من دمشق في ثالث ربيع الأول ، ونازل شقيف أرنون وهو منزعج ، لانقضاء الهدنة مع صاحب أنطاكية ، ولا اجتماع الفرنج بصور ، واتصال الأمداد بهم . فكانت للمسلمين من الفرنج في بلادهم الساحلية عدة وقائع ، قتل فيها من الفريقين عدة ؛ وكثر القتل في المسلمين ، واشتدت نكاية الفرنج فيهم . فرحل السلطان إلى عكا ، وقد سبقه الفرنج ونزلوا عليها . ونزل السلطان بمرج عكا ، وصار محاصرا للفرنج ، والفرنج محاصرين للبلد . وتلاحقت به المساكر الإسلامية ، والأمداد تصل إلى الفرنج من البحر . فلم يقدر السلطان على الوصول إلى البلد ، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا إلى السلطان . وشرع [السلطان] في قتال الفرنج من أول شعبان ، إلى أن تمكن من عكا ، ودخلها في ثانيه ، فزال الحرب قائمة إلى رابع رمضان . فتحول إلى الخروبة^(٢) ، وأغلق من في عكا من المسلمين أبوابها ؛ وحفر الفرنج خندقاً على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر ، وأداروا حولهم سوراً مستوراً بالستائر^(٣) ، ورتبوا عليه الرجال ؛ (٢٨ ب) فامتنع وصول المسلمين إلى عكا . وقدم العادل بمسكر مصر في نصف شوال ؛ وقدم الأسطول من مصر إلى عكا في خمسين قطعة ، وعليه الحاجب لؤلؤ في منتصف ذي القعدة ، فبدد شمل سراكب الفرنج ، وظفر ببطستين للفرنج . فاستظهر المسلمون الذين بمسكا ، وقوى جأشهم بالأسطول ، وكانوا نحو العشرة آلاف . وبث السلطان إلى الأطراف يحث الناس على الجهاد ، وأرسل إلى أخيه سيف الإسلام طمكتكين^(٤) باليمن ، يطلب منه الإعانة

(١) انظر (Blochet : Op. cit. P. 192. N. 2) . حيث يذكر أن الملوك والقصاد كانوا يقبلون الأرض قرب ذلك الموضع ، قبل دخول دار الخلافة العباسية . انظر كذلك ابن شاعر السكتي فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) بنير ضبط في س ، وهي حصن بساحل الشام مشرف على عكا . (يا قوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٢٨) . (٣) جمع ستارة ، وهي حائط خارجي مبني من الخشب أو غيره يحتمي وراءه المدافعون عن حصن أو سور . ويستخدم المهاجمون الستائر أيضاً للوقاية من فئات العدو . (Dozy : Surpp. Dict. Ar.) . ويقابل هذا اللفظ في الإنجليزية (Curtain) ، وفي الفرنسية (Courtine) . (٤) في س طمكتكين .

بالمال ، وإلى مظفر الدين قر^(١) أرسلان صاحب المعجم ، وكتب إلى الخليفة . ووصلت الأمداد إلى الفرنج ، وورد الخبر من حلب بخروج ملك الألمان^(٢) من القسطنطينية ، في عدة عظيمة تتجاوز الألف ألف ، يريدون البلاد الإسلامية ، فاشتد الأمر على السلطان ومن معه من المسلمين .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين سنقر الخلاطى^(٣) ليلة الاثنين سابع عشرى رجب ، والأمير حسام الدين طُمان^(٤) يوم الأربعاء ثالث عشر شعبان ، والأمير عز الدين موسك ابن جُكو^(٥) في شعبان ، وهو ابن خال السلطان صلاح الدين . ومات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون بدمشق ، يوم الثلاثاء حادى عشر رمضان ، ومولده أول سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . ومات ضياء الدين عيسى المكارى ، يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة بمنزلة الخروبة .

* * *

[سنة سمت وثمانين وخمسمائة] . ودخلت سنة ست وثمانين ، والسلطان بالخروبة على^(٦) حصار الفرنج ؛ وقدمت عساكر المسلمين من الشرق ومن بقية البلاد ، فرحل من الخروبة لاثنتي عشرة بقيت من ربيع الأول إلى^(٧) تل كَيْسَان ، وتتابع مجيء العساكر . وكلت أبراج الفرنج الثلاثة ، التي بنوها تجاه عكا في مدة سبعة أشهر ، حتى علت على البلد ، وامتلات بالعدد والعدة ، وطُثموا كثيراً من الخندق ، وضايقوا البلد . واشتد خوف المسلمين ، واشتدت الحرب بين

(١) يذكر (Blochet: Op. cit. 196. No. 1.) أن ملك المعجم هذا هو قزل أرسلان عثمان صاحب أدريجان (انظر ص ٤٠ حاشية ٢) . (٢) يقصد المؤلف (Frédéric Barberousse) إمبراطور الدولة الفرنجية ولحقته أخبار طويلة كالمسيحي هنا ، آخرها أن فردريك سقط عن فرسه وهو يعب نهر طرسوس (طشاي الحالى) يأ الصغرى ، فغرق ولم يصل من جيشه إلى عكاسوى شرذمة قليلة بقيادة ابنه (Frédéric, duc de Souabe). (٣) في سنن الخلاطى ، وبغير ضبط . انظر (Blochet : Op. citp. 197) . (٤) بغير ضبط (نفس المرجع والصفة) . (٥) كذلك في سنن المرجع (نفس المرجع والصفة) . هذا والأمير عز الدين هو الذى أنشأ قلعة الموسكى على الخليج الكبير بالقاهرة . القريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٧ (٦) يوجد في نفس المرجع والصفحة (N.4) تفصيلات عن حصار عكا من كتاب سير الآباء (٧) موضع في مخرج عكا من سواحل الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٩

الفرقيين ، حتى احترقت الأبراج الثلاثة . وخرج أهل عكا منها ، فنظفوا الخندق ، وسدوا الثغر ، وغنموا ما كان في الأبراج من الحديد ، فتقوا به . وكان بين أسطول المصريين وبين مراكب الفرنج عدة معارك ، قتل فيها كثير من الفرنج . ودخل ملك الألمان [بجيوشه] إلى حدود بلاد الإسلام ، وقد فنى منهم كثير ، فواقهم الملك عز الدين قلعج بن أرسلان السلجوقي ، فانكسر منهم ، فلحق به الفرنج إلى قونية وهاجموها ^(١) ، وأحرقوا أسواقها ، وساروا إلى طرسوس يريدون بيت المقدس ، واسترجاع ما أخذ منهم السلطان من البلاد والحصون ، فاتبها ملكهم . وقام من بعده ابنه ^(٢) ، فسار إلى أنطاكية . ونذب السلطان كثيراً ممن كان معه على حرب عكا إلى جهة أنطاكية ، ووقع فيمن بقي معه مرض كثير ؛ [وأمر بتخريب سور ^(٣)] طبرية ويافا وأرسوف ^(٤) وقيسارية وصيدا [وجبيل فخر ^(٥) ذلك ، و] نقل من كان فيها إلى بيروت . وطمع ^(٦) (١٢٩) الفرنج في السلطان لقلعة من بقي معه ، فركبوا لخر به ، ونهبوا وطاق ^(٧) الملك العادل . وكانت المسلمين معهم حرب ، انكسر فيها الفرنج إلى خيامهم ، وقتل منهم آلاف ، فوَهت فواعم . غير أن المدد أتاهم ، ونصبوا المجانيق على عكا فتحول السلطان إلى الخروبة ، فوافق كتاب ملك الروم بقسطنطينية ، يخبر بوصول المنبر من عند السلطان ، و [كذلك] الخطيب والمؤذنين والقراء ، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة ^(٨) الناصر [لدين الله] .

وسار ابن ملك الألمان عن أنطاكية إلى طرابلس في جيوشه ، وركب منها البحر إلى عكا ، فوصل إليها سادس رمضان ، فأقام عليها إلى أن هلك ثاني عشر ذي الحجة ، بعد ما حارب المسلمين

(١) في س هجومها . (٢) انظر ص ١٠٣ حاشية ٢ . (٣) ما بر القوسين محبوب بورقة ملصقة فوقه في س ، لكنه موجود في ب (٣٤ ب) .

(٤) بنبر ضبط في س ، وهي مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٧) .

(٥) ما بين القوسين محبوب بورقة ملصقة فوقه في س ، لكنه موجود في ب (٣٤ ب) .

(٦) لفظ تركي معناه الحيمة ، حمة وطاقات . (محيط المحيط) .

(٧) الغالب أن هذا الكتاب نتيجة الحلف بين السلطان والإمبراطور . انظر ص ٩٨ ، حاشية ٩ .

فلم ينل منهم كبير غرض . ودخل الشتاء وقد طالت مدة التبيكار^(١)، وضجرت العساكر من كثرة القتال ، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل . وفيها تولى سيف الدولة أبو الميمون مبارك بن كامل بن منقذ شد^(٢) الدواوين بديار مصر ، وباشر الأسعد بن عماتى معه الديوان في محرم .

[سنة سبع وثمانين وخمسمائة] ودخلت سنة سبع وثمانين ، فسار الظاهر صاحب حلب [إليها] ، وسار المظفر إلى حماة . وبقى السلطان في جمع قليل ، والحرب بين أهل عكا وأميرهم بهاء الدين قراقوش وبين الفرنج . ودخل فصل الربيع ، فوافت العساكر السلطان ؛ ووصل إلى الفرنج مددهم ، فضايقوا عكا وجدوا في حصارها ، ونصبوا عليها المجانيق . وتوالت الحروب إلى أن ملكها الفرنج ، يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، وأسروا من فيها من المسلمين وكانوا ألوفا . وخرجوا يريدون الحرب ، فواقعهم السلطان وكسرههم ووقع كلامه في الصلح وإطلاق الأسرى ولم يتم . فلما كان في سابع عشرى رجب ، برز الفرنج بخيامهم ، واحضروا أسارى المسلمين ، وحملوا عليهم حملة واحدة قتلوا [فيها] بأجمعهم في سبيل الله صبرا ، واليزك^(٣) الإسلامى ينظر إليهم . فحمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهما حرب شديدة ، قُتل فيها عدة من الفريقين .

ولما أهل شعبان سار الفرنج إلى عسقلان ، ورحل السلطان في أثرهم ، وواقعهم في رابع عشره بأرسوف . فانهزم المسلمون ، وثبت السلطان إلى أن اجتمع عليه المسلمون ، وعاد إلى

(١) لفظ فارسى معناه الحرب عامة . (Dozy : Supp. Dict. Ar. & Blochet : Op. cit. p. 201) (٢) وفي (4 N) ومثل (Quatremère : Maml. I. 2. p. 18. N. 19) أمثلة عديدة لأوجه استعمال هذا اللفظ منها " وصل الأمراء من التجاريد واليا كبير .

(٢) أقرب مرادف لهذا اللفظ كلمة تفتيش ، ويسمى متولى هذه الوظيفة الشاد ، مضافا إليها جـ الاختصاص ، مثل شاد الجوالى وشاد دار البليخ والفاكهة وشاد مراكر الريد وشاد الزكاة . انظر (Q. Demombynes : Op. cit. Index III) . وكان عمل شاد الدواوين بمصر — أيام الأيو والمماليك — معاونة الوزير في مراقبة الحسابات ومراجعتها .

(٣) لفظ فارسى معناه الطلائع (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، وفي (1. tremère : Maml. I. 1. p. 225. N. 101) أمثلة كثيرة لوجوه استعمال هذا اللفظ ، منها " كان يزك وملايحه لا تقطع عن الفر

القتال ، حتى التجأ الفرنج إلى جدران أرسوف . ورحل السلطان في تاسع عشره ، ونزل على عسقلان [يريد تخريبها،^(١) لعجزه] عن حفظها ، ففرق أبراجها على الأمراء ، ووقع [الضبيح والبكاء في الناس^(٢)] أسفا (٢٩ ب) وغماً لخربائها ، وكانت من أحسن البلاد بناء ، وأحكمها أسواراً ، وأطيبها سكناً ، فلم يزل التخريب والحريق فيها إلى سلخ شعبان .

قال الحافظ عبد العظيم المنذرى في المعجم^(٣) المترجم : « سمعت الأمير الأجل أياز بن عبد الله — يعني أبا المنصور البانياسي الناصري — يقول : لما هدمنا عسقلان^(٤) أعطيت أنا برج الداوية ؛ وهدم خطط^(٥) برجا وجدنا عليه مكتوبا « عُمر على يدي خطط » ، وهذا من عجيب الاتفاق . وشبهه بذلك ما أخبرني [به] القاضي الأجل أبو الحسن علي بن يحيى الكاتب قال : رأيت بعسقلان برج الدم ، وخطط المعزى يهدمه — يعني في شعبان . ورأيت عليه مكتوبا : مما أمر بهارته السيد لأجل أمير الجيوش — يعنى بدرا [الجالى] — على يد عبده ووليه خطط في شعبان . فعجبت من هذا الاتفاق . كيف عمر في شعبان على يد خطط ، وهدم في شعبان على يد خطط ؟ » .

ثم رحل السلطان عن^(٦) [عسقلان] ، وفد خربت في ثاني رمضان ، ونزل على الرملة فخرّب حصنها ، و[هدم] كنيسة لد^(٧) ، وركب إلى القدس جريدة^(٨) ، ثم عاد وهدم حصن النطرون .

(١ و ٢) ما بين الأقواس محجوب تحت ورقة ملصقة ، فوقه في س ، وهو موجود كله في ب (١٣٥) .
(٣) راجع ملحوظات (Blochet : OP. cit. P. 204. N. 1) عن هذا الكتاب ، حيث يقول إنه معجم لتراجم الرجال ، وليس معجماً لنوياً كما ظن حاشي خليفة في كتابه كشف الطنون . ولد المنذرى سنة ٥٨١ هـ بمصر ، ودرس الحديث والعقده والأدب ، وعرّح فيها حتى أصبح شيخ المدرسة الكاملية التي أسسها الملك الكامل بن العادل بالقاهرة ، وكان من تلاميذه ابن حلكان صاحب وفيات الأعيان ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ . (٤) في س بيروت . (انظر مس المرجع والصفحة (N. 8) .

(٥) ضبط هذا الاسم على منطوق سمي له في (Rec. Hist Or III. IV, Indices.)

(٦) في س عنها . (٧) بغير ضبط في س . وهي قرية صغيرة قرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥٤) . انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. P. 205. N. 2) .

(٨) الجريدة الفرقة من المسكر الحيالة لارجلة فيها (محيط المحيط) ، على أن المقصود من هذه العبارة هي — وهي متداولة في كتب المؤرخين — سير السلطان على وجه السرعة ، دون أن يأخذ معه أثقالاً أو حشداً . وفي (Dozy : Supp, Dict, Ar.) أمثلة عديدة توضح هذا المعنى ، منها " جرد الفرنسي عسكره من أثقالهم وسار جريدة " .

وكانت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع في البر والبحر ، فعاد السلطان إلى القدس في آخر ذى القعدة . وقدم أبو الهيثماء السمين بسكر مصر ، ووقع الاهتمام في عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق .

وفيها مات علم الدين سليمان بن جندر في آخر ذى الحجة . ومات الملك المظفر تقي الدين عمر ابن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب بن شاذي صاحب حماة ، وهو الذي أوقف منازل العز بمصر مدرسة ، في ليلة الجمعة تاسع رمضان ، ودفن بحماة . ومات نجم الدين محمد بن الموفق ابن سعيد ابن علي بن حسن بن عبد الله الخبوشاني^(١) الفقيه الشافعي الصوفي ، يوم الأربعاء ثاني عشر ذى القعدة ، ودفن بالقرافة .

وفيها سُلّم أمر الأسطول بمصر للملك العادل ، فاستخدم فيه من قبله ؛ وأُفرد برسمه الزكاة بمصر والحبس^(٢) الجيوشي بالبرين والنطرون والخراج وما معه من ثمن القرط وساحل السنط والمراكب الديوانية وإشنتين^(٣) وطنبذة . فاستتاب العادل في مباشرة ذلك ، واستخدم في ديوان

(١) نسبة إلى خبوشان ، قصة كورة استنوا قرب نيسابور . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٠) .
 (٢) العبارة الآتية منقولة عن المقرئ (المواقف والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤) لتوضيح المقصود بالبرين ، ولضبط معرفة ماتعين لديوان الأسطول تلك الأيام ، وهي : ” وعين [صلاح الدين] لهذا الديوان العموم بأعمالها ، والحبس الجيوشي في البرين الشرق والغرب ، وهو من البر الشرق بهتين والأميرية والمنية ، ومن البر العربي ناحية سقط ونها ووسيم والبساتين خارج القاهرة . وعين له أيضاً الخراج ، وهو أشجار من سنط لا يحصى كثرة في البهنساوية وسقط ريشين والأشموين والأسيوطة والأخيمية والقوسية ، لم تزل بهذه النواحي لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد مائة دينار ... وعين له أيضاً النطرون ، وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار . ثم أُفرد لديوان الأسطول مع ما ذكر الزكاة التي كانت تجبي بمصر ، وبلغت في سنة زيادة على خمسين ألف دينار ، وأُفرد له المراكب الديوانية وناحية اشناي وطنبدى . وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب ، فأقام في مباشرته وعماله صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر ... ” انظر الحاشية التالية ، و : (Omar Toussoun : Op. cit. I. 1, 2) لتحقيق مواضع البلاد المذكورة . أما المراكب الديوانية فهي التي تحمل الفلات السلطانية . (المقرئ : المواقف والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٢) .

(٣) في س اشني وطنبدى . بغير ضبط . واشني هو ما تنطق به العامة ، وهي ” قرية بالصعيد إلى جنب طنبدى على غربي النيل ، وتسمى هذه وطنبدى العرويين لحسنهما وخصبهما ، واما من كورة البهنسا ” (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ؛ ج ٣ ، ص ٥٥٠) .

الأسطول صفى الدين عبد الله بن [على بن] شكر . وأحيل الوزارة الجيوشية على غير الحبس الذى لهم .

وعظمت زيادة النيل وغرق النواحي ؛ وكثر رخاء الأسعار بمصر ، فأبيع القمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا ، وانخفض البائت ستة أرتال بربع درهم ، والرطب الأمهات ستة أرتال بدرهم ، والموز ستة أرتال بدرهم ، والرمان الجيد مائة حبة بدرهم ، وخمّل الخيار بدرهمين ، والتين ثمانية أرتال بدرهم ، والعنب ستة أرتال بدرهم — فى شهر بابه بعد انقضاء موسم المهود بشهرين ، والياسمين خمسة أرتال بدرهم ، وثمر الحناء عشرة أرتال بدرهم ، والبُسْر الجيد عشرة أرتال بدرهم ، وما دونه خمسة عشر رطلا بدرهم . وكثر بمصر والقاهرة التجاهر بمعاصى الله . وظفر الأسطول بمركب فيه اثنتان وعشرون ألف جُبينة^(١) ، كل حبة قدر الرحى لا يقلها الراجل^(٢) . وحصلت بمصر زلزلة ، وهبت سموم حارة (٣٠١) فيها إعطار ثلاثة أيام ، أتلقت الحضرات التى فضلت من الفرق . وانشق زريعة جامع المقس لقوة الزيادة ، وخيف على الجامع أن يسقط ، فأمر بهارنها .

* * *

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . وأهلت سنة ثمان وثمانين ، والسلطان بالقدس مجتهد فى عمارته . وفى ثالث المحرم نزل الفرنج على ظاهر عسقلان ، لقصد عمارتها فما مكثوا ، وواقعهم جماعة من الأسدية منهم يازكج^(٣) وغيره ، وتوالت الوقائع بينهم وفى صفر سار الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان إلى البلاد الشرقية ، على ما كان بيد الملك المظفر تقي الدين عمر [من البلاد^(٤) التى هى] قاطع الفرات ؛ وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى الخلع

(١) فى س "... حبة كل حة قدر الرحى " .

(٢) بضم حروف هذا اللفظ متآكل فى س ، ولكنه واضح فى ب (١٣٦) .

(٣) فى س يازكوح . (٤) أضيف ما بين القوسين من ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ١٩٨ —

٢٩٩ ، فى (Rec. Hist. Or. III.) ، حيث العبارة مترجمة (les pays au delà de l'Euphrate) ، ومنها حران والرها وسبساط .

التشريعات^(١). ثم نزل الملك العادل أبو بكر عن كل ماله في الشام، ما خلا السكر والشوبك والصِّلْت^(٢) والبلقاء ونصف خاصّة بديار مصر، وعُوض البلاد الشرقية. وسار [السلطان] من القدس في أوائل جمادى الأولى، وكتب يعود الملك الأفضل، فعاد منكسر القلب إلى السلطان. ولحق العادل بحران والرها وقرر أمرها، ثم عاد السلطان في آخر جمادى الآخرة. وفي [جمادى الآخرة] ملك الفرنج قلعة الداروم، وخرج العسكر المصري يريدون السلطان فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم، وتبدد الناس في البرية. وأسر الفرنج منهم خمسمائة رجل، وأخذوا نحو ثلاثة آلاف رجل، وعادوا إلى خيمهم وقد طمعوا؛ فقصدوا المسير إلى القدس، ثم اختلّفوا ونزلوا بالرملة، وبعثوا رسلهم في طلب الصلح. فبرز السلطان من القدس

(١) في س و نزل. ويلاحظ أن تلك التعديلات حدثت على أثر وفاة تقي الدين عمر، واستيلاء ولده الملك المنصور بن تقي الدين على البلاد الجزرية، بنير إذن السلطان صلاح الدين. وفي هذا يقول ابن الأثير (الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٥٤) ما نصه: "قد تقدم ذكر موت تقي الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده [الملك المنصور] ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة. فلما استولى عليها أرسل إلى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه، مصافاً إلى ما كان لأبيه بالشام. فلم ير صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم إلى صي، فما أحابه إلى ذلك (كذا)، حدث [الملك المنصور] نفسه بالامتناع على صلاح الدين، لاشتغاله بالفرنج فطلب الأفضل على بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقي الدين، وينزل عن دمشق. فأجابه إلى ذلك، وأمره بالمسير إليها، فسار إلى حلب في جماعة من العسكر. وكتب صلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية: مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها، يأمرهم بإتخاذ الصاكر إلى ولده الأفضل. فلما رأى ولد تقي الدين ذلك علم أنه لا قوة له بهم، فراسل الملك العادل عم أبيه يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدين. فأنهى ذلك إلى صلاح الدين، وأصلح حاله، وقرر قاعدته، بأن يقرر له ما كان لأبيه بالشام، وتؤخذ منه البلاد الجزرية. واستقرت القاعدة على ذلك، وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية: وهي حران والرها وسميساط وميافارقين وحاني [لأخيه] العادل. وسيره إلى ابن تقي الدين، ليتسلم منه البلاد، ويسيره إلى صلاح الدين، ويعيد الملك الأفضل أين أدركه. سار العادل فلحق الأفضل بحلب، فأعاده إلى أبيه. وعبر العادل الفرات، وتسلم البلاد من ابن تقي الدين معه وعاد إلى صلاح الدين بالصاكر، وكان عوده في جمادى الآخرة من هذه السنة". انظر أيضاً ابن شداد (النوادر السلطانية، ص ٢٨٠، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، في Rec. Hist. Or. III).

(٢) بلد من أعمال الأردن، على مسيرة يوم من مجلون (1) (Blochet: Op. cit. p. 209. N. 1).

(٣) في س وفيه. انظر نفس المرجع والصفحة (2) (N. 2).

في عاشر رجب ، وسار إلى يافا فحاصرها ، ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة ، وغنم الناس منها شيئا عظيما . وتسلم [السلطان] القلعة ، وأخرج من كان فيها من الفرنج . فقدم من الفرنج نجدة كبيرة في خمسين مركبا ، فتدبر أهل يافا بجماعة من المسلمين ، وعاد القتال والمراكب في البحر لم تصل إلى البر . فسارع أهل المراكب إلى البر ، وحملوا على السلطان ، فرحل إلى يازور^(١) وأمر بتخريبها ، وسار إلى الرملة ومنها إلى القدس . وعزم على لقاء الفرنج ، فاختلف عليه أصحابه ، وأسمعه بعضهم كلاما جافيا ، فاشتد عن ذلك . وقدم عسكر مصر فخرج إلى الرملة ، ووقع الصلح بين السلطان والفرنج لثمان [يقين من^(٢) شعبان] . وعقدت هدنة عامة في البر والبحر مدة [ثلاث سنين وثلاثة^(٣) أشهر] ، أولها حادى (٣٠ ب) عشر شعبان — وهو أول شهر أيلول ، على أن يكون للفرنج من يافا إلى صور وطرابلس وأنطاكية ونودي في الوطاقيات وأسواق العسكر : « ألا إن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل » . وكان يوم الصلح يوما مشهودا ، عم فيه الطائفتين الفرنج والسرور ، لما نالهم من طول الحرب . فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين ، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة ، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزياره ، فأكرمهم السلطان ومد لهم الأطعمة وباسطهم . ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا ، ورحل السلطان إلى القدس ، وسار منها إلى دمشق ، فلقبه الأمير بهاء الدين قراقوش — وقد تخلص من الأسر — على طبرية . ودخل [السلطان] إلى دمشق ، فجلس يقين من شوال ، فكانت غيبته عنها أربع سنين . وأذن للعساكر في التفرق إلى بلادهم فساروا إليها ، وبقي عند السلطان ابنه الأفضل علي والقاضي الفاضل .

وفيها انتقل سعر الفول بديار مصر من خمسة عشر دينارا إلى ثلاثين دينارا المائة أردب ، بحكم أن المشتري لعلوفة الوُسِيَّة^(٤) العادية خمسون ألف أردب . وفيها عثر على رجل اسمه عبد الأحد ،

(١) بلدة بساحل الشام قرب الرملة . (ياقوت معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٠٢) .

(٢ و ٣) ما بين القوسين محجوب في س تحت ورقة ملصقة عليه ، ولكنه موجود في ب (٣٦ ب) .

(٤) لفظ مشتق من الكلمة التركية الوس ، ومعناها الدار وكل ما يتبع صاحبها من حاشية وحشم

وحبوان ومتاع . (Blochet : Op. cit. p. 212. N. 1) . ويفسر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) الوسية بالمرعى المتاع .

من أولاد حسن ابن الخليفة [الفاطمي] الحافظ لدين الله ، وأحضر إلى الملك العزيز بالقاهرة ، فقيل له : « أنت تدعى أنك الخليفة ؟ » قال « نعم ! » فقيل له : « أين كنت في هذه المدة ؟ » فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه ، ووصل إلى طنْبَذَة ^(١) فاختنى بها ، ثم خرج إلى مصر ، فأواه رجل وشرع يتحدث له في الخلافة ، وأنه وقع بمدة بلاد وأقطع أناساً من بايعه ، فسُجِن . وعُثِر على بعض أقارب الوزير شاور ، وقد ثار بالقاهرة ، فسُجِن هو وجماعته .

وفيها انعقد ارتفاع الديوان الخاص ^(٢) السلطاني على ثلاثمائة ألف وأربعة وخمسين ألف دينار وأربعمائة وأربعة وأربعين ديناراً . ومات فيها جمال الملك موسى بن المأمون البطائحي ^(٣) جامع السيرة المأمونية — وهو بقية بيته — في سادس عشر جمادى الأولى بالقاهرة . وفيها وقع الشروع في حفر الخندق من باب الفتوح إلى القس . وكتب بنقل جماعة من أتباع الدولة الفاطمية المحبوسين في الإيوان ودار المظفر ليلاً ، بحيث لا يشعر بهم أحد ، حتى يوصلهم [المكلف بذلك] إلى صرخد . وفيها كتب بإجلاء مدينة تنيس ، ونقل أهلها إلى دمياط ، وقطع أشجار (١٣١) يساتين دمياط وإخراج النساء منها . فحلت تنيس ، إلا من المقاتلة ، وحفر خندق دمياط ، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها . وفيها كثرت الأراجيف بالقاهرة ومصر ، وعظمت الشناعات ، وارتفعت الأسعار .

(١) في س طنْبَذِي . (٢) وطيفة الديوان الخاص هي النظر في حاس أموال السلطان والتحدث في جهاته ومضافاته . وأعظم بلاده وأغناها مدينة الإسكندرية ، ويلها تروجه وفوه ونستروه ، ومال جميعها يحمل إلى خزانة الحاس . (الفلقسدي : صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٥٦) ، ويلاحظ أن الفلقسدي يقول (من المرجع والجزء والصفحة) إن ديوان الحاس من منشآت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) ، على أن ذلك لا ينفي وجود إدارة من شأنها النظر في حاس أموال السلطان أيام الدولة الأيوبية . انظر ص ٥٣ حاشية ٤ ؛ وراجع أيضاً ابن شاهين (زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٧ ، ١٠٩) ، حيث يصرح جميع منابع إيرادات ومصرفات ديوان الحاس (٣) ليس في المراجع المتداولة في حواشي هذا الجزء من السلوك شيء يذكر عن موسى هذا . على أن المعروف أن أباه المأمون ، واسمه أبو عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحي ، كان وزيراً للخليفة الأسير الفاطمي (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) ، وإليه يرجع الفضل في تشييد الجامع الأقمر ، وتكليف بناء جامع القيلة ، الذي كان يطل على بركة الحبش بالقاهرة ، وإليه أيضاً تنسب الدار المأمونية ، بمجوار درب السلسلة . (Ibn Khallikan. Biog. Dict.) .
والقرنيزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٦٣ — ٤٦٤ ؛ ج ٢ ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

وفيها ورد الخبر في كتاب من اليمن بأن ثلاثة أنهار بالحبشة تغيرت بعد ما كانت عذبة : فصار أحدها أجاجا ، والآخر لبنا ، والآخر^(١) دما . وفيها مات قلج^(٢) أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان صاحب قونية ، وقد تغلب عليه ابنه قطب الدين — صاحب سيواس أقصر^(٣) — وزاد في أن حاجر عليه . وكان موته في شعبان ، فولى قونية بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان ، و بقيت أخوته على ولايتهم من عهد أبيهم ، فاختلفوا . وثار عليه أخوة ركن الدين سليمان صاحب ووقاط^(٤) ، وملك سيواس وأقصر وقيسارية^(٥) ، [وهي] أعمال أخيه قطب الدين . ثم ملك قونية من غياث الدين ، ففر غياث الدين ، ونزل حلب .

سنة تسع وثمانين وخمسمائة . أهلت والسلطان بدمشق ، فخرج العادل الكرك ، وقدم من اليمن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طفتكين في نصف صفر ، فسُر به السلطان . فلما كان ليلة السبت سادس عشره ، نزل بالسلطان^(٦) مرض ، فأمر يوم السبت ولده الأفضل أن يجلس على الطعام ، فجلس في موضع السلطان . وتزايد به المرض إلى اليوم^(٧) الحادى عشر من مرضه ، فخلّف الأفضل الناس . واستمر السلطان في تزايد من المرض إلى ليلة الأربعاء سابع عشرى صفر — وهى ليلة الثانى عشر من المرض — فاحتصروا مات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور . فركب الأفضل ، ودار في الأسواق ، وطيب قلوب العامة .

(١) يرى (Blochet : Op. cit. p. ٤١٢ N. 1.) أن هذه الأنهار هى بعض منابع النيل ، غير أنه ترجم عذبة إلى adbat معتبراً أنها إحدى بحيرات أواسط إفريقيا . (٢) كثيراً ما يرسم هذا الاسم في س الحاء المهملة . (٣) يعبر صبط في س ، ويطلق عليها الآن آق سراى ، وهى قرب قونية (Enc. Ist. Art. AK Blochet. Op. cit. p. 214. N. 2., Sarāl) (٤) كذا في س يعبر صبط ، ولعلها توفات ، وهى قلعة حصينة تقع من قونية وسيواس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٥) . (٥) في س قيصرية بغير صط ، وكانت عاصمة ملك بى سلجوق بأسيا الصغرى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٤) . (٦) في س به . (٧) في س يوم . (٨) في س عند كلمة " المذكور " إشارة كالتى بضمها المؤلف للتنبيه على مكان الهوامش المضافة ، وليس أمامها شيء من ذلك .

وكان رحمه الله كثير التواضع ، قريباً من الناس ، كثير الاحتمال ، شديد المداراة ، محباً للفقهاء وأهل الدين والخير محسناً إليهم ، مائلاً إلى الفضائل ، يستحسن الشعر الجيد ويردده في مجلسه . ومدحه كثير من الشعراء ، وانتجموه من البلدان . وكان شديد التمسك بالشرعية ، سمع الحديث من أبي الحسن علي بن إبراهيم بن المسلم بن بنت أبي سعد ، وأبي محمد بن برقي النحوي ، وأبي الفتح محمود بن أحمد الصابوني ، وأبي الطاهر السلفي ، وابن عوف ، وجماعة [غيرهم] . وكان كريماً : أطلق من الخليل بمرج عكاملن معه اثني عشر ألف رأس ، سوى أثمان الخليل التي أصيبت في الجهاد . ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم في طلبه . وتأخر عنه الأمير أيوب بن كنان في بعض سفراته لدين لزمته ، فتقَبَّلَ لغرمائه بائني عشر ألف دينار مصرية . وكان ورعاً : رأى يوماً العباد الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، وقال هذا حرام ، فلم يعد يكتب منها عنده . وكان لا يصلي إلا في جماعة ، وله إمام راتب ملازم ؛ وكان يصلي قبيل الصبح ركعات إذا استيقظ . وكان يسوي في المحاكاة بين أكبر الناس وبين خصمه . وكان شجاعاً في الحروب ، يمر في الصفوف وليس معه سوى صبي . وقرئ عليه جزء من الحديث بين الصَّفِّين ، وهو على ظهر (٣١) فرسه . وكان ذا كرام لوقائع العرب ومعجائب الدنيا ، ومجلسه طاهر من المايب ، رحمه الله وغفر له .

ولما مات جلس الأفضل للعزاء ، وكثر بكاء الناس عليه . وغسله الفقيه خطيب دمشق ، وأخرج بعد صلاة الظهر ، وصلى الناس عليه أرسالا ، ودفن بداره التي مرض فيها بالقلا ثم نُقِلَ في يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة إلى تربة بنيت له بجوار جامع بني أ. وكتب [بوفاته] إلى العزيز بمصر ، وإلى العادل بالسكرت . وكان عمره يوم مات نحواً (١) سبع وخمسين سنة . منها مدة ملسكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وأيام (٢) من الأولاد سبعة عشر ذكراً وبناتاً واحدة صغيرة ؛ ولم يخلف في خزائنه سوى سبعة و

(١) في س نحو .

(٢) في س اثنتين وعشرين سنة وأياما .

درهماً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً . وكان القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيهقي صاحب سره ، وبمنزلة الوزير منه .

وفيها قتل طغرل بن أرسلان بن طغرل^(١) بن السلطان محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان ، ابن جفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق في ربيع الأول ، وهو آخر من ملك بلاد العجم من السلاطين السلجوقية ؛ وابتداء دولتهم في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وأولهم طغربك بن ميكائيل^(٢) بن سلجوق ، فتكون مدة دولتهم مائة سنة وثمانياً^(٣) وخمسين سنة .

السلطان الملك العزيز عماد الدين

أبو^(٤) الفتح عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولد بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة . ومات أبوه بدمشق وهو على سلطنة ديار مصر مقيم بالقاهرة ، وعنده جل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد . فلما بلغه موت أبيه جلس للعرزاء ، وأخذ بالحزم ، وقرّر أمور دولته ، وخلع على الأمرأ وأرباب الدولة بعد انتضاء العزاء . فقام أخوه الأفضل نور الدين علي بدمشق ، وكتب إلى الخليفة الناصر يطالعه وفاة أبيه ، من إنشاء العماد الكاتب . وبعث بذلك مع القاضي ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري^(٥) ، ومعه عدد والده وملابسه وخيله ، وهدية نفيسة . وسار العادل من السكر إلى بلاد المشرق ، فأقام بقلعة جَنْبَر^(٦) ، وبعث نوابه إلى حرّان

(١) في س طغرل وبغير ضبط في الموضعين . (اطرس ٤٠ ، حاشية ٢) .

(٢) صححت بعض الأسماء الواردة هنا بغير تنبيه وذلك لسبق ورودها والإشارة إلى رسم المؤلف لها .

(٣) في س ثمان . (٤) في س أبي .

(٥) في س الشهرزوي .

(٦) بغير ضبط في س ، وهي قلعة على الفرات بين باليس والركة قرب صفين ، واسمها قديماً دوسر .

(ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٤) ، وراجع أيضاً (Blochet : Op. cit, p. 217. N. 1) .

والرها . واستوزر الأفضل الوزير ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير^(١) ، وفوض إليه أموره كلها ، فحسن له إبعاد أسراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأن يستجد أسراء غيرهم . فقارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جهاز كس^(٢) ، وفارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين سنقر الكبير ، وكانوا عطاء الدولة . فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة فأكرمهم ، وولى فخر الدين أستاذاره^(٣) ، وفوض إليه أسره ، وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها ، وكان ذلك لهما ، وزادها نابلس وبلادها . وسار القاضي الفاضل أيضاً من دمشق ولحق بالقاهرة ، فخرج العزيز إلى لقائه (١٣٢) وأجلّ قدومه وأكرمه . فشرع القوم في تقرير قواعد ملك العزيز ، والأفضل في شغل عنهم . وكانت مدينة القدس مضافة للأفضل ، فكتب إلى أخيه العزيز يرعب عنها له . وكان [ذلك] من تدبير وزيره ابن الأثير ، لأنها كانت تحتاج حينئذ إلى أموان ورجال لمداغة الفرنج . فسّر العزيز بذلك ، وجهز عشرة آلاف دينار إلى عمر الدين جرديك النورى متولى القدس ، لينفقها في عسكر القدس ، فخطب له به وخشى [العزيز] من نقض الهدنة بينه وبين الفرنج ، فبعث عسكرا إلى القدس احترازا من الفرنج . ثم بدا للأفضل أن يعود فيما رغب عنه لأخيه من القدس ، ورجع عن ذلك ، فتغيّر العزيز من هذا ، وأخذ الأسراء في الإغراء بينها ، وحسّنوا للعزيز الاستبداد بالملك والقيام مقام أبيه ، فبلغ ذلك الأفضل .

(١) أخو مؤلف كتاب الكامل في التاريخ . وقد ترجم له القرزى بهامش الصفحة بشارة نصها : « نصر الله بن محمد بن أبي البركات محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزرى ، المعروف بابن الأثير أبي الفتح ضياء الدين ، رئيس الكتاب في زمانه . ولد بالجزيرة العبرية يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ [هـ] ، ومات ببغداد سلخ ربيع الآخر سنة ٦٣٧ [هـ] ، وله مصنفات منها المثل السائر [في آداب الكاتب والشاعر] . ولهذين التابعتين أخ ثالث اسمه مجد الدين أبو السعادات ، اشتغل بعلوم القرآن والحديث والنحو ، ومن مؤلفاته كتاب النهاية في غريب الحديث ، وهو أكبرهم سنا ، ووليه صاحب الكامل في التاريخ (Enc. Isl. Art. Ibn al-Athir) .

(٢) مضبوط على منطوقه في (Blochet : Op. cit. p. 218) ، انظر أيضاً (Rec. Hist. Or. p. 86) . (٣) الأستاذ دار هو الذى يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير وصرفه ، وتنفذ فيه أوامره . وبين القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ج ٥ ، ص ٤٥٧) وبين عامة المستشرقين خلاف في أصل هذا اللفظ الفارسى المركب ، فانظر (G.-Demombynes : Op. cit. Introd. p. LX. & N. 4) .

[سنة تسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة تسعين ، وقد تنافرت القلوب ، وقويت الوحشة بين الأخوين واجتمعت الأسراء الصلاحية على أن يكون الأمر كله للعزير ، فاضطربت أحوال الأفضل . وخرج العزير من القاهرة بعساكر مصر ، من الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم ، يريد الشام وانتزاعها من أخيه الأفضل ، من أجل أمور منها أن جبيل — وهو ^(١) من جملة الفتوح الصلاحية ^(٢) — كان مع رجل كردى [فقيه أقامه صلاح الدين مستحفظاً ^(٣) بها] ، فأرغبه الفرنج بمال حتى سلّمه لهم . وخرج الأفضل من دمشق ليستنقذه من الفرنج ، فتعذر عليه ، وظهر العجز عن استخلاصه فامتعض الأسراء لذلك ، وخوفوا العزير من عاقبة أمر الفرنج ، فسار في [صفر ^(٤)] ، واستخلف أخاه الملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وترك بالقاهرة بهاء الدين قراقوش الأسدى وصير ^(٥) وسيف الدين يازكج وخطب في تسعانة فارس . واتفق أن الأمير صارم الدين قايماز النجمي — أحد أكابر الأسراء الصلاحية — استوحش من الأفضل لإعراضه عنه ، فخرج من دمشق يريد إقطاعه ، ولحق بالعزير فأكرمه ورفع محله .

وهم الأفضل بمراسلة أخيه العزير واستعطافه ، ففنع من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه ، وحسنوا له محاربه ، فقال إليهم . وبعث إلى عمه العادل وهو بالشرق ، وإلى أخيه الظاهر بحلب ، وإلى المنصور بجماة ، وإلى الأجد صاحب بعلبك ، وإلى المجاهد شيركوه صاحب حصص ، يستنجدهم على أخيه العزير . فوردت رسلهم في جمادى الآخرة ، يعدون بالقدوم عليه . ثم إنه برز من دمشق ، وزل برأس الماء فلما وصل العزير إلى القصير ^(٦) من الغور ضاق الأفضل ، ورجع من الغوار إلى رأس الماء . فأدركت مقدمة العزير ساقته ، وكادوا يكبسونه

(١) في س وي . (٢) في س الصلاحى . (٣) أصيف ما بين القوسين بعد

مراجعة أبي شامة (كتاب الروصتين ، ص ١١١ ، ١٥٢ ، في Rac' Hist' Or V .)

(٤) انظر نفس المرجع والصفحة بالهامشية السابقة . (٥) كذا في س ، وبغير ضبط ،

وهو مترجم في (Sarim al-Din) (Blochet : Op. cit. p. 219) ، على أن القصور ليس صارم الدين قايماز النجمي الوارد اسمه فيما يلى ، سطر ١٠ . (٦) بغير ضبط في س ، واسمه قصير معين

الدين ، بالغور من أعمال الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٦) .

فانهزم إلى دمشق ، ودخلها لخمس مضيئ منه . ونزل العزيز في غده على دمشق في قوة قوية ، ونازل البلد . وكان الأفضل قد استعد لقتاله ، فقدم العادل والظاهر (٢٨ ٢٣) والنصور والمجاهد والأجد إلى دمشق . وبعث العادل إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع في الأفضل ، ويستأذنه في الاجتماع به ، فأذن له . وخرج العادل فاجتمع بالعزيز — وكل منهما راكب — وتحديث معه في الصلح ، وأن ينقش الخناق عن البلد ؛ وكان قد اشتد الحصار ، وقطعت الأنهار ، ونهبت الثمار ، والوقت زمن الشمس . فوافق العزيز عمه ، وتأخر إلى دارياً^(١) ، ونزل على الأغوج^(٢) ؛ وسير الأمير فخر الدين جهاكس الأستادار — وهو يومئذ أجل الصلاحية — إلى العادل ، فقرر الصلح على شروط ، وعاد إلى العزيز . فرحل ونزل مرج الصفر^(٣) ، فحدث له مرض شديد ، وأرجف بموته ، ثم أبل منه . وأمر بعمل نسخة اليمين ، وهي جامعة لمقترحات جميع الملوك ؛ وحسَم مواد الخلاف ، وأن الملك الأجد بهرام شاه بن عمر الدين فرخشاه ، والملك المجاهد شيركوه ، يكونان مؤازرين للملك الأفضل وتابعين له ، وأن الملك المنصور صاحب حماة يكون في حيز الملك الظاهر صاحب حلب ومؤزرا له . وبعث كل من الملوك أميراً من أمرائه ليحضر الحلف ، فاجتمعوا يوم السبت ثاني عشر شهر رجب ، وجرت أمور آلت إلى الحلف على دَحْن . وتزوج العزيز بابنة عمه العادل ، وقبل العقد عنه القاضي المرتضى محمد بن القاضي المجلس عبد العزيز السعدى . ووكل العادل القاضي محيى الدين محمد بن شرف الدين بن عصرون في تزويج أبنته من ابن عمها الملك العزيز ، وعقد بينهما قاضى القضاة محيى الدين . وكتب العماد الكاتب الكتاب في ثوب أطلس ، وقرئ بين يدي الملك الظاهر ، وعُقد العقد عنده .

فلما كان يوم الجمعة أول شعبان ، خرج الملك الظاهر غازى صاحب حلب لوداع أخيه العزيز ، فركب العزيز إلى لقائه وأنزله معه ، وأكلا ثم تفرقا ، بعد ما أهدى كل منهما الآخر .

(١) بغير ضبط في س ، وهي قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوملة . (ياقوت : معجم البلدان ج

س ٥٣٦) . (٢) بغير ضبط في س ، انظر أباشامة (كتاب الروضتين ، ص ١١٢

(٣) بغير ضبط في س ، وهو من نواحي دمشق . (ياقوت : (Rec. Hist. Or. V.

البلدان ، ج ٢٤ ص ٤٤٨) ، انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 221, N. 3) .

هدية سنية . ثم خرج العادل لوداع العزيز في خواصه ؛ ثم خرج الأفضل فودّعه أيضاً ، وهو آخر من ودّعه . ورحل العزيز من سرج الصفر في ثالث شعبان يريد مصر ، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل دعوة عظيمة لعمّه وبقية الملوك ووادعهم . ثم رحلوا من القد إلى بلادهم إلا العادل ، فإنه أقام إلى تاسع شهر رمضان ، ثم رحل إلى بلاده بالشرق .

وقدم العزيز إلى القاهرة في (١٣٣) يوم ... (١) . وأما الأفضل فإنه لم يكتب إلى العزيز بما يؤكد أسباب الصلح ، فأماله عن ذلك خواصه ، وأغروه بأخيه ، ورموا جماعة من أسرته بأنهم يكاتبون العزيز ، فاستوحش منهم ، وفطنوا بذلك ففارقوا عنه . وسار الأمير عز الدين أسامة (٢) صاحب [كوكب] وعجلون عن الأفضل ، ولحق بالعزيز فأكرمه غاية الإكرام ، وأخذ يحرضه على الأفضل ، ويحثه على المسير إلى دمشق وانتزاعها منه ، ويقول له : « إن الأفضل قد غلب على اختياره ، وحكم عليه وزيره الضياء [ابن الأثير] الجزري ، وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد ويحمل أخاك على مقاطعتك ، ويحسن له نقص اليمين . فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النية ، ولم يوجد ذلك ، فحنثهم في اليمين قد تحقق ، ورثت أنت من العهدة فاقصد البلاد فإياها في تدك ، قبل أن يحصل في الدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه » . وبينما هو في ذلك إذ فارق الأفضل الأمير شمس الدين أيدرس بن السلار (٣) ، ووصل إلى العزيز ، فساعد أسامة (٤) على قصده . ثم وصل أيضاً إلى العزيز القاضي محي الدين (٥) أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله ابن هبة الله بن أبي عصرون ، فاحترمه وولاه قضاء الديار المصرية ، وضم إليه نظر الأوقاف

وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته ، وفوق الأمور إلى وزيره ؛ ثم ترك اللعب من غير سبب ، وتاب وأزال المنكرات وأراق الخمر ، وأقبل على العبادة ،

(١) يباس في الأصل . (٢) في س سامة وبغير ضبط . راجع أبا العداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ٧٠ ، ٨٦ ، في (Rec. Hist. Or. I.) .

(٣) ترجم (Blochet : Op. cit pp. 223) هذا الاسم إلى (Ibn as-Salat) ؛ وفي فهرس (Rec. Hist. Or. I-V) شخصان بهذا الاسم (Ibn es-Sellar) .

(٤) في س سامة . (٥) في س أبي .

ولبس الخشن من الثياب ؛ وشرع في نسخ مصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه ؛ وواظب على الصيام ، وجالس الفقراء ، وبالغ في التقشف ، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل . وأما العزيز فإنه قطع خبز الفقيه الكمال الكردي من مصر ، فأفسد جماعة على السلطان ، وخرج إلى العرب فجمع ونهب الإسكندرية ، فسار إليه العسكر فلم يظفروا به . وقطع [العزيز] أيضاً خبز الجناح وعسكران^(١) ومجد الدين الفقيه وعز الدين صهر الفقيه ، فساروا من القاهرة إلى دمشق ، فأقطعهم الملك الأفضل الإقطاعات .

وفي شهر رمضان كسر بحر أبي^(٢) المتعجباً بعد عيد الصليب بسبعة أيام ، وتجاهر الناس فيه بالمنكرات من غير نكر عليهم . وفيه وقعت الآفة في البقر والجمال والحير ، فهلك منها كثير . وفيه كثر حمل الغلة من البحيرة إلى بلاد المغرب ، لشدة الغلاء بها . وكثرت^(٣) بين الأسراء إشاعة أن إقطاعاتهم تؤخذ منهم ، فقصرُوا في عمارة البلاد وارتفع السعر بالإسكندرية ، ونقص ماء النيل بعد ما بلغ اثنين وعشرين إصباعاً من سبعة عشر ذراعاً ؛ فرفعت الأسعار ، وشرقت البلاد . وبلغ القمح كل أردب دينار ، وأخذ في الزيادة ؛ وتعذر وجود الخبز ، وضج الناس . وكثرت المنكرات ، وغلا سعر العنب لكثرة من يعصره . وأقيمت طاحون لطحن الحشيش بالحمودية ، وحُميت بيوت المز ، وجعل عليها ضرائب ، فنها ما كان عليه في اليوم ستة عشر ديناراً ، ومنع من عمل المز البيوت . وتجاهر الكافة بكل قبيح ، فترقب أهل المعرفة حلول البلاء .

(١) بغير ضبط في س ، انظر ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٣٦٥ ، في Rec. Hist Or. III.)

(٢) أساء الميرزى ذكر بحر أبي المتعجب (ص ٧٣) ، وقد أرحى الكلام عليه إلى هذا الموضع ، لماسبة إسهاب الميرزى في وصف ما حدث تلك السنة عند الاحتفال بفتحته . وكانت هذه القناة تخرج من النيل قرب بلدة شبرا الحالية ، ثم تمر ببليس ، وتلتقي في شمالها ببحر القرم ، الذي يسير محملاً برزخ السويس إذ ذاك حتى مدينة القرم على البحر الأبيض المتوسط ، غربي بور سعيد الحالية . وقد بدى حفر بحر أبي المتعجب سنة ٥٠٦ هـ في عهد الخليفة الأمر العاطي (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) ، ونيط بحمره أبو المتعجب بن شعيا اليهودي . وكان يوم فتح هذه القناة من أيام القاهرة وأعيادها ، يشترك فيه السلطان والأمراء والناس جميعاً . على أن السلطان العزيز لم يباشر فتح القناة بنفسه تلك السنة ، واشتد لإفراط الناس ذلك اليوم ، إذ غلبت « المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش . . . » ولم يسلم شهر رمضان إلا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله في الإسلام . . . » (الميرزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٧١ ٤٨٧) ، وأيضاً (P. Omar Toussoun : Anc. Branches du Nil, pl. III) .

(٣) في س وكثر .

وفيهما قدم رسول ممتلك القسطنطينية^(١) (١٤٠) يطلب صليب الصليبوت ، فأحضر من القدس ، وكان مرصعا بالجواهر ، وسلم إليه على أن يعاد [نفر] جبيل من الفرنج . وتوجه الأمير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة [بذلك] .

تتمت سنة تسعين وخمسمائة . [في] يوم الخميس رابع محرم عُقد مجلس بحضرة السلطان ، حضره أصحاب الدواوين . وفي عاشره قدم الأمير حسام الدين ببشارة من عند الملك العادل وبقية الأولاد الناصرية ، فتلقاء السلطان والأمراء ، رحل إليه سباط السلطنة ، فطلب الموافقة بين أهل . وفي سادس عشره ركب السلطان للصيد بالجيزة ، ومر بباب زويلة ، فأذكر روز مصاطب الخوانيت في الأسواق ، ورسم يهدمها ، فهدمت بمباشرة مُحْتَسِب^(٢) القاهرة . ورسم بصناعة العماير^(٣) ، فرسم بسد طاقات الدور المجاورة للنيل فسدت .

(١) إمبراطور الدولة البيزنطية إذ ذاك هو (Isaac II Angelus, 1185-1195) ، وقد تقدم ذكر ما كان بينه وبين صلاح الدين من العلاقات الحسنة قبل تلك السنة . انظر ص ٩٨ حاشية ١ .

(٢) أماس المقرئ (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤) في شرح وظيفة المحتسب ولا يحب فإنه قد تولى هذه الوظيفة سنة ٨٠١ هـ (Quatremère : Maml. I. Pref. p. 1) . وهذا نص ما كتبه عنها « وأما الحسبة فإن من تسند إليه لا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المدائن ، لأنها خدمة دينية . وله استخدام الثواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة ، كنواب الحكم . وله الجلوس بخامى القاهرة ومصر يوما بعد يوم . ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالتمسك على قدور المهراسين ونظر لحظهم ومعرفة من حراره ، وكذلك الطبايحون ويتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقة فيها . ويلرمون رؤساء المراكب أن لا يحملوا أكثر من وسق السلامة ، وكذلك مع الخالين على البهائم . ويأمرون السقاين بتغطية الروايا بالأكسية ، ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلو ، كل دلو أربعون رطلا ، وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لأموراتهم وهى زرق . ويندرون معلمى المسكاك بآن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل ، وكذلك معلمى العموم بتحذيرهم من التعرير بأولاد الناس ، ويقمعون على من يكون سبيء المعاملة ، فينهونه بالردع والأدب . وينظرون المسكاك والموزين . وللمحتسب النظر فى دار العيار . ويطلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها ، والولاية تشد معه إذا احتاج إلى ذلك ، وجاريه ثلاثون دينارا فى كل شهر » . هذا ويذكر القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٧) أن قد كان بالقاهرة محتسب له التصرف بها وبالوجه البحرى عامة ، خلا الإسكندرية ، فإن لها محتسبا يخصها . وبالسطا محتسب ثالث مرتبة أقل أهمية من الأول ، ودائرة اختصاصه القساطر والوجه القبلى بكاله . انظر أيضا القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٤٨٧ ، ج ٥ ص ٤٥١ ؛ و (G.-Demombynes : Op. cit., Introd p. LXXVII. etc.) . انظر كذلك عبد الرحمن العدوى البندارى الشيرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، لشمس السيد الباز العربى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦) .

(٣) اسم أطلق فيما بعد على صناعة مصر . انظر ص ٧٤ ، حاشية ٧ ، والمراجع التى بها .

وفي صفر غيّرت ولاية الأعمال . وفي عاشره حلف العزيز لعمه العادل . وفي ثالث عشره عاد العزيز من الصيد بالجيزة . وفي هذا الشهر غلت الأسعار ، فبلغ كل مائة أردب ثمانين دينارا . وفي خامس عشره قدم فارس الدين ميمون [القصرى^(١)] مقطع صيداء ، وسيف الدين سنقر المشطوب ، وشمس الدين سنقر الكبير مقطع الشقيف ، مفارقين الملك الأفضل . فدفع [العزيز] لميمون خمسمائة دينار ، ولسنقر أربعمائة دينار ، وللمشطوب ثلاثمائة دينار .

وفي ربيع الأوّل اشتدّ الأمر في الزحام على الخبز لقلته في الأسواق ؛ ووقع الحريق في عدة مواضع بالقاهرة . وفي عاشره أخرجت خيمة السلطان للسفر . وفي ثالث عشره انحلّ السعر قليلا ، ووجد الخبز في الأسواق . وفي نصفه ورد كتاب [علم^(٢) الدين] قيصر بأنه تسلم القدس من جرديك في تاسعه ، وتسلم صليب الصليبيات ؛ وقرّر [أيضا] إعادة جيبيل من الفرنج . وفي سادس عشره قدم بدر الدين لؤلؤ بكتاب الأفضل بخبر جيبيل ، وسبب قدوم ميمون ورفيقه . وفيه نزاع^(٣) السعر ، وبلغ كل مائة أردب إلى مائة وخمسة وسبعين دينارا ، وعظم ضجيج الناس من الجوع . وفي سابع عشره وصل صليب الصليبيات من القدس ، وهو خشبة مرصعة بمجوهر في ذهب . وفي ثامن عشره ولي زين الدين على بن يوسف الدمشقي قضاء القضاة بديار مصر ، عوضا عن صدر الدين بن درباس ، بعناية جماعة من المماليك به ، وخلع عليه . وفي سلخه قدم رسول الملك العادل .

وفي تاسع ربيع الآخر هدم المحتسب حوانيت وإصطبلات كان صدر الدين بن درباس أنشأها^(٤) في زيادة الجامع الأزهر بجوار داره ، ورفع صدر الدين نقض ذلك إلى داره . وقوى عزم السلطان على السفر ، وبعث بهرام يقترض له مالا من تجار الإسكندرية ؛ وطلب من قاضي القضاة زين الدين أن يقرضه مال الأيتام ، وكان يبلغ أربعة عشر ألف دينار ، فعملت

(١) انظر أبا الفداء (المختصر في أخبار البشر) ، ص ٨٧ ، في (Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) انظر ابن شداد (التوادر السلطانية) ، ص ٣٢٩ ، في (Rec. Hist. Or. III.) .

(٣) في س نزع بغير ضبط . (٤) في س انشأه .

إلى الخزانة . وكتب السلطان خطه بذلك وأشهد عليه ، وأحال به على بيت المال ، وقرر استخراج [منه] ، وأمر بحمله إلى القاضي . هذا وقد تأخر القرض الذي كان السلطان صلاح الدين أقرضه في نوبة عكا ، وهو ثلاثون ألف دينار ، فلم يوف منه إلا يسيراً . وفي سادس عشره توجه جعفر بن شمس الخلافة إلى الفرنج لإعادة جبيل . وفي يوم الخميس تاسع عشره خرج السلطان إلى مخيمه ببركة الجب ، واستناب في غيبته بهاء الدين قراقوش^(١) ، ومعه ثلاثة عشر أميراً ، ونحو سبعمائة فارس . وتوجه مع السلطان سبعة وعشرون أميراً ، في ألني فارس وألف من الحلقة^(٢) .

وفي ثالث جمادى الأولى استقل السلطان بالمسير ، ونزل على دمشق في تاسع جمادى الآخرة ، ورحل عنها في ثامن عشره بشفاة عمه الملك العادل . وفي تاسع رجب دخل الأفضل دمشق ، بعد أن تقرر الصلح بينه وبين أخيه الملك العزيز في سادسه .

(١) في س قراقوش .

(٢) كانت الجيوش النظامية في مصر مد الأيوبيين مكونة من ثلاث فئات من الفراء والأجانب ، وأصلها كلها من الأرقاء ، وليس بينها صفات مشتركة سوى أنها من أسواق النخاسة ، بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود . وأول تلك الفئات الممالك السلطانية ، وهذه عبارة عن مشتريات السلطان وأجلاؤه — أوجلائه — وما يتبقى عنده من ممالك من سبقه في السلطنة . ومن هذه الفئة الممالك الخاصكية ، وتتميز من بقية الممالك السلطانية بانصواء أفرادها وهم صفار في خدمة السلطان ، فهو الذي يتولى تربيتهم وعقبتهم ، ومراتب الممالك السلطانية جميعاً من ديوان الفرد . أما الفئة الثانية من الجيوش النظامية فهي أجناد الحلقة ، وهذه مكونة من محترفي الجندية ، من ممالك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهي أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت في العصور الحديثة ، ومراتبها من ديوان الجيش . والفئة الثالثة ممالك الأمراء ، وهي شبه فرقة الممالك السلطانية ، غير أن أفرادها تابعون مباشرة لأمرائهم . ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه . هذا ولم يكن في هذه الجيوش من العناصر المصرية أو الشامية سوى ما يلحق الحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع والأتباع

وفي رابع شعبان دُقت البشائر^(١) بالقاهرة. ، فرحاً بالصلح بين الأولاد الناصرية. ، وزُيِّنت الأسواق وفيه انحط السعر . وقدم السلطان الملك العزيز إلى القاهرة سلخ شعبان . وفي سابع رمضان وصل الملك المعظم توران شاه وإخوته وعيالم من دمشق ، والديوان في ضائقة شديدة ، فعجزوا عن إقامة وظائفهم ومطالبهم وجراياتهم ، فنزلوا في الدار العزيرية . ونزعت الأسعار في المأكولات كلها . وفي تاسع عشره وصل عز الدين أسامة^(٢) مفارقاً للأفضل .

* * *

[سنة إحدى وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة إحدى وتسعين ، والعزيز على عزم المسير إلى الشام . فاستشار الأفضل أصحابه ، فنهى من أشار [٣٣٣ ب] عليه بمكاتبة العزيز واسترضائه . وأشار الوزير [ابن الأثير] عليه بالاعتصار بعمه العادل ، واستنجاهه على العزيز ، فأصغى إليه . وكثرت الإشاعة بقصد العزيز إقامة الخطبة في دمشق باسمه ، وضرب السكة^(٣) له . فارتعج الأفضل ، وخرج من دمشق في رابع عشر جمادى الأولى ، وسار جريداً إلى عمه العادل ، فلقه بصفين . فلما نزل ألحف الأفضل في المسألة له أن ينزل [العادل] عنده بدمشق ، ليجبره من أخيه العزيز ، فأجابه وأنزله بقلعة جعبر . ثم سار معه إلى دمشق أول جمادى الآخرة ، فوصل إليها في تاسعه . ودخل الأفضل إلى حلب على البرية^(٤) ، مستصرخاً بأخيه الملك الظاهر ، فتلقاه وحلف له على مساعدته . ثم رحل عنه إلى حماة ، فتلقاه ابن عمه الملك المنصور محمد بن المظفر ، وحلف له . ثم سار عنه إلى دمشق ، فدخلها في ثالث عشره وبها العادل ؛ فأفضى إليه بأسراره . وعلم العادل اختلال أحوال الأفضل ، وسوء تدبيره وقبيح سيرته ، فأنحرف

(١) كثيراً ما يذكر المؤرخون هذه العارة بعد إيراد حادث سار ، وكان يقوم بإعلان البشائر فرقة موسيقية بالقلعة ، ولعلها فرقة الكوسية المذكورة في الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، س ٩ ، ١٣ ؛ والبشائر أيضاً الرسائل التي كان السلاطين يعيشون بها إلى البلاد والأعمال ، في الأعياد والمواسم والحوادث السارة ، وكانوا يخلفونها عادة بالطيب . (نفس المرجع ، ج ٣ ، س ٥٠٩) . انظر أيضاً . (Enc. Isl. Art. Bashir) وكذلك (Dozy : Supp. Dict. Ar. & Lane : Lexicon) .

(٢) في س سامة . (٣) في س الصكة ، وهي بالسین أقصح . (محيط المحيط) .

(٤) بنير ضبط في س ، وهي الصحراء الواقعة بين أراضى القرات والشام . (Blochet : Op.)

عنه ونهاه فلم ينته ، إلا أنه مبالغ في كرامة عمه ، حتى أنه ترك له السنبق^(١) . وصار العادل يركب بالسنبق السلطاني في كل يوم ، ويركب الأفضل في خدمته .

فما هو إلا أن استقر ذلك إذ حدث بين الظاهر صاحب حلب وبين أخيه الأفضل وعمه العادل وحشة ، من أجل ميل الملك المنصور صاحب حماة إلى العادل . فسير [الظاهر] إلى أخيه العزيز يحرضه على قصد الشام ، ووعدته بالمساعدة له على الأفضل ، فوافق ذلك غرضه ، وخرج من القاهرة^(٢) بساكره في^(٣)

فلما قارب [العزيز] دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سرا واستألمهم ، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس ، لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية . فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين ، ونفرت الأسدية من الملك العزيز . وكاتب [العادل] العزيز سرا يخوفه من الأسدية ، ويحثه على إبعادهم عنه ؛ وكاتب الأسدية ، يخوفهم من العزيز ويستميلهم إليه . فحاق ما مكره وتم له ما دبره ، وعزموا على مفارقة العزيز ، وحسنوا

(١) لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح ، والمراد به هنا الراية التي تربط به ، والجمع سناجق .
ومى رايات صفر صفار ، يحملها السجقدار . ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان في المراكب زمن السلم بالسناجق فقط ، أما مراكب الحرب ، فكان سير السلطان فيها بالأعلام ، ومنها السناجق ، ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقابه واسمه وتسمى العصاة ، ثم راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش . ويتولى أمر هذه الأعلام كلها الأمير علم . (الفلشندي : صبح الأعشى ، ح ٤ ، ص ٨ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦ ، ٤٥٨) . وهذا وفي ركوب الأفضل في خدمة العادل إشارة إلى استعداده للاعتراف بعمه ملكا بدلا من العزيز . (Blochet : Op. cit. p. 280, N. 2) .

(٢) يعزوا ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٧٩) ما حدث تلك السنة من الوحشة إلى عدم وثوق الظاهر صاحب حلب بحسن نية عمه العادل نحو أولاد أخيه . وابن الأثير معاصر معروف بالتجسس ، وهذه عبارته : « وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الأفضل بالعادل ، وأنه بلغ من وثوقه أنه أدخله بلده وهو غائب عنه . ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازي صاحب حلب يقول له : أخرج عننا من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير ، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد . وأنا أعرف به منك وأقرب إليه ، فإنه عمي مثل ما هو عمك ، وأنا زوج ابنته . ولو علمت أنه يريد لنا خيرا لكنت أنا أولى به منك . فقال له الأفضل : أنت سيء الطن في كل أحد . أي مصلحة لعننا في أن يؤذينا ؟ ... وهذا كان أبلغ الأسباب ، ولا يعلمها كل أحد » . (٣) يياض في س بقدر خمس كلمات ، وليس في ب (١٤١) أي إشارة إليه .

للأكراد والمهرانية موافقتهم ، فانقادوا إليهم . وكان مقدّم أسراء الأكراد الأمير حسام الدين أبو الهيجاء^(١) السمين ، فاجتمع بالأكراد مع الأسدية . وانفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز (١٢٤) والانضمام إلى العادل والأفضل ، ومضايقة العزيز . و [عقدوا النية على] مكاتبة من بقى منهم بمصر ، أن يستقبلوا العزيز ويحولوا بينه وبين القاهرة ، فيصير [بذلك] بين الفريقين ، ويؤخذ باليد .

فلما كان في عشية الرابع من شوال رحل الأمير أبو الهيجاء بالأكراد والمهرانية والأسدية ، وهم لابسون لامة الحرب ، ولحقوا بالعادل فسرّ بهم ، لأنهم معظم الجيش . فلما أصبح نهار الخامس من شوال رحل العزيز يريد مصر ، وهو متخوف من الأسدية للقيمين بالقاهرة . وكان نائبه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى فلم يتغير على العزيز ، ووصل إلى القاهرة في ... (٢) ... فاستقر بها .

ثم إن العادل خرج بالأفضل من دمشق ، ومعه العساكر يريد أخذ القاهرة ، لما داخله من الطمع في العزيز . واتفق مع الأفضل على أن يكون للعادل ثلث البلاد المصرية ، ويكون ثلثاها للأفضل . فأجابته إلى ذلك ورحلا من دمشق ، وخرج [معهم] أيضاً [النصور] صاحب حماة ، وعز الدين بن القدام ، وسابق^(٣) الدين [عثمان] بن البداية صاحب شيزر^(٤) . واستخلف [الأفضل] بدمشق [أخاه] الملك الظاهر خضر [صاحب

(١) في س أبا . (٢) يياس في س وليس في ب (٤٩ ب) إشارة ما إليه .

(٣) في س سابق . انظر بعض أخباره بالحاشية التالية .

(٤) بغير ضبط في س ، وهي قلعة تشتمل على كورة بالشام ، على حد قول ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٥٣) . وتقع قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، في وسطها نهر الأرنط (Orontes) . وقلعة شيزر شهرة كبرى في التاريخ ، فقد كانت مقر إمارة بني منقذ الكتانيين ، منذ ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) حتى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) . وبها ولد أسامة بن منقذ الشاعر ، صاحب كتاب الاعتبار ، في اليوم السابع والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٤٨٨ هـ (٤ يولييه ١٠٩٥ م) ، أى قبل ابتداء الحروب الصليبية بضع سنين . وقد خب أسامة في تلك الحروب ووضع ، وكتابه الاعتبار المذكور ثبت للذكرات طلبة ضافية عنها ، وقد وصف فيها ابن منقذ تجاربه وأعماله . هذا وملاحظاته عن عادات الفرنج وأزيائهم زمن الحروب الصليبية فريدة في بابها . (Hitti : Usamah Ibn Munqidh) وقد انتهى ملك المناقذة لقلعة شيزر سنة ٥٥٢ هـ ، بوفاة آخر أمرائها تاج الدولة ناصر الدين محمد ، من جراء زلزال عنيف حاق بشيزر ، ففى فيه معظم أهل بيته أيضاً . وفى نفس العام استولت الإسماعيلية على شيزر ، ثم أخذها منهم =

بصرى^(١)]. وانضم إليهم عز الدين جرديك النورى نائب القدس . فلما وصلوا تل^(٢) المعجول ، أخلع [الأفضل] على جميع الأسدية ، وعلى الأكراد الأفضلية ، وأعطاهم الكوسات^(٣) . وسار الأفضل إلى القدس ، وتسلمه من جرديك ، وأعطاه بيسان وكوكب واطجولان^(٤) والمنيحة^(٥) . ثم سار العسكر حتى نزل على بليس ، وبها جموع الصلاحية والعززية ، ومقدمهم فخر الدين جهاركس على الصلاحية ، والأمير هكدرى بن يعلى الحميدى على طائفة الأكراد ، فنازلهم العادل والأفضل .

وكانت أيام زيادة ماء النيل ، والأسعار غالية والعلف متعذر . فبلغ العسكر الواصل الجهد ، وندم أكابرهم على ما كان منهم . هذا والعزيز يمد أهل بليس بالمرائب المشحونة بالرجال والعدد . فبلغ ذلك الأسدية ، فركبوا إلى المرائب ، وأخذوا بعضها وغرقوا بعضها . وأسروا خلقاً ، وسلم ثمانية مرائب عادت إلى القاهرة . واشتد الحصار على بليس حتى كادت تؤخذ ، وضاق العزيز بالقاهرة ، وقلت الأموال عنده . وكان محبباً إلى الرعية ، لما فيه من حسن السيرة ، وكثرة الكرم والرفق . فلما نازل العادل والأفضل (٣٤ ب) بليس احتاج إلى استخدام الرجال ، فلم يجد عنده مالا ، فبذل له الأغنياء جملة أموال ، فلم يقبلها .

== السلطان نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٦٤ هـ ، وأقام عليها مجد الدين أبانكر بن الداية ، وهو أخوه من الرضاع ، ولهذا سمي بابن الداية . ومات مجد الدين سنة ٥٦٥ هـ ، وخلفه على شيرز أخوه شمس الدين على بن الداية ، ثم سابق الدين عثمان المذكور بالبن . انظر (Enc. Isl. Art. Shaizar) ، وكذلك أباشامة : كتاب الرصتين ، ص ٩٥ ، ١٤٩ — ١٥٠ ، فى . Rec. Hist. Or. IV. وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٠ .

(١) راجع (Lane-Poole : Saladin. Table II, in pocket) .

(٢) جهة بين عكا والمائدة (ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٥٣ ، حاشية ١ ، فى . Rec. Hist. Or. III.) . (٣) الكوسات من رسوم السلطات وآلاته ، « وهى صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص » ، ويتولى ذلك الكوسى . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ ، ١٣) أما إعطاء الكوسات لهؤلاء الأمراء ، بعد خلع الأفضل عليهم ، فالراجح أن معناه أنه منح كلا منهم رتبة أمير طبغاناه ، يصح من حق الواحدة منهم أن يكون له طبغاناه خاصة تدق كوساتها على بابها . (انظر خليل بن شاهين : زيادة كشف الممالك ، ص ١١٣ ؛ وأيضاً : Quatremère : Maml. II. pp. 147.)

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية — وقيل جبل — من نواحي دمشق ، ثم من عمل الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٥٩) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قرية من قرى دمشق بالنوطة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٧٣) .

وكان القاضي الفاضل قد تنزّه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها ، واعتزل لما رأى من اختلال الأحوال .

وكان عبد الكريم بن علي اليسانفي يتولى الحكم والإشراف^(١) في البحيرة مدة طويلة ، فحصل من ذلك مالا جماً . ثم حدثت بينه وبين أخيه القاضي الفاضل مشاجرة اقتضت اتضاع حاله عند الناس بعد احترامهم إياه ، فصرف عن عمله . وكان متزوجاً بامرأة موسرة من بني ميسر^(٢) ، فسكن بها في ثغر الإسكندرية ، وأساء عشرتها ، لسوء خلق كان فيه . فسار أبوها إلى الإسكندرية ، وأثبت عند قاضيه ضرر ابتقه . ففضى القاضي بنفسه إلى الدار ، فلم يقدر على فتح الباب الذي من داخله المرأة . فأمر بنقب الدار ، وأخرج المرأة وسلمها لأبيها ، وأعاد بناء النقب . فغضب عبد الكريم وسار إلى القاهرة ، وبذل للأمير فخر الدين جهار كس خمسة آلاف دينار مصرية ، ووعد خزانة الملك العزيز بأربعين ألف دينار على ولاية قضاء الإسكندرية ؛ وحمل ذلك بأجمعه إلى فخر الدين جهار كس . فأحضره جهار كس إلى العزيز ، وهو حينئذ في غاية الضرورة إلى المال ، وقال : « هذه خزانة مال قد أتيتك بها من غير طلب ولا تعب » ، وعرفه الخبير . فأطرق [العزيز] ملياً ، ثم رفع رأسه وقال : « أعد المال إلى صاحبه ، وقل له إياك والمواد إلى مثلهما ، فما كل ملك يكون عادلاً ، وعرفه أنى إذا قبلت هذا منه أكون قد بعث به أهل الإسكندرية ، وهذا لا أفعله أبداً » . فلما سمع هذا جهار كس وجم ، وظهر في وجهه التغير . فقال له العزيز : « أراك واجماً ، أظنك أخذت على الوساطة شيئاً » . قال : « نعم ! خمسة آلاف دينار » . فأطرق العزيز ، ثم قال : « أعطاك مالا تنتفع به ، وأنا أعطيك في قبالتك

(١) اختصاص وظيفة الإشراف المقصود هنا مراقبة الأمور المالية عامة في جهة معينة ، من قبل سلطان أو أمير ، ويسمى متوليها المشرف . (القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٤ ، ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٦٤ — ٦٦) . انظر أيضاً : Supp. Dict. Ar & Blochet : Op. cit. p. 283. N. I. وبالقلقشندي (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٤) وظيفة أخرى ، يسمى صاحبها المعروف أيضاً ، وإنما عمله الإشراف على المطبخ السلطاني ، ومراقبة الأطبحة به .

(٢) لعلها سليله البيت الذي منه ابن ميسر ، صاحب كتاب تاريخ مصر ، الذي نشره (Henri Massé) . انظر فهرس الكتب العربية بدار الكتب الملكية المصرية ، ج ٥ ، ص ١٧ .

ما تنتفع به سرّات عديدة ؛ ثم وقع له بخطه إطلاق جهة طنبذة^(١) ، ومغلها في السنة سبعة آلاف دينار . فلامه أصحابه ، وألحوا عليه في الاقتراض من القاضي القاضل ، فاستدعاه إلى مجلسه ، بمنظرة من دار الوزارة كانت تشرف على الطريق . فعند ما عين القاضي القاضل استحياء منه ، ومضى إلى دار الحرم ، احتراماً له من مخاطبته في القرض . فلم يزل الأمراء به حتى أخرجوه من (١٣٥) عند الحرم . فلما اجتمع بالفاضل قال له ، بعد أن أطنب في الثناء عليه : « قد علمت أن الأمور قد ضاقت على ، وقلت الأموال عندى ، وليس لى إلا حسن نظرك ، وإصلاح الأمر إما بمالك أو برأيك أو بنفسك » . فقال [القاضي القاضل] : « جميع ما أنا فيه من نعمتكم ، ونحن نقدم أولاً الرأى والحيلة ، ومتى احتيج إلى المال فهو فى يدك » .

وانفق أن العادل — لما اشتد على أصحابه الغلاء والضيق — استدعى القاضي القاضل برسول قدم منه على العزيز ، فسيره إليه . وقد قيل إن العزيز لما جرى على المراكب التى جهزها إلى بلييس ما جرى ، خاف على الملك أن يخرج من يده ، فسير إلى عمه فى السريعهرفه أنه قد أخطأ ، وأنه قد عزم على اللحاق ببلاد المغرب ، ويسأله الاحتفاظ بحرمه وأولاده . فرق له العادل ، وأستدعى [القاضي] القاضل^(٢) . فلما قرب منه ركب إلى لقائه وأكرمه ، وما زال حتى تقرر الأمر على أن الأسدية والأكراد يرجعون إلى خدمة العزيز ، من غير أن يؤاخذهم بشيء ، ويرد عليهم إقطاعاتهم ، ويحلف العزيز لهم ويحلفون له ؛ وأن يكون العادل مقبياً بمصر عند العزيز ، ليقرّر قواعد ملكه ؛ وأن العزيز والأفضل يصطلحان ، ويستقر كل منهما على ما بيده . فعاد [القاضي] القاضل ، وقد تقرر الأمر على ما ذكر ، وحلف كل منهم لصاحبه على الوفاء .

وخرج العزيز من القاهرة إلى بلييس ، فالتقاء عمه العادل وأخوه الأفضل ، ووقع الصلح التام فى الظاهر . ورحل الأفضل يريد الشام ، ومعه الأمير أبو الميجاء السمين ،

(١) فى س طنبذى .

(٢) فى س بالفاضل فقط .

وصار الساحل جميعه مع الأفضل . وعاد المزيز إلى القاهرة ، وصحبته عمه العادل ، فأنزله في القصر من القاهرة . وأخذ [العادل] في إصلاح أمور مصر ، والنظر في ضياعها ورباعها ، وأظهر من محبة العزيز شيئاً زائداً ؛ وصار إليه الأمر والنهي ، والحكم والتصرف ، في سائر أمور الدولة ، جليلها وحقيها . وصُرف القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون عن قضاء مصر ، ووُلِّيَ زين الدين ^(١) أبو الحسن علي بن يوسف بن عبد الله بن بُندار ^(٢) الدمشقي . وفيها جدد العزيز الصلح بينه وبين الفرنج . وفيها ورد كتاب ملك الروم ^(٣) ، يتضمن أن كلمة الروم اجتمعت عليه ، وأنه أحسن إلى المسلمين وأسرهم بإقامة الجامع ، فأقيمت الصلاة فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة ، و [أنه] عمر جانباً منه كان انهدم من ماله ، فتمكن من في القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها . والتبس [ملك الروم] الوصية بالبطرك والنصارى ، وأن يُكَنَّبُوا من إخراج موتاهم بالشمع الموقد ، وإظهار شعاعاً مرم بكنائسهم ، وأن يُفْرَجَ عن أسارى الروم بمصر . وفيها عزل زين الدين علي بن يوسف [بن بندار] عن القضاء في حادى عشر جمادى الأولى ، بمحيي الدين أبي حامد محمد بن عبد الله ابن هبة الله بن عصرون .

[سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة] . وأهلت سنة اثنتين وتسعين ، ففي أولها وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، وتفرقت العساكر إلى بلادها . ولزم الأفضل الزهد ، وأقبل على العبادة ، وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير ؛ فاختلفت به الأحوال غاية الاختلال ، وكثر شاكوه . وضبط العادلُ أمور مملكة مصر ، وعُزِّمَت الإقطاعات ، ووفر الإرتفاعات وعمال (٣٥ ب) الأعمال ، وتَمَرَّ الأموال ؛ وقرب إلى العزيز الأمير عز الدين أسامة ^(٤) ، فصار صاحب سره وحاجبه ، والواسطة بينه وبين عمه . وَاخْتَارَ الأمير صارم الدين قايمآز النجى بالعادل ، وصار صفوته .

(١) في س أبي . (٢) مضبوط على سمية في ياقوت (معجم البلدان ، ج ٦ ، فهرس الأ) من (٣٥٢) ، وكذلك ضبط في القاموس المحيط للفيروزابادى . (٣) دأب الأمير طوراسحاق النازعاً المسلمين حتى آخر حكمه سنة ١١٩٥ م . (انظر ص ١٢٠ ، حاشية ١) . (٤) في س سا

[وفي] يوم السبت ثاني عشر^(١) [الحرم] رفعت يد ابن أبي عصرون وأيدي نوابه من الحكم ، وإمر أن يعتزل في بيته ، وأن يخرج عن مصر ؛ فأغلق بابَه ، وشرع في تجهيز^(٢) نفسه ، وتوسل في إقامته . وفي سابع عشره خلع على زين الدين علي بن يوسف [بن بندار] ، وأعيد إلى القضاء ، عوضا عن ابن أبي عصرون .

وفي أول صفر حبس الملك العزيز ناحية الخربة^(٣) من المنوفية على زاوية الأمام الشافعي بالجامع العتيق بمصر ، وفوض تدريسها إلى البهاء بن الجيزي .

وفي صفر وشهر ربيع [الأول] كثرت الطرْحَى من الأموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي نفس ؛ وبقي بمصر من لم يوجد من يكفنه ، وأكثرهم يموت جوعا . وانهى القمح إلى مائه وثمانين دينارا المائة أردب ، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم . وعمد الضعفاء إلى شراء الجرار ، وغَدَّوا إلى البحر وترددوا إليه ، ليستقوا منه في الحرار ، ويبيعوها بثمن درهم الجرة . وقد لا يجدون من تشتريها منهم فيصيحون : ” من يتصدق علينا بثمن هذه الجرة ، ومن يشتريها منا بكسرة ؟ “ . وزاد السعر ، وضاق الخناق ، وهلك الضعفاء ، وفشا الموت ، وأكثره في الجياح . وصارت الأقناس التي يحمل فيها الطعام يحمل فيها الأموات ، ولا يقدر على النعوش إلا بالنوبة . وامتدت الأبدى إلى خطف ألواح الخبز ، — ويضرب من يهب ، ويُشَجُّ رأسه ، ويسال دمه ، ولا ينتهي ولا يرمى ما في يده مما خطفه . وعدم القمح إلا من جهة الشريف ابن ثعلب^(٤) ، فإن مراكبه تتواصل وتبيع بشونه^(٥) .

(١) في س عسره . (٢) في س تجهيره . (٣) بغير ضبط في س ، واسمها أيضا العامره . (P. Omar Toussoun : Op. cit. T. I. 2. 297.)

(٤) كان ابن ثعلب من أغنياء الصعيد ، وكان محل إقامته غالبا بلدة دروت (ديروط) سريام بالصعيد ، وهي قرية كثيرة البساتين والنخل ، أنشأ فيها الشريف المذكور جامعا على فم ترعة المنى ، وهي بحر يوسف الحالي . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٧٠) . انظر أيضا التقرير : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٧١ ، ٢٠٥ و (P. Omar Toussoun : Auc. Branches Du Nil. P. 71) . (٥) العبارة الآتية واردة في ورقة منفصلة بين الصفحتين ٣٥ ب ، ٣٦ ، وليست لها علاقة بالمتن ، وقد أوردت ها لوقوعها =

ورود^(١) الخبر في تاسع صفر بأن تابوت الملك الناصر صلاح الدين نُقل في يوم عاشوراء ، من قلعة دمشق إلى تربة عمت له ، فكان يوماً مشهوداً . وفي تاسع عشرية قدم الملك الزاهر داود^(٢) [مجير الدين] صاحب البيرة ، وسابق الدين عثمان صاحب شيرز ، وبهاء الدين بن شداد قاضى حلب ، فخرج العادل لتلقيهم ببركة الجب ، وقدم الهادى الكاتب^(٣) [أيضاً] .

ورود الخبر بأن عربان الغرب هبطوا إلى البحيرة واشتروا القمح كل وبيئة بدينار ، وأن بلاد الغرب قد عذمت فيها الأقوات في السنة الخالية ، وانقطعت عنها الأمطار السنة الحاضرة ، وزاد الجراد بالشام ، وعظم خطبه . وكثرت بمصر والقاهرة الأمراض الحادة والحميات المحرقة ، وزادت وأفرطت . وغلت الأثرية والسكر وعقاقير العطار ، وبيعت بطيخة بأربعة وعشرين درهما . وصار القروج لا يقدر عليه ، وانتهى سعر القمح إلى مائتي دينار كل مائة أردب . وغلظ الأسرى الغلاء ، وعدم القوت ، وكثرت الشُّؤال ، وكثرت الموتى بالجوع ،

== قبالة الكلام السابق . ونصها : "قال القاضى الفاضل في ميأوماته : وفي يوم الإثنين السادس والعشرين من صفر ، يعنى سنة اثنتين وتسعين وخمسة ، ورد خبر من عدة آلسنة ، وتضمنته كتب ، واستبعده كل سامع ، وعنه كل فهم ، فذكرناه بتخير الشراء (كذا) . وهو أنه حضر إلى ديوان الخليفة ينفاد جماعة من حجاج خراسان ، وأخبروا بتواطىء الأخبار على ألسنة السفار ، بأن .ولودا ولد في بلغار ، كما يولد غيره من البشر ، وأنه ساعة وقوعه على الأرض ربا ونما نموا خارقا للعادة . وبعد ثلاثة أيام من ولادته تكلم بكلام محصل ، وخطب كل قوم بلغتهم مدة ثلاثة أيام أخرى . وقال لما سئل عن كلامه قبل أوانه ، وقيل إنه ماتكلم في المهدي إلا عيسى المسيح ، فقال لي أسوة به ، ولا تتعجبوا مني ولا من خلقي ، فأخى الذى يجيى بعدى يملك الدنيا وأقاليمها السبعة . وهذا آخر ما سمع منه ، ثم سكت . واستمر نموه إلى ثلاث سنين ، وبقي على حاله وصورته ، وهى صورة جميلة مرضية ، لا تقابله عين إلا ارتدت عنه ، وقد ستر وجهه عن العيون . وشعره أبيض كأنه شريط الفضة ، ولا يحمله جل ولا فيل . وقيل له وقت كلامه : ، امركوبك ؟ ، فقال يخلق الله لي دابة تحملني . ويأكل لحوم الخيل والظم ذبيحة ، ولا يحمل ميتة ، ويشرب ابن الخيل ، وإذا قعد كان قاعدا في طول الرجل الطويل" . هذا ولعل ميأومات القاضى الفاضل فى المسألة بالتجددات فى (Enc. Isl. Art.)

(Al-kadi al-fadil).

(٣١١) هذه العبارة الواردة بين الرفين فى المتن موجودة بهامش الصفحة فى س ، غير أن المؤلف لم يشر كمادته إلى الموضع المناسب لها بالمتن ، على هذا الترتيب فى ب (١٤٢) . (٢) آخر أولاد صلاح الدين ، حسبما جاء فى (Lane Poole : Saladin. Table II. in pocket) ومولده سنة ١١٧٤ هـ . انظر أيضا أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٠٦ ، فى (Rec. Hist. Ar. V.) (٣) انظر حاشية ٣

وخطف الخبز متى ظهر ، وشوهد من يستف التراب ، ومن يأكل الزبل . وازدحم الناس على الطير الذي يرمى من مطابخ السكر . وكثرت الأموات أيضاً بالإسكندرية ، وتزايد وجود الطرحة بها على الطرقات . وعدمت^(١) المواساة ، وعظم هلاك الأغنياء والفقراء وانكشاف الأحوال . وشوهد من يبيح المزابل القديمة على قشور الترمس ، وعلى نقاضات الموائد وكناسات الأدُر^(٢) ، ومن يقفل^(٣) بابه ويموت ، ومن عى من الجوع (٣٦) ويقف على الحوانيت ويقول : "أشمنوني رائحة الخبز" .

واستخدم رجل في ديوان الزكاة ، وكتب خطه بمبلغ اثنين وخمسين ألف دينار ، لسنة واحدة من مال الزكاة . وجعل الطواشي [بهاء الدين] قراقوش^(٤) الشاد في هذا المال ، وألا يتصرف فيه ، وأن يكون في صندوق مودعاً للمهمات التي يؤمر بها . ووُقع لابن ثعلب [الشريف] الجعفرى بخبز^(٥) مبلغه في السنة ستون ألف دينار ، ودفع له كوس^(٦) . وعلم . وآل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العريزية [عليه] من لحم وخبز ، وإلى أن يتمخّل في بعض الأوقات لاكلها ، لبعض ما يبلغ به [أهلها^(٧)] من خبز ، وكثر ضجيجهم وشكواهم فلم يسمع . وفي شهر ربيع الآخر صُرف صارم الديم خطلج الغزى عن شدة الأموال بالدواوين ، وسُلم الشدة إلى بهاء الدين قراقوش^(٨) ، مصافاً إلى شد الزكوات فكل شد المال له . وفيه كثر الموت ، بحيث لم تبقى دار إلا وفيها جنازة أو مناحة أو مريض . واشتد الأمر ، وغلت العقاقير ، وعدم الطبيب ، وصار من يوجد من الأطباء لا يخلص إليه من شدة الزحام . وصار أمر الموتى أكثر أشغال الأحياء ، وما ينقضى يوم إلا عن عدة جناز من كل حارة . وعدم من يحفر ، وإذا وجد لم يعمق الحفر ، فلا يلبث الميت أن تظهر له رائحة . وصارت الجبانات لا يستطاع مقابلتها ، ولا زيارة قبورها . وأخذت الأسعار في الانحلال .

(١) في س عدم . (٢) في س الأدُر بغير ضبط ، وهو بالمد جمع دار . (القاموس المحيط للفيروزابادي) .

(٣) في س يقول لبابه . (٤) في س قراغش . (٥) في س بحر . (٦) انظر ص ١٢٦ ،

حاشية ٣ .

(٧) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة (Blochet : Op, cit, P, 239) . (٨) في س قراغش .

وفي جمادى الأولى تواترت الأخبار باختلال الحال بدمشق ، فوقع العزم على المسير إلى الشام . ووقع الشروع في الإنفاق في الخاشية ، فقبضوا شهراً واحداً . وكان قد استحق لهم أربعة عشر شهراً ، فإن المادة قصرت عن نفقة ذلك لهم ، فأحيل بعضهم على جهات . وامتنع الجاندارية^(١) من قبض شهر ؛ وانهى ذلك إلى العزيز ، فكتب إلى خطبائهم بإخراجهم إلى الخيم ومن تقاعد عن الخروج قيده الطواشي قراقوش^(٢) ، واستخدمه في السور . فخرجوا بأنفسهم غير طيبه ، والسنة بالشكوى معلنة . وكان المال الذي أنفق في الخاشية قد اقترض من الأمراء ، وأحيل به على الجوالى لسنة ثلاث وتسعين . وخرج العزيز إلى الخيم ، وحرك الأمراء تحريكاً قوياً ، وسير الحجاب^(٣) إلى البلاد تحت الأجناد ، فتتابع خروج الناس . ووقع الرحيل من بركة (٣٦ ب) الجب في ثامنة ، فرحل السلطان العادل والعزيز ، وجميع الأسدية والماليك

وفشت الأمراض الحادة ، فما ينقضى وقت إلا عن عدد كثير من الجنائز . وغلت الأدوية ، وبلغ الفروج إلى ثلاثين درهماً ، والبطيخة إلى مائة درهم . وورد الخبر بأن قوص وأعمالها فيها أمراض فاشية ، وأموات لا تتلاحق . وكثر الوباء والموت بالإسكندرية . وفي آخره انحلت الأسعار ، وزلت الغلة إلى ثمانين ديناراً كل مائة أردب ، وأبيع الخبز سبعة أرطال بدرهم . وقل السؤال ، وارتفع الموتان ، بعد أن جلب من قوص فراريج أبيع كل

(١) الجاندارية ثمة من مماليك السلطان أو الأمير ، ومثلها الخاصكية . وهي مركبة من لفظين فارسيين أحدهما خان ومعناه سلاح ، والثاني دار ومعناه ممسك . أما الجدار بالميم فوظف آخر ، وهو « الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه ، وأصله جاما دار ... من لفظين فارسيين ، أحدهما حاماً ومعناه الثوب ، والثاني دار ومعناه ممسك » . (الفلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩) . هذا وموصوع وظيفه أمير جاندار السلطان « أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويدخل أمامهم إلى الديوان ... » (نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢) . انظر أيضاً (Enc. Isl. Art. Djandar) ، وما هنالك من المراجع .

(٢) في س قراغش . (٣) مر ذكر وظيفة الحجاب أكثر من مرة ، غير أنه أرجى شرحها إلى هنا ، وعمل صاحبها أن « ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه ، وتارة بجراحة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند وما ناسب ذلك ... » (الفلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩) . انظر أيضاً (Enc. Isl. Art. Hadjib) ، وما بذيلها من المراجع .

عشرة فراريج بسبعة دنائير، وهذا لم يسمع بمثله في مصر قبل ذلك. وفيه نودى في القاهرة ومصر بأن الشريف ابن ثعلب مقدم^(١) على الحاج، فليجهز أرباب التّيات.

وفي جمادى الآخرة وقف الحال فيما ينفق في دار السلطان، وفيما يصرف إلى عياله، وفيما يقتات به أولاده. وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق مالا يوزن له ثمن، وما يُنصب من أربابه. وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات، فإن المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون في الأسعار العامة بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان. فاقضى ذلك النظر في المكاسب الخبيثة: وُثمن باب المزر والخرباثنى عشر ألف دينار، وفُسخ في إظهاره وبيعه في القاعات والحوانيت، ولم يقدر أحد على إنكار ذلك. وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق في طعام السلطان وما يحتاج إليه، وصار مال الثغور والجوالى إلى من لا يبالي من أين أخذ المال. وفيه وصل العادل والعزير إلى الداروم، وأمر باخراپ حصنها، فقسّم على الأسراء الجاندارية؛ فشق على الناس تخريبه، لما كان به من الرفق للمسافرين. وانهى المكان إلى دمشق — وقد استعد الأفضل للحرب في أول شهر رجب — فغاصرها إلى أن ملكها في العشرين منه، بعد عدة حروب، خان الأفضل فيها^(٢) أسراؤه. فلما أخذ المدينة نزل الأفضل من القلعة إليهما، فاستحميا العادل منه، لأنه [هو] الذى حمل العزيز على ذلك، ليوطىء لنفسه، كما يأتى. وأسرهم [العادل]^(٣) أن يعود إلى القلعة، فلم يزل بها أربعة أيام، حتى بعث إليه العزيز أيبك فطّيس^(٤) أمير جاندار، وصارم الدين خطّاج الأستاذار، فأخرجاه وأخرجوا (١٣٧) عياله وعيال أبيه^(٥). وأنزل [الأفضل] في مكان، وأوفى ما كان عليه من دين، وما للحواشي من الجوامك. فبلغ ذلك نيفا وعشرين ألف دينار، بيع فيها برّكه وجهاله وبغاله، وكتبه ومماليكه وسائر ماله؛ فلم توف بما عليه، وقسا عليه

(١) في س مقدما. (٢) راجع تفصيلات تلك الحيانة في ابن الأثير (الكامل في التاريخ، ص ٨٠). (٣) انظر نفس المرجع والجزء والصفحة المذكورة بالخاصة السابقة. (٤) مضبوط على منطوقه في (Blochet: Op. cit P. 241) (٥) في س ايه، وإذا صح هذا فقد اشترك العزيز في إخراج أخوته، والراجع أنهم من أم أخرى. (٦) الرك المتاع الخامس من نياپ وقاش، وفي (Quatremère: Maml.) I. I. P. 253 أمثلة عديدة لاستعمال هذا اللفظ، منها "أخذ ما تخلف ... من مال ودواب وبرك". انظر أيضا (Dozy: Supp. Dict. Ar.).

أخوه وعمه لسوء حظه . ثم بعث إليه عمه العادل . يأمره أن يسير إلى صرخد ، فلم يجد عنده من يسير بأهله ، حتى بعث إليه جمال الدين محاسن عشرة أوصلوه إلى صرخد . وأخذت^(١) من الملك الظاهر مظفر الدين خضر بصرى ، وأعطيت للملك العادل ؛ وأمر [الظاهر] أن يسير إلى حلب ، فلاحق بأخيه الظاهر [صاحبها] .

ويقال إن العادل كان قد قرّر مع الملك العزيز — وهو بالقاهرة — أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ، ويعود العادل إلى مصر نائباً عن العزيز فلما ملك العزيز دمشق ، وأخرج أخاه الأفضل منها ، انكشفت له مستورات مكائده . فقدم على ماقربه معه ، وبعث إلى أخيه الأفضل سرّاً يعتذر إليه ، ويقول له : ” لا تنزل عن ملك دمشق “ . فظن الأفضل هذا من أخيه خديعة ، وأعلم عمه العادل به ، فقامت قيامته ، وعتب [على] العزيز وأتّبه . فأنكر [العزيز] أن يكون صدر هذا منه ، وحنق على أخيه الأفضل ، وأخرجه إلى صرخد على أقبح صورة^(٢) . واختفى الوزير ضياء الدين [ابن الأثير] الجزرى^(٣) خوفاً من القتل ، ثم لحق بالموصل .

واستقر الأمر بدمشق للعزيز في رابع عشر شعبان : فأظهر العدل ، وأبطل عدّة مكوس ، ومنع^(٤) من استخدام أهل الذمة في شيء من الخدم السلطانية ، وألزموا لبس النِّيار^(٥) . ثم رحل عنها ليلة التاسع منه يريد القاهرة ، واستخلف عمه [العادل] على دمشق ، وسار إلى القدس ،

(١) في س واخذ .

(٢) لابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٠) رواية أخرى في هذا الصدد ، ونصها : ”... جلس [العزيز] يوماً في مجلس شرايه ، فلما أخذت منه الخمر ، جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل . فنقل ذلك إلى العادل في وقته ، فغضب المجلس في ساعته ، والعزيز سكران . فلم يزل به حتى سلم البلد إليه ، وخرج منه ، وعاد إلى مصر . وسار الأفضل إلى صرخد . وكان العادل يذكر أن الأفضل سمي في قتله ، فلماذا أخذ البلد منه ، وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرأ منه ، والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون“ . (٣) في س الجزرى بغير ضبط ، والنسبة إلى بلدة جزيرة ابن عمر ، على الفرات ، وهي موطن آل الأثير . (Enc. Isl. Art. Ibn al-Athir) .

(٤ و٥) العبارة التي بين الرقین الواردة في س ، ب (١٤٥) ، غير أنها لا توجد في ترجمة : (Blochet Op. cit. P. 242) أما النيار فهو الملبوس الذي تميز به أهل الذمة عن المسلمين في القرون الوسطى ، ومثله الزنار . (محيط المحيط ، و Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

فلسكها من أبى الهيجاء [السمين] ، وسلمها إلى الأمير شمس الدين سنقر الكبير ، وسار أبو الهيجاء^(١) إلى بغداد .

ووصل العزيز إلى القاهرة يوم الخميس رابع شهر رمضان ، فصارت دمشق وأعمالها إقطاعاً للملك العادل ، وليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط . وفي ثامن عشرة ركب العزيز إلى مقياس مصر وخطقه ، ونودى فيه بزيادة ثلاثة أصابع من الذراع السابعة عشر^(٢) . وفي العشرين منه فُتح سد الخليج ، فركب العزيز لذلك ، وكثر المتفرجون وازدحم الفوغاء ، وحلوا العصي وتراجحوا بالحجارة ، وقُلعت أعين ، وخُطفت مناديل . وكانت (٣٧ ب) العادة جارية بأن يقر شهر رمضان من اعتصار الخمر ، وألا يجهز شراء العنب والجرار ، ولا يحدث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر . وفي هذا الشهر غلا سعر الأعناب لسكثرة العصير منها ، وتظاهر به أربابه لتحكيز تضمينه السلطاني ، واستيفاء رسمه بأيدي مستخدميه . وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار ، وحصل منه شيء . حمل إلى العزيز فصنع به آلات الشرب . وفيه كثر اجتماع النساء والرجال على الخليج — لما فُتح — ، وعلى ساحل مصر ، وتلوث^(٣) النيل بمعاصي قبيحة . واستمر جلوس العزيز للمظالم في يومى الإثنين والخميس .

وفي ثاين شوال كان التَّورُوز^(٤) ، فجرى الأمر فيه على العادة من رش الماء .

(١) جاء في سطر الجوزى : مرآة الرمان ، ص ٥٩٣ ، إن أبا الهيجاء هذا كان مفريط السمس ، وكان رأسه صغيراً ويطنه كبيراً بحيث كان على رقبة البغلة فلما رآه أهل بغداد افتسمه أنظار الحرايين هناك ، وصنعوا قدورا تشبهه في صغانتها ، وأسماها أبا الهيجاء ، ورآها هو في أسواق بغداد ، صحك منها . (٢) في س عشر . (٣) في س وتلقيب . (٤) يقول المقرئى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٩٣ — ٤٩٤) عن التوروز ما نصه : " وكان التوروز القبطى ... من حملة المواسم [بمصر] ، وتعطل فيه الأسواق ، وينقل فيه سعى الناس في الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرحال أهل الدولة وأولادهم ولسائهم ، ... وقال القاضي الفاضل في تعليق المتحذدات لسنة أربع وعشرين وخمسة ، يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم التوروز القبطى ، وهو مستهل توت ، وتوت أول سنتهم . وقد كان بمصر في الأيام الماضية والدولة الحالية ، يعنى دولة الخلفاء العاطميين ، من مواسم بطالاتهم ... فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والقواش صريحة في يومه . ويركب فيه أمير موسوم بأمير التوروز ، ومعه جم كثير ، وينسلط على الناس في طلب رسم ربه على دور الأكابر بالجل السكار ، ويقنع بالميسور من الهبات . ويتجمع المؤتون والعاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدنهم الخليفة ، وبأيديهم الملاي . وترتفع =

واستبعد^(١) فيه التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع^(٢). وتواتت زيادة النيل؛ فأغشى الناس في إظهار المنكرات، ولم ينهم أحد. وفيه وقفت وجوه المال، وانقطعت جباية الديوان بمصر، وأحيل على الجهات بأضعاف ما فيها، وبقيت وجوه قصرت الأيدي عن استخراجها. وانتمى^(٣) العاملون^(٤) إلى من حمام، فلم يجسر صاحب^(٥) الديوان على ذكر من يحميهم، فضلاً عن أخذ الحق منهم، ورفع يده عن حماية من حماه. وآكل الأمر إلى أن صار ما يقام برسم طواريء السلطان وراتب داره من ضمان الخمر والزر. وكانت هذه سنة ما تقدمها أغشى منها، ولا علم أن همة من المهم القاصرة انحطت إلى مثلها.

وفي رابع عشرة خرج الشريف ابن ثعلب سائراً بالحاج، وخيم على سفاية ريذان^(٦). وكثر

= الأسوات، وثمرت الخمر والزر شرباً طاهراً بينهم، وفي الطرقات. وقرش الناس بالماء، وبالماء والخمر، وبالماء مزوجاً بالأقدار. فإن غلظ مستور وخرج من داره لقيه من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بجرته. فإما فدى نفسه، وإما فضح. ولم يجز (س ٤٩٤) الحال في هذا النوروز على هذا، ولكن قد رش الماء في الحارات، وأحيا التكر في الدور أبواب المسارات. وقال [القاضي الفاضل] في سنة اثنتين وتسعين وحسبائه: وجرى الأمر في النوروز على العادة من رش الماء، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع، وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظفر به في الطريق رش بيماء نجسة، وخرق به. قال مؤلفه (المقريزي) رحمه الله تعالى، إن أول من اتخذ النوروز جشيداً، ويقال في اسمه أيضاً حشاد، أحد ملوك الفرس الأول، ومعناه اليوم الجديد، وللفرس فيه آراء وأعمال على مصطلحهم، غير أنه لا يقع في هذا اليوم، الذي اتخذ القبط في مصر عيداً لهم، بل يقع يوم الاعتدال الربيعي، أي ٢١ مارس من كل سنة. انظر (Blochet : Op. cit. p. 243. N. 1.).

(١ و ٢) العبارة التي بين الرقبن موجودة في س، ب (س ١٤٥)، لكنها غير واردة في ترجمة (Blochet : Op. cit. p. 243). (٣) في س آمت. (٤) جمع عامل، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الديوانية وكتابتها. (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، س ٤٦٦). وكان هذا اللقب يطلق في الأصل على أمير العمل أو الجهة، ثم نقله العرب إلى هذا الكاتب، وخصه به دون غيره. ويسمى القريري (المواعظ والاعتبار، ج ١، س ١٠٥) القائمين بتلك الوظيفة بالمعلمين. (٥) حلت هذه التسمية محل لقب "متولى الديوان". (الطر من ٥٣ حاشية ٤؛ وكذلك القلقشندى نفس المرجع والحرء والصفحة المذكورة بالحاشية السابقة؛ (G. - Demombynes. Pref. P. LXXII. N. 1.).

(٦) جهة قرب العباسية الحالية بالقاهرة، وقد ذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٣، س ١٠٠) أنها بين القاهرة وبليس. وكانت في الأصل بستاناً لريدان الصقلي، أحد خدام الخليفة العزيز بالله الفاطمي. (المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج ٢، س ١٣٩). وعرفت فيما بعد بالريمانية، وعندما انهزم آخر جيوش المماليك الجبلية سنة ٩٢٢ هـ أمام الجيش العثماني، بقيادة السلطان سليم الأول وصارت مصر بعد ذلك ولاية عثمانية.

القتل بالقاهرة بأيدى السكارى ، وأعلن المنكر بها ، فلم تسلم ليلة إلا عن جراح وقتل بين
المعربين . وكثر ذلك حتى خطفت الأمتعة والمآكل من الأسواق ، نهارًا نادرًا وليلاً رائجًا
واستقرت المظالم للطواشي قراقوش^(١) ، يجلس فيها بظاهر الدار السلطانية ؛ وحماية الديوان وشدة
الأموال لفخر الدين جهار كس ، مع إقباضه عنها ؛ وأستادارية الدار لصارم الدين خطلج .

وفى تاسع عشره كسر بحر أبى المنجا ، وبشر العزيز كسره . وزاد النيل فيه أصبغا ، وهى
الأصبغ الثامنة عشرة^(٢) ، من ثمانى عشرة ذراعا ؛ وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى .

وفى ثمانى عشره رحل الحاج . وتجدد ما كان قد درس ذكره ونسى حكمه فى (١٣٨)
مصر ، منذ عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، من سنة أربعين وخمسمائة ، من الرفاع^(٣) التى كان
القبط يخلقونها ، ويتوصلون بها إلى المصادرات ، وخراب البيوت ، وعمارة الحبوس ، وإساءة
السمعة عن سلطان الوقت . فأجمع ابن وهيب وكتب نصرانى وغيرهما على أوراق عملت ،
وانتدب الأسعد بن ممانى والشاذل لكشف والرفع إلى فخر الدين جهار كس .

وفى ذى القعدة كثر وثوب السكارى بمن يلقونه ليلا ، وضربهم إياه بالسكاكين فلا
تخلو ليلة من قتيل أو قتيلين . ولم يؤخذ لأحد بثأر ، ولا وقع كشف عن مقتول منهم . ولا
تمكن والى القاهرة من منهم . ووُجد فى الخليج ستة نفر قتلى مريطين ، فلم يسأل عنهم ،
ولا وقع إنكار لأمرهم .

وفى ذى الحجة عزم العزيز على نقض الأهرام ، ونقل حجارتها إلى سور دمياط . فقبل
له إن المؤونة^(٤) تعظم فى هدمها ، والفائدة تقل من حبرها . فانتقل رأيه من المرمين إلى
المرم الصغير — وهو مبنى بالحجارة الصوان — فشرع^(٥) فى هدمه . وفيه سار العزيز إلى
الإسكندرية ، واستخلف بالقاهرة بهاء الدين قراقوش ، وفخر الدين جهار كس .

(١) فى س فراغش . (٢) فى س عشر . (٣) جمع رقيقة ، وهى الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ
ظلامة أو غيرها . (بحمد المحيط و (Dozy : Supp Dict. Ar.) . (٤) فى س المؤنة . (٥) اقتدى
السلطان العزيز عثمان بأبيه صلاح الدين فى هدم الأهرام واستخدام أحجارها فى بناء الأسوار فى أيام =

وتوفي في هذه السنة القاضي الأشرف أبو المكارم الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحباب قاضي الإسكندرية . وولي عوضه الفقيه أبو القاسم شرف الدين عبد الرحمن ابن سلامه في سابع عشر شوال . ومولد ابن الحباب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وأقام حاكماً بالإسكندرية ثمانيا وعشرين سنة . وكان كريم النفس صحيح المودة ، وطالت مدته في الحكم بالإسكندرية ، من سنة أربع وستين إلى أن مات بها في ثالث جمادى الآخرة . وفي خامس ذى الحجة مات القاضي الرشيد^(١) ... ابن سناء الملك . قال القاضي الفاضل فيه : ” ونعم صاحب الذى لا تخلفه الأيام ، ولا يعرف له نظير من الأقوام : أمانة سميعة ، وعقيدة ود متينة ، ومحاسن ليست بواحدة ، ومساع في نفع المعارف جاهده . وكان حافظاً لكتاب الله ، مشغولاً بالعلوم الأدبية ، كثير الصدقات ، نفعه الله ، والأعمال الصالحات ، عرفه الله بركاتها“ .

وفيها حج بالناس الشريف ابن ثعلب . وخرجت المراكب الحربية من مصر ، فظفروا ببطس للفرنج ، وفيها أموال ففتنوها . وفيها بنى الأمير فخر الدين جباركس قيساريته^(٢) بالقاهرة . وفيها زلزلت مصر . ومات العلم عبد الله بن علي بن عثمان بن يوسف الخزومي ، يوم الجمعة حادى عشر جمادى الأولى ؛ ومولده في شهر رمضان سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، [وقد] قرأ على ابن برى ، وله شعر .

== صلاح الدين هدمت بعض أهرام الجزيرة ، على يد بهاء الدين قراقوش ، وبنيت بأحجارها قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر ، وكذلك فعل العزيز لبناء سور دمياط ، كما في المتن . غير أن المقرئى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١١٤ و ١٢١) يقول إن العزيز أراد نقش الهرم الصغير لإخراج مائته من كنوز ، وأقام عماله على ذلك شهوراً ، ثم تركوه عن مجز . هذا وليس بالفصل الوارد بالمواعظ والاعتبار عن الأهرام إشارة إلى أن العزيز أراد بناء سور دمياط من أحجارها . (نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١١١ - ١٢٢) .

(١) ياص في ص . (٢) يذكر المقرئى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٨٧) هذه القيسارية ، ويقول : ” رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر في شيء من البلاد مثلها ، في حسنها وعظمتها ، وإحكام بنائها . [وقد] بنى [فخر الدين] بأعلامها مسجداً كبيراً ، وربما مملكا“ .

[سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة ثلاث وتسعين ، وفيها أقيمت الخطبة للعزیز بحلب ، وضربت السكة باسمه ، بصلح وقع بين العزیز وبين أخيه الظاهر . [وقد] تولاه القاضي بهاء الدين [أبو الحسن] ^(١) بن شداد ، وغرس الدين قلعج ، قدما من حلب إلى العزیز بالقاهرة بهدايا ، فانهقد الصلح بين الأخوين على ذلك . وعادا إلى الظاهر ، فخطب للعزیز في شهر ربيع الأول ، (٣٨ ب) وضربت ^(٢) السكة باسمه . وفيه تحرك الفرنج على بلاد الإسلام ، فخرج العادل من دمشق ، وسير جيشا إلى بيروت لهدم ربضها . .

وفيها مات الملك العزیز ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب ملك اليمن في شوال ، وقام من بعده بمملكة اليمن ابنه الملك المرفع الدين أبو الفداء إسماعيل . وفيها فتح الملك العادل صاحب دمشق ياقا عنوة ، وغنم وأسر كثيرا ، يقال إنهم سبعة آلاف نفس ، ما بين ذكر وأنثى . وفيها سار [العادل] من ياقا إلى صيداء وبيروت ^(٣) فأخربهما ونهبت بيروت ، وفر من كان بها . وبعث [العادل] إلى الملك العزیز يستنجده ، فسير إليه عسكريا خرج من القاهرة أول شوال ، وسار إلى بلبس . ثم بدا للعزیز [أمر] ، ففرق العسكري ولم يسر

[سنة أربع وتسعين وخمسمائة] ودخلت سنة أربع وتسعين ، فانتشر من وصل في البحر من الفرنج ببلاد الساحل ^(٤) ، وملكوا قلعة بيروت ، وقتلوا عدة من المسلمين

(١) - موضع ما بين القوسين يباس في س واسم القاضي وألقابه : " الإمام العالم بهاء الدين فاضى قضاء المسلمين ، مرتضى أمير المؤمنين أبو الحسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ، فاضى حلب المحروسة " . وهو مؤلف كتاب النواذر السلطانية والحاسن اليوسفية ، المذكور بمحواشى هذا الجزء . انظر (Rec. Hist. III. P. 3.)
(٢) في س وضرب . (٣) عبارة القرزى عن هذه الحوادث مختصرة إلى حد محل ، فراجع ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٤) .

(٤) يوجد في (Blochel : Op. cit. P. 246. N 1.) ترجمة لبندة من كتاب سير الآباء البطارقة عن وصول تلك المراكب الفرنجية إلى الشام ، وحوادث الملك العادل مع جيوشها .

في أطراف بلاد القدس ، وأسروا وغنموا شيئا كثيرا . فبعث الملك العادل إلى القاهرة يطلب من العزيز نجدة ، فسارت إليه العساكر من مصر ، ومن القدس وغيرها . ثم خرج الملك العزيز بنفسه ، ومعه سائر عساكر مصر لقتال الفرنج ، فنزل على الرملة في سادس عشر صفر ، وقدم الصلاحية والأسدية ، وعليهم الأمير شمس الدين سنقر الدَّوَادَار^(١) ، ومَرَا سُنْقَر وعلاء الدين شَقِير^(٢) ، وعدة من الأكراد ؛ فلحقوا العادل وهو على تَبْنِين^(٣) . وسار العزيز في أثرهم ، فكانت بينهم وبين الفرنج وقائع شهيرة ، آلت إلى رحيل الفرنج إلى صور . وركب العادل والعزيز أقيمتهم . فقتلوا منهم . وترك العزيز العساكر عند العادل ، ورجع إلى القاهرة في ثامن جمادى الآخرة ، قبل انفصال الحال مع الفرنج ، من أجل أن ميمون القصرى ، وأسامة^(٤) وسرا سنقر ، والحجاف ، وابن المشطوب ، كانوا قد عزموا على^(٥) قتله فلما بلغه ذلك رحل إلى القاهرة فخرج الناس إلى لقائه ، وكان يوما مشهودا . ووقعت الهدنة بين العادل وبين العادل وبين الفرنج لمدة ثلاث سنين ، وعاد العادل إلى دمشق .

وفي رجب تجدد للعادل والعزيز رأى في تخريب عسقلان ، وتعفية جدرانها وهدم بنيانها . فَنَدَب من القدس جماعة لتغليقها^(٦) وحطَّ أبرجة سورها ؛ فتلقت مدينة لا مثل

(١) الدوادار اسم فارسي مركب من لفظين ، أحدهما عربى وهو الدواة . والثانى دار ومعناه مسك ، وصاحب وظيفة الدوادارية هو الذى يحمل دواة السلطان [أو الأمير] أو غيرهما ، ويتولى أمرهما مع ما يلحق ذلك من المهمات ، نحو " تبليغ الرسائل عن السلطان أو الأمير وإبلاغ عامة الأمور ، وتقديم القصص إليه ، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف ، وتقديم البريد ، ... " . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩ ؛ ح ٥ ، ص ٤٦٢ ؛ والمقريزى : الواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٢٢) . انظر أيضا (Enc. Ist. Art. Dawatdar) . (٧) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى Blochet : Op. cit. (P. 247 وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ص ٨٩ ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1) .

(٣) بدير ضبط فى س ، وهى بلدة فى جبال بى عاصم المطلة على بانياس ، بين دمشق وصور . (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ، ص ٨٢٤) . (٤) فى س سامة ، وبقيّة الأسماء مضبوطة عن المرجعين المذكورين بحاشية ٣ . (٥) اعتمد المقريزى فى حوادث هذه المؤامرة على ابن الأثير مع تعديل طفيف . (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٤) . (٦) فى س " لعلقها وحط أبرجة سورها فتلقت مدينة ... " وفى محيط المحيط : الفلق عند البناتين حجر يجعل فى وسط المذمك يسكر به ، فلعل المقصود هنا أن المتدوين هدموا الأسوار بشد أغلاقها .

لها ، وشر لا نظيره في النفور ، وعمارة لا تخلف الأيام ما تلف بها ، لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح ، واضطراهم إلى هدم المدن وتعقبة رسومها .

وفي شعبان ركب قاضي القضاة صدر الدين بن درياس لرُقبة الهلال ، (١٣٩) وكلف الشهود ما بين شمتين كل شاهد إلى شمة . فخرجوا بالشموع ، وقد كثر الجمع والشمع ، واحتفل الموكب ، وثقلت على الشهود الوطأة . وفيه أمر الملك العزيز بمنع البناء في المواضع التي كان الأسراء قد شرعوا في بنائها على النيل ، واستولوا فيها على الساحل ، فخرج الجاندارية وألزموا كل من حفر أساسا بردمه ، فامثل الأمر .

وفي شهر رمضان أمر العزيز بقطع أشجار بستان البغدادية تجاه [قصر ^(١)] الأولى ، وجعله ميدانا . وفيه كثر التظاهر بعصير العنب واستباحة الحرمات ، وعدم المنكر لهذا الأمر ، فعلا العنب حتى بلغ أربعة أرتال بدرهم . وفيه قصر مد النيل ، وارتفعت الأسعار ، وعدمت الأرزاق من جانب الديوان ، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمان . واستبيح ما كان محظورا من فتح أبواب التأويلات ، وأخذ ما بأيدي الناس بالمصادرات : فأخذ خط شخص يعرف بابن خالد بمبلغ ألف دينار ، وصودر جماعة [آخرون] ، وصار الإنفاق في السباط السلطاني في هذه الوجوه .

وفي يوم عيد الفطر أقيمت سنة العيد بظاهر البلد ، وحضر العزيز الصلاة والخطبة ، وعمّ الأمراء وأرباب العمام بخلمه ، وقدم سباط توسعت المهمة فيه . وفي ثالث عشره وفي النيل ستة عشر ذراعا ؛ فركب العزيز في سادس عشر لتحليق المقياس ؛ وفتح الخليج في ثامن عشره ، وتظاهر الناس في هذه الأيام بالمنكرات من غير منكر . وفي ثالث عشره كان النوروز ، فجرى الرسم في أمه على العادة

(١) أحد مباني الفاطميين ، واسمه أيضاً منطرة الأواؤة ، وموقعه على الخليج بالقرب من القنطرة ، ويعرف من شرقيه على البستان الكافوري ، ويطل من غربيه على الخليج والبساتين إلى نهر النيل . ومع أن البستان البغدادى من هذه البساتين ، على سبيل الترجيح ، فإن القرينى لم يذكره في باب بساتين القاهرة (القرينى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ، ٢٨٧ ؛ ج ٢ ، ص ٤٢٧) .

وفي يوم السبت سابع عشر ذى القعدة قُتل ابن مرزوق بالقاهرة ، قتله ابن المنوفى قاضى بلبليس غيلة ، بدار سكنها بالمهادين^(١) ، وحفر له فيها ودفنه ، وعلوكا صغيرا معه ، وبلغت فوقه ، وجعل عليه شعيرا . فشنى ابن المنوفى ، بعد ما طيف به على جبل مصر والقاهرة .

وفي هذه السنة توجه العادل من دمشق إلى مدينة ماردين ، ونازلها وأخذ ربضها . وفيها خرج الملك الكامل محمد بن العادل من حران ، وقاتل عسكر الموصل . وفيها غار الفرنج ، ونهبوا وأسرُوا خلقا ، وانهوا إلى عكا . فعاد العادل إلى دمشق في رمضان ، ثم خرج بعد شهر إلى الشرق يريد ماردين . وفيها ادعى [معز^(٢) الدين إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين] ملك اليمن الإلهية نصف نهار ، وكتب كتابا وأرخه من مقر الإلهية . رجع عن ذلك ، وادعى الخلافة ، وزعم أنه من بنى أمية ، ودعا لنفسه في سائر مملكته بالخلافة ، وقطع الدعاء من الخطبة ابنى العباس ، وليس ثيابا خضرا وعمائم خضرا مذهبه . وأكره من كان في مملكته من [أهل] الزمة على الإسلام ، وخطب بنفسه ، وعزم (٣٩ ب) على قصد مكة ، وجوز من بنى له بها دارا ، فأسرم الشريف أبو عزيز قتادة .

* * *

[سنة خمس وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، والعادل مضائق مدينة ماردين ، والمعز صاحب اليمن قد تجهز يريد مكة ، والعزير صاحب مصر قد سار إلى الإسكندرية ، من آخر ذى الحجة . فتصيد [العزيز] إلى سابع المحرم ، وركض خلف ذئب فسقط عن فرسه ، ثم ركب وقد حم ، فدخل القاهرة يوم عاشوراء^(٣) فلم يزل لما

(١) يقع خط المهادين بالقاهرة فيما بين الحوانية والمناخ (كذا) . (المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٦) .

(٢) في س " وفيها ادعى المعز بن العزيز " . ويظهر أن المقرئى خلط في هذه التسمية ، فليس في ملوك اليمن ، حسب ما جاء في القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠) من تسمى بهذا الاسم ، ويرجع هذا الخلط إلى أن المعز هذا كان يسمى العزيز لإسماعيل . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 79, 98) . وتولى المعز هذا ملك اليمن بعد وفاة أبيه يزيد ، سنة ٥٩٣ هـ .

(٣) توجد في (Blochet : Op. cit. p. 249. N. 1) عدة روايات من مراجع مختلفة عن سبب موت العزيز .

به حتى مات ، منتصف ليلة السابع والعشرين منه ، ودفن بجوار قبر الشافعي ، رحمة الله عليه .
وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرها ، ومدة ملكه ست سنين تنقص شهرا وستة أيام .
وكان ملكا كريما ، عادلا رحيا ، حسن الأخلاق شجاعا ، سريع الانقياد مفرط السخاء .
سمع الحديث من السلفي ، وابن عوف ، وابن بري ، وحدث . وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة
وكان يعطي العشرة آلاف دينار ، ويعمل سمطا عظيما يجمع الناس لأكله ، فإذا جلسوا للأكل
كره منهم أكله ولا يطيب له ذلك ، وهذا من غرائب الأخلاق^(١) .

وفيها^(٢) عظمت الفتنة في عسكر غياث الدين محمد [بن بهاء الدين سام] ملك
النورية^(٣) ، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمران الرازي [الفقيه الشافعي المشهور] ،
كان قد بالغ غياث الدين في إكرامه ، وبنى له مدرسة بقرب جامع هراة ، ومعظم أهلها

(١) يوجد في (Blochet: Op. cit pp 250, N. 2) تحليل لطيف لتلك الناحية من خلق العزيز، وهو
أنه كان يكره بعثرة الأموال العامة في أغراض خاصة . (٢) بقية الأخبار الواردة هنا تحت هذه السنة
منقولة بتصرف طفيف عن ابن الأثير . (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٩ - ١٠١) أو عن مرجع
آخر مصدره ابن الأثير .

(٣) انظر ص ٨٠ ؛ تقع بلاد القور الحبلية بأفغانستان بين هراة وغزنة ، وعاصمتها فيروزكوه .
وكانت مملكة إسلامية، مستقلة بشؤونها منذ أوائل القرن الخامس الهجري ، ثم فتحها محمود الغزنوي سنة ٤١١ هـ ،
واستمرت تابعة للدولة الغزنوية ، وساهر ملوكها سلاطينهم حتى سنة ٥٣٦ هـ ، حين قضى الفز التركان على
الدولتين الغزنوية والنورية معا . ثم جاء غياث الدين بن سام المذكور ، فأسس ملكا جديدا على أنقاض
الدولتين ، من سنة ٥٦٩ هـ ، وعاونه في ذلك أخوه معز الدين . ومات غياث الدين سنة ٥٩٩ هـ ، فخلعه
معز الدين ، حتى قتل غيلة سنة ٦٠٢ هـ : ولم يطل عمر الدولة الغورية بعده ، بل دالت أجزاؤها للأمراء
والقواد ، حتى أزالها السلطان خوارزم شاه . (Lane-Pole: Muh. Dyns. pp. 176, 289-294)
وكذلك (Enc. Isl. Art. Ghorids) .

(٤) الكرامية إحدى الفرق الدينية في الإسلام . ويذكر القريري (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ،
ص ٣٤٩) في باب ذكر الفرق ، عنها ما نصه : « الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستان ، وهم طوائف:
المهيسية والإسحاقية والجندية ، وغير ذلك . إلا أنهم يعدون فرقة واحدة ، لأن بعضهم لا يكفر بعضا .
وكلهم مجسمة ، إلا أن فيهم من قال هو (الله) قائم بربه ، ومنهم من قال هو أجرا مؤتلفة ، وله جهات
ونهايات . ومن قول الكرامية إن الإيمان هو قول مفرد ، وهو قول لا إله إلا الله ، وسواء اعتقدوا أو لا .
وزعموا أن الله جسم ، وله حد ونهاية ، من جهة السفلى ، وتجاوز عليه ملافاة الأجسام التي تحته . وأنه على
العرش ، والعرش ماس له . وأنه محل الحوادث ، من القول والإرادة ، والإدراكات والمرئيات
والمسوعات . وأن الله لو علم أحدا من عباده لا يؤمن به ، لكان خلقه لإيائهم عبدا . وأنه يجوز أن
يعزل نبيا من الأنبياء والرسل ، ويجوز عندئذ على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حدا ، ولا يسقط عدالة .
وأنه يجب على الله تعالى تواتر الرسل ، وأنه يجوز أن يكون إمامان في وقت واحد . وأن علما =

كرامية فأجمعوا على مناظرته ، وتجمعوا عند غياث الدين معه ، وكبيرهم القاضي [مجد^(١) الدين] عبد المجيد بن عمر بن القدوة . فتكلم الإمام فخر الدين مع ابن القدوة ، واستطال عليه وبالغ في شتمه ، وهو لا يزيد على أن يقول : " لا يفعل مولانا إلا أخذك^(٢) الله ! [استغفر الله^(٣)] " فغضب الملك ضياء الدين^(٤) له ، ونسب الإمام [الرازي] إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة . وقام من الغد ابن عمر بن القدوة بالجامع ، وقال في خطبته : " ربنا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول ، فاكبتنا^(٥) مع الشاهدين . أيها الناس ! إنا لا نقول إلا ما صحَّ عندنا عن رسول الله ، وأما علم أرسطو ، وكفریات ابن سينا ، وفلسفة الفارابی ، فلا نعلمها . فلائى حال يُشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام ، يذب عن دين الله وسنة نبيه ؟ وبكى وأبكى ، فنفار الناس من كل جانب ، وامتلات البلد فتنة . فسكتهم السلطان غياث الدين ، وتقدم إلى الإمام فخر الدين بالعود إلى هراة ، فخرج إليها . ثم فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية ، وتقلد الشافعى رحمه الله .

السلطان الملك المنصور ناصر الدين

محمد بن الملك العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وُلد بالقاهرة في^(٥) جمادى الأولى ، سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، ومات أبوه

== ومعاوية كانا إمامين في وقت واحد ، إلا أن علياً كان على السنة ، ومعاوية على خلافها . وانفرد ابن كرام في الفقه بأشياء ، منها أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان . وأجار الصلاة في ثوب مستغرق في النجاسة . وزعم أن الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وأوسائر العبادات ، تصح بغير نية ، وتكفي نية الإسلام ، وأن الية تحب في التوابع . وأنه يجوز الخروج من الصلاة بالأكل والشرب والجماع عمداً ، ثم البناء عليها . وزعم بعض الكرامية أن الله علمين ، أحدهما يعلم به جميع العلوم ، والآخر يعلم به العلم الأول . انظر أيضاً (الشهرستاني : الملل والنحل ص ٧٩ — ٨٥ ؛ والمعاني : كتاب الأنساب ، ص ٤٧٧) . (١) أضيف ما بين القوسين ، وكذلك بقية الإضافات في هذه الفقرة ، من ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٩) .

(٢) في س لا وأخذك ، وفي ابن الأثير (نفس المرحم والجزء والصفحة) الا وأخذك .

(٣) ابن عم الملك غياث الدين وزوج ابنته ، وكان أشد الناس كراهة لفخر الرازي . انظر نفس المرحم .

(٤) يعض حروف هذا اللفظ ضائم في س . (٥) يياض في س .

وعمره تسع سنين وأشهر . وقد أوصى له أبوه بالملك من بعده ، وأن يكون مدبر أسره الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي . فأجلس على سرير الملك في غد وفاة أبيه ، يوم الإثنين حادى عشر الحرم ، وجعل قراقوش أتابكاً^(١) . وحلف له الأسراء كلهم ، ما خلا عماء الملك المؤيد نجم الدين مسعود والملك المعز ؛ فإنهما أرادا أن تكون الأتابكية لهما ، وجرت منهما منازعة ، ثم حلفا . ووقع الخلف بين أسراء الدولة ، فطعن عدة منهم في قراقوش ، بأنه مضطرب الرأى ضيق العطن ، ولا يصلح لهذا الأمر . وتغصب جماعة معه ، ورأوا أنه أطوع من غيره . وكثر النزاع في ذلك ، وصاروا إلى القاضي الفاضل ، ليأخذوا رأيه ؛ فامتنع من المشورة عليهم ، فتركوه . وأقاموا ثلاثة أيام بمحسون الرأى ، حتى استقرت على مكانة الملك الأفضل ليحضر أتابكاً عوض قراقوش ، بشرط ألا يرفع فوق رأسه السنجق ، ولا يذكر له اسم في خطبة (١٤٠) ولا سكة ، وأن يدر أمر الملك المنصور مدة سبع سنين فإذا تم هذا الأجل سلم إليه الأمر والتدبير ، وسيروا إليه القصاد بذلك . وأقيم الملك الظاهر مظفر الدين خضر بن السلطان صلاح الدين مباشر نيابة السلطنة ، حتى يقدم الأفضل . فخرج الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر ، في تسعة عشرة^(٢) نفساً ، متنكراً ، خوفاً من العادل .

وكان الأمير فخر الدين جهار كس — لما قرّر أسراء الأفضل ، وكتبوا إليه بالحضور — كره ذلك ، وكتب إلى الأمير فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس ، ينهاء عن الموافقة على إقامة الأفضل . فوق الأفضل على القاصد ، وأخذ منه الكتاب ، وعلم مافيه ، وقال له :

(١) في س أتابك بغير ضبط . ويتألف هذا اللقب من لفظين تركيين ، وهما أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير . وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) كانوا يطلقون لفظ أتابك على كبير من أمراءهم ، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير فامر صغير . وكثيراً ما تزوج الأتابك من أم الموصى به ، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية ثم أطلق هذا اللقب ، في أيام المماليك بمصر ، على مقدم الساكر أو القائد العام ، على اعتبار أنه أبو الساكر والأسراء جميعاً ، وكان يسمى أتابك الساكر . انظر (Gibb : Damascus Chronicle. pp. ٥٣ - ٥٤) ، وكذلك (G. - Demombynes : Op. cit. Pref. pp. XXVII, LVI.) ؟ والغلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨ ، وابن تينى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ (Glossary) ؟ وأيضاً (Enc. Isl. Art. Ata) .

(٢) في س تسعة عشر .

”ارجع فقد قضيت الحاجة“ . وسار الأفضل ، ومعه ذلك القاصد ، حتى وصل بلبس ، وقد خرج الأمراء إلى لقائه ، في خامس شهر ربيع الآخر . فنزل في خيمة أخيه الملك المؤيد [مسعود] . وكان غر الدين جهاركس يؤمل أنه ينزل في خيمته ، فشق ذلك عليه من فعل الأفضل ، ولم يجد بداً من الحياء إلى عنده ، فأكرمه الأفضل . ثم لما فرغ [الأفضل] من طعام أخيه ، صار إلى خيمة غر الدين وأكل طعامه ، فحانت من غر الدين التفاتة ، فرأى القاصد الذي بعثه إلى نابلس ، فدهش وخاف من الأفضل ، وأخذ يستأذنه في التوجه إلى العرب الخالفين ليصلح أمرهم ، فأذن له . وللحال قام [غر الدين] واجتمع بزين الدين قراجا وأسد الدين سراسنقر ، وسار بهما مجداً إلى القدس ، فإذا بشجاع الدين طغرل السلاح دار سائر إلى مصر . فالتفتوه عن الأفضل ، وساروا به إلى القدس ، فاتفق معهم الأمير صارم الدين صالح نائب القدس ، ووافقهم أيضاً الأمير عز الدين أسامة^(١) وميمون القصرى ، وقدما إلى القدس ، ومع ميمون سبعائة فارس منتخبة . وكتبوا الملك العادل ، يستدعونه لأتابكة الملك المنصور .

وأما الأفضل فإنه سار من بلبس إلى القاهرة ، فخرج المنصور وتلقاه ، في سابع ربيع الآخر ، وكانت مدته شهرين و...^(٢) وتحكم الأفضل^(٣) . ولما استقرا بالقاهرة كتب الأفضل إلى عمه الملك العادل ، يخبره بوصوله إلى مصر ، حفظاً لدولة ابن أخيه ، وأنه لا يخرج عما يأمره به . فورد جوابه بأن العزيز إن كان مات عن وصية فلا يُمدل عنها ، وإن كان مات عن غير وصية ، فيكتب الأعيان خطوطهم لك بذلك ، حتى ترى رأى . فاستولى الأفضل على أمر مصر كله ، (٤٠ ب) ولم يبق للمنصور غير مجرد الاسم فقط . وعزم [الأفضل] على قبض من بقي من الأمراء الصلاحية [بمصر] ، ففرّ منهم جماعة ، ولحقوا بفخر الدين جهاركس بالقدس . وقبض الأفضل على جماعة منهم الأمير علاء الدين شقير ، والأمير

(١) في س سامه .

(٢) ياض في س .

(٣) النصف الثانى من هذا الاسم محبوب بورقة ملصقة في س ، ولكنه في ب (٨ ب) .

عز الدين البكي الفارس ، والأمير عز الدين أبيك فطيس ، وخطبها ؛ ونهب أموالهم . ثم برز إلى بركة الجب ، فأقام أربعة أشهر ، وحلف بها الأمراء والأجناد . فبلغه عن أخيه الملك المؤيد [مسعود] أنه يريد الوثوب عليه ، فقبضه وسجنه .

و بعث الملك الظاهري [غازي صاحب حلب] إلى أخيه الأفضل يحمته على سرعة^(١) القدوم من مصر إلى دمشق ، واغتنام الفرصة في أسرهما ، [والملك العادل غائب عنها في^(٢) حصار ماردين] . فقبض الصلاحية [بالشام ؟] على القاصد ، وأهانوه ثم أطلقوه ؛ فسار إلى الأفضل ، وبلغه رسالة أخيه الظاهر . فرحل [الأفضل] من بركة الجب ثالث شهر رجب ، ومعه الملك المنصور ، فأقام بالعباسة^(٣) خمسة أيام . واستخلف على القاهرة [سيف الدين] يازكج^(٤) [الأسد] ، ثم سار إلى دمشق ، فنزل عليها في ثالث عشر شعبان . وقد بلغ العادل خروجه من مصر ، وهو على حصار ماردين ، فرتب ابنه الكامل محمداً^(٥) على حصارها ، وسار في مائتي فارس إلى دمشق فقدمها في ثمانية أنفس ، لكثرة ما أسرع في السير ، قبل منازلة الأفضل لها [بيومين]^(٦) ، وتلاحق به أصحابه . وقدم الأفضل فنزل الشرفين^(٧) والميدان الأخضر ، وهجم بعض أصحابه [على] البلد وأحرقوا ، وصاحوا : ” يا أفضل يا منصور ! “ . فصاحت العامة معهم بذلك ، ليلهم إلى الأفضل . فبرز إليهم

(١) أرسل أسد الدين شيركوه ابن عم الأفضل إلى مصر رسلا تحت الأوصال أيضاً على الإسراع إلى دمشق . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٤) .

(٢) انظر نفس المرجع والجزء ، ص ٩٣ — ٩٤

(٣) قرية بين بليس والصلحية ، وهي (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٥٩ — ٦٠٠) أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، وسميت باسم العباسة بنت أحمد بن طولون ، فإنها خرجت إلى هذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى ، بنت خوارويه بن أحمد بن طولون ، لما حلت إلى الخليفة المعتضد العباسي ، وضرت هناك فساطبطها ؛ ثم بنيت هناك قرية ، فسميت باسمها . راجع المقرئ : (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ؛ P. Omar Taussoun. Op. cit. 1. 1. P. 58 ؛ و Blochet) Op. cit. P. 254. N I.

(٤) في س يازكوح ، وقد تقدم ذكره أكثر من مرة .

(٥) في س محمد . (٦) راجع ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٤) .

(٧) كذا في س وغير ضبط . انظر ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ ، حيث ورد في وفاة صاحب الوزير أبي علي المزدقاني ، أن من أعماله بناء المسجد على الشرف شمال دمشق ، ويسمى مسجد الوزير .

العاذل ، وأخرجهم من البلد ، وامتنع بها . ففر من أمراء الأفضل عدّة ، فتأخّر حينئذ عن دمشق إلى نحو الكسوة . فدى العاذل إلى جماعة ممن فى صحبة الأفضل [بكلام منه] : ” إنى أريد الرجوع إلى الشرق ، وأترك الشام ومصر لأولاد أخى “ ، ففتروا^(١) الأفضل عن الحرب . وبذل [العاذل] لهم مالا ، فشئ ذلك من مكروه عليهم . وخذلوا الأفضل ، بأن أشاروا عليه بترك القتال حتى يقدم [أخوه] الظاهر من حلب . فأمسك [الأفضل] عن الحرب مدّة ، والعاذل يكاتب الأمراء ويستميلهم شيئا بعد شيء ، وهم يأتونه فيبذل لهم المال ، ويوسع عليهم ، إلى أن قدم الظاهر من حلب فى آخر شعبان . فقوى به الأفضل ، ورحلا إلى مسجد القدم^(٢) ، وحاربا العاذل وحاصراه ، حتى غلت الأقوات بدمشق لشدة الحصار . فقدمت الصلاحية من القدس نصرة للعاذل ، فاشتد عضد العاذل بقدمهم ، (١١ ، ١٢) وجهز إلى القدس من يمنع الميرة الواصلة من مصر إلى الأفضل ، فوجدوا يازكج^(٣) قد أخرج سبعمائة من عسكر مصر نجدة للأفضل ، فقاتلهم وكسروهم وغنموا ما معهم . وصارت أهل دمشق فى جهد من الغلاء ، واحتاج العاذل إلى القرض ، فأخذ مالا من التجار . وقوى الزحف على البلد حتى أشرف على الأخذ ، وهم العاذل بالتسليم ، فاتفق وقوع الخلف بين الظاهر وبين أخيه الأفضل .

[سنة ست وتسعين وخمسمائة] . وأهلت سنة ست وتسعين ، والأخوان على حصار عمهما العاذل بدمشق ، وقد خربت البساتين والدور ، وقطعت الأنهار ، وأحرقت الغلال ، وقتل الأقوات . وعزم العاذل على تسليم دمشق ، لكثرة من فارقه وخرج عنه إلى الأفضل ، فكتب إلى ابنه الكامل يستدعيه ، وكتب إلى نائب قلعة جسر أن يسلمه ما يستدعيه من المال ، وكانت أموال العاذل بها . فسار إليه الكامل فى العسكر الذى معه ، وأخذ

(١) فى س قدوا .

(٢) مسجد بدمشق وبه دفن صلاح الدين . (أبوشامة : كتاب الروستين ، ص ٩٥ — ٩٦ ،

١٢٣ ، فى . (Rec. Hist. Or. V.)

(٣) فى س ايازكوج .

من قلعة جعبر أر بحماية ألف دينار ، وقدم على أبيه فقوى بقدمه قوة عظيمة ، ووقع الوهن في عسكرا الأفضل والظاهر ، لكثرة من خاسر منهم . ودرس العادل مكيدة بين الأخوين ، وهي أن الظاهر كان له مملوك يقال له أَيْبَك^(١) ، وقد شغفه حباً ، ففقدته وظن أنه دخل دمشق فَمَلَقَ . وبلغ ذلك العادل ، فبعث إليه [بكلام فيه] : ”أن محمود بن الشُّكْرِي^(٢) أفسد مملوكك ، وحمله إلى الأفضل“ . فقبض [الظاهر] حينئذ على ابن الشكري ، وظهر المملوك عنده ، فاشك في صدق ما قاله عمه ، ونفر من أخيه وامتنع من لقائه . وكان البرد قد اشتد ، فرحلا إلى الكسوة ، وسارا إلى مرج الصفر ، ثم سارا إلى رأس الماء . فغاث الأسعار ، وقوى البرد ، فرحل الظاهر على القريتين . ورحل الأفضل [بعساكره] يريد مصر ، وتركوا من أتعالمهم ما يجزوا عن حملته فأحرقوه ، وهلك لهم عدة ممالك ودواب . ودخل الأفضل إلى بلبيس في خامس عشر (شهر ربيع الأول ، فأشير عليه بالإقامة بها .

وورد الخبر بأن العادل خرج من دمشق ، ونزل تل العجول ، وأنه كتب الإقامات^(٣) للعربان ، واستدعى الكنانية . فجمع الأفضل الأمراء ، وركب ودار على سور بلبيس ، وأمر قراقوش (١٤ ب) بحفظ قلعة الجبل ، وأن يهتم بحفر ما بقي من سور مصر والقاهرة ، وأنه يعمق الحفر حتى يصل إلى الصخر ، ويحمل التراب داخل المدينة على حافة الحفر ، ليكون مثل الباشورة^(٤) ، ويستعمل الأبقار فيه ويعمل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس ، حتى لا يبقى إلى البلد طريق من أبوابها .

(١) في س ابيك بغير ضبط .

(٢) في س السكري بغير ضبط . (انظر أبا الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ص ٧٦ ، في (Rec. Hist. Or. I.)

(٣) جمع إقامة ، وهو مايلزم الصاكر من المؤونة والطف . انظر (Quatréme : Maml. I. 1. : P.) حيث توجد أمثلة عدة لاستعمال هذا اللفظ ، وأوضحها ”وخرجت الإقامات من الشعر والدقيق“ . (أيضا (Dozy. Supp. Dict. Ar.) .

(٤) الباشورة هنا سد من التراب ، تمت وصول الحبال والرحالة والسهام إلى مواضع المحارير ، جمع على بواشير ، ويقابلها في الفرنسية كلمة (Bastion) أو (Quérite) . راجع أيضا (Dasy : Supp. Dict. Ar.) .

وفي ثاني ربيع الآخر نزل العادل قَطِيَّة^(١) . فهم الأفضل بتحريق بلبس . ففترت القلوب منه ، وقطع أرزاق المرتزقة من جانب السلطان ، ومن الأقباس على مكة والمدينة والفقهاء وأرباب العمام ، لِيُغْلَقَ الذي للجند . فساد للأخوذ ، ولا انقطع الطلب من الأجناد ، وثار الضجيج من المساكين . ووصل العادل فواقعه الأفضل ، فانكسر منه وانهزم . فتبعه هم العادل إلى بركة الجب ، فخيم بها وأقام ثمانية أيام . ولحق الأفضل بالقاهرة ، فدخلها يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر^(٢) ، بخامس جماعة عليه ، وصاروا إلى العادل . وألجأت الضرورة الأفضل إلى مراسلة العادل ، فطلب [منه أن يعرضه عن ديار مصر بدمشق ، فامتنع [العادل] ، وقال : "لا تحوجني أن أخرق ناموس القاهرة ، وأخذها بالسيف . اذهب إلى مصر خذ ، وأنت آمن على نفسك" . فلم يجد [الأفضل] بدا من التسليم ، لتخاذل أصحابه عنه . فسلم العادل القاهرة ، ودخلها يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ، وخرج منها الأفضل منهزماً في ذلك اليوم . وكان الوزير ضياء الدين بن الأثير قد قدم إلى مصر ، وتمكن من الأفضل ؛ فلما تسلم العادل القاهرة فر ولحق بمصر خذ . وكانت مدة استيلاء الأفضل على ديار مصر سنة واحدة وثمانية وثلاثين يوماً ، وخرج إلى بلاد الشرق فأقام بِسْمِيسَاط^(٣) . وكان مدة إقامته بالقاهرة لا يقدر أن يخلو بنفسه في ليل ولا نهار ، وكان الأمراء قد حجبوا عليه أن يخلو بأحد ، وكانت الضرورة ملجئة إلى موافقتهم .

وأقام العادل بالقاهرة على أتابكية الملك المنصور ، وحلف له الأمراء على مساعدته ، ليقوم بأتابكية المنصور إلى أن يتأهل للاستقلال بالقيام بأمر الملكة ، فلم يستمر ذلك^(٤)

(١) في س قطيا بنير ضبط ، وهي قرية في طريق مصر إلى الشام ، في وسط الرمل ، قرب الرما . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٤) .

(٢) في تلك الليلة توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيهقي . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٠٢) .

(٣) بنير ضبط في س ، وهي مدينة في طرف بلاد الروم ، على الشاطئ الغربي للفرات . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٥١ . أنظر أيضاً (Blochet : Op. cit. P. 260. N. I.)

(٤) يباس في س ، يشغل سطرين تقريباً وبه آثار كتابة ممحوة .

فانتفض الأمر في الحادى والعشرين من شوال ، وذلك أن الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم : " إنه قبيح بى أن أكون أنا بك صبي ، مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب . وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر (١٤٢) صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى ، ورعاية لحقه . فلما كان من الاختلاف ما قد علمت ، خفت أن يخرج الملك عن يدي ويد أولاد أخى . فست الأمر إلى آخره ، فسرأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه . فلما ملكت هذه البلاد ، وطئت نفسى على أنا بكية هذا الصبي ، حتى يبلغ أشده . فرأيت العصبيات باقية ، والفتن غير زائلة ، فلم آمن أن يطرأ على ما طرأ على الملك الأفضل ، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة إنسان آخر ، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبي إلى الكُتَّاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه . فإذا تأهل وبلغ أشده نظرتُ في أمره ، وقت بمصالحه " . هذا والأسدية كلهم مع العادل على هذا الرأى ، فلم يجد من عدام بدأ من موافقته ، فحلفوا له ، وخلعوا المنصور في يوم الخميس . وخطب للعادل من العيد يوم الجمعة حادى عشرى شوال ، فكانت سلطنة المنصور سنة واحدة وثمانية أشهر وعشرين يوما .

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب

ولما حلف له الأمراء استولى على سلطنة مصر ، في حادى عشرى شوال ، وخطب له بديار مصر وأرض الشام وحران والرها وميفارقين ، واستحلف الناس بهذه البلاد ، وضربت السكة باسمه . واستدعى [العادل] ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمد^(١) ، فحضر إلى القاهرة في يوم [الخميس^(٢)] لثمان بقين من رمضان ، ونصبه نائباً عنه بديار مصر ، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه ، كما كانت إقطاعا للعادل في أيام السلطان صلاح الدين ، وجعله وليّ عهده ، وحلف له الأمراء .

(١) في س محمد .

(٢) يأس في س . ويقع أول رمضان سنة ٥٩٦ هـ يوم الخميس ١٥ يونيو سنة ١٢٠٠ م ، ويوافق الثانى والعشرين منه الخميس أيضاً . (Wüstenfeld-Mahler'sche : Tabellen)

وفيه أقيمت الخطبة للعادل بحماة وحلب ، وضربت السكة باسمه . وفيها توقفت زيادة النيل ، فلم يجر إلا ثلاثة عشر ذراعاً تنقص^(١) ثلاثة أصابع . وشرق معظم أرض مصر ، فارتفعت الأسفار . وفيها استناب العادل بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، واستناب ببلاد الشرق ابنه الملك الفائز ، وأقر بحلب ابن أخيه الملك الظاهر [غازي بن صلاح الدين] ، وبحماة الملك المنصور [بن تقي الدين عمر^(٢)] .

وفيه أخرج الملك العادل ابن ابن أخيه الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن صلاح الدين من مصر ، ومعه إخوته وأخواته [ووالديه^(٣)] ، فساروا إلى الشام . ثم سيرهم إلى الرها ، فهربوا منها إلى حلب ، وبقي الملك^(٤) المنصور بمدينة الرها^(٥) ، حتى مات سنة عشرين وستمائة ، وكان [قد أصبح] أميراً عند الظاهر صاحب حلب .

ومات في هذه السنة إبراهيم بن منصور بن السلم أبو إسحاق المعروف بالعراق ، خطيب الجامع العتيق بمصر ، في حادي عشرى جمادى الأولى ، عن ست (٢٤ ب) وثمانين سنة . و[مات] القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي ، المستقلاني مولداً ، البيهقي^(٦) ، أبو علي محيي الدين ،

(١) في س إلا .

(٢) راجع أبا الفداء (المختصر في تاريخ البشر ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ و . Rec. Hist. Or. I.) نفس المرجع ، ص ٨١ . (٣) معظم هذا اللفظ مطبوس بيقعة من المداد في س . (٤) (٥) يقول أبو الفداء (المختصر في تاريخ البشر ، ص ٨١ ، في Rec. Hist. Or. I.) إن المنصور هذا " أقام بحلب عند عمه الطاهر " . (٦) كان والد القاضي الفاضل يتقلد القضاء بمدينة بسان ، فلهمذا نسبوا إليها . (المفريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٦٦) . هذا وبغض المرجع والجزء والصفحة ترجمة طيبة للقاضي الفاضل منها : " قال ابن خلكان : وزر [القاضي الفاضل] للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتمكن منه غاية التمكن . وبرز في صناعة الإنشاء ، وفاق المتقدمين ، (ص ٣٦٧) وله فيه الغرائب مع الإكثار . أخرني أحد المضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره ، أن مسودات رسائله — في المجلدات والتعليقات في الأوراق — إذا عمت ما تقصر عن مائة ، وهو مجيد في أكثرها . وقال عبد اللطيف البغدادي : دخلنا عليه فرأيت شيئاً ضئيلاً ، كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، وجهه وشفتاه تلمع ألوان الحركات ، لقوة حرصه في إخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعصائه . وكان له غرام في الكتابة وتحصيل الكتب ، وكان له الدين والمغاف والنقي ، والمواظبة على أوارد الليل ، والصيام وقراءة القرآن . وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ، دائم التهجد ، وبشتغل بعلوم الأدب وتفسير القرآن . غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدراية توجب له قلة اللحن . وكان لا يكاد يضيع من زمانه شيئاً إلا في طاعة ، وكذب في إنشاء ما لم يكتبه غيره " راجع أيضاً (Enc. Isl. Art. Al-Kadī al-Fādīl) .

في سابع ربيع^(١) الآخر . و [مات] الأثير ذو الرياستين أبو الطاهر محمد بن ذى الرياستين
أبي الفضل محمد بن محمد بن بنان الأنباري^(٢) في ليلة الثالث من ربيع الآخر ، ومولده بالقاهرة
سنة سبع وخمسة .

وفي هذه السنة ولد بالقاهرة مولود له جسد واحد ، ورأس فيه وجهان ، في كل وجه
عينان ، وأذنان وأنف وحاجب . وولد أيضا بها مولود له غرة كغرة القرس ، ويداه
ورجلاه محجلتان ، وأليته ملعة . وولد بها أيضا مولود أشيب الرأس ؛ ونعجة لها أربع
أيادي ، وأربع أرجل^(٣) . ووُجد في بطن نعجة ذبحت خروفاً ، صدره ووجهه صورة
إنسان ، وله أظافر آدمي .

سنة سبع وتسعين^(٤) وخمسة . فيها قبض الملك العادل على أولاد أخيه
[صلاح الدين^(٥) ، واما الملك] المؤيد مسعود و[الملك] المعز إسحاق ، وسجنهما في دار بهاء الدين
قراقوش بالقاهرة . [و] تسلم الأمير فخر الدين جها ركس بانياس من الأمير حسام الدين
بشارة ، بعد حصار وقتال . وفيها حدثت الوحشة بين الملك العادل وبين الصلاحية ، من
أجل أنه خلع المنصور بن العزيز . وكتب الأمير فارس الدين ميمون القصرى من نابلس
إلى العادل بإنكار خلع المنصور ، فأجابه العادل جوابا خشنا ، وتكررت المكاتبة بينهما
غير مرة . فكتب ميمون إلى الصلاحية يفرهم بالعادل ، فلم يجد فيهم نهضة للقيام .
وفي أثناء ذلك حدثت وحشة بين الظاهر صاحب حلب وبين عمه العادل ، وسير
إليه وزيره علم الدين قيصر ونظام الدين^(٦) ، فنههما العادل أن يعبرا إلى القاهرة ، و[أمرهما]

(١) اعتبر (Blochet : Op. cit. p. 264) هذا تاريخ مولده ببساي ، والمقرر أنه ولد بعسقلان في
١٥ جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ (٣ أبريل سنة ١١٣٥ م) ، انظر المرجعين المذكورين بالهامشية السابقة .
(٢) انظر ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ، ص ٨٥ ، ٨٩ ، في (Rec. Hist. Or. II.) .
(٣) في س أربعة أيادي وأربعة أرجل . (٤) وقع خطأ في عنوان هذه السنة في ترجمة
(Blochet : Op. cit. p. 265) حيث كتب سنة ست وتسعين وخمسة ، والصواب ما هنا . (انظر
أبا شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٦ ، في (Rec. Hist. Or. V.) . وقد جرّ هذا إلى اضطراب ترتيب
المواد في هذه الترجمة حتى أول سنة ٥٩٨ هـ . أما عن منشأ هذا الخطأ فانظر ص ١٥٧ حاشية ٣ .
(٥) انظر أبا شامة (نفس المرجع والجزء والصفحة المذكورة بالهامشية السابقة) .
(٦) لم يصر ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٠٦) إلى ذلك الرسول الثاني ،
وكل ما ورد به أن "الظاهر أرسل أميراً كبيراً من أمرائه إلى عمه العادل ... " .

أن يقيا بلبليس ، ويُحملاً قاضى بلبليس ما معهما من الرسالة . فعادا مغضبين ، واجتمعا بميمون القصرى فى نابلس ، وما زالوا به حتى مال إلى الأفضل وإلى أخيه الظاهر . فلما وصلا إلى حلب شق على الظاهر ما كان من عمه ، وكاتب الصلاحية ورغبهم ، وكاتب ميمون القصرى . وشرع الأفضل أيضاً فى مكائبتهم وهو بصرخد ، وانضوى إلى الأفضل الأمير عز الدين أسامة^(١) ، صاحب مجلون وكوكب ، وحلف له . فبلغ ذلك العادل فتتقظ لنفسه ، وكتب إلى ابنه المعظم صاحب دمشق بمحاصرة الأفضل فى صرخد ، فجمع وخرج من دمشق . فاستخلف الأفضل على صرخد أخاه الملك الظافر خضر ، وسار إلى أخيه الظاهر بحلب فى عاشر جمادى الأولى فنزل المعظم على بصرى ، وكاتب فخر الدين جهاركس وميمون القصرى ، يأمرها بالمسير إليه لحصار صرخد . فلم يجيبا ، وجعا من يوافقهما ، وصارا إلى الظافر بصرخد . وكتبوا إلى الظاهر بحلب يحثونه^(٢) على الحركة وأخذ دمشق ، فوافته الكتب وعنده الأفضل ، فجمع الناس وعزم على المسير . ثم سار [الظاهر] ، فلم يوافقه المنصور صاحب حماة ، فحاصره مدة ، ثم رحل عنه بغير (١٤٣) طائل ، فنازل دمشق ومعه الأفضل ، وأتته الصلاحية [هناك]^(٣) .

فخرج العادل من القاهرة بمساكره ، واستخلف على القاهرة ابنه الملك الكامل محمد^(٤) ، وسار حتى نازل نابلس . وقدم [العادل] طائفة من العسكر ، فساروا إلى دمشق ، واستولوا عليها ، قبل نزول الأفضل والظاهر عليها . فقدموا بعد ذلك ، وضايقا دمشق ، فى رابع عشر ذى القعدة ، واشتد القتال حتى كادا يأخذان البلد . فوقع بينهما الاختلاف ، بمكيدة دبرها العادل ، ففترت الهمة عن القتال . وذلك أن العادل كتب إلى [كل من] الأفضل وإلى الظاهر سرّاً ، بأن : "أخاك لا يريد دمشق إلا لنفسه ، وقد اتفق معه العسكر فى الباطن على

(١) فى س ساهم .

(٢) فى س بحثوه . (٣) راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ١٠٥ —

(١٠٧) ، لتتبع هذه الحوادث بتفصيل . والراجع أن المقرئى اقتبس الوارد هنا باختصار من ابن الأثير أو من مصدر آخر مرجعه ابن الأثير . (٤) فى س عمد .

ذلك". فاتفعا لهذا الخبر ، وطلب كل منهما من الآخر أن تكون دمشق له فامتنع . فبعث العادل في السر إلى الأفضل بعده بالبلاد التي عينت له بالشرق ، وهي رأس عين ، والخابور ، وميافارقين ، وغير ذلك . وبذل له مع ذلك مالا من مصر في كل سنة ، بمبلغ خمسين ألف دينار . فالتخذه [الأفضل] وقال للأسراء الصلاحية ومن قدم إليه من الأجناد : "إن كنتم جئتم إلى فقد أذنت لكم في العود إلى الملك العادل ، وإن كنتم جئتم إلى أخي فأنتم به أخبر". وكانوا يحبون الأفضل من أجل أنه ابن الريكة ، فقالوا كلهم : "لا نريد سواك ، والعادل أحب إلينا من أخيك". فأذن لهم في العود إلى العادل ، فسار إليه الأمير نحر الدين جهار كس ، والأمير زيد الدين قراجا ، وعلاء الدين شقير ، والحجاف ، وسعد الدين بن علم الدين قيصر . فوقع الوهن والتقصير في القتال ، بعد ما كانوا قد أشفوا على أخذ دمشق .

وانقضت هذه السنة والأفضل والظاهر على منازلة دمشق . وفيها تعذرت الأقوات بديار مصر ، وتزايدت الأسعار ، وعظم الغلاء حتى أكل الناس الميتات ، وأكل بعضهم بعضا ، وتبع ذلك فناء عظيم . وابتدأ الغلاء من أول العام ، فبلغ كل أردب قح خمسة دنانير . وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية ، لا يمد النيل فيها إلا مدا يسيرا ، حتى عذمت الأقوات . وخرج من مصر عالم كبير بأهاليهم وأولادهم إلى الشام ، فاتوا في الطرقات جوعا . وشنع الموت في الأغنياء والفقراء ، فبلغ من كفته العادل من الأموات — في مدة يسيرة — نحو من مائتي ألف إنسان ، وعشرين ألف إنسان . وأكلت الكلاب بأسرها ، وأكل (٣ ، ٤) من الأطفال خلق كثير ، فكان الصغير يشويه أجواه وبأكلانه بعد موته ، وصار هذا الفعل أكثرته بحيث لا ينكر ثم صار الناس يمتال بعضهم على بعض ، ويؤخذ^(١) من قدر عليه فيؤكل ، وإذا غلب القوى ضعيفا ذبحه وأكله . وفقد كثير الأطباء ، أكثر من كان يستدعيهم إلى المرضى ، فإذا صار الطبيب إلى داره ذبحه وأكله . واتفق أن شخصا استدعى طبيا ، فخافه الطبيب وسار معه على تخوف . فصار ذلك الشخص يكثر في طريقه من ذكر الله تعالى ، ولا يكاد يمر بفقرير

(١) في س ويأخذ .

إلا ويتصدق عليه ، حتى وصلا إلى الدار ، فإذا هي خربة . فارتاب الطبيب بما رأى ، وبينما هو يريد الدخول إليها إذ خرج رجل من الخربة ، وقال للشخص الذى قد أحضر الطبيب : ” مع هذا البطء جئت لنا بصيد واحد ؟ “ فارتاع الطبيب ، وفر^(١) على وجهه هاربا . فلولا عناية الله به ، وسرعة عدوه ، لقبض عليه^(٢) .

وخلت مدينة القاهرة ومصر من أكثر أهلها ، وصار من يموت لا يجد من يواريه ، فيصير عدة أشهر حتى يؤكل أو يبلى^(٣) . واتفق أن النيل توقف عن الزيادة فى سنة ست وتسعين ، فخاف الناس ، وقدم إلى القاهرة ومصر من أهل القرى خلق كثير . فلما حلت الشمس برج الحمل تحرك هواء أعقبه وباء وكثر الجوع ، وعدم القوت ، حتى أكلت صفار بنى آدم : فكان الأب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا ، وكذلك الأم . وظفر الحكام منهم بجماعة ، فعاقبهم حتى أعيام ذلك . وفشا الأمر : فكانت المرأة توجد وقد خبأت فى عباها كتف الصغير أو فخذ ، وكذلك الرجل . وكان بعضهم يدخل بيت جاره فيجد القدر على النار ، فينظرها حتى تنزل لياكل منها ، فإذا فيها لحم الأطفال ؛ وأكثر ما كان يوجد ذلك فى أكابر البيوت . ويوجد النساء والرجال فى الأسواق والطرقات ، [و] معهم لحوم الأطفال . وأحرق فى أقل من شهرين ثلاثون امرأة ، وجد معهن لحوم الأطفال . ثم فشا ذلك حتى اتخذ الناس غذاء وعشاء وأنفوس ، وقلّ متعهم منه ، فإنهم لم يجدوا شيئا من القوت ، لا الحبوب ولا الخضروات .

فلما كان قبل أيام زيادة النيل — فى سنة ست وتسعين [هذه] — احترق الماء فى برمودة ، حتى صار فيما بين المقياس والجيزة بغير ماء ، وتغير طعم الماء وريحه . وكان

(١) فى س وصر .

(٢) فى س وإلا قبض عليه .

(٣) الموضع التاسع للمبارة التالية إلى سطر ١٨ ، س ١٥٨ — وقد وردت فى س على ورقة مفصلة بين الصفحتين ٤٣ ب ، ١٤٤ — هو تحت سنة ست وتسعين وخمسة . غير أن المؤلف أشار بعلامة عند لفظ ” يبلى “ ، وكتب ” واتفق أن النيل “ بهامش الصفحة ، فى اتجاه الورقة المذكورة ، ثم بدأ الكتابة كما هنا ، مكرراً الجملة الافتتاحية المشار إليها . والراجع أن المؤلف قصد بإيراد هذه الأخبار ، التابعة لسنة ست وتسعين ، استقصاء أمر الوباء والجماعة فى سنة سبع وتسعين من أوله فى العام السابق . وقد أدنى هذا إلى تضليل (Blochet Op. cit. pp. 266-271) فى ترتيب السنين . انظر س ١٥٤ حاشية ٣ .

القاع ذراعين ، وأخذ يزيد زيادة ضعيفة إلى سادس عشر مسرى ، فزاد إصبعا ، ثم وقف . ثم زاد زيادة قوية ، أكثرها ذراع ، حتى بلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة إصبعا . ثم انحط من يومه ، فلم يُنتفع به . وكان الناس قد فتوا ، بحيث بقى من أهل القرية الذين كانوا خمسمائة نفر إما نفران أو ثلاثة . فلم تجد الجسور من يقوم بها ، ولا القرى من يعمل مصالحها . وهدمت الأبقار ، بحيث أبيع الرأس بسبعين دينارا ، والمزبل بستين دينارا . وجافت الطرقات بمصر والقاهرة وقراها . ثم أكلت الدودة ما زرع ، فلم يوجد من النقاوى ولا من العقر ما يمكن به رده .

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة والناس تأكل الأطفال ، وقد صار أكلهم طبعاً وعادة ، وضجر الحكام من تأديبهم . وأُبيع^(١) القمح — إن وجد — بثمانية دنانير [الأردب] ، والشعير والفول بستة دنانير . وعدم الدجاج من أرض مصر ، فجلبه رجل من الشام ، وباع كل فروج بمائة درهم ، وكل بيضتين بدرهم . وهذا جميع الأفران إنما تقد بأخشاب المساكن ، حتى دخلت سنة ثمان وتسعين . وكان كثير من المسانير يخرجون ليلاً ، ويأخذون أخشاب الدور الخالية ، ويبيعونها نهاراً . وكانت أزقة القاهرة ومصر لا يوجد بها إلا مساكن قليلة ، ولم يبق بمصر عامر إلا شط النيل . وكانت أهل القرى تخرج للحرث فيموت الرجل وهو ماسك الحرث .

وفي هذه السنة قدم غلام سنه نحو عشر سنين — من عرب الحوف بالشرقية — إلى القاهرة ، أسمر حلو السمرة ، على بطنه خطوط بيض ناصعة البياض ، متساوية القسمة ، من أعلاه إلى أسفله ، كأحسن ما يكون من الخطوط . وفيها مات [الأمير بهاء الدين] قراقوش الأسدى ، في غرة^(٢) شهر رجب بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم .

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . في أول المحرم رحل الأفضل والظاهر من دمشق . فصار الظاهر إلى حلب ، ومعه جماعة من الأمراء الصلاحية ، منهم فارس الدين ميمون القصرى ، وسراسنقر ، والفارس البكى ، فأقطعهم الإقطاعات وأكرمهم وتوجه

(٢) في س ويبيونه .

(١) في س بلغ .

(٣) في س عره ، وقد أثبت هذا الرسم لاحتمال قراءته « عشرة » .

الأفضل إلى حمص ، وبها أمه وأهله عند الملك الجهاد . وقدم العادل إلى دمشق ، ونزل بالقلعة ؛ ثم سار منها إلى حماة ، ونزل عليها بمساكره . فقام له الملك المنصور بجميع كلفه ونفقاته ، وأظهر أنه يريد حلب . فخافه الظاهر واستعد للقائه ، وراسل العادل وبعث إليه بهدايا جليلة ولاطفه . فانتظم الصلح بينهما : على أن يكون للعادل مصر ودمشق ، والسواحل وبيت المقدس ، وجميع ما هو في يده ويد أولاده من بلاد الشرق ؛ وأن يكون للظاهر حلب وما معها ، والمنصور حماة وأعمالها ، والجهاد حمص والرحبة^(١) وتدمر^(٢) ، وللأمجد بعلبك وأعمالها ، وللأفضل سميساط وبلادها لا غير ؛ وأن يكون الملك العادل سلطان البلاد [جميعها] . وحلفوا على ذلك . فخطب للعادل بحلب ، في يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة . وأقطع الأفضل قلعة^(٣) النجم مع سرّوج^(٤) وسميساط . وجهز العادل ابنه الأشرف مظفر الدين موسى إلى [الجزيرة] ، ليتسلم حران والرها وما معها ، ويستقر بالجزيرة ؛ و[يستقر] الأوحى أيوب أخوه^(٥) في ميفارقين . وترتب بقلعة جعبر ابنه^(٦) الحافظ نور الدين أرسلان . وأقر [العادل] ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى بدمشق . وعاد العادل من (١٤٤) حماة إلى دمشق ، وقد انفتحت كلمة بنى أيوب .

وفيها قتل المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الدين أيوب : وذلك أنه لما ملك اليمن - بعد أبيه - خرج عليه الشريف عبد الله الحسنى . ثم خرج عليه

(١) بغير ضبط في س ، وهي التي تعرف برحلة مالك بن طوق ، بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، وبين حلب خمسة أيام ، وبين بغداد مائة فرسخ ، وبين الرقة نيف وعشرون فرسخا . وهي بين الرقة وبغداد ، على شاطئ الفرات ، جنوبي قرقيسيا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٤) .

(٢) بغير ضبط في س ، وهي مدينة قديمة مشهورة في برية الشام ، بينها وبين حلب ستة أيام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٢٨) ؛ انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 272, N. 2.)

(٣) في س قلعة نجم ، بلا تعريف ، وبغير ضبط . وهي قلعة جبلية مطلة على الفرات ، وعندما جسر تمر عليه القوافل من حران إلى الشام . وكانت تعرف قبالا بقلعة منبج ، وعرفت كذلك بجسر منبج ، فإنها تبعد عنها خمسة وعشرين ميلا فقط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٦٥) . انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 273, N. 2.)

(٤) بغير ضبط في س ، وهي بلدة قريبة من حران . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٥) . راجع أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 372, N. 2.)

(٥) ضمير الماء على الأشرف موسى . (٦) الماء هنا عائد على الملك العادل .

نحو ثمانمائة من ممالكه ، وحاربوه وامتنعوا منه بصنعاء ، فكسروهم وبلادهم عنها . فادعى الرومية ، وأسر أن يكتب عنه ويكتب بذلك ، وكتب : ” صدرت هذه المكتبة من مقر الإلهية “ . ثم خاف [المعز إسماعيل] من الناس ، فادعى الخلافة ، وانتسب إلى بنى أمية ، وجعل شعاره الخضر . ولبس ثياب الخلافة ، وعمل طول كل كُتْ خمسة وعشرين شهرا في سعة ستة أشبار . وقطع من الخطبة الدعاء لبنى العباس ، وخطب لنفسه على منابر اليمن ، وخطب هو بنفسه يوم الجمعة . فلما بلغ ذلك عمه العادل سير بالإنكار عليه ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأضاف إلى ذلك سوء السيرة وقبح العقيدة . فثار عليه ممالك أبيه ، لهوجه وسفكه الدماء ، وحاربوه وقتلوه . ونصبوا رأسه على رمح ، وداروا به بلاد اليمن ، ونهبوا زبيد تسعة أيام . وكان قتله في رابع عشر رجب ، من سنة ثمان وتسعين . وقام من بعده أخوه الناصر أيوب — وقيل محمد ، وترتب سيف الدين سنقر أتابك العساكر ، ثم استقل سنقر بالسلطنة . وفيها كان الغلاء بمصر ، فلما طلع النيل رويت البلاد ، وانحل السعر .

سنة تسع وتسعين وخمسمائة . فيها وصل الفرنج إلى عكا ، وتحرك أهل صقلية اقصد ديار مصر . فقدم من حلب خمسمائة فارس ومائة راجل ، نجدة إلى العادل وهو بدمشق . فورد كتاب ناصر الدين منكورس بن تَحَارَنِيكِين^(١) ، صاحب صهيون ، يخبر بنزول صاحب الأرمن^(٢) على جسر الحديد^(٣) لحرب أنطاكية ، وأن أكثر الفرنج عادوا من عكا إلى البحر ، ولم يبق بها إلا من عجز عن السفر ، وأن بها غلاء عظيما^(٤) .

(١) مخطوط على منطوقه في أبي شامة (كتاب الروضتين ، ص ٣٦٧ ، في . Rec. Hist. Or. IV

وأن ضبطه (Blochet: Op. cit. p. 276) يضم الحاء . (٢) صاحب الأرمن في تلك السنة (Leon II) ، أي ابن لاون الذي تقدم ذكره . راجع أيضا (Enc. Isl. Art. Armenia) . (٣) بلدة على نهر حماة أو العاصي ؟ يمر بها النهر في مجراه من حماة إلى شيزر ، ثم إلى بحيرة أمابية ؟ فدركوش جسر الحديد ؟ ومنها إلى أنطاكية (G.-Demombynes : Op. cit. p. 171) . (٤) في س عظيم .

وفيها نازل الأشرف موسى بن العادل ماردين مدة ، ومعه الأفضل^(١) . ثم تقرر الصلح على أن يحمل [ناصر الدين أرسلان الأرتقى صاحب ماردين^(٢)] للعادل مائة ألف وخسين ألف دينار صورية ، ويخطب له بها ، ويضرب السكة باسمه . فعاد الأشرف إلى حران . وفيها جهز العادل الملك المنصور بن العزيز [عثمان] من مصر إلى الرها بأمه وإخوته ، خوفاً من شيعته . وفيها شرع العادل في بناء فصيل^(٣) دائر على سور دمشق بالحجر والجير (٤ ب) ، و [في] تعميق الخندق وإجراء الماء إليه . وقدم من عند العادل إلى القاهرة خلق لحفظ دمياط من الفرنج .

وفيها قصد الفرنج من طرابلس ، ومن حصن الأكراد وغيرها ، مدينة حماة فركب إليهم المنصور في ثالث رمضان ، وقتلهم فهزموهم وأسر منهم وغنم ، وعاد مظفرأ . فورد الخبر بوصول الفرنج إلى عكا من البحر في نحو سبعين ألفاً ، وأنهم يريدون الصلح مع الأرمن على حرب المسلمين . وخرج جمع من الإسماعيلية^(٤) من حصن الأكراد والمرقب ، في شهر رمضان أيضاً . فخرج إليهم المنصور ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر جماعة ، وانهزم من بقي .

وفيها بلغ العادل أن الملك الأفضل على ابن أخيه كاتب الأسماء ، فأمر ابنه الأشرف [موسى] أن ينتزع منه رأس عين وسروج ، وكتب إلى الظاهر أن يأخذ منه قلعة نجم ، ففعلاً ذلك ، ولم يبق معه سوى سميساط لا غير . فسير [الأفضل] أمه إلى العادل لتشفع فيه ، فقدمت عليه إلى دمشق ، فلم يقبل شفاعتها ، وأعادها خائبة . وكان هذا عبرة ، فإن

(١) في س ومعه الأفضل مدة .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (السكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١١٧ ؛ وكذلك Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 168) .

(٣) الفصل حائط قصير دون الحصن ، أو دون سور البلد . (محيط المحيط) . ويقابله في الفرنسية (Avant-Mur) ، وفي الإنجليزية (Barbican) أو (Screen-wall) . راجع (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) في س الاستبارة بناء ثم بناء ، وتحريف الاسم هكذا شائع في هذا الجزء من السلوك ، ولعله المنطق الذي تواتر في اللغة العربية ، لفتته على اللسان . وسيصحح إلى الرسم الوارد بالنون بالباء أولاً ، بغير تنبيه ، لقربه من أصل منطوقة في اللغات الأوروبية .

صلاح الدين لما نازل الموصل خرجت إليه الأتابكيات^(١)، ومنهن ابنة نور الدين محمود بن زنكي، يستغثن إليه في أن يبقى الموصل على عز الدين مسعود، فلم يجبهن وردّهن خائبات. فعوقب [صلاح الدين] في ولده الأفضل على بمثل ذلك. وعادت أمه خائبة من عند العادل. ولما بلغ الأفضل امتناع عمه عن إجابة سؤال أمه قطع خطبته، ودعا للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان السلجوقي، صاحب الروم.

وفيها زاد ماء النيل زيادة كثيرة، ورخصت الأسعار. وفيها انقضت دولة الهواشم بمكة^(٢) وقدم إليها حنظلة بن قتادة بن إدريس بن مطاعن من ينبع. فخرج منها مكث بن عيسى بن فُلَيْتَة^(٣) إلى نخلة، فأقام بها ومات سنة ست مائة. ثم وصل محمد بن مكث إلى مكة، فخاربه وهزمه. ثم قدم قتادة أبو عزيز بن إدريس، فاستمر بمكة هو وولده من بعده أمراء إلى أعوام كثيرة.

سنة ست مائة. فيها تقرّر الصلح بين العادل وبين الفرنج، وانعقدت الهدنة بينهما، وتفرقت العساكر. وفيها نازل ابن لاون أنطاكية حتى هجم عليها، وحصر الإبرنس^(٤) بقلعتها.

(١) يقصد المؤلف آل بيت نور الدين محمود زنكي وعبارة المقرئ هنا أيضا تدل بوضوح على أنه اقتبس بحرية من ابن الأثير (الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ١١٩).

(٢) كان أمراء مكة، منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م)، من بيت أبي جعفر بن موسى الحسني الهاشمي وكانوا تابعين للدولة الفاطمية، بشمال إفريقية ومصر، حتى استقل أبو الفتح بن أبي محمد جعفر عنها لمدة قصيرة. ثم تغلب بنو فاتق على مكة، وانتزعوها من بني موسى. وتلاهم في إمارتها بيت حسني هاشمي آخر سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م)، وبقيت في يد أمراء هذا البيت الأخير إلى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م)، حين جاء قتادة بن إدريس المذكور في المتن، وهو السبط العاشر من ولد موسى الحسني الهاشمي المتقدم ذكره والسادس عشر من علي بن أبي طالب. هذا وقد بقيت مكة في يد أمراء بني قتادة حتى يحى الوهايين. (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٦٧-٢٧٥)؛ و (Hogarth: A Hist. of Arabia, pp. 82 et seq.). انظر أيضا (Enc. Isl. Arts. Mecca, Katāda).

(٣) ضبط في س يفتح الفاء فقط. انظر (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧١).

(٤) في س الإبرنس. ويقصد المؤلف الأمير يميند الرابع (Bohemond IV of Antioch)، وهو الذي حالف الظاهر صاحب حلب، كما فعل أبوه (Bohemond III) من قبله، ضد (Leon I) صاحب أرمينية. انظر (Stevenson: Crusaders In The East, pp. 298-300).

فخرج الظاهر من حلب نجدة له ، ففرّ ابن لاون . وفيها أوقع الأشرف [موسى بن العادل] بعسكر الموصل ، وهزمهم ونازلها ، وبها^(١) السلطان نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي أتابك بن آقسنقر . ونهب [الأشرف] البلاد منها قبيحا ، وبعث إلى أبيه العادل بالبشارة ، فاستعظم ذلك وما صدقه ، وسُرَّ به سرورا كثيرا .

وفيها ملك الإفرنج مدينة القسطنطينية من الروم^(٢) . وفيها تجمع الإفرنج بمكان من كل جهة (١٤٥) يريدون أخذ بيت المقدس . فخرج العادل من دمشق ، وكتب إلى سائر الممالك يطلب النجدة ، فنزل قريبا من [جبل] الطُّور^(٣) على مسافة يسيرة من عكا . وعسكر الفرنج بمرج عكا ، وأغاروا على كُفْرْكُنَّا^(٤) ، وأسروا من كان هناك ، وسبوا ونهبوا . وانقضت هذه السنة والأمر على ذلك .

وفيها مات ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج^(٥) أرسلان بن سليمان ابن قتلومش بن ينفو أرسلان بن سلجوق صاحب الروم ، في سادس ذى القعدة . وقام من بعده ابنه عز الدين قليج أرسلان ، وكان صغيرا ، فلم يستتب أمره . وفيها عاد الأشرف [موسى] ابن العادل إلى حران بأمر أبيه . وهم العادل برحيله إلى مصر ، فقدم عليه ابنه الأشرف ، ثم عاد إلى حران .

وفيها خرج أسطول الفرنج إلى مصر ، وعبر الفيل من جهة رشيد . فوصل إلى فوة ، وأقام خمسة أيام ينهب ، والعسكر تجاهه ليس له إليه وصول ، لعدم [وجود] الأسطول [العادل] .

(١) في س وفيها . وقد صححت حتى لا يحدث لبس مثل الذي وقع فيه كاتب نسخة ب (٥٣ ب) ، وأدى إلى اضطراب (Blochet : Op. cit. P. 282. N. 2) في ترجمته .

(٢) لم يعن القرينى بذكر تفاصيل هذا الحادث التاريخي العظيم ، كما فعل ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٢٤ — ١٢٦) .

(٣) بغير ضبط في س ، ويسمى أيضاً جبل طابور ، وهو أقرب إلى طبرية وحطين منه إلى عكا . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٥٥٧ ؛ و (G.-Demombynes : Op. cit. p. 124, N. 4.) .

(٤) بغير ضبط في س ، وهي بلد بين طبرية والناصرية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٩٠) وكذلك (G.-Demombynes : Op. cit. pp. 123, 124.) .

(٦) عبارة القرينى هنا ، وفيما يلي عن الزلزال (سطر ٢ بالصفحة التالية) منقولة بنصها تقريبا عن ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٣٠) .

وفيهما أوقع الأمير شرف^(١) الدين قراقوش [التقوى] المظفرى ببلاد المغرب ، قُبُض عليه وحل إلى ابن عبد المؤمن . وفيها كانت زلزلة عظيمة ، عمت أكثر أرض مصر والشام ، والجزيرة وبلاد الروم ، وصقلية وقبرس ، والموصل والعراق ؛ وبلغت إلى سبتة ببلاد المغرب . وفيها ملك الفرنج قسطنطينية من أيدي الروم ، فلم يزالوا بها حتى استعادها الروم منهم ، في سنة ستين وستائة .

سنة إحدى وستائة . فيها تم الصلح بين الملك العادل وبين الفرنج ، وتقررت الهدنة مدة ، وشرطوا أن تكون يافا لهم ، مع مناصفات لد والرمة ، فأجابهم [العادل] إلى ذلك . وتقررت العساكر ، وسار العادل إلى القاهرة ، فزل بدار الوزارة ، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل ، وشرع في ترتيب أمور مصر . وفيها مات الأمير عز الدين إبراهيم بن الجَوْنِي^(٢) ، وإلى القاهرة ، في سلخ جادى الأولى . وفيها ورد الخبر بأن الفرنج أخذوا القسطنطينية^(٣) من الروم . [وفيها] غارت الفرنج الإسبتارية على حاة في جمع كبير ، لأن هدتهم انقضت ، فقتلوا ونهبوا ، ثم عادوا . وفيها قدم الملك المنصور صاحب حاة على عمه الملك العادل بالقاهرة ، فسر به وأكرمه ، ثم رجع بعد أيام . وفيها أغار الفرنج على حمص ، وقتلوا وأسروا . فخرج العادل من القاهرة إلى بركة الجب ، ثم عاد . وفيها أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية ، وقتلوا عدة من المسلمين ، وغنموا وسبوا شيئا كثيرا .

وفيها أخذ صاحب صفى الدين عبد الله بن شكر يُغرى الملك العادل بأبى محمد مختار ابن أبى محمد بن مختار ، المعروف بابن قاضى دارا ، وزير الملك الكامل ، حتى نقم عليه وطلبه . فخاف عليه الكامل ، وأخرجه (هـ ، ب) من مصر — ومعه ابنه فخر الدين وشهاب الدين — إلى حلب ، فأكرمهم الملك الظاهر . ثم ورد عليه من الكامل كتاب يستدعيه إلى مصر ،

(١) في س بها الدين . (٢) بشير ضبط في س ، والجوينى نسبة إلى بلدة جوين ، وهى إحدى ثلاث بلاد بهذا الاسم . انظر (Enc. Isl. Arts. Djuwain & Djunwaini) .

(٣) في س قسطنطينيه ، ويوجد في (Blochet : Op. cit. p. 84. N.1.) ترجمة من الفارسية لما جاء في كتاب جامع التواريخ لرشد الدين عن فتح الفرنج اللاتين للقسطنطينية .

فخرج ونزل بعين المباركة ظاهر حلب . فلما كان في ليلة الرابع والعشرين^(١) من ذى القعدة ، أحاط به نحو الخمسين فارساً في أثناء الليل ، وأيقظوه وقتلوه . ثم قالوا لفلانته : "أحفظوا أموالكم ، فما كان لنا غرض سواه" . فبلغ ذلك الظاهر فارتاع له ، وركب بنفسه حتى شاهده ، وبعث الرجال في سائر الطرقات ، فلم يقف لقتلته^(٢) على خبر ، فكانت هذه القضية من أعجب ما سمع .

سنة اثنتين وستمائة^(٣) . فيها قبض على الأسعد أبي المكارم بن المهذب بن ممان صاحب الديوان ، في جمادى الآخرة ، وعلق برجليه . وفيها قبض على الأمير عبد الكريم^(٤) ، أخى القاضي الفاضل ، وأخذ خطه بمشرين ألف دينار وأداها . وأخذ من [شرف الدين]^(٥)

(١) في س الرابع عشرين . (٢) في س لقتله .

(٣) أخبار هذه السنة كلها مكتوبة على هامش الصفحة ، ويسبقها هامش مشطوب نصه : " وفيها مات ركن الدين سليمان بن قلع ارسلان بن مسعود صاحب قونية ، وملك بعده ابنه قلع ارسلان بن سليمان " . وقد تقدمت هذه الوفاة في س ١٦٣ .

(٤) في س الأثير . (٥) موضع ما بين القوسين يباين في س . وكان ابن قريش هذا كاتب ديوان الإنشاء ، ويطلب أنه كان موسراً ، فقد ابني بالقاهرة فندقاً عرف باسمه ، وعن هذا الفندق وبانيه كتب المقرئ (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، س ٩٣) في باب ذكر الخانات والفنادق ، مانصه : " فندق ابن قريش ، استجده القاضي شرف الدين إبراهيم بن قريش ، كاتب الإنشاء ... [واسمه] إبراهيم بن عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن علي بن قريش ، أبو إسحاق القرشي الخزومي المصري ، الكاتب شرف الدين ، أحد الكتاب المجيدين خطاً وإنشاء . خدم في دولة الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وفي دولة ابنه الملك الكامل ، بديوان الإنشاء . وسمع الحديث بمكة ومصر ، وحدث . وكانت ولادته بالقاهرة ، في أول يوم من ذى القعدة ، سنة اثنتين وسبعين وخمسة . وقرأ القرآن وحفظ كثيراً من كتاب المذهب في الفقه ، على مذهب الإمام الشافعي . وبرع في الأدب ، وكتب بخطه ما يزيد على أربعمئة مجلد . ومات في الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وأربعين وستمائة " .

هذا وقد تقدم ذكر والد شرف الدين هنا في س ٨٥ ، واسمه القاضي المرتضى عبد الرحمن بن قريش ، وهو الذي تولى قراءة العهد الذي أوصى به السلطان صلاح الدين يوسف في حياته لآل بيته ، سنة ٥٧٩ هـ . وكان للقاضي المرتضى قيسارية بالقاهرة ، عرفت باسمه ، كما عرف الفندق الذي بناه ابنه من بعده بفندق ابن قريش . ووصف المقرئ (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، س ٨٦) تلك القيسارية ، في باب ذكر القياسر ، وترجم أيضاً لصاحبها ، بما نصه : " هذه القيسارية في صدر سوق الجمالون الكبير ، بجوار باب سوق الوراقين . ويسلك إليها من الجمالون ومن سوق الأخفافين ، الملوك إليه من البنداقين . وبعضها الآن سكن الأرمنيين (كذا) ، وبعضها سكن البرازين . قال ابن عبد الظاهر : استجدها =

إبراهيم بن عبد الرحمن [بن قريش خمسة آلاف دينار . وفيها باشر التاج ...^(١) بن الكمكي ديوان الجيش . وفيها ضرب صاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر الفقيه نصرا في وجهه بالدواة ، فأدماه^(٢) .

سنة ثلاث وستمائة . فيها كثرت الغارات من الفرنج على البلاد ، فخرج الملك العادل إلى العباسية ، ثم أغذ^(٣) السير إلى دمشق . ثم برز منها إلى حمص ، فأنته العساكر من كل ناحية ، فاجتمع عنده عشرات آلاف . وأشاع أنه يريد طرابلس ، فلما انقضى شهر رمضان توجه إلى ناحية حصن الأكراد فنزله ، وأمر خمسمائة رجل وغنم . وافتتح قلعة أخرى . ثم نازل طرابلس ، وعانت العساكر في قراها ، ولم يزل على ذلك إلى أيام من ذى الحجة . ثم عاد إلى حمص — وقد ضجرت العساكر — فبعث صاحب طرابلس يلتبس الصلح ، وسير مالا وثلاثمائة أسير وعدة هدايا ، فانهقد الصلح في آخر ذى الحجة . وفيها حدثت وحشة بين العادل وبين ابن أخيه الملك الظاهر ، صاحب حلب . فترددت بينهما الرسل حتى زالت ، وحلف كل منهما لصاحبه . وكثر في هذه [السنة] تخريب العادل لقلع الفرنج وحصونهم . وفيها غنم الصاحب ابن شكر البدر ابن الأبيض قاضي العسكر ، وقرّر مكانه نجم الدين خليل بن المصمودى الجوى . وفيها^(٤) قدم مانع بن سليمان شيخ آل دُعَيْج^(٥) من غزيرة^(٦) ، التى فيما بين بغداد ومكة^(٧) .

= القاضي المرتضى بن قريش ، فى الأيام الناصرية الصلاحية ، وكان مكانها إسطبلا (...) ... وهو القاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش الخزومى ، أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . قتل شهيدا على عكا ، فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى ، سنة ست وثمانين وخمسمائة . ودفن بالقدس ، ومولده فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة . وسمع السلفى وغيره .

(١) بياض فى س . (٢) يظهر أن قلة أخبار هذه السنة فى السلوك راجع إلى وقوع معظم حوادثها بحلب ، فلترجع فى تاريخ حلب لابن العديم . انظر (Blochet : Op. cit. p. 286. N. 1.) . (٣) أغذ السير ، وفى السير : أسرع . (محيط المحيط) . (٤ و ٥) العبارة الواردة بين الرقبن موجودة بهامش الصفحة فى س ، وهى فى ب (١٥٥) آخر أخبار السنة خطأ ، وليست فى (Blochet : Op. cit. P. 287) بتانا . (٥) بغير ضبط فى س ، انظر قاموس المحيط . (٦) بغير ضبط فى س ، وهى فى الطريق بين مكة والكوفة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٠٠ ، ٩٣٧) . (٧) انظر حاشية ٤ .

ومات [في هذه السنة] عبد الرحمن بن سلامة قاضي الإسكندرية بها ، يوم الأربعاء ثامن صفر . وفيها نفي الأشرف...^(١) بن عثمان الأعور ، واعتقل أخوه علم الملك . و [فيها] ماتت أم الملك المعظم بن العادل بدمشق ، في يوم الجمعة عشرين ربيع الأول ، ودفنت بسفح قاسيون .

سنة أربع وستمائة . فيها عاد الملك العادل إلى دمشق ، بعد انعقاد الصلح بينه وبين ملك الفرنج بطرابلس . و [فيها] بعث [العادل] أستاذاره الأمير ألد كز^(٢) العادلي ، وقاضي المسكر نجم الدين خليل المصمودي ، إلى الخليفة في طلب التشريف والتقليد ، بولاية مصر والشام والشرق و خلاط . فلما وصلا إلى بغداد أكرمهما الخليفة الناصر لدين الله ، وأحسن إليهما وأجابهما ، وسير الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عثوية الشهرزدي^(٣) ، ومعه التشريف الخلفي^(٤) والتقليد ، وخلعة للصاحب صفى الدين بن شكر ، وخلع^(٥) لأولاد العادل : وهم الملك (١٤٦) المعظم ، والملك الأشرف ، والملك الكامل . فمتدما قارب [الشيخ أبو حفص] حلب خرج الملك الظاهر بساكره إلى لقائه ، وأكرم نزله . وفي ثالث يوم من قدومه أمر بكرسي فنصب له ، وجلس عليه للوعظ . وجلس الظاهر ومعه الأعيان ، فصدع بالوعظ حتى وجلت القلوب ودمعت العيون . وأخبر [الشيخ] في وعظه بأن الخليفة أطلق — في بغداد وغيرها — من المؤن والضرائب ، مامبلته ثلاثة آلاف ألف دينار .

(١) يابن في س . (٢) مضبوطة هكذا في س .

(٣) نسبة إلى سهرورد ، وهو بلد بأرض الجبال ، جنوبي السلطانية ، على الطريق بين همدان و زنجان . وقد خرج من هذا البلد جماعة من العلماء والصلحين ، ومنهم أبو حفص عمر المذكور هنا ، وكنيته في يالوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) أبو نصر . وهو صوفي شافعي المذهب ، وكان إمام وقته لسانا وحالا . وقد تقدم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، حتى جعله مقدما على شيوخ بغداد ، وأرسله في الرسائل العظيمة . وقد صنف السهروردي هذا كتابا سماه عوارف المعارف . انظر (Enc. Isl. Arts. Suhraward & Suhrawardi) .

(٤) اصطلاح عامة المؤرخين على هذه النسبة رغم خطئها . (٥) في س وخلفا .

(٦) توجد بين ملتصق الصفحتين ٤٥ ب ، ٤٦ أ ورقة ، بها نبذة طويلة ، يرجح أنها من أخبار حصار الفرنج ديباط سنة ٦١٥ هـ ، وقد لصقت بين هاتين الصفحتين خطأ ، فأرجى لمراد ما بها إلى موضعه المناسب .

ثم سار من حلب ، ومعه القاضي بهاء الدين بن شدّاد ، وقد دفع إليه الظاهر ثلاثة آلاف دينار ، برسم النّثار^(١) إذا لبس عمه العادل خلعة الخليفة . وبعث الملك المنصور من حماة أيضا مبلغا للنّثار . وخرج العسكر من دمشق إلى لقائه ، ثم خرج العادل بابنيه الأشرف موسى والمعظم عيسى ، وبرز سائر الناس لمشاهدة ذلك ، فكان يوما مشهودا . ولما دخل [الشيخ أبو حفص دمشق] جلس العادل في دار رضوان ، وأفيضت عليه الخلع ، وهي جبة أطلس أسود واسعة الكم بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز ذهب ، وطوق ذهب بجوهر ثقيل . وقُلب [العادل أيضا] بسيف محلى ، جميع قرايه من ذهب . وركب حصانا أشهب بركب ذهب ، ونُشر على رأسه علم أسود ، مكتوب فيه بالبياض ألقاب الخليفة ، مركب في نصبة ذهب وتقدم القاضي ابن شدّاد فنثر الذهب ، وقدم له خمسين خلعة ؛ ونثرت رسل الملوك بعده . ثم لبس الأشرف والمعظم خلعتيهما وهما عمامة سوداء ، وثوب أسود واسع الكم . ثم خُلع على صاحب صفى الدين بن شكر الوزير كذلك . وركب العادل — ومعه ابنه ووزيره — بالخلع الخليفية ، وقد زينت البلد . ثم عادوا إلى القلعة ، واستمرت زينة البلد ثمانية أيام . وقرأ التقليد صاحب صفى الدين على كرسى ، وخوطف العادل فيه بشاهنشاه ، ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين . وكان الوزير في حال قراءته قائما على الكرسي ، والعادل وسائر الناس أيضا قيام ، لإجلالا للخليفة . ثم سار الشهاب السمروردي إلى مصر ، فأفاض على الملك الكامل الخلعة الخليفية ، وجرى من الرسم كما وقع بدمشق ، ثم عاد إلى بغداد .

وفيها أمر العادل بعمارة قلعة دمشق ، وفرق أبراجها على الملوك ، فعمروها من أموالهم . وفيها اتسعت مملكة العادل ، فلما تمهدت له الأمور قسم مملكته بين أولاده . فأعطى ابنه الملك الكامل ناصر الدين (٤٦ هـ) محمدا^(٢) مملكة مصر ، ورتب عنده القاضي الأعز فخر الدين مقدم بن شكر . وأعطى ابنه المعظم شرف الدين عيسى من العريش إلى حمص ، وأدخل

(١) النّثار ، بكسر النون ، ما ينثر في العرس للعائرين ؛ وبضم النون ، ما ينثر من المائدة فيؤكل للتواب . (المحيط) .

(٢) في س محمد .

في ولايته بلاد الساحل الإسلامية ، وبلاد النور وأرض فلسطين ، والقدس والكرك ، والشوبك وصرخد . وأعطى الله الملك الأشرف مظفر الدين موسى البلاد الشرقية ، وهي الرها وما معها من حران وغيرها ، وأعطى ابنه الملك الأوحى نجم الدين أيوب خلّاط وميفارقين وتلك النواحي . وكان الأوحى قد بعث إليه أهل خلّاط ليمسكها ، فسار من ميفارقين وملكها . وفيها كمل الملك الكامل محمد بناء قلعة الجبل ، ونحوّل إليها من دار الوزارة بالقاهرة ، فكان أول من سكنها من ملوك مصر . ونُقِلَ إليها أولاد [الخليفة] العاضد [الفاطمي] وأقاربه ، في بيت [على] صورة حبس ، فأقاموا به إلى أن حوّلوا منه ، في سنة إحدى وسبعين وستمائة^(١) .

وفيها^(٢) توفي الأمير دأود بن العاضد في محبسه ، وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده . فاستأذن أصحابه [الملك] الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه ، فأذن لهم . فبرزت^(٣) النساء حاسرات ، والرجال في ثياب الصوف والشعر . وأخذوا في ندبه والنياحة عليه ، واجتمع معهم من كان في الاستتار من دعائهم . فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم ، وقبضوا على المعروفين منهم فلاّ بهم السجون ، واستصفا أموال ذوى اليسار منهم فقر من بقي ، وزال من حينئذ أمر الإسماعيلية من ديار مصر ، ولم يجسر أحد بعدها [أن] يتظاهر بمدحهم .

* * *

سنة خمس وستمائة . فيها سار الكُرج^(٤) ونهبوا أعمال خلّاط ، وأسروا وغنموا ؛ فلم يجسر الأوحى أن يخرج إليهم من مدينة خلّاط فلما بلغ ذلك العادل أخذ في

(١) قبالة هذه الفقرة ، هامش الصفحة في س ، ما نصه : " انظر أول من سكن قلعة الجبل من الملوك ، ومدّة اعتقال [بقايا] الفاطميين " . وهو بخط محالف . (٢) بقية أخبار هذه السنة واردة بورقة منفصلة بين ملتصق الصفحتين ٤٦ ب ، ٤٧ تحت عنوان نصه : " سنة أربع وستمائة " .

(٣) في س فعرز . (٤) في س الكرج ، بغير ضبط ، والكرج أمة من المسيحيين ، مساكنها بجبال القوقاز (جبال قس) ، المجاورة أنفليس . وكانت جهة أبخاز مقلهم ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ ، حسبما جاء في ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ٨٥٨) . ولم يزالوا متمسكين على تفليس ، وأبخاز مقلهم ، حتى أغار عليهم خوارزم شاه جلال الدين ، سنة ٦٢١ هـ ، فاستولى على تفليس منهم .

(Allen : History Of The Georgian, People. pp. 85 - 112).

التجهيز لحرب السكرج ، وسار الأشرف من دمشق يريد بلاده بالشرق . وفيها قتل الملك معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي ، صاحب الجزيرة . قتله ابنه محمود ، وقام في الملك من بعده . وفيها بعث الأمير سيف الدين سنقر ، أتابك المين ، عشرة آلاف دينار مصرية إلى الملك العادل ، عليها اسمه .

وفيها مات القاضي مكين الدين مطهر بن حمدان ، بقلعة بصرى في شهر رجب . ومات هلال الدولة وشاب بن رزين^(١) ، وإلى القاهرة . وعُزل الأمير سيف الدين علي بن كنهْدان^(٢) عن ولاية مصر ، وعُزل الأسعد بن حمدان عن الشرقية ، وبأمرها خشخاش الوراق . وفيها توفي قاضي القضاة صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الساراني ، يوم الأربعاء خامس رجب . و [كان قد] قدم مصر في رابع رجب ، سنة خمس وستين وخمسة ، فتكون مدة مقامه بديار مصر أربعين سنة .

سنة ست وستمئة . فيها خرج العادل من دمشق يريد محاربة السكرج ، ومعه الملوك [من بنى أيوب : وهم الملك المنصور صاحب حماة ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الأنجد صاحب بعلبك^(٣) . وأرسل إليه الملك الظاهر غازي صاحب حلب جيشا] . فنزل [العادل] حران ، وأتته النجدات [مع ولديه الملك الأوحده صاحب خلاط وميافارقين ، والملك الأشرف موسى ، وغيرهما^(٤) . فاستولى على نصيبين ، ونازل سنجر ، وبها الملك قطب الدين محمد بن زنكي . فكانت بينهما عدة وقائع ، بعث في أثنائها صاحب سنجر إلى الخليفة الناصر [لدين الله] ، وإلى الملك^(٥) [الظاهر غازي صاحب حلب ، وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب الروم ، وغيرهما] يستنجد بهم على العادل . فقال

(١) مضبوط على سمي له في ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٥) .

(٢) مضبوط على منطوقه في أبي شامة (كتاب الروشتين ، ص ١٢٤ ، ١٦٦ ، في Rec. Hist.)

(٣) (Or. V.) . راجع Blochet : Op. cit. p. 292. N. I. ؛ وابن الأثير : الكامل في

التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨٧ — ١٨٩) .

(٥) في س الملوك . وقد أضيف ما بين القوسين من المرجعين المذكورين بالمحاشية السابقة .

إليه عدّة من الملوك ، عوناً له على العادل ، ففارقه عدّة ممن كان معه على حصار سنجار ، ودسوا إلى جماعة من أصحابه الدسائس ، ففسدت أحواله ، وقدم عليه رسول الخليفة ، [وهو ^(١) هبة الله بن المبارك بن الضحاك] يأمره بالرحيل ، فقال له الإمام [الخليفة] الناصر : " قال لك بمحياي يا خليلي ارحل " . فعاد [العادل] إلى حران ، وتفرقت المساكِر عنه .

و [فيها] حصلت بين العادل وبين [وزيره] الصاحب ابن شكر مفارقة ، أوجبت غضبه وسفره في البرية ، فركب المنصور صاحب حماة ، وفخر الدين جهار كس صاحب بانياس ، حتى لحقاه في رأس عين ؛ وقدما به على العادل فرضى عنه ، ومن حينئذ انحطت منزلته .

وفيهما مات الملك المؤيد نجم الدين مسعود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب برأس عين ، وقيل إنه سُمِّمٌ ، فحمل إلى حلب ليدفن بها . وفيها عاد الملك العادل إلى دمشق . وفيها ولى الأمير المسكرم بن العطى قوص ، في ذى القعدة .

سنة سبع وستمائة . فيها ظفر الملك الأوحِد بن العادل بملك الكرج ، (١٤٧) ففدى نفسه منه بمائة ألف دينار ، وخمسة آلاف أسير من المسلمين . وأن يلتزم الصالح ثلاثين سنة ، وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تنفارق ديها . فأطلقه [الأوحِد] ، ورُدَّتْ ^(٢) على المسلمين عدّة قلاع . وفيها مات الأوحِد ، ومَلَكَ خلاط بعده أخوه الأشرف . وفيها تحرك الفرنج إلى الساحل ، واجتمعوا في عكا ، فخرج الملك العادل من دمشق ، فوقع بينه وبينهم صلح . وأخذ العادل في عمارة قلعة الطور بالقرب من عكا ، وسار إلى الكرك ، فأقام بها أياماً . ثم رحل إلى مصر ، فدخل القاهرة ونزل بدار الوزارة .

وفيهما مات الأمير فخر الدين جهار كس . وفيها تحرك الفرنج [ثانياً] ، فتيجهز العادل لاسفر إلى الشام . وفيها كُفِّت يد الصاحب صفى الدين بن شكر عن العمل . وفيها مات السلطان

(١) رافق ابن المبارك إلى الملك العادل رسول ثان ، أتى معه من بغداد ، وهو الأمير آق باش ، أحد خواص ممالك الخليفة الناصر لدين الله . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨٩) .

(٢) في س ورد .

نور الدين أرسلان شاه بن السلطان مسعود الأتابكي صاحب الموصل ، في شهر رجب . وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً . وأقام من بعده ابنه الملك القاهر عز الدين مسعود ، وقام بتدبيره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك ، مملوك أبيه . وفيها شرب ملوك الأطراف كأس الفتوة^(١) للخليفة الناصر ، ولبسوا سراويل الفتوة [أيضاً] فوردت عليهم الرسل بذلك ، ليكون اتقاؤهم له . وأمر كل ملك أن يسقي رعيته ويلبسهم ، لتنتمي كل رعية إلى ملكها ، ففعلوا ذلك . وأحضر كل ملك قضاة مملكته ، وقضاةها وأمرائها وأكابرها ، وألبس كلا منهم له ، وسقاه كأس الفتوة . وكان الخليفة الناصر مفرماً بهذا الأمر ، وأمر الملوك أيضاً أن تنتسب إليه في رمي البندق^(٢) ، وتجعله قدوتها فيه .

(١) في س الفتوة بغير ضبط ، وتكررت بنقط الفاء فقط ، وبغير ضبط أيضاً . وبهامش الصفحة العبارة الآتية : " انظر كأس الفتوة وسراويلها " ، بخط مخالف . وبالحاشية التالية شرح لذلك كله .

(٢) يذكر زيدان [تاريخ المدن الإسلامي ، ج ٥ ، ص ١٥٣ — ١٥٤] نبذة عن البندق ، في باب ألعاب الخلفاء وملاهيهم ، وقد أشار إلى أنه اقتبسها من عدة مراجع موثوق بها ، كالقرنزي وابن الأثير وابن خلدون وابن الفداء وأبي الفرج صاحب الأغاني ، ونصه : " البندق كرات تصنع من الطين ، أو الحجارة أو الرصاص ، أو غيرها ، وهي فارسية بلقظها واستعملها ، ويسمونها أيضاً الجلاهقات ، جمع جلاهي ... واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام [الخليفة] عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها في المدينة منكراً ، ثم ألفوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمى بها ... وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة ، يخرجون إلى ضواحي المدن ، يتسابقون في رميه على الطير ونحوه ، ويمدون ذلك من قبيل الفتوة . ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطهير الحمام ، ولهم زى خاص ، يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ، ويسمونها سراويل الفتوة ، وكان الميارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة ، حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العاسي ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، جعل لرمي البندق شأنًا ، لأنه كان ولماً به ، وبألعاب الحمام المناسب ، وكان يلبس سراويل الفتوة ، وقد بلغ من رغبته في ذلك ، حتى جعل رمي البندق فناً ، لا يتطاه إلا الذين يعمرون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على أن يكون بينهم روابط وثيقة ، نحو ما عند بعض الجماعات السرية . وجعل [الخليفة] نفسه رئيس هذه الطائفة ، يدخل فيها من شاء ، ويحرم من شاء . وكتب [الناصر] سنة ٦٢٧ هـ إلى ملوك الأطراف ، الذين يعترفون بخلافته ، أن يعمروا له كأس الفتوة ، ويلبسون سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق ، ويجملوه قدوتهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك . فن أراد الانظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد ، فيلبس الخليفة السراويل بنفسه . فطلت الفتوة في البلاد جميعها ، إلا من لبس سراويلها منه ؟ ومنع الرمي بالبندق ، إلا من ينتسب إليه . فأجابه الناس في العراق وغيره ، إلا إنساناً [واحداً] اسمه ابن السفت من بغداد فإنه [هرب إلى الشام] . فأرسل الخليفة إليه يرغبه بيزل المال ، ليرى عنه وينتسب في الرمي إليه ، فلم يفعل . فلامه بعضهم على ذلك ، فقال : يكفي غمراً أنه ليس في الدنيا أحد لا يرى للخليفة إلا أنا . وكان لرمي البندق شأن كبير في المصور الإسلامية الوسطي ، بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البنداقين بالقاهرة يلبس =

وفيهما قدم إلى القاهرة كليام^(١) الفرنجي الجنوى تاجرا ، فانصل بالملك العادل ، وأهدى إليه نفائس فأعجب [العادل] به ، وأمره بملازمته . وكان [كليام] فى باطن الأسر عَيْنًا للفرنج ، يطالهم بالأحوال ، فقليل هذا للعادل ، فلم يلتفت إلى ما قيل عنه .

ومات فيها يوسف بن الأسعد بن ممانى ، فى رابع من جمادى الأولى ، بالقاهرة . ومات الأمير سياروخ^(٢) ، فى خامس عشر رجب .

وفيهما قتل غياث الدين كيخسرو بن قلعج أرسلان [السلجوقى] صاحب قونية ، [وقد حدث ذلك فى أوائل السنة ، وهو يواقع الأرمن حلفاء الروم ، عند بلدة خوننا من أعمال آذربيجان] . وكان قد [غلبه^(٣) أخوه ركن الدين سليمان بن قلعج أرسلان على قونية ، وأجأه إلى الفرار منها سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة . ثم مات ركن الدين سليمان سنة ست مائة ، وقام بعده فى قونية ابنه قلعج أرسلان بن ركن الدين . وعند ذلك عاد كيخسرو [إلى بلاده] ، بعد فراره إلى حلب [وغيرها] . وملك [كيخسرو] قونية نائيا ، بعد خطوط جرت له ،

== إلى صناعة أقواس البندق . ثم تمنوا فى رى البندق بالمزاريق أو الأنابيب ، بضبط الهواء من مؤخر الأبواب ، بما يشبه (١٥٤) أنابيب الساق . فلما اخترعوا البارود ، صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب ، وسما هذه الآلة بدقية ، نسبة إياه . ومن قيل رى البندق رى الشاب فى الرعاس ، وهو غرس فى الهواء ، أو على رأس رمح أو نحوه . يطلبون إصابته بالشباب ، وهى لعبة فارسية ، أول من لعبها من الحلفاء الرشيد . راجع أيضا ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ح ١٢ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ؛ والمقرئزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣١ — ٣٢ ؛ و (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هذا ويرى (Blochet : Op. cit. P. 297. N. I.) أن النظام الذى ابتدعه الخليفة الناصر العباسى أصل هيات وجميات الفروسية الأوربية فى القرون الوسطى .

(١) كذا فى س بغير ضبط ، والزاجع أن هذا الرسم تعريب اسم (Guillaume) ، على أنه يوجد فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥ ، فى (Rec. Hist. Or. I.) تحت سنة ١٠١٨ هـ ، أى فى أوائل أيام الحروب الصليبية بالشام ، أن جوسلين كورتنييه ، صاحب تل باشى والرها فيما بعد ، وقع أسيرا فى يد المسلمين ، " وأسر معه ابن حالته كليام " ، واسمه الصحيح (Galeran) . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index . (٢) كذا فى س وبغير ضبط ، وترجه (Blochet : Op. cit. p. 297) إلى (Shāhrokh) . (٣) أضيف ما بين الأقواس فى هذه الفقرة لتوضيح العبارة ، وذلك بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Kaikhusraw I.)

وقد قبض أهلها على قلعج أرسلان بن ركن الدين . ثم قُتل كيخسرو بعد ما استفحل أمره ،
 وولى ابنه [عز الدين] كيكائوس بن غيات الدين .
 وفيها كانت وقعة بين حاج العراق وبين أهل مكة بمنى ، قُتل فيها عبد الشريف قتادة
 اسمه بلال ، فقبل لها سنة بلال .

سنة ثمان وستمائة . فيها قبض الملك العادل على الأمير عز الدين أسامة^(١)
 الصلاحي ، نائب كوكب ومجملون ؛ واعتقله وأخذ جميع ماله ، وسيره إلى الكرك ، فاعتقل
 فيها هو وولده . وتسلم الملك المعظم قلعة كوكب ومجملون ، وهدم قلعة كوكب ، وعفى أثرها .
 وفيها توجه الملك العادل إلى الإسكندرية ، لكشف أحوالها . وفيها قدم بهاء الدين بن (٧٠ ب)
 شدّاد من حلب إلى القاهرة ، يخطب ضيفة [حاتون] ابنة العادل شقيقة الكامل ، لابن عمها
 الظاهر^(٢) . فأجيب إلى ذلك ، وعاد مكرماً . وفيها ماتت أم الملك الكامل ، يوم الأحد
 خامس عشرى صفر ؛ فدفنت عند قبر الإمام الشافعى . ورتب ابنها عند قبرها القراء
 والصدقات ، وأجرى الماء من بركة الحبش إلى قبة الشافعى ، ولم يكن قبل ذلك . فنقل
 الناس أبنية القرافة الكبرى إلى هذه القرافة من حينئذ ، وعمروها .

(١) فى س سامة .

(٢) كان ابن شداد وزير الظاهر صاحب حلب منذ سنة ٥٩١ هـ ، وهو القاصى بهاء الدين
 أبو المحاسن يوسف بن رافع المشهور ، صاحب كتاب النوارى الساطية والمحاسن اليوسفية . ويوجد
 ابن شداد آخر ، وهو مؤرخ أيضاً ، واسمه عز الدين أبو عبد الله محمد ، توفى سنة ٦٨٤ هـ ، وله كتاب
 الملائق المطيرة فى ذكر أسماء الشام والحزرة (Enc. Isl. Art. Ibn Shaddād) .

(٣) كانت هذه البركة تعرف أولاً ببركة المغافر وبركة حير ، وعرفت أيضاً بإصطبل قرّة . وهى من
 أشهر برك مصر فى القرون الوسطى ، وموقعها بظاهر مدينة القضاة من قريبا ، فيما بين الحبل والنيل .
 وكانت أرضها مواتا ، فررعها قرّة بن شريك العبسى أمير مصر (٩١ — ٩٦ هـ) من قبل الأمويين ،
 وأحياها وغرسها قسبا ، ولهذا عرفت بإصطبل قرّة ، كما عرفت بإصطبل قاهش أيضاً . ثم تميز عليها
 الأسماء ، حتى صارت تعرف ببركة الحبش ، وحملت وقفا على الطالبين ، بنى على بن أبى طالب ، فاشتهرت
 ببركة الأشراف . وكانت بركة الحبش من أكبر متبرعات مصر ، يهرع إليها الناس فى أعياد النوروز
 والنفطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين . وقد بنى عندها الخليفة الأمر الفاطمى منظره ، سميت بمنظره
 بركة الحبش . وكان ماء النيل يدخل إلى هذه البركة من خليج بنى وائل ، مما يلي باب مصر من الجهة
 القبلىة ، وهو الذى صرف أيام القريرى بباب القنطرة . (القريرى : المواقظ والاعتبار ، ج ١ ،
 ص ٤٨٦ ؛ ج ٢ ، ص ١٥٢ — ١٥٧) .

وفيهما خرج العادل من القاهرة ، فصار إلى دمشق ، وبرز منها يريد الجزيرة ، فواصل إليها ورتب أحوالها ، وعاد إلى دمشق ، ومعه كليم الفرنجي .

وفيهما انقضى أمر الطائفة الصلاحية ، بانقضاء الأمير قراجا ، والأمير [عز الدين] ، وأسامة^(١) ، والأمير [غر الدين] جهاركس ، وصفت حصونهم للعادل وابنه المعظم ، وفيها نقل أولاد العاضد [الفاطمي] وأقاربه إلى قلعة الجبل ، في يوم الخميس ثاني عشر رمضان ، وتولى وضع القيود في أرجلهم الأمير غر الدين أطونبا^(٢) أبو شمرة بن الدويك ، وإلى القاهرة . و [كانت] عدتهم ثلاثة وستون نفسا .

وفيهما كانت بمصر زلزلة شديدة ، هدمت عدة دور بالقاهرة ومصر . وزلزلت الكرك والشوبك ، فمات تحت الهدم خلق كثير ، وسقط عدة من أبراج قلعتها . ورؤى بدمشق دخان نازل من السماء إلى الأرض ، فيما بين المغرب والعشاء ، عند أرض قصر عاتكة . وفيها^(٣) مات الموفق بن أبي الكرم التنيسي ، في يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول . ومات ظافر بن الأرسوف بمصر ، في سلخ رجب . وفيها اجتمع بالإسكندرية^(٤) ثلاثة آلاف تاجر ، وملكان من الفرنج . فصار العادل وقبص [على] التجار ، وأخذ أموالهم ، وسجن المسلمين . وفيها^(٥) ، أعفى سنة ثمان وستائة ، كانت فتنة بين حاج العراق وبين أهل مكة ، سببها أن حشيشيا جاء لقتل الشريف قتادة ، فقتل شريفاً اسمه أبو هارون عزيز ، ظناً منه أنه قتادة . فثار الفتنة ، وانهمز أمير الحاج ، ونهب الحاج عن آخره . وفر من مكة من بمكة

(١) في س سامه بفتح السين والميم .

(٢) كذا في س ، وبغير ضبط . وليس بالمراجع المتداولة الخواشي ما يشير بشيء يذكّر إلى هدا الأمير ، على أنه يوجد في ابن شداد (النواذر السلطانية ، ص ٣٠٦ ، في Rec. Hist. Or. III.) من اسمه الطنبا ، وقد صححه الناشر إلى التون بنا مع التشكك ، وعرفه بأنه كال عتيقا للملك العادل .

(٣) بل هذه الكلمة العبارة الآتية ، وهي مطبوعة ، لتدارك المؤاخذ كرها قبل ذلك (ص ١٧٤) ، ونصها : " مات أم الملك الكامل بالقلعة في يوم الأحد خامس عمري صفر " .

(٤) في س سكندره .

(٥) العبارة التالية ، إلى آخر حوادث السنة ، موجودة على ورقة مفصلة ، بين الصفحتين (٨) ب ،

١٤٩ . وواضح أن هذه الورقة لصقت هناك خطأ ، إذ العبارة الدليل الكافي لبرهنة ذلك .

من نواب الخليفة ، ومن المجاورين . فبعث الشريف قتادة ولده راجح بن قتادة إلى الخليفة يعتذر له عما جرى ، وقبل عذره ، وعفى عنه .

سنة تسع وستمائة . فيها نزل العادل بمساكره حول قلعة الطور ، وأحضر الصنائع من كل بلد ، واستعمل جميع أسراء العسكر في البناء ونقل الحجارة فكان في البناء خمسمائة بناء ، سوى الفعلة والنحاتين . وما زال مقبلاً حتى كملت . وفيها قدم ابن شداد من حلب إلى دمشق بمال كثير وخيل ، برسم عقد نكاح ضيفة [خاتون] ابنة العادل ، على ابن عمها الظاهر صاحب حلب ، فخرج إلى لقائه عامة الأمراء والأعيان . وعقد النكاح في المحرم ، على مبلغ خمسين ألف دينار ، ونثر النثار على من حضر بقلعة دمشق ، وذلك في المحرم . ثم جهزت إليه بحلب في تجمل عظيم ، من جملة^(١) قماش وآلات ومصاغ ، بحمله خمسون بغلاً ، ومائة بُخْتِي^(٢) ، وثلاثمائة جمل ، وجواري في المحامل ، على مائة جمل ، منهن مائة مغنيسة يلعبن بأنواع الملهي ، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة . فكان دخولها إلى حلب يوماً عظيماً . وقدم لها الظاهر تقادم : منها خمسة^(٣) عقود جوهر بمائة وخمسين ألف درهم ، وعصابة جوهر لا نظير لها ، وعشر فلاند عنبر مذهب ، وخمس فلاند بغير ذهب ، ومائة وسبعون^(٤) قطعة من ذهب وفضة ، وعشرون تخمنا من ثياب ، وعشرون^(٥) جارية ، وعشرة خدام . وفيها عزل المهام بن هلال الدولة من ولاية القاهرة ، وولى فخر الدين الطونبا^(٦) أبو شعرة مملوك المهراني في ...^(٧) [وفيها] تغير الملك العادل على الوزير صفى الدين بن شكر ، ورفع يده من الوزارة ، وأبقى عليه ماله وأخرجه إلى آمد ، فلم يزل بها حتى مات العادل . وفيها فوض العادل تدبير مصر ، والنظر في أمورها ومصالحها ، إلى ولده الملك الكامل ؛ فرتب [الكامل]

(١) في س حله .

(٢) البختي الواحد من الإبل الحراسانية ، وهي جمال ضخمة ، ذات سنابين ووبر أسود ، تستعمل في أسفار الشتاء ، والجمع غنّاق وبخت . (محيط المحيط ؛ Lane : Lexicon)

(٣) في س خمس . (٤) في س وسبعين .

(٥) في س وعشرين ، في الموضعين . أما التخت فقماش يسان فيه الثياب . (محيط المحيط) .

(٦) انظر ص ١٧٥ ، حاشية ٢ . (٧) يانز في س .

القاضي الأعز فخر الدين مقدم بن شكر ، ناظر الدولتين . وفيها خرج العادل من الشام يزيد خلاط ، (١٤٨) فسار إليها ودخلها ، وفيها ابنه الأشرف ، [و] قد استولى على ما بها من الأموال^(١) .

* * *

سنة عشر وستمائة . فيها تخوف الظاهر صاحب حلب من عمه العادل ، وأخذ في الاستعداد ، ثم ترأسلا حتى سكن الحال . وفيها ولدت صفية ابنة العادل لابن عمها الظاهر مولودا ، سمّاه محمدا ، ولقبه بالملك العزيز غياث الدين ، وذلك في خامس ذى الحجة . فزينت حلب ، واحتفل الظاهر احتفالا زائدا ، وأمر فصينغ له من الذهب والفضة جميع الصور والأشكال ما وُزن بالقناطير ، وصاغ [له] عشرة مهود من ذهب وفضة ، سوى ما عمل من الأبنوس والصندل والعود وغيره . ونسج للصبي ثلاث فرجيات من لؤلؤ ، في كل فرجية أربعون^(٢) حبة ياقوت ولعل^(٣) وزمرد ، ودرعان وخوذتان^(٤) وبركتوتان^(٥) ، كل ذلك من لؤلؤ ؛ وثلاثة^(٦) سروج مجوهره ، في كل سرج عدة قطع من جوهر رائع وياقوت وزمرد ؛ وثلاثة^(٧) سيوف ، علائقها وقبضاتها من ذهب مرصع بأنواع الجواهر ؛ وعدة رماح من ذهب ، أسنتها جوهر .

وفيها حج الظاهر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب من حلب ، فلما قارب مكة صدمه قصاد الملك الكامل محمد بن العادل عن الحج ، وقالوا : ” إنما جئت لأخذ بلاد اليمن “ ؛

(١) توجد قبالة هذا اللفظ ، بهامش الصفحة في س ، العبارة التالية : ” وفيها مات شهاب الدين ابن ظهير الدين ... ابن العطار بالقاهرة في رجب . ومات الملك الأوحـد [أيوب] بخلاط “ . ويظهر أن المقرئى أخطأ مكان هاتين الوقاتين ، لأن الأوحـد نجم الدين أيوب بن العادل ، وصاحب خلاط ، توفي سنة ٦٠٧ هـ . (انظر ما سبق هنا ، ص ١٧١ . المختصر في أخبار البشر ، ص ٨٦ ، في Rec. Hist. Or I ؛ و Lane-Poole : Saladin. Table II, in pocket .) (٢) في س أربعين .

(٣) اللؤلؤ هو البلخش ، حسبما جاء في القلشندي (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٩٩ — ١٠٠) . انظر ص ٥٠ ، حاشية ٨ ، وكذلك (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) في س وذريعين وخوذتين . (٥) في س وبرك اسطوان ، بفتحة على الواو فقط . والبركتوتان لفظ فارسي معرب ، معناه حارس البدن ، وهو ما يوضع حول أبدان الحيول كالدروع ، ويكون لفيلة كذلك . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . ويقابل هذا في الإنجليزية (Caparison) وفي الفرنسية (Caparaçon) ، وأصلهما من اللفظ الإسباني (Caparazon) ، كما جاء في المعاجم الإنجليزية والفرنسية . وحل هذا اللفظ الفارسي منذ الأيوبيين فيما يبدو محل لفظ عربي قديم وهو التجفاف . انظر ابن الجواليقي : العرب ... (٦) في س لث . (٧) في س ثلاث .

فقال [الظافر خضر]: "يا قوم! قيدوني، ودعوني أقضي مناسك الحج". فقالوا: "ليس معنا مرسوم إلا بردك". فردّ إلى الشام، من غير أن يجمع، فتألم الناس لذلك. وفيها مات الأمير نحر الدين إسماعيل وإلى مصر بها. وفيها دخل بنو مريم إحدى قبائل زناتة من القفر، ونهبوا أعمال المغرب، وحاربوا الموحدین وهزمهم، وكان أمير بنو مريم إذ ذاك عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمادة بن محمد بن ورصيص بن فكوس^(١) بن كوماط بن مريم.

* * *

[تتمة^(٢)] سنة عشر وستمائة. فيها حفر خندق مدينة حلب، فوجد فيه بلاطة صوّان، عليها أحرف مكتوبة بالقلم السرياني، فترجموه بالعربية، فإذا هو: "لما كان العالم محدثاً دل أن له محدثاً^(٣)، لا كهو"؛ وكتب [تحت هذه الأحرف]: "خمسة آلاف من السنين خلون من الأسطوان^(٤) الصغير". فقلّمت البلاطة، فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة وصوري^(٥)، على هيئة اللّبن، فاعتبرت فكان الحاصل منها ذهباً ثلاثة وستين^(٦) رطلاً بالحلي، وكان منها فضة أربعة وعشرين^(٧) رطلاً، وحلقة ذهب وزنها رطلان ونصف رطل، وصوري^(٨) عشرة أرطال ونصف، فكان الجميع رنته قنطار واحد بالحلي^(٩).

(١) كذا في س.

(٢) العبارة الآتية إلى آخر السنة، واردة في ورقة منفصلة في س، بين الصفحتين (٤٧ ب، ٤٨). وقد حذف كاتب النسخة ب (٨٨ ب) العوان كعادته، واكتفى بكتابة "وفيها حفر خندق...". (٣) في س: محدث.

(٤) أشكلت هذه الكلمة على المقرئ، فسكت فوقها "كذا"، وضبط كلمة الصغير بفتح الصاد، ولم يستطع الناشر أن يصل إلى توصيفها من المراجع والوسائل التي تيسرت له. هذا وقد ترجم (Blochet: Op. cit., p. 804) العبارة كلها إلى: "Ces inscriptions étaient datées de cinq mille ans a très peu de chose près".

(٥) كذا في س، وقد كتب المقرئ فوق هذا اللفظ أيضاً "كذا".

(٦) في س وستون. (٧) في س وعشرون.

(٨) توجد "كذا" فوق هذا اللفظ أيضاً.

(٩) وردت أخبار هذا الحفر، وظهور البلاطة، وما تحتها من معدن، في العيني (عقد الجمان، ج ١ قسم ٢، ص ٣٤٣)، وفي ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٩) دون أية إشارة إلى لفظ "الأسطوان" و"صوري"، ولا إلى الكتابة السريانية.

سنة إحدى عشرة وستمائة. فيها فر الملك المنصور بن العزيز [عثمان بن صلاح الدين يوسف] من اعتقال عم أبيه الملك العادل، ولحق بالظاهر صاحب حلب، [ولاد به] هو وإخوته، فأكرمهم [الظاهر]. وفيها تجمع فرنج قبرس وعكا وطرابلس وأنطاكية، و[انضم إليهم] عسكر ابن لاون ملك الأرمن، قصد بلاد المسلمين، فحافهم المسلمون. وكان أول ما بدأوا به بلاد الإسماعيلية، فنزلوا [قلعة] الخوّاني^(١)، ثم ساروا عنها إلى أنطاكية. وفيها ظفر السلطان عز الدين كيكائوس بن كيخسرو بن قلعج أرسلان السلجوقي، صاحب بلاد الروم، بالأشكرى^(٢) ملك الروم وفيها خرج الملك العادل من الشام يريد مصر، فنزل في القاهرة بدار

(١) بغير ضبط في س، ويقع هذا الحصن الجبلي على غرة عشر ميلا من أنطرسوس.

(Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 485 & Index).

(٢) يطلق التأخرون من مؤرخي المسلمين هذا الاسم على أباطرة الدولة البيزنطية، منذ أوائل القرن السابع الهجري. ذلك أنه لما استولت جيوش الفرنج اللاتين، الذين عرفت حملتهم بالحرب الصليبية الرابعة، على القسطنطينية سنة ٦٠٠ هـ (انظر ص ١٦٣)، حملوا إمبراطورها (Alexius III) وأقاموا بدله واحداً منهم، واسمه (Baldwin, Count of Flanders). ثم مالبت الوطنيون من البيزنطيين أن وجدوا في (Theodore Lascaris I)، زوج ابنة الإمبراطور المخلوع، زعيما لهم في حركة لإخراج اللاتين، فتوجه إمبراطوراً بمدينة نيقية سنة ١٢٠٦ م. وحكم "الأشكرى" (Lascaris) هذا إمبراطورية الروم بنيقية، حتى وفاته سنة ١١٢٢ م. (Camb. Med. Hist. IV pp. 423, 425, 427). وهذا الإمبراطور هو الذي قتل السلطان غياث الدين كيخسرو السلجوقي، سنة ١٢١٠ م. (انظر ص ١٧٣). ثم ظفر به عز الدين كيكائوس بن كيخسرو، كما في المتن، وكان قد وقع في يد لتركمان، فأسلّمه إليه. (أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، ص ٨٦، ٨٧، في Rec. Hist. Or. I.). وخلف الأشكرى هذا في إمبراطورية نيقية زوج ابنته، واسمه (John III.)، حتى توفي سنة ١٢٥٤ م. ثم حكم الإمبراطورية بعد هذا الإمبراطور ولده الوحيد (Theodore Lascaris II.)، حتى توفي سنة ١٢٥٨. وقد ترك هذا الإمبراطور الثالث ولدا قاصرا على عرش نيقية، واسمه (John IV.)، فخلعه وصيه (Michael Paleologus)، وأعلن نفسه إمبراطوراً سنة ١٢٥٩ م، باسم (Michael VIII)، وهو الذي وصفه الفلقشندي (صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٠٢) بأنه "بطريق من بطارقة الروم، شهرته لشكرى، واسمه ميخائيل"، يقصد بذلك أنه كان (Patricius)، أي من الأشراف، وليس من رجال الدين. (انظر محيط المحيط ؟ و Camb. Med. Hist. IV, pp. 503, 504 507-509). وهذا الإمبراطور الجديد هو الذي استرجع القسطنطينية، سنة ١٢٦١ م، من الفرنج اللاتين، وبسط سلطان الدولة البيزنطية عليها، كما كان من قبل (Op. Cit. IV, pp. 509-516). ويلاحظ أن ميخائيل هذا ليس من بيت الأشكرى الأول، بل هو سليل أسرة أخرى بالقسطنطينية، غير أن اسم الأشكرى غلب على أباطرة الدولة البيزنطية عامة. (الفلقشندي: نفس المرجع والجزء والصفحة). انظر أيضاً ابن الأثير (الكمال في التاريخ، ج ١٢، ص ١٢٦).

الوزارة ، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل . و [أمر العادل أن يقيم] معه كليام^(١) [الفرنجي الجنوى] بدار الوزارة . وفيها ورد الخبر بموت سنقر أتابك اليمن ، واستقر بعده الملك الناصر أيوب [صاحب اليمن في ملكه] ، وقام بأتابكيتة غازى .

وفيها شرع الملك العادل فى تبليط جامع بنى أمية [بدمشق] ، وكانت أرضه حُقراً وجُوراً^(٢) ، وتولى العمل الوزير صفى الدين بن شكر . وفيها تعامل أهل دمشق وغيرها بالقراطيس^(٣) السود العادلية ، ثم بطلت بعد ذلك ، وفُتِنِت . وفيها تولى سهم الدين عيسى القاهرة فى شوال ، وتولى جمال الدين ابن أبى المنصور وكالة بيت المال [سها] . ومات سعد ابن سعد الدين بن كوجيا^(٤) فى عشرى ربيع الآخر .

وفيها حجج الملك المعظم عيسى بن العادل من دمشق ، وحجج معه الشريف سالم بن قاسم بن مهنا الحسينى أمير المدينة النبوية . فعزم الشريف قتادة أمير مكة على مسكه ، فلم يتمكن منه ، فعاد [الشريف سالم] صحبة الملك المعظم إلى دمشق . فبعثه المعظم على عسكر إلى مكة ، فمات فى الطريق قبل وصوله مكة ، فقام جهاز بن قاسم - وهو ابن أخيه - بتدبير الجيش . فجمع قتادة ، وسار إلى ينبع وبقية ، فهزم قتادة .

سنة اثنتى عشرة وستمائة . فيها نازل الفرنج [قلعة] الخوايى ، وحاربوا الباطنية ، ثم صالحوهم . وفيها سير الخليفة الناصر [لدين الله] كتابه الذى ألفه وسماه روح العارفين^(٥) ، إلى الشام ومصر وغيرها ليُسمع . وفيها ملك الفرنج أنطالياة ، وقتلوا من بها من المسلمين .

(١) فى س "ومعه كلنام (كدا) بدار الوزارة" وقد أصيب ما بين القوسين لتوضيح العبارة .
(٢) انظر (١٧٣) .
(٣) صط المرفرى الحرف الأول من الكلمتين بالضم . وفى محيط المحيط :
الجورة هى المحفرة ، وما انخفض من الأرض ، والجمع حور . (٣) معنى القراطيس هنا القضبان من الفضة ،
(Dozy : Supp. Dict. Ar.) غير أن وصفها بالسواد يدل على أنها من نحاس . (انظر ص ٩٩ ، حاشية ١) .
(٤) كذا فى س ، وبغير ضبط ، وهو مترجم فى (Blochet : Op. cit. p. 306) إلى (Kōūkiā)
(٥) كتاب فى الحديث . انظر (Blochet : Op. cit. p. 306. N. 3) . (٦) فى س
انطاكيا ، وبغير ضبط . وخطأ المقرئى واضح من بقية العبارة ، بالصفحة التالية . وأنطالية ثغر حصين ،
بآسيا الصغرى ، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٨) .

وكانت بيد الملك [غيث الدين كيخسرو ، منذ فتحها سنة اثنتين وستائة ، إلى أن أجلاه الفرنج عنها سنة سبع وستائة . ثم استردها منهم الملك] الغالب عز الدين كيكاوس [سنة ثلاث عشرة وستائة ، بعد أن بقيت بأيدي الفرنج تلك المدة . وفي هذه السنة أيضا سار عز الدين إلى بلاد الأرمن ، وحاصر قلعة جابان ، وهزم عندها جيوش الأرمن ، ورجع إلى قيصرية قبل أن يستولى على قلعة جابان . ثم طلب الأرمن الصلح ، وأجابهم إليه عز الدين [، (٨ ، ب) فأخذ [في مقابل الصلح] من بلاد الأرمن قلعة أولوة [ولؤزاد] .

وفيها مات الملك المعظم أبو الحسن علي بن الخليفة الناصر [لدين الله ، وهو أصغر أولاده^(٢) ، فلما قدم نفيه على ملوك الأطراف جلسوا في العزاء ، لابسين شعار الحزن ، خدمة للخليفة .

وفيها سير الملك الكامل ابنه الملك المسعود صلاح الدين يوسف إلى اليمين ، فخرج في جيش كثيف من مصر ، وسار إلى بلاد اليمين ، فاستولى على معاقها^(٣) ، وظفر بصاحبها الملك سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب . فسيره تحت الحوطة إلى مصر ، فأقام بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستائة ، فخرج إلى المنصورة غازيا ، فقتل شهيدا . ودانت بلاد اليمين للملك المسعود .

وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى القاهرة ، فلما قرى عليه ما أنفق على الملك المسعود في خروجه إلى اليمين استكثره . وأنكر [العادل] خروجه ، فإنه كان يغير أمره . وأصر [العادل] بالقاضي الأعز فُضرب وقيد ، واعتقل بقلعة الجزيرة ، ثم حمله إلى قلعة بصرى ، فسجنه بها . وفيها

(١) أضيف ما بين الأقواس للتوضيح ، وهذا بعد مهاجمة (Enc. Isl. Arts Kaikau I. & Kalkusraw. I.) وقد ضبطت الأعلام ، إلى استلزمها العبارة ، على منطوقها في هاتين المقالتين .

(٢) أفرد ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٢) لصلا لوفاة أبي الحسن هذا ، قال فيه إن " الخليفة حزن عليه حزنا لم يسمع بمثله ، حتى أنه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينههم عن إتيان رسول إليه يزيه بولده ، ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة ، وانقطع وخلا بهوموه وأحزانه ، وروى عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ... وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة ؛ فقبل إن ذلك صوت الخليفة ... " . (٣) في س معاقله .

نقل العادل أمواله وذخائره وأولاده إلى الكرك . وفيها وعك بدنه . وفيها^(١) أبطل الملك العادل ضمان الحجر والقيان^(٢) .

وفيها مات تقي الدين الألو^(٣) ، شيخ الخاقاه^(٤) [الصلاحية ، دار] سعيد السعداء ، في الحرم .

(١ و ٢) ما بين الرقين جزء من هامش بالصفحة في س ، وبقيته تكرار لما سبق ورودده عما حدث بين الشريف قتادة أمير مكة ، والشريف سالم أمير المدينة النبوية ، بمخاضه (انظر ص ١٨٠) . على أن هذا التكرار لم يخل من النغمة ، فقد قبلت العبارة السابقة عليه ، وهذا نص : " وفيها حاصر الشريف قتادة أمير مكة المدينة النبوية ، وقطع نخلا كثيرا . وكان أمير المدينة النبوية عند الملك العادل بالعام ، نبعت معه جيشا ، وسار فأتى الطريق . فقام بأمر الجيش ابن أخيه جاز بن قاسم ، وسار إلى مكة ، وقاتل أهلها ، وهزم قتادة إلى ينبع ، وغنم شيئا كثيرا ، وتم قتادة ، وحصره بينبع " .

(٣) بنير ضبط في س ، وهو اسم يطلق على شعبة من الأكراد ، ويسمون اللورية . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٩ ، ص ٢٧٣ ، ٣٥٦ ؛ ج ١١ ، ص ١٥٧ .

(٤) في س شيخ خانكاه . والخانقاه والرباط والزوايا ، وجهها خوانق ورباطات وزوايا ، معاهد دينية إسلامية ، للرجال والنساء . . . وهي كالأديرة في المسيحية ، ويطلق الرباط أحيانا على الدير المسيحي ، كما يقال للراهب المسيحي رباط . غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوماً للرهينة ، وإنما أنشئت لإيواء المتطوعين للعلم ، والزهاد والعباد . وكان غرس منشئها ، والتصدقين عليها ، فعل الخير واكتساب الثواب . واقطع الرباط والراوية عرييان ، فأصل الرباط مكان إقامة الحامية المرابطة عند نفور العدو ، كما أن الراوية في الأصل الركن من الدار ، أو المسكن عامة . (محيط المحيط) . أما الخانقاه فقارسية ، ومعناها البيت ، وهي حديثة في الإسلام ، — في حدود الأربعينات — وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة والتصوّف . وأوّل من أحدث الخوانق في مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكانت الخانقاه التي أنشأها دارا تعرف أولا بدار سعيد السعداء ، نسبة إلى الأستاذ قنبر سعيد السعداء ، عتيق الخليفة المستنصر الفاطمي . " وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة ، فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها ، وفتح من دار الوزارة إليها سردابا تحت الأرض ، ليقيم فيه . ثم سكنها الوزير شاور بن مجير في أيام وزارته ، ثم ابنه الكامل . فلما استقبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ملك مصر ، بعد موت الخليفة العادل ، وغير رسوم الدولة الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد ، عمل هذه الدار برسم الفقهاء الصوفية ، الواردن من البلاد الشاسعة . ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولى عليهم شيخا ، ووقف عليهم بستان الحبابية ، بجوار بركة القبل خارج القاهرة ، وقبائرية الصراب بالقاهرة ، وناحية دهمرو (كذا) من البهنساوية . وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للعقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطاني ؛ ومن أراد منهم السفر يسطي تسفيره . ورتب للصوفية في كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبني لهم حماما بجوارهم ؛ فكانت أوّل خانكاه (كذا) عملت بديار مصر . وعرفت بدورة الصوفية ، ونمت شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر ذلك بعده " (المقرئى : الواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤١٤ — ٤١٦ ؛

وفيها مات ابن سُوْرُوْس^(١) بن أبي غالب بطريق^(٢) اليعاقبة ، في يوم الخميس عيد الغطاس ، سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة للشهداء — وهو الرابع عشر من رمضان — وله في البطركية مدة ست وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما . وكان أولا يتجبر إلى بلاد اليمن ، ففرق [سره] ، وجاء الخبر بأن لم يسلم سوى بحشاشته . وكان لأولاد الجباب^(٣) معه مال ، فأيسوا منه . فلما أجمع بهم أعلمهم أن ملهم سَلِمَ ، فإنه كان قد عمله في مقابر من خشب ، وسمرها في المركب ، وأحضره إليهم . فتميز عندهم بذلك ، حتى مات البتريك مرقس^(٤) ابن زَرْعَة . فتحدث ابن سوروس^(٥) في البتركية للقس أبي ياسر ، وكان مقيا بالدَّوِيَّة^(٦) . فحسن له بنو الجباب^(٧) أن يقوم هو بأمر البتركية ، فتحدث في ذلك ، وزكوه فتولى . وكان معه يومئذ سبعة عشر ألف دينار مصرية ، فرّقها في مدة بطركيته على الفقراء ، وأبطل الدَّيَّارِيَّة^(٨) ، ومنع الشَّرْطُوْنِيَّة^(٩) ، ولم يأكل في ولايته كلها لأحد من النصارى خبزا ، ولا قبل اصغير ولا لكبير منهم هدية . وكان القس داود بن يوحنا — المعروف بابن آفَلَق^(١٠) ، من أهل الفيوم — ملازما للشيخ آنس^(١١) الخليفة أبي الفتوح بن الميقاط ، كاتب الجيوش

(١) في س اساموس وبغير ضبط ، واسمه أبو الماسجد بن أبي غالب بن سوروس ، واتخذ اسم حنا السادس لما تولى البطركية ، سنة ٥٨٥ هـ .

(Butcher : Church of Egypt. II. pp. 115, 120, 123 ; Blochet : Op. cit. p. 308, N. 1.)

(٢) كذا في س ، ويلاحظ أنها واردة ، وكذا لفظ البطركية المشتق منها ، بالهاء بدل الطاء ، في نفس الصفحة في س . (انظر سطر ٦ ، ٧ هنا) .

(٣) بغير ضبط في س ، انظر الذهبي : كتاب المؤلف والمختلف والمشتبه ، ص ١٣٨ .

(٤) بغير ضبط في س . انظر بعض أخباره في (Butcher : Op. cit. II. pp. 87-89 et seq.)

(٥) في س اساموس . (٦) قرية جنوبي القسطنطينية ، على شاطئ النيل ، بها دير اسمه دير الطين (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٨٦ ؛ ج ٣ ، ص ٦٢٤) . (٧) في س الجنباب .

(٨) نسبة إلى الديار ، وهو رئيس الدير ، ويظهر أن البطريق كان يفرض على الأديرة ضريبة بهذا الاسم . (المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٥٠١) . (٩) بغير ضبط في س ، وفي محيط المحيط : " شرطن الأسقف الراهب ، أى رسمه قسا ، بوضع يده عليه . وهو مأخوذ من الشرطونية ، معرب خرتونيا باليونانية ، ومعناها وضع اليد ... " . ويوضح من قول المقرئ أن الشرطونية كانت ما يدفعه القس للكنيسة عند ترسيمه . (Dozy Supp' Dict. Ar.) .

(١٠) بغير ضبط في س . انظر (Butcher : Op. cit. II. p. 124) . (١١) في س لشو .

العادية ، و [كان] يسافر معه ويصلي به . فلما (١٤٩) مات ابن سوروس^(١) سأل أبو الفتوح الملك العادل أن يولى القس داود البتركية ، فأجابته وكتب له توقيعاً بذلك ، من غير أن يعلم الملك الكامل^(٢) . فلم يعجب بعض النصارى ولاية داود ، وقام منهم رجل يعرف بالأسد ابن صدقة ، كاتب دار الثغاح^(٣) بمصر ، وجمع كثيراً من النصارى المعصارين بمصر ، وطلع في الليلة التي وقع الاتفاق على تقدمه القس داود في صبيحتها ، ومعه الجمع إلى تحت قلعة الجبل . واستغاثوا بالملك الكامل ، وقالوا : "إن هذا الذي يريد أبو الفتوح عمله بطركا بغير أمرك ما يصلح . ونحن في شريعتنا لا يقدم البطرک إلا باتفاق الجمهور عليه" . فخرج إليهم الأمر [من عند الكامل] بتطبيب قلوبهم . وفي سحر النهار ركب القس داود ، ومعه الأساقفة — وعالم كبير من النصارى — ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر ، وكان ذلك يوم الأحد عيد الزيتون . فركب الملك الكامل إلى أبيه ، وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود ، ولا يجوز عندهم تقدمته إلا باتفاق جمهورهم . فسير الملك العادل إلى الأساقفة ليحضروا حتى يتحقق الأمر ، فوافاهم الرسل مع القس داود ، عند زقاق كنيسة الحراء^(٤) . فأحضرت الأساقفة إلى الملك العادل ، ودخل داود إلى كنيسة الحراء ، وانحل أمره ، وخلا الكرسي من بطريق ، تسع عشرة سنة ومائة وستين^(٥) يوما .

(١) في س انانوس . (٢) لم يترجم . (Blochet : Op. cit. p. 309) ما يلي هذا من أحوار تلك الأزمة في الكنيسة القبطية ، على أنها موجودة في ب (١٥٩) . (٣) في س الفاح بعير ضط ، وكانت دار التفاح فندقاً تحاه باب زويلة ، يرد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها ، مما ينبت في بساتين ضواحي القاهرة . (المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٣) : وكان بدمشق أيضاً دار مشابهة لها ، اسمها دار البطيخ والفاكهة . (G.-Demombynes : Op. cit. p. 151) . (٤) موضع هذه الكنيسة بخط قناطر السباع ، فيما بين القاهرة ومصر ، وقد بنيت سنة ١١٧ هـ ، وكانت تعرف أولاً بكنيسة بوسا (يوحنا ٢) . وكانت معظمة عند النصارى ، لا تقطع كثير من المتعبدین بها ، ويحمل إليها نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه ، ويعشون إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة . (المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢ ، ٥) . (٥) وافق الملك الكامل أخيراً على اعتلاء القس داود كرسي البطركية ، وتسمى باسم كيرلس الثالث (Cyril III) . انظر (Butcher : Op. cit. II. pp. 128-126, 131-132, 135-138, 139 et seq)

وفي جمادى الأولى صرف الملك العادل زكى الدين الطاهر بن محيى الدين محمد بن على القرشى عن قضاء دمشق؛ وألزم جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل الحرستانى^(١) بولاية القضاء [بها]، وله [من العمر] اثنتان وتسعون سنة. وفيها قدم إلى القاهرة من الشرق رجل معه حمار، له منام كسنام الجمل، يرقص ويدور، ويستجيب له إذا دعاه.

• • •

سنة ثلاث عشرة وستمائة. فيها ولي بهاء الدين ... (٢) ... بن الجيزى خطابة القاهرة، فى ثالث عشر الحرم. وولى أبو الطاهر المحلى خطابة مصر، فى ثانى صفر. [وفيها] سار الملك العادل من القاهرة إلى الإسكندرية، فرتب أمورهما وعاد. وفيها قدم البهاء ابن شداد برسالة الظاهر من حلب إلى العادل، وهو بالقاهرة. فرض الظاهر فى خامس عشرى جمادى الأولى، ومات فى ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، عن أربع وأربعين سنة وأشهر، ومدة تملكه بحلب إحدى وثلاثون^(٣) سنة. وكان قد سمع الحديث وأسمعه بحلب، وكان سفاكا للدماء، شهما يقظا صاحب سياسة، وله شعر حسن. وقام من بعده ابنه الملك العزيز غياث الدين محمد، وعمره يومئذ سنتان وأشهر^(٤)، بهد [من] أبيه. وكان الملك العادل — عند ما مرض الظاهر — رتب بريدا من مصر إلى حلب يطالعه بغيره، فأتاه نعيه قبل كل أحد. فأحضر [الملك العادل] ابن شداد، وقال له: "يا قاضى! صاحبك قد مات فى ساعة كذا من يوم كذا". فعاد ابن شداد إلى (٤٩ ب) حلب.

وفيها كان ابتداء خروج التتر من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم. وفيها قدم الشريف قاسم من المدينة النبوية، فأغار على جدة، فخرج إليه الشريف قيادة أمير مكة، وكسره يوم عيد النحر.

(١) نسبة إلى حرستا، وهى قرية كبيرة، فى وسط بساين دمشق، على مسافة فرسخ منها، فى الطريق إلى حمص. وكان الشيخ عبد الصمد "تقة محتاطا، وكان فيه عسر وملل، فى الحديث والحكومة، ومولده سنة ٥٢٠هـ". (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٤١). انظر ص ١٨٨. (٢) يياض فى س. (٣) فى س ثلاثين. (٤) فى س واشهر.



سنة أربع عشرة وستمائة . فيها وصل الشيخ صدر^(١) الدين بن سمويه من بغداد ، بجواب رسالة الملك العادل إلى الخليفة الناصر [لدين الله] . وفيها تتابعت أمداد القرنج في البحر من روما وغيرها إلى^(٢) عكا ، وفيهم عدة من ملوكهم — وقد نقضوا الصلح ، وعزموا على أخذ القدس ، وسائر بلاد الساحل وغيرها — فخرج العادل من مصر بمساكره ، وسار إلى لد . فبرز القرنج من عكا في خلق عظيم ، فرحل العادل على نابلس ، ونزل في بيسان . فقال له أبنه المعظم لما رحل : ” أين ياباه ؟ ” . فسبّه [العادل بالعجمية] ، وقال : ” [بمن أقاتل ؟] أقطعت الشام بمالكك ، وتركت من يتفنى من أبناء الناس [الذين يرجعون إلى الأصول] ” ، وذكر كلاما في هذا المعنى^(٣) .

فقصده الفرنج ، فلم يطق لقاءهم ، لقلّة من معه . فاندفع من بين أيديهم على عقبة فيق^(٤) ، وكتب بتحصيل دمشق ، ونقل الغلات من داريّا^(٥) إلى القلعة ، وإرسال الماء على أراضي داريّا وقصر^(٦) حجاج والشاغور^(٧) . ففزع الناس وابتهلوا إلى الله ، وكثر ضجيجهم بالجامع . فزحف الفرنج على بيسان — وقد اطمأن أهلها بنزول العادل عليهم — فاتهبوها

(١) في س ص د . انظر أما العداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ٩٥ ، ١١٤ ، Rec. Hist. Or. I.) وكذلك (Blochet : Op. cit. P. 311. N. 2.) .

(٢) يوجد في (Blochet : Op. cit. p. 311. N. 3.) تفصيلات من كتاب فرج الكروب لابن واصل ، عن تلك الحملة الصليبية ، وهي المعروفة في التاريخ بالحامسة . (٣) أضيف ما بين الأقواس من أبي شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٦٢ ، في Rec. Hist. Or. V.) (٤) بغير ضبط في س ، وفيق بلدة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٩٣٢) بين دمشق وطبرية ، ويقال لها أفيق أيضا (Blochet : Op. cit. P. 312. N. 3.) (٥) بغير ضبط في س ، وهي قرية كبيرة من قرى دمشق بالموطة ، والنسبة إليها داراني ، على غير قياس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٣٦) . (٦) يطلق لفظ قصر ، مضافا لاسم آخر . على كثير من المواضع حول دمشق ، مثل قصر أم الحاكم ، وقصر بى عامر . ويقع قصر حجاج ، وهو بغير ضبط في س ، عند ظاهر باب الجابية ، وهو محلة كبيرة ، ترجع في نسبها إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٠) . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. P. 312 N. 3.) (٧) بغير ضبط في س ، وهي علة بالباب الصغير ، طاهر مدينة دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٣٦) .

وسائر أعمالها ، وبذلوا في أهلها السيف ، وأسروا وغنموا ما يحل وصفه . وانبثت سرايهم فيها هنالك ، حتى وصلت إلى نوى^(١) . ونازلوا بانياس ثلاثة أيام ، ثم عادوا إلى صريح عكا ، وقد أنكروا في المسلمين أعظم نكاية . وامتلات أيديهم بالأسرى ، والسبي والغنائم ، وأتلفوا بالقتل والتجريق ما يتجاوز الوصف . فلم يملكوا بالمرج سوى قليل^(٢) ، ثم أغاروا ثانيا ، ونهبوا صيدا والشقيف ، ورجعوا . وذلك كله من نصف شهر رمضان إلى يوم عيد الفطر .

ونزل العادل بمرج الصفر ، ورأى في طريقه رجلا يحمل شيئا ، وهو يمشي تارة ويقعد أخرى ، فقال له : ” يا شيخ ! لا تعجل ، ارفق بنفسك “ . فقال له : ” يا سلطان المسلمين ! أنت لا تعجل ، أو أنا ؟ إذا رأيتك قد سرت من بلادك ، وتركنا مع الأعداء ، كيف لا تعجل ؟ “ .

وعندما استقر العادل بمرج الصفر ، كتب إلى ملوك الشرق ليقدموا عليه : فأول من قدم عليه أسد الدين شيركوه ، صاحب حمص ، [وهو ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، عم السلطان صلاح الدين يوسف^(٣)] . ثم إن العادل جهز ابنه المعظم عيسى [صاحب دمشق] ، بطائفة من العسكر إلى نابلس ، كي يمنع الفرنج من بيت المقدس . فنازل الفرنج قلعة الطور ، التي أنشأها العادل ، وجدوا في قتال أهلها ، حتى تمكنوا من سورها ، وأشرفوا على أخذها . فقدّر الله أن بعض ملوكهم قُتل ، فانصرفوا عنها إلى عكا^(٤) ، بعد ما أقاموا عليها سبعة عشر يوما . وانقضت السنة والحال على ذلك ، من إقامة الفرنج بمرج عكا ، والعادل بمرج الصفر .

(١) بغير ضبط في س ، وهي بايدة من أعمال حوران ، وقيل هي نصبتها ، بينها وبين دمشق منزلتان .
(ناقوت : معجم البلدان ، ح ٤ ، ص ٨١٥)

(٢) في س قليلا . (٣) انظر (Lane-Poole : Saladin. Table II. in pocket) .

(٤) كان قائد الصليبيين في تلك الواقعة ” ملك المنكر “ ، وهو (André. II. Roi de Hongrie) ، وقد انصرف بعساكره كما في المتن . أما ” بعض ملوكهم “ ، الذي قتل في تلك الملحمة ، فاسمه غير موجود في المراجع المتداولة في هذه الحواشي ، وغاية ما هنالك أنه ” كند كبير “ أي (grand comte) . وقد حاول ابن أخت ملك الجبر ، بعد انفصال الفرنج عن الطور ، أن يستولى على جبل صيدا ، فقبأه المسلمون هناك وأسروه ، بعد أن قتلوا معظم عساكره . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٦٢ — ١٦٥ ، في

وفيها مات القاضي الأجل قاضي قضاة الشام أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد الأنصاري الخزرجي العبادي^(١) السعدي الدمشقي الشافعي جمال الدين بن الحرستاني ، في رابع ذى الحجة ، ومولده بدمشق في أحد الربيعين ، سنة عشرين وخمسمائة . و [مات] الأمير الكبير بدر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري ، قتله الفرنج على حصن الطور ، فنقل إلى القدس ، ودفن بتربته . و [مات] الشجاع محمود ابن الدباغ ، مضحك الملك العادل ، وترك مالا جزيلا .

سنة خمس عشرة وستمائة . فيها اجتمع رأى الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر ، والاجتهاد في تملكها . فأقلعوا في البحر ، وأرسوا على دمياط ، في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول — الموافق لثامن حزيران — على بر جزيرة^(٢) (١٠٠) دمياط ، فصار النيل بينهم وبين البلد . وكان إذ ذاك على النيل برج منيع ، في غاية القوة والامتناع ، فيه سلاسل من حديد ، عظام القدر والغلظ ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر . وتمتد هذه السلاسل في برج آخر يقابله ، وكانا مشحونين بالمقاتلة ، ويعرف اليوم مكانهما في دمياط بـ «البرجين»^(٣) .

(١) مضبوط في س بضم العين فقط . (٢) الجزيرة في اللغة الناحية وجانب الوادي ، (محيط المحيط ، والمقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٠٥) ، ولعل تلك التسمية راجعة إلى وقوع الجهات المسماة بهذا الاسم عند مجاز النهر .

(٣) تقدم ذكر اهتمام السلطان صلاح الدين يوسف بهذين البرجين ، وسلاسلهما (انظر ص ٧٢ ، حاشية ٤) ، وقد أفاض معظم المؤرخين في وصفهما ، لمناسبة استيلاء الصليبيين على أحد البرجين ، كما سيأتي فيقول أبوشامة (كتاب الروضتين ، ص ١٦٧ — ١٦٨ ، في Rec. Hist. Or. V.) " قلت وأذكر وأنا بدمشق ، حين بلغ الناس أخذ [الفرنج] برج السلسلة . وقد شق [ذلك] على من يعرفه مشقة شديدة ، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي ، ورأيت يضرب يدا على يد ، ويعظم أمر ذلك . وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه ، قال : هو قفل الديار المصرية ، وصدق . فإني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين [وستمائة] ... بأن لي صحة ما أشار الشيخ إليه . وذلك أنه برج عال ، مبني في وسط النيل ، ودمياط يحذاته على حافة النيل من غربه ، وفي ناحيته سلسلتان ، تمتد إحدهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى البحيرة ، فيمنع (كذا) كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها ، إذا أريد ذلك ، حين قتال العدو . فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوتقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور (١٦٨) إليها ، ومتى لم يكن (كذا) السلسلة عبرت المراكب ، وبلغت إلى القاهرة ومصر ، وإلى قوس وأسوان ، والله المستعان " . انظر أيضا ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ — ٢١٧ ؟ والمقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٣ وما بعدها) . هذا وقد اعتمد المقرئزي في رواية هذه الحوادث ، في كتابه هنا ، وفي المواعظ والاعتبار ، على ابن الأثير ، اعتمادا كلياً ، وحرافياً تقريباً .

وصار الفرنج في غربي النيل ، فأحاطوا على معسكرهم خندقا ، وبنوا بدائره سورا . وأخذوا في محاربة أهل دمياط ، وعملوا آلات وسمائم^(١) ، وأبراجا^(٢) [متحركة] ، يزحفون بها في المراكب إلى برج السلسلة ليلسكوه ، حتى يتمكنوا من البلد . فخرج الكامل بمن بقي عنده من العسكر ، في ثالث يوم من سقوط الطائر ، لخمس خلون من ربيع الأول . وتقدم إلى والي الثرية بجمع سائر العربان ، وسار في جمع كثير . وخرج الأسطول ، فأقام تحت دمياط ونزل السلطان [الكامل] بناحية العادلية^(٣) ، قريبا من دمياط ، وسير البعوث لينبع الفرنج من العبور . وصار يركب في كل يوم عدة صرار من العادلية إلى دمياط ، لتدبير الأمور وإعمال الحيلة في مكايده الفرنج .

وألح الفرنج في مقاتلة أهل البرج ، فلم يظفروا بشيء ، وكسرت^(٤) مرماهم وآلاتهم ، وتماذى الأمر على ذلك أربعة أشهر . هذا و [الملك] العادل يجهز عساكر الشام شيئا بعد شيء إلى دمياط ، حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد يتحصر عدده .

وفي أثناء ذلك ورد الخبر بحركة الملك [الغالب عز الدين] كيكافوس السلجوقي ، سلطان الروم ، إلى البلاد الشامية ، بموافقة الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام ، وأنه وصل إلى منبج^(٥) ، وأخذ تلّ باثير . واتفق [كيكافوس] مع الملك الأفضل على بن صلاح الدين

(١) جمع مرمة ، وهي نوع من السفن الكبار . (انظر ما يلي ، وكذلك Blochet : OP. cit. P. 315 ، حيث ترجمت إلى (gros navires) . وفي القرظي (اللواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٦) أن الصليبيين هاجوا برج دمياط بعد أن " عملوا برجاً من الصواري على بطة (كذا ، ولعل المقصود بطة) كبيرة ، وأقاموا بها حتى أسندوها إليه ، وفاتلوا من به " . (٢) في س وأبراج .

(٣) يسمى القرظي (نفس المرجع والجزء والصفحة) هذا الموضع بالمنزلة العادلية ، والمنزلة فقط ، وواضح أنه لا علاقة بين هذه الناحية وبين بلدة المنزلة الحالية ، الواقعة على بحيرة المنزلة . انظر (P. Omar Toussoun : OP. Cit. I. 2. Pl. II. b.) (٤) في س كسر . (٥) في س منبج ، وبشير ضبط . ومنبج مدينة قديمة ، تقع على مسافة ثلاثة فراسخ من الفرات ، وعشرة فراسخ من حلب ؛ ومنها البحري وأبو فراس الحمداني . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٥٤ - ٦٥٦) .

(٦) بشير ضبط في س ، وهو قلعة حصينة ، وكورة أيضا ، في شمالي حلب ، بينها وبين حلب يومان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦٤) .

[صاحب سيمساط] أنه يسلمه ما يفتحه من البلاد، فلم يف [كيكاوس]^(١) بما وعد، وسلم ما فتحه لنوابه. فتنقعد عنه كثير من الناس، وأوقع العرب بطائفة من عسكره، فقتلوا وأسروا منهم كثيرا، ونهبوا لهم شيئا له قدر، فرجع إلى بلاده بغير طائل.

هذا والعدل بمرج الصقر، فبينما هو في الاهتمام بأمر الفرنج، إذ ورد عليه الخبر بأخذ الفرنج برج السلسلة بدمياط، فتأوه وتأوها شديدا، ودق بيده على صدره أسفا وحزنا، ومريض من ساعته. فرحل من المرج إلى عالقين^(٢)، وقد اشتد مرضه، فمات في سابع جمادى الآخرة يوم الخميس، فكلم أصحابه موته، وقالوا قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى، فحمل في محفة، وعنده خادم، والطبيب راكب بجانب المحفة، والشَّرَّ بدار يصلح الأثرية، ويحملها إلى الخادم ليشر بها السلطان، يوم الناس بذلك أنه حي، إلى أن دخل قلعة دمشق، وصارت بها الخزائن والحرم وجميع البيوتات. فأعلم بموته، بعد ما استولى ابنه الملك المعظم على جميع أمواله، التي كانت معه، وسائر راحته^(٣) ونقله، ودَفَنَه (٥٠ ب) بالقلمة. فاخبط الناس حتى ركب

(١) أضيف ما بين الأقواس بمراجعة (Enc. Isl. Art. Kalkaus. I.).

(٢) بغير ضبط في س، وهي قرية بطاهر دمشق. (Le Strange: Palest Under Moslems. P. 391. (٣) تقدم أشاه هذا الاسم المركب، عبد التظام على الأستاذار والدوادر، والسجدار والجدار، وغيرها. ومدلول وطيفة الشربدار طاهر، وهو الخدمة بتمرا بجاناه السلطان، أو الأمير. غير أنه ينبغي التنبيه إلى أن تلك الوطيفة كانت من وظائف الخدم، أو الحرف الصناعيه. (القلقشندي. صبح الأعشى، ح ٥، ص ٤٦٩). أما الأمير الذي يتولى سقى السلطان على الموائد، ويهيمن على مد السماط وقطيع اللحم، وسقى المشروب بعد رفع السماط، فاسمه السابق (نفس المرجع والجزء، ص ٤٥٤). وكانت هناك وطيفة أخرى تتعلق بطعام السلطان، أو الأمير، وهي وطيفة الخاشنكير، ويقوم صاحبها بدوق الماء كؤل والمشروب، قبل السلطان أو الأمير، خوفا من أن يدس عليه فيه سم أو عوه. وتركب هذه الكلمة من امطين فارسين، أحدهما جاشنا ومعناه الدوق، والثاني كبر وهو بمعنى المتعاطى. (نفس المرجع والجزء، ص ٤٦٠).

(٤) بغير ضبط في س، وهو لفظ فارسي معناه المتاع. (Quatremère: Maml. I. I. P. 253) وفي (Dozy: Supp. Dict. Ar) الذي عليه رخت جيل.

المعظم ، وسكن أمر الناس ، ونادى في البلد : ” ترحموا على السلطان الملك العادل ، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم . أبقاه الله “ . فبكى الناس بكاء كثيرا ، واشتد حزنهم لفقده .

وكان مولده في المحرم سنة أربعين — وقيل سنة ثمان وثلاثين — وخمسمائة بدمشق .

وسمع من السلفى وابن عوف ، وعُرفت مواقفه في جهاد العدو بشرف دمياط ، في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أيام الخليفة العاضد ، وفي مدينة عكا ، وملك دمشق في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وكانت مدة ملكه لها ثلاثا وعشرين سنة . وملك مصر ، في سنة ست وتسعين ، فكانت مدة ملكه ^(١) لها تسع عشرة سنة وشهرا واحدا وتسعة عشر يوما . ورُزق في أولاده سعادة قلما يتفق مثاها لملك ، فبلغوا تسعة عشر ولدا ذكرا ، سوى البنات . وهم : الملك الأوحده نجم الدين أيوب ، صاحب خلاط ، وكان قصيرا في الغاية ، شهما مقداما ، سفاكا للدماء ، مات في حياة أبيه ؛ والملك الفائز إبراهيم ، والملك المغيث عمر — و[قد] توفيا أيضا في حياته — وترك عمر ابنا سمى بالملك المغيث شهاب الدين محمود ، رباه عمه الملك المعظم عيسى ؛ والملك الجواد شمس الدين مودود ، ومات في حياته [أيضا] — وترك الملك الجواد [ولدا اسمه] مظفر الدين يونس بن مودود ، بقى عند عمه الملك الكامل بمصر ، ثم ملك دمشق وغيرها ، وكان جوادا شجاعا ؛ والملك الكامل ناصر الدين محمد ، صاحب مصر ؛ والملك المعظم شرف الدين أبو العزائم عيسى ، صاحب دمشق ؛ وشقيقاه الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب بانياس — وكان جوادا شهما — والملك الأجد مجد الدين حسن ، ومات في حياة أبيه بالقدس ، ودفن في مدرسة بنيت له ، ثم نقل إلى الكرك ، والملك الأشرف مظفر الدين موسى ، صاحب الشرق وخلاط ، بعد أخيه الملك الأوحده ؛ والملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين ؛ وشقيقاه الملك العزيز مجير الدين يعقوب ، والملك القاهر بهاء الدين تاج الملوك إسماعيل ؛ والملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، صاحب بصرى ، ثم دمشق ^(٢) ؛ والملك المفضل قطب الدين أحمد ، ومات بمصر في أيام أخيه الكامل بالقيوم ، ووصل في تابوت

(١) في س ملكها لها . (٢) في س ” ثم ملك دمشق “ .

إلى القاهرة ، في نصف رجب سنة ثمان عشرة وستائة ؛ والملك الأجدد تقي الدين عباس ، وهو أصغرهم ، وُلد في سنة ثلاث وستائة ، ومات آخرهم ، بدمشق ، في سنة تسع وستين (١٥١) وستائة ، في أيام الملك الظاهر بيبرس ؛ والملك الحافظ نور الدين أرسلان ، صاحب قلعة جعبر ؛ والملك الظاهر بهاء الدين خضر ؛ والملك المنيع شهاب الدين محمود ؛ والملك الناصر صلاح الدين خليل .

ووزر [الملك العادل] ^(١) صنيعه الملك أبو سعيد بن أبي المنين بن النحال مدة يسيرة ، وكان نصرانيا فأسلم على يده ، بعد عوده مع الأفضل علي بن صلاح الدين إلى مصر ، في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . فلما مات [ابن النحال] استوزر [العادل] صاحب صفى الدين عبد الله بن شكر الدميّري ، فنجبر وسطا ، وتمكن من السلطان ، واستولى عليه ، وعظم قدره . وأوقع [ابن شكر] بعدة من الأكابر ، وصادر أكابر كتاب الدولة ، واستصفى أموالهم . ففرّ منه القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل إلى بغداد ، واستشفع بالخليفة الناصر [لدين الله] ، وأحضر كتاب شفاعته إلى العادل . وفرّ منه علم الدين بن أبي الجباج ، صاحب ديوان الجيش ، والأسمد بن مماتي صاحب ديوان المال ، إلى حلب ، فأكرمهما الملك الظاهر ، حتى ماتا عنده . وصادر بني حمدان وبنو الجباب وبنو الجليس ، وأعيان الكتاب المستوفين ^(٢) ، والعادل لا يعارضه في شيء . هذا

(١) في س " ووزر له صنيعه الملك أبو ... " .

(٢) هم مستوفى ، بكسر الفاء ، وهو حسبما جاء في القلعة شدى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦) من كتاب الأموال بالدواوين ، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته ، من استخراج أمواله ونحو ذلك . وقد تقدم أنه لما تضاءل منصب الوزارة منذ الأيوبيين ، تحول كثير من أعماله إلى النظارة (انظر ص ٥٣ ، حاشية ٤) وأول هؤلاء ناظر الدولة ، أو ناظر الدواوين ، وكان أولا يعاون الوزير في مصرفاته العامة ، وهذه تشمل سائر شئون الدولة بمصر والشام . وبأمر بعده مستوفى الصحة ، وهو يشارك الوزير ويعاونه أيضا في الأمور العامة ، مثل كتابة المراسيم وتسجيلها . وبليه في المرتبة مستوفى الدولة ، وهو كمستوفى الصحة في النموذ ، وربما اندمجت الوظيفة أحيانا . ويلاحظ أن هؤلاء الكتاب كانوا يهيمنون على عامة الدواوين ، على أنه كان لكل ديوان ناظر ، وتحت المستوفى والشاذ ، مستوفى الخالص في ديوان الخالص ، ومستوفى المرتجعات في ديوان المرتجعات . وقد غلبت وظيفة ناظر المرتجعات التي ألفت ، وأصبح المستوفى يديوانها هو المنصرف (Q.-Demembynes Op. cit. Index III) . هذا وقد بقي اسم المستوفى في بلاد فارس إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان يطلق على كبار كتاب المالية . (Morier : Hajji Bada In England, pp. 17, 210) . انظر أيضا القلعة شدى ج ٤ ، ص ٢٩ ، ٣٤ .

وهو يتنصّب على السلطان ، [واستمر على هذا الحال] إلى أن غضب [على السلطان مرة] ، في سنة تسع وستائة ، وحلف أنه ما بقي يخدمه . فأخرجه السلطان [العادل] من مصر ، بجميع أمواله وحرمه ، فكان يُقلع على ثلاثين رجلاً . وحسن أعداؤه للسلطان أن يأخذ ماله ، فامتنع [واكتفى ^(١)] بإخراجه إلى آمد . وسار [صفى الدين] إلى آمد ، فأقام عند الصالح ابن أرتق . فأقام العادل من بعده القاضي الأعز فخر الدين مقدم بن شكر ، ثم نعم عليه في سنة اثنتي عشرة وستائة ، وضربه وقيده ، وأخرجه من مصر ، ولم يستوزر بعده أحدا .

ومن أعجب الاتفاقات أن الملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين يوسف لم يملك مملكة إلا وأخذها عمه العادل منه : فأول ذلك أن أباه أقطمه حران والرها وميفارقين ، في سنة ست وثمانين وخمسمائة ، فسار إليها ، حتى [إذا] بلغ حلب رده أبوه ، وبعث الملك العادل بدله . ثم ملك الأفضل بعد أبيه دمشق ، فأخذها العادل منه . ثم ملك مصر بعد ذلك ، فأخذها منه العادل . ثم ملك صرخد ، فأخذها منه العادل ، وعوضه قلعة نيم وسروج ، ثم استرجعها منه بعد ذلك .

فلما تمهدت [للملك ^(٢)] العادل [المالك] قسمها بين أولاده ، فلك هو وأولاده من خلاط إلى الين . ورأى [العادل] في أولاده ما يجب ، من اتساع الممالك وكثرة الظفر بالأعداء ، بحيث لم يسمع عن ملك أنه رأى في أولاده (١٠٥ ب) مارآه العادل ، فإنه اجتمع في كل منهم من النجابة والنبل ، والكفاية والمعرفة ، والفضيلة وعلو الهمة ، مالا مزيد عليه . ودانت لهم العباد ، وملكوا خيار البلاد . وكان كثيرا ما يتردد [العادل] في ممالك أولاده ، وأكثروا أوقاته يصيف بدمشق ، ويشقى بمصر . وكان أكلوا منها ، يأكل خروفاً مشوياً بمفرده ؛ وله اقتدار زائد على النكاح ، ومُتّع في دنياه بأرغد عيش ، وتمكن من السعادة في سائر أحواله . وكان حميد السيرة ، حسن العقيدة ، كثير السياسة ، صاحب معرفة بدقائق الأمور ، قد حنكته التجارب ، فسعدت آراؤه ، ونجحت تدبيراته . وكان لا يرى محاربة أعدائه ، ويستعمل في مقاصده

(٢) في س " فلما تمهدت له ... " .

(١) انظر ص ١٧٦ .

المكايد والخلدع . فهادته الفرنج لقوة حزمه وشدة تيقظه وغزارة عقله وقوة كيدته ، ومكره ومداومته على الخدعة والمخاتلة ، وكثرة صبره وحلمه وأناته ، بحيث إنه كان إذا سمع ما يكره يفضي عنه تجاوزا وصفحا ، كأنه لم يبلغه . و [كان] لا يُخرج المال إلا عند الاحتياج إلى إخراجِه ، فيسمح حينئذ ببذل الكثير منه ، ولا يتوقف فيما ينفق ، فإذا لم يحتاج إلى إخراج المال ضنَّ به وأمسكه . فتأنت^(١) له بذلك أغراضه كما يحب ، وانتادت له الأمور مثل ما يختار . وكان يحافظ على أداء الصلوات في أوقاتها ، ويحب السنة ، ويكرم العلماء ، مع العظمة وقوة المهابة المتكئة في القلوب . وله صنف الإمام فخر الدين الرازي كتاب تأسيس التقديس ، وبعث به إليه من بلاد خراسان .

ومات [الملك العادل] عن خمس وسبعين - وقيل ثلاث وسبعين - سنة . وترك مالا كثيرا ، منه في خزائنه - التي استولى عليها ابنه المعظم - سبعمائة ألف دينار مصرية ، سوى ما كان له في الكرك ، فاحتوى عليه أيضا الملك المعظم . وكتب [المعظم] إلى إخوته بموت أبيه ، فجلس الملك [الكامل] للعزاء ، في معسكره بظاهر دمياط ، وارتاع لموت أبيه خوفا من الفرنج .

السلطان الملك الكامل ناصر الدين

أبو المعالي محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، سادس ملوك مصر [من الأيوبيين] . استقل بمملكة مصر بعد موت أبيه ، بعهده إليه في حياته ، وكانت سلطنته بعد السابع^(٢) من جمادى [الآخرة سنة خمس عشرة وثمانئة ، (١٠٥٢)] عند ما وصل إليه نعي أبيه ، وهو بالمنزلة العاداية على محاربة الفرنج - وقد ملكوا البر الغربي ، واستولوا على برج السلسلة ، وقطعوا السلاسل المتصلة به ، اتعبر صرا كبهم في بحر النيل ، ويتمكنوا من أرض مصر . فنصب الملك الكامل عوضا من السلاسل جسرا عظيما ، بمنع الفرنج من عبور النيل . فقاتل الفرنج عليه قتالا كثيرا حتى قطعوه ، وكان قد أنفق على هذا البرج والجسر ما ينيف

(١) في س فتانت . (٢) ما بين القوسين يابض في س ، ما خلا عبارة "من جمادى" ، فإنها بحجوبة بورقة ملصقة فوقها ، ولكنها في ب (٦٢ ب) .

على سبعين ألف دينار . فأمر الكامل بتفريق عدّة من المراكب في النيل ، منعت الفرنج من سلوكه ، فعدل الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق^(١) ، كان النيل يجري فيه قديما . فحفروه حفرا عميقا ، وأجروا فيه الماء إلى البحر الملح ، فجرت سفنهم فيه إلى ناحية بُورَة^(٢) ، على أرض جيزة دمياط ، تجاه المنزلة التي فيها الكامل ، ليقاتلوه من هناك . فلما استقروا في بورة حاذوه ، وقاتلوه في الماء ، وزحفوا إليه غير مرة ، فلم ينالوا منه غرضا طائلا . ولم يضر أهل دمياط ذلك ، لتواصل الأمداد والميرة إليهم ، وكون النيل يحجز بينهم وبين الفرنج ، بحيث كانت أبواب المدينة مفتحة ، وليس عليها حصر ولا ضيق البتة .

هذا^(٣) والعربان تتخطف الفرنج في كل ليلة ، بحيث منّعهم ذلك من الرقاد ، خوفا من غاراتهم . فتكالب العرب عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهارا ، ويأخذون الخيم بمن فيها . فأكن لهم الفرنج عدّة كمناء ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا . وأدرك الناس الشتاء ، فهاج البحر على معسكر المسلمين ، وغرق الخيم ، فعظم البلاء ، واشتد الكرب . وألح الفرنج في القتال ، ولم يبق إلا أن يملكوا البلاد . فأرسل الله سبحانه ريحا قطعت سراشي مَرَمَة كانت للفرنج من محائب الدنيا ، فرمت تلك الرمة إلى البر الذي فيه المسلمون فلكوها ، فإذا هي مصفحة بالحديد ، لا تعمل فيها النار ، ومساحتها خمسمائة ذراع ، وفيها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا .

وبعث السلطان إلى الآفاق سبعين رسولا ، تستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج ، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم وإغاثتهم ، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر ، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها . فسارت الرسل في شوال ، فقدمت النجيدات من حماة وحلب^(٤) .

(١) انظر الحاشية التالية . (٢) مضبوطة هكذا في س ، وهو الضبط الصحيح ، وهي بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، في الشمال الغربي من دمياط ، ومنها السمك البوري المعروف بمصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٥٥ ؛ و Blochet : OP. cit. P. 820, N. 2 . ومن هذا يتبين أن يجري الخليج الأزرق بين بورة وشمال المنزلة العادلية . وفي جنوبي المنزلة العادلية موضع اسمه بستان بورة . انظر (P. Omar Toussoun : OP. cit. I. 2. Pl. II. b.)

(٣) (٤٣٠) ما بين الرقين وورد بورقة منفصلة بين الصفحتين (٤٥٠ ب ، ٤٤٦) من س ، (انظر ص ١٦٧ ، حاشية ٦) ، وليس بالثبوت إشارة ، كمادة المؤلف ، إلى وضع هذا الهامش . على أنه لا شك في مناسيته هنا ، فإنه موجود بنصه ، وعلى ترتيبه كما هنا ، ضمن حوادث حصار دمياط ، بالمقريزي (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٦) .

إلا أنه لما قدم على المعسكر موت العادل وقع الطمع في الملك الكامل ، وثار العرب بنواحي أرض مصر ، وكثر خلافهم واشتد ضررهم . واتفق مع ذلك قيام الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبي الحسين على بن أحمد الهكاري ، المعروف بابن المشطوب ، وكان أجل الأسراء الأكبر ، وله لقيف من الأكراد الهكارية ، ينقادون إليه ويطيعونه ، مع أنه كان وافر الحرمة عند الملوك ، معدودا بينهم كواحد منهم ، معروفا بعلو الهمة وكثرة الجود ، وسعة الكرم والشجاعة ، تهابه الملوك ، وله وقائع مشهورة في القيام عليهم . ولما مات أبوه ، وكانت نابلس إقطاعا له ، أرصد ثلثها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمصالح القدس ، وأقطع ابنه عماد الدين هذا بقيتها ؛ فلم يزل قائم الجاه من الأيام الصلاحية . فاتفق [عماد الدين] مع جماعة من الأكراد والجند على خلع الملك الكامل ، وتعليك أخيه الفائز إبراهيم ، ليصير لهم التحكم في المملكة . ووافق على ذلك الأمير عز الدين الحميدي ، والأمير أسد الدين الهكاري ، والأمير مجاهد الدين ، وعدة من الأسراء .

فلما بلغ الكامل ذلك دخل عليهم ، فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف ، وهم يحلفون لأخيه الفائز . فعند ما رأوه تفرقوا ، فخشى على نفسه منهم ، وخرج . فاتفق قدوم صاحب صفى الدين بن شكر من آمد ، فإنه كان قد استدعاه [الكامل] بعد موت^(١) أبيه . فتلقاء [الكامل] وأكرمه ، وأوقفه على ما فيه جماعة الأسراء ، فشجبه وضمن له تحصيل المال وتدبير الأمور . فلما كان في الليل ركب [الكامل] من المنزلة العادلية ، في الليل جريدة ، وسار إلى أشمون طناح^(٢) ، فنزل بها . وأصبح العسكر وقد فقدوا السلطان ، فركب كل أحد هواء ، ولم يرج واحد منهم على آخر . وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ، ولم يأخذ كل (٥٢ ب) أحد إلا [ما] خف حمله . فبادر الفرنج عند ذلك ، وعبروا بر دمياط وهم آمنون ، من غير منازع ولا مدافع ، وأخذوا كل ما كان في معسكر المسلمين ، وكان شيئا

(١) بعض حروف هذه العبارة متأكلا في س ، ولكنه في ب (٦٣ ب) . (٢) يشير ضبط في س ، وكانت عاصمة الدهليزية والمرتاحية ، وتقع شرقي النصورة ، وجنوبي ذكرنس الحالية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٨٢ ؛ و P. 244 ، Pl. I, 2. Op. cit. P. Omar Toussoun)

لا يقدر قدره ، وذلك لبضع عشرة ليلة خلت من ذى القعدة . فكان نزول الفرنج قبالة دمياط في يوم الثلاثاء ثاني شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة [وستائة] ، ونزلهم في البر الشرق — حيث مدينة دمياط — يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ست عشرة .

فتنزل الملك الكامل ، وهم بمفارقة أرض مصر ، ثم تثبت ^(١) ، فتلاحق به المسكر . وبعد يومين وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق — وهو بأشموم — في ثامن عشر ذى القعدة . فقويت به شوكتة ، وأعلمه بما كان من أمر ابن المشطوب ، فوعده بإزالته عنه . ثم ركب المعظم إلى خيمة ابن المشطوب ، واستدعاه للركوب معه للمسايرة ، فاستمعه حتى يلبس حَقِيَّةً وثيابه ، فلم يمهله وأمجله . فركب معه وهو آمن ، وسأره حتى خرج به من المسكر وبعده عنه . فالتفت إليه [المعظم] ، وقال : ” يا عماد الدين هذه البلاد لك ، أشتى أن تهبها لنا “ . وأعطاه نفقة ، وأسلمه إلى جماعة من أصحابه يثق بهم ، كان قد أعدهم لهذا الأمر ، وأمرهم أن يلازموه إلى أن يخرج من الرَّمْل ^(٢) ، ويحتفظوا به إلى أن يدخل إلى الشام . فما وجد [ابن المشطوب] سبيلا إلى الامتناع ، ولا قدر على المدافعة ، لأنه بمفرده بينهم . فساروا به على تلك الحالة إلى الشام ، فنزل بحماة عند [الملك] المنصور ، ومعه أربعة من خدمه .

ولما سار ابن المشطوب رجع المعظم إلى أخيه الكامل ، وتقدم إلى أخيه الفائز بأن يمضي إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق رسولا عن الملك الكامل ، بسبب إرسال عساكر الإسلام ، لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج . وكتب الكامل إلى [أخيه] الأشرف [موسى] شاه أرمين ^(٣) ، يستحثه على سرعة الحضور ، وصدر المكتوبة بهذه الآيات :

يا مُسْعِدِي إِنْ كُنْتَ حَقًّا مُسْعِفِي فَانْهَضْ بِسَيْرِ تَلْبِثٍ وَتَوَقَّفْ

(١) في س ثبت .

(٢) غير مضبوط س ، ويعرف برمل المرائي أيضا ، ويطلق هذا الاسم على الأراضي الصحراوية بين العباسية والمرش . (الفريرى . المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣) . (٣) في س شاهارمن ، ويقصد المؤلف به الأشرف موسى الأيوبي ، صاحب مملكة خلاط ؛ وكانت هذه الإمارة الأرمينية الصغيرة قد آلت إلى الأيوبيين بعد زوال أسرة سيف الدين بكتمر ، سنة ٦٠٤ هـ . انظر (Enc. Isl. Arts. Armenia & Begtimur) .

وَاخْتُتْ قَلْوُصْكَ مُرْقِلًا أَوْ مَوْجِفًا بَقِجْشَمْ فِي سِيرِهَا وَتَعَسَفَ
 وَاطْوِ النَّازِلَ مَا اسْتَطَعْتَ وَلَا تُنْذِخْ إِلَّا عَلَى بَابِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
 وَأَقْرِ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ عَبْدٍ لَهُ مَتَوَقِّعٌ لِقُدُومِهِ مَتَشَوِّفٌ
 وَإِذَا وَصَلْتَ إِلَى حِمَاهُ فَقُلْ [لَهُ عَنِّي بِحَسَنِ ^(١)] تَوْصِلُ وَتَلَطِّفُ
 (١٥٣) إِنْ تَأْتِ عَبْدُكَ عَنْ قَلِيلٍ تَلْقَهُ مَا بَيْنَ كُلِّ مَهْنَدٍ وَمَتَقَفِ
 أَوْ تَبْطِ عَنْ إِنْجَاهِهِ فَلْقَاؤُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي عِرَاصِ الْمَوْقِفِ
 فسار الفائز — وكان الغرض لإخراجه من أرض مصر — فضى إلى دمشق ؛ ورحل
 إلى حماة ثم سار إلى الشرق . فانتظم أمر الكامل ، وقوى ساعده ، وترتبت قواعد ملكه ،
 وسار عنه المعظم .

هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر ، وأحذقوا بها وحصروها ، وضيقوا
 على أهلها ، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم . وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا ،
 وبنو عليه سورا . وأهل دمياط يقاؤونهم أشد قتال ، وأزل الله عليهم الصبر ، فثبتوا ^(٢) مع
 قلة الأقوات وعدم وشدة غلاء الأسعار وأخذ الكامل في محاربة الفرنج ، وهم قد حالوا
 بينه وبينها ، ولم يصل إليها أحد من عنده سوى رجل من الجاندارية . [وكان هذا الرجل
 قد] قدم إلى القاهرة من بعض قرى حماة ، [و] يسمى شمال ، فتوصل حتى صار يخدم
 في الركاب السلطاني جاندارا . وكان يخاطر بنفسه ، ويسبح في النيل — وسراكب الفرنج به
 محيطة ، [والنيل] قد امتلأت به شوانى الفرنج — فيدخل إلى مدينة دمياط ، ويأتى السلطان
 بأخبار أهلها . فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها ، وعدم بقرب وصول النجيدات . فخطى بذلك
 عند الكامل ، وتقدم تقدما كثيرا ، وجعله أمير جانداره ^(٣) وسيف نغمته ، وولاه القاهرة ،
 وإليه تنسب خزانة شمائل ^(٤) وكان في دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى ، فكتب
 هذه الأبيات ، وألقاها إلى الملك الكامل في سهم نشاب ، وهى :

(١) ما بين القوسين محبوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، ولسكنه فى ب (١٦٤) . (٢) فى س ثبتوا .

(٣) مضبوطة هكذا فى س . (٤) انظر المفريزى : المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ٢ ،

يا مالكي ادمياط ثغر هُدِّمت شرفاته كادت تبث أصوله
 يقريك من أزكى السلام تحية كألْسِكْ طاب دقيقه وجليله
 ويقول عن بعد وإليك سامع حتى كأنك جاره ونزيله
 يأبها الملك الذي ما إن يُرى بين الملوك شبيهه وعديله
 هذا كتاب موضع من حالي ما ليس يمكنني لديك أقوله
 أشكو إليك عدو سوء أهدت بجميعه فرسانه وخيوله
 فالبر قد مُنعت إليه طريقه والبحر عز لنصره أسطوله
 ففضوعه باد على أبراجه وحنينه وبكاؤه وعويله
 ولو استطاع لآم بآبك لآذا لكنه^(١) سدَّت عليه سبيله
 ٥٢ ب) وسؤاله في أن تجيب دعاءه دين الإله وخلقه ورسوله^(٢)
 فقد انتهت أدواؤه وتحكمت حلاته ونحا عليه نحوه
 وبقي له رمق يسير يرتجى أن يشتفى لما دعاك عليه
 فاحرس حماك بعزمة تشفى بها داء لمثلك يرتجى تعليقه
 فإله أعطاك الكثير بفضلله ورضاء من هذا الكثير قليله
 فالعذر في نصر الإله ودينه ما ساغ عند المسلمين قبوله
 والثغر ناظره إليك محذوق ما إن يَمَلَّ من الدموع هموله
 ولئن قدمت عن القيام بنصره جفت نضارته وبان ذبوله
 ووهت قوى القرآن فيه ورُقَّت علا صدى الناقوس في أرجائه
 وهذا وحقتك وصف صورة حاله صلبانه وتلى به إنجياله
 وكفأك يابن الأكرمين بأنه وخفى على سمع الورى تهليله
 حقاً وجلته وذا تفصيله أنضى عليك من الورى تعويله

(١) هذا اللفظ غير واضح في س ، ولكنه في ب (٦٤ ب) . (٢) كذا ورد البيت في س ، ب

حقق رجاء فيك يا من لم يحب أبدا لراجي جوده تأميله
واذخر ليوم البعث فعلا صالحا الله ضامن أجره وكفيله
فلما وقف السلطان على هذه الأبيات أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد ، وخرجت
السنة والحال على ذلك .

وفيها استدعى الملكُ الغالبُ كيكائوس بن كيخسرو بن قلعج أرسلان ، ملك
الروم ، بالملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف — وكان بسميساط ،
ويحط بالملك الغالب . فلما قدم عليه أكرمه ، وحمل إليه شيئا كثيرا من المال والخيل
والسلاح وغيره ، وتحالفا على المسير إلى المملكة الحلبية وأخذها ، بشرط أن يدفعها
الملك الغالب ، هي وسائر ما يفتحه ، إلى الملك الأفضل ، ليقم له فيها الخطبة والسكة ،
ويصير في طاعته . فإذا تم ذلك سارا إلى الشرق ، وأخذ حاران والرها وغيرها . فسارا
بالمساكر وأخذوا قلعة رَعْبَان^(١) ، فتسلمها الأفضل ، ومال إليه الناس ، واجتمعوا
على الملك الغالب ، لمحبتهم في الأفضل . ثم سارا إلى قلعة تل باشر ، فحصرها حتى
ملكها ، فلم يسلمها الملك الغالب للأفضل ، وأقام فيها نائبا من قبله . فففر منه الأفضل
[وفترت^(٢)] همته ، وعلم أن هذا أول الغدر وأعرض أهل البلاد أيضا عن [الملك الغالب^(٣)] ،
واستمد أهل حلب ، واستدعوا (١٠٤) الملك الأشرف من بحيرة قدس ، وكان نازلا عليها
تجاه الفرنج . فقدم إليهم بمساكره ، وحضرت عرب طى وغيرها ، إلى ظاهر حلب .
فحسن الأفضل للملك الغالب التوجه إلى منبج ، فسارا إليها . فواقع العرب مقدمة الملك الغالب ،
فانهزمت ، وأمر العربُ وأصحاب الأشرف كثيرا منهم . فرجع عند ذلك الملك الغالب إلى
بلادته ، وسار الأشرف ، فاستولى على رعبان وتل باشر .

وفيها مات الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن
عماد الدين زنكي بن آقسنقر ، صاحب الموصل ، لثلاث بقين من ربيع الأول ؛ وكانت مدة

(١) بغير ضبط في س ، ومى بلدة بين حلب وسميساط ، قرب الدرات . (ياقوت : معجم البلدان ،

ج ٢ ، س ٧٩١) .

(٢ و٣) ما بين الأقواس محجوب بورقة ملصقة فوقه في س ، ولكنه في ب (١٦٥) .

ملكه سبع سنين وتسعة أشهر . وقام من بعده ابنه نور الدين أرسلان شاه ، وعمره عشر سنين ، فدبر أمره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك ، فأقرها الخليفة الناصر .

سنة ست عشرة وستمائة . فيها قدم الملك المظفر تقي الدين محمود بن المنصور محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب حماة — إلى الملك الكامل ، نجدة في عسكر كثيف ، ومعه الطواشي مرشد المنصوري . فتلقاء السلطان وأعظم قدره ، وأنزله على ميمنته ، وهي المنزلة التي كانت لأبيه وجده ، عند السلطان صلاح الدين يوسف ووصل الفائز إبراهيم ابن العادل إلى أخيه الأشرف موسى ، برسالة أخيهما الكامل للاستنجاد على الفرنج ، فأكرمه وأمسكه عنده ، فإن الفرض إنما كان إخراجهم من أرض مصر .

وفيهما اشتد قتال الفرنج ، وعظمت نكباتهم لأهل دمياط ، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل . فنهكتهم الأمراض ، وغلت عندهم الأسعار ، حتى أبيعَت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بمدة دنانير . وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السكر في عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير فقط . فتسور الفرنج السور ، وملسكوا منه البلد يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان ، فكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . وعند ما أخذوا دمياط وضعوا السيف في الناس ، فلم يعرف عدد من قُتل لكثرتهم .

ورحل السلطان بعد ذلك بيومين ، ونزل قبالة طَلْحَا ، على رأس بحر أشموم [ورأس^(١) بحر] دمياط ، وخيم بالمنزلة التي (، ب) عُرفت بالمنصورة . وحصن الفرنج أسوار دمياط ، وجعلوا جامعا كنيسة ، وبثوا سراياهم في القرى يقتلون ويأسرون ، فعمم الخطب واشتد البلاء . وتَدَبَّ السلطان الناس وفرقتهم في الأرض ، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس لاستنقاذ أرض مصر من أيدي الفرنج . وشرع السلطان في بناء الدور والفنادق ، والحمامات والأسواق ،

(١) ما بين القوسين محبوب في س بورقة ملصقة فوقه ، ولكنه في ب (٦٥ ب) .

بمنزلة المنصورة . وجهز الفرنج من حصل في أيديهم من أسارى المسلمين في البحر إلى عكا ، وبرزوا من مدينة دمياط يريدون أخذ مصر والقاهرة . فنازلوا السلطان تجاه المنصورة ، وصار بينهم وبين العسكر بحر أشموم وبحر دمياط ، وكان الفرنج في مائتي ألف رجل وعشرة آلاف فارس . فقدم السلطان الشوانى تجاه المنصورة ، وهى مائة قطعة . واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي ، ما بين أسوان إلى القاهرة . ووصل الأمير حسام الدين يونس ، والفيقيه تقي الدين طاهر المحلى ، فأخرجوا الناس من القاهرة ومصر ؛ ونودى بالتغير العام ، وألا يبقى أحد ، وذكروا أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه . فقال [؟] ^(١) :

”يهتدونا بأهل عكا أن يملكونا وأهل يافا

ومن لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا“

يعنى أهل الريف ، فإنه كان قد كثرتسايطهم ، وطمعوا في أسر السلطان ، واستخفوا به ، لشغله بالفرنج عنهم . وخرج الأمير علاء الدين جلدك ، والأمير جمال الدين بن صيرم ، لجمع الناس مما بين القاهرة إلى آخر الحوف الشرقى ^(٢) ، فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر .

(١) لم يذكر المؤلف صاحب هذين البيتين ، وليس بالمفريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٣ وما بعدها) ذكر لهما بيتا ، في باب حصار دمياط .

(٢) قسم العرب ، بعد فتحهم مصر ، أرس دلتا النيل لإداريا إلى قسمين ، وهما الحوف والريف . وكان الحوف يشمل جميع الأراضي الواقعة شرقي فرع دمياط ، من عين شمس إلى دمياط والفرما . وكان الريف عبارة عن بقية أراضي الدلتا إلى الإسكندرية . ثم عدل ذلك التقسيم في القرن الثالث الهجرى ، وصارت أراضي دلتا النيل ثلاثة أقسام ، وهى الحوف الشرقى ، والحوف الغربى ، وبطن الريف . وكان الحوف الشرقى عبارة عن الحوف القديم ، ما خلا الأراضي الواقعة شمالى بحر أبى صير ؛ والحوف الغربى هو الأراضي الواقعة غربى فرع رشيد ، ويشمل أيضا أراضي رشيد وشباس وما ، الواقعة شرقي هذا الفرع . أما بقية الأراضي الواقعة بين فرعى النيل ، وكذلك الأراضي الواقعة شمالى بحر أبى صير ، فسميت بطن الريف . وقد بقى هذا التقسيم إلى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ثم تغير ذلك كله ، سنة ٦٩٧ هـ ، إلى ما يشبه الأقسام الإدارية الحالية . (الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ؛ و P. Omar Toussoun Op. cit. I. ٢. pp. ٢١٣-٢١٧)

وأُنزل السلطان على ناحية شَارِمَسَاح^(١) التي فارس ، في آلاف من العربان ، ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط . وسارت الشوانى — ومعها حراقة كبيرة — إلى رأس بحر المحلة^(٢) ، وعليها الأمير بدر الدين بن حسون ، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر .

وقد تمت النجداث [لذلك الكامل] من بلاد الشام . وخرجت أم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط ، فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد . فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها ، في حذم وحديد ، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر ، ويستولوا منها على ممالك البسيطة كلها . فلما قامت النجداث كان أولها قدوما الملك الأشرف موسى بن العادل ، وآخرها على الساقة الملك المعظم عيسى ، وفيما بينهما بقية الملوك : وهم المنصور صاحب حماة ، والناصر صلاح الدين قليج أرسلان ، والمجاهد صاحب حمص ، والأبجد بهرام شاه صاحب بعلبك ، وغيرهم . فهاهنا الفرنج ما رأوا . وكان قدوم هذه النجداث في (١٥٥) ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة ؛ وتتابع قدوم النجداث حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفاً . فخاربوا الفرنج في البر والبحر ، وأخذوا منهم ست شوانى وجلاسة^(٣) وبطسة ، وأسروا منهم ألفين ومائتى^(٤) رجل . ثم ظفروا أيضا بثلاث قطائع^(٥) ، فنضضع الفرنج لذلك ، وضاق بهم المقام ، وبعثوا بسألون في الصباح ، كما سيأتى إن شاء الله .

(١) بغير ضبط في س ، وهى قرية بالدقهلية الحالية ، وتقع على فرع دمياط ، شمالى شرين ، وبينها وبين دمياط خمسة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ ؛ و : P. Omar Toussoun) . انظر أيضا الحاشية التالية . Op. cit. I. 1. P. 175. Pl. II. b.)

(٢) بحر المحلة ترعة متفرعة من بحر مليج ، الذى يخرج من فرع دمياط ، عند بلدة ميت عطار ، قرب بنها الحالية . وكان يخرج بحر المحلة جنوبى بلدة طنت ، ثم يسير نحو الشمال الغربى ، مارا بالهيان وبلقينة ، حتى يصب في فرع دمياط ، قبالة شارمساح على الدلتا^(٣) الآخر : (P. Omar, Toussoun)

Mem. Anc. Branches Du Nil. p. 98)

(٣) واضح أن هذا اللفظ معرب كلمة (galeasse) الفرنسية . والجلاسة نوع من السفن الحربية الكبيرة ، كان شائع الاستعمال في البحر الأبيض المتوسط ؛ ويقابلها في الإيطالية (galeazza) ، ومرادفها في الإنجليزية قريب من هذا أيضا . (٤) في س ومائتين رجلا .

(٥) جمع قطعة ، وهى الفئة من الجنود ، وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) مثل من استعمال هذا اللفظ ، نصح : " فبعث إليه الناصر بالقطائع والجيوش لقتاله " .

وفيها مات قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود ، صاحب سنجار . وقام من بعده ابنه عماد الدين شاهنشاه^(١) ، ثم قتله أخوه الأجد عمر . ومات نور الدين أرسلان شاه ، صاحب الموصل . فقام من بعده الأمير بدر الدين لؤلؤ ، بأمر أخيه ناصر الدين محمود ابن القاهر عز الدين ، وعمره ثلاث سنين .

وفيها أسر الملك المعظم عيسى بتخريب القدس ، خوفا من استيلاء الفرنج عليها ، فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها ، إلا برج داود — وكان من غربي البلد — فإنه أبقاه . وخرج معظم من كان في القدس من الناس ، ولم يبق فيه إلا نفر يسير . ونقل المعظم ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال ، فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط . وفيها هدم المعظم أيضاً قلعة الطور ، التي بناها أبوه العادل ، وعفى آثارها . وفيها خرجت كتب الخليفة الناصر [لدين الله] إلى سائر الممالك ، بإيجاد الملك الكامل بدمياط .

وفيها مات عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان ، ملك قونية ، بعد ما ملك أرزن الروم^(٢) من عمه طغرل شاه بن قلج أرسلان ، وملك أنكورية^(٣) من أخيه كيقيباد^(٤) ، فصار سلطان الروم . وقام من بعده أخوه علاء الدين كيقيباد^(٥) .

وفيها ابتدأ ظهور القتار — ومساكنهم جبال طمغانج^(٦) من أرض الصين ، بينها وبين بلاد التركستان ما يزيد على ستة أشهر — واستولوا على كثير من بلاد الإسلام . وكانوا لا يدينون بدين ،

(١) في س هاهنشاه .

(١) بنير ضبط في س ، وهي بلدة بأرمينية ، في الشمال الشرقي من خلاط . واسمها الأصلي في القديم (Theodosiopolis) ، ثم سماها العرب فاليقلا ، أيام الفتوح الإسلامية الأولى ، وأطلقوا هذا الاسم أيضاً على الأراضي المحيطة بها . أما اسم أرزن الروم فيرجع إلى سنة ٤٤١ هـ ، حين هدم السلاجقة بلدة أرزن ، وهي قرب خلاط أيضاً ، فخرج أهلها الأرمن إلى فاليقلا ، وأطلقوا عليها أرزن الروم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ؛ و Enc. Isl. Art. Erzerum) .

(٢) بنير ضبط في س ، وهي أقرة الحالية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٩٠ — ٣٩١) .

(٤) في س كي قباد . انظر (Enc. Isl. Art. Kaikobad) . (٥) في س كيقيباد .

(٦) مضبوطة هكذا في س ، وهي اسم أطلقه الترك على شمال الصين ، وقد أخذوه من اليونانية ، ثم استعاره العرب من الترك . انظر (Blochet : Op. cit. p. 330. N. 3.) .

إلا أنهم يعترفون بالله تعالى ، من غير اعتقاد شريعة . فملكوا الصين — وكان ملكهم يقال له جنكزخان^(١) — ثم ساروا إلى تركستان وكاشغر ، فملكوا تلك البلاد ، وأغاروا على أطراف بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش^(٢) . ثم استولوا على بخارى وغيرها من بلاد العجم .

سنة سبع عشرة وستمائة . أهلت وانقضت ، والحرب قائمة بين المسلمين وبين الفرنج على دمياط ، في منزلة المنصورة . وفيها استولى التتار على سمرقند ، وهزموا السلطان علاء الدين ، وملكوا الري وهمدان وقزوین ، وحاربوا الكرج ، وملكوا فرغانة والترمذ^(٣) وخوارزم ، (هـ ب) وخراسان وسمرو ونيسابور ، وطوس وهراة وغزنة .

وفيها ملك الأشرف مومى بن العادل ماردين وسنجار . وفيها مات الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهنشاه^(٤) بن أيوب بن شادى صاحب حماة — وكان إماما مفتيا في عدة علوم ، وله شعر جيد — في ذى القعدة ، عن خمسين سنة ، منها مدة ملكه ثلاثون^(٥) سنة . وكان ابنه الأكبر الملك المظفر تقي الدين محمود في معسكر خاله الملك الكامل ، بالمنصورة على مقاتلة^(٦) الفرنج . فقام بمملكة حماة الملك الناصر قلاج أرسلان بن المنصور ، وكان عمره سبع عشرة سنة . فشق ذلك على أخيه المظفر ، واستأذن الملك الكامل في العود إلى حماة ، فلما منه أنه يملكها ، فإنه كان ولى عهد أبيه . فأذن له [الملك الكامل] ، وسار فلحق الملك المعظم في الغور ، فخوفه من التعرض إلى أخيه ، فأقام بدمشق . ثم رجع [المظفر] إلى الملك الكامل ، فأقطعه إقطاعا ، وأقام في خدمته .

وفيها كثرت مصادرة الصاحب صفى الدين بن شكر أرباب الأموال ، بمصر والقاهرة ، من التجار والكتّاب : وقُرّر التبرع على الأملاك ، وهو مال جُبي من الناس . وأحدث [ابن شكر] حوادث كثيرة ، وحصل مالا جها .

(١) في س جنكس خان . (٢) إلى هذا الاسم تكلمة للنسب خوارزمشاه نصها : "ابن الب أرسلان محمد بن جفرى بك داود بن ميكائيل السلجوق" ، وهي تكلمة خاطئة ، إذ ليس ثمة علاقة معروفة بين أجداد الخوارزمية وأجداد السلاجقة . (٣) في س الزمذ . (٤) في س هاهنشاه . (٥) في س ثلثين . (٦) في س مقابله .

وفيها قوى طمع الفرنج في ملك ديار مصر، وعزموا على التقدم إلى المسلمين، ليدفعوهم عن منازلهم، ويستولوا على البلاد. فانقضت السنة وهم تجاه المسلمين على رأس بحر أشموم ودمياط. وفيها غلت الأسعار بأرض مصر، فبلغ القمح ثلاثة دنانير كل أردب، فكانت من أشق السنين وأشدّها على مصر.

وفيها مات الشريف أبو عزيز قتادة بن أبي مالك إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سلطان مكة، في آخر جهادى الآخرة بمكة، عن تسعين سنة. وله شعر جيد، وقدم مصر غير مرة، ومعه أخوه أبو موسى عيسى، وكانت ولادته وسراياه بالينبع. وملك مكة بعده ابنه حسن بن قتادة، فسار راجع بن قتادة مغاضبا له، وقطع الطريق في الموسم بين مكة وعرفة، فقبض عليه أقباش^(١) أمير الحاج العراقي. فبعث الشريف حسن لأقباش بعده بمال يسلمه راجعا، فوعده راجع بأكثر من ذلك، فعزم [أقباش] على أن يسلمه مكة، [وتقدّم لمقاتلة^(٢) أميرها]، فقتل [أقباش]، وفر راجع إلى الملك المسمود باليمن.

سنة ثمان عشرة وستمائة. فيها اشتدت قوة الفرنج، بكثرة من قدم إليهم في البحر. فتابع الملك الكامل الرسل في طلب النجيدات، فقدمت عليه الملوك كما تقدّم. واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله. وكانت العامة تكرر على الفرنج أكثر ما يكره عليهم العسكر، وتقدّم جماعة (١٥٦) من العسكر إلى خليج من النيل في البر العري، يعرف ببحر الحلة، وقتلوا الفرنج منه. وتقدّمت الشواى الإسلامية في بحر النيل، لتقاتل شواى الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع برجالها وأسلحتها

(١) مضبوط على منطوقه في (Blochet : OP. cit. P. 336). (٢) عبارة القرزى هنا على حوادث مكة مقتضبة، وقد أضيف ما بين الأقواس من ابن الأثير (الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٢٦١ - ٢٦٣) حيث توجد تفاصيل كثيرة. (٣) في س بير.

[هذا] والرسول تتردد من عند الفرنج في طلب الصلح بشروط : منها أخذ القدس وعسقلان وطبرية ، وجبل اللاذقية ، وسائر مانتحة السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل ، فأجابهم الملك إلى ذلك ، ما خلا الكرك والشوبك . فأبى الفرنج ، وقالوا : " لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله " ، فرضى الكامل . فامتنع الفرنج ، وقالوا : " لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار ، لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس ، مع أخذ ما ذكر من البلاد ، وأخذ الكرك والشوبك أيضاً " .

فاضطرت المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم وعبر جماعة من المسلمين في بحر الحلة إلى الأرض التي عليها معسكر الفرنج ، وفتحوا مكاناً عظيماً في النيل . وكان الوقت في قوة الزيادة ، فإنه كان أول ليلة من توت ، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ، ولا بأمر النيل فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرق أكثر الأرض التي هم عليها ، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط ، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها ، سوى جهة واحدة ضيقة . فأمر السلطان في الحال بنصب الجسور عند بحر أشعوم طنّاح ، فتهب الفراغ منها ، وعبرت العساكر الإسلامية عليها ، وملك الطريق التي تسلكها الفرنج إلى دمياط ، فأنحصروا من سائر الجهات . وقدّر الله سبحانه بوصول مرتبة عظيمة في البحر للفرنج ، وحولها عدة حركات تحميها ، وسائرهما مشحونة بالميرة والسلاح ، وسائر ما يحتاج إليه . فأوقع بها شوانى الإسلام ، وكانت بينهما حرب ، أنزل الله فيها نصره على المسلمين ، فظفروا بها وبما معها من الحركات .

ففت ذلك في أعضاد الفرنج ، وأتى في قلوبهم الرعب والذلة ، بعد ما كانوا في غاية الاستظهار والعنت على المسلمين^(١) ، وعلّموا أنهم مأخوذون لالحالة . وعظمت نكايّة المسلمين بهم برميهم إياهم بالسهم ، وحملهم على أطرافهم^(٢) . فأجمعوا أمرهم على مناهضة المسلمين ، فلما منهم أنهم يصلون إلى دمياط ، فخرّبوا خيامهم ومجانيقهم ، وعزموا على أن يحطّوا حطمة واحدة .

(١) في س " ... في غاية الاستظهار على المسلمين والعنت " .

(٢) كذا في س ، ب (١٦٨) ، وبالعبارة شيء من الغموض لكثرة الضمائر ، ولذا أورد ما يقابلها في ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢١٥) لتوضيح ، ونصه : " وعساكر المسلمين محيطة بهم ، يرمونهم بالنشاب ، ويحملون على أطرافهم " .

فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا ، لكثرة (٥٦ ب) الوحل والمياه التي قد ركبت الأرض من حولهم . فمجزوا عن الإقامة لقلة الأزواد عندهم ، ولاذوا إلى طلب الصلح ، وبعثوا يسألون الملك الكامل — وإخوته الأشرف والمعظم — الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض . فاقضى رأى الملك الكامل إجابتهم ، واقتضى رأى غير من إخوته مناهضتهم ، واجتثاث أصلهم ألبته . فخاف الملك الكامل إن قتل ذلك أن يمتنع من بقي منهم بدمياط أن يسلمها ، ويحتاج الحال إلى منازلها مدة ، فإنها كانت ذات أسوار منيعة ، وزاد الفرنج عند ما استولوا عليها في تحصينها ، ولا يؤمن في طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها ، وطلبوا الثأر من قتل من أكابره . هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين ، وملت من طول الحرب ، فإنها مقيمة في محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهر^(١) .

وما زال الكامل قائما في تأمين الفرنج إلى أن وافقه بقية الملوك ، على أن يبعث الفرنج برهائن من ملوكهم — لا من أسرائهم — إلى أن يسلموا دمياط . فطلب الفرنج أن يكون ابن الملك الكامل عندهم رهينة ، إلى أن تعود إليهم رهائنهم . فتقرر الأمر على ذلك ، وحلف كل من ملوك المسلمين والفرنج . في سابع شهر رجب . وبعث الفرنج بمشرين ملكا من ملوكهم رهنا ، منهم يوحنا صاحب عكا^(٢) ، ونائب البابا^(٣) . وبعث الملك الكامل إليهم بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وله من العمر يومئذ خمس عشرة سنة ، ومعه جماعة من خواصه . وعند ما قدم ملوك الفرنج جلس لهم الملك الكامل مجلسا عظيما ، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه بظاهر البرمؤن ، في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب ، فقال

(١) في س وأشهر .

(٢) يقصد المؤلف (Jean de Brienne, roi titulaire de Jérusalem) ، وهو قائد هذه الحملة الصليبية في أولها . (Rec. His. Or. II, 1. P. 124. N. 4.) . (٣) نائب البابا في تلك الحملة هو (Cardinal Pélage) . نفس المرجع والجزء والصفحة (N. 5.) . (٤) بغير ضبط في س ، ويوجد في (P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 1. Pl. II. b.) ذكر للبرمون البحري والبرمون القبل ، وكلاهما شمالي بحر تنيس ، بين التصورة وشربين .

الفرنج ما شاهدوا من تلك العظمة وبهاء ذلك الناموس . وقدمت قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط ، ليسلموها إلى المسلمين ؛ فتسلمها المسلمون في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب . فلما تسلمها المسلمون قدم في ذلك اليوم من الفرنج نجمة عظيمة ، يقال إنها ألف مركب ، فعُدَّ تأخرهم إلى [ما] بعد تسليمها من الفرنج صنعا جميلا من الله سبحانه . وشاهد المسلمون عند [ما] تسلموا دمياط من تحصين الفرنج لما لا يمكن أخذها بقوة البتة^(١) .

وبعث السلطان بمن كان عنده في الرهن من الفرنج ، وقدم الملك الصالح ومن كان معه . وتقررت الهدنة بين الفرنج وبين المسلمين مدة ثمانى سنين ، على أن كلا من الفريقين يطلق ما عنده من (١٠٧) الأسرى . وحلف السلطان وإخوته ، وحلف ملوك الفرنج ، على ذلك . وتفرق من كان قد حضر للقتال ؛ فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما . ثم دخل الملك الكامل إلى دمياط بعساكره وأهله ، وكان لدخوله مسرة عظيمة وابتهاج زائد . ثم سار الفرنج إلى بلادهم . وعاد السلطان إلى قلعة الجبل ، في يوم الجمعة ثمانى عشر شهر رمضان . ودخل الوزير صاحب صفى الدين عبد الله ابن على بن شكر في البحر ، وأطلق من كان بمصر من الأسرى ، وكان فيهم من أسر من الأيام الصلاحية . وأطلق الفرنج من كان في بلادهم من أسرى المسلمين .

واتفق^(٢) أنه لما رحل الفرنج اجتمع في ليلة عند الملك الكامل أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى على حالة أنس ، فأمر الأشرف جاريته ست الفخر ، ففتت على عودها : —

ولما طفى فرعون عكا بيفيه وجاء إلى مصر ليفسد في الأرض
أتى نحوم موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليم بعضاً على بعض

(١) كان من شروط الصلح أن تكون هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثمانى سنين ، لا يستثنى منها سوى أصحاب التيجان من ملوك أوروبا ، فإن لهم أن ينقضوها إذا شاءوا . ولقد كانت الحملة التي وصلت دمياط ، بعد إمضاء شروط الصلح ، من عند فردريك (Frederic II.) إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان يحق لقائدها أن يكسر الهدنة ، دون أن يخجل بشروط الصلح ؛ غير أن وجود الرهائن لدى الكامل أحاف الصليبيين من عواقب ذلك ، فسلموا دمياط حسب الشروط (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 224).

(٢) بقالة هذا الخبر ، بهامش الصفحة في س ، لفظ "لطيفة" ، بخط مخالف .

فطرب الأشرف ، وقال لها : ” كَرَّيْ “ . فشق [ذلك] على الملك الكامل ،
وأمرها فسكت ، وقال لجاريته : ” غَنِّ أَنْتِ “ . فغنت على العود : —

أيأهل دين الكفر قوموا لتتظروا لما قد جرى في وقتنا وتجدوا
أعباد عيسى إن عيسى وقومه موسى جميعاً ينصرون محمداً
فأعجب الكامل بها ، وأمرها بخمسمائة دينار ، ولجارية أخيه الأشرف بخمسمائة دينار .
فنهض القاضي الأجل هبة الله بن محاسن ، قاضي غزّة ، وكان في جملتهم ، وأنشد : —

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا مبيناً وإنعاماً وعزاً مجدداً
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله^(١) ال طغاة وأضحى بالمراكب مزهدا
أقام لهذا الدين من سلّ عزمه صقيلا كما سل الحسام مجرّدا
فلم تر إلا كلّ شيلو^(٢) مجدل^(٣) ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعا عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه موسى جميعاً ينصران^(٤) محمداً

ويقال إن هذا المجلس كان بالمنصورة . ولما استقر الملك الكامل على تخت ملكه
سارت الملوك إلى ممالكها ، وعت بشارة أخذ (٧٠ هـ ب) المسلمين دمياط آفاق الأرض . فإن
التتار كانوا قد دمروا ممالك الشرق ، وكادت مصر مع الشام يستأصل شأفة أهلها الفرنج ،
حتى منّ الله بحميل صنعه وخفى لطفه ، ونصّر عباده المؤمنين ، وأيدهم بحنده ، بعد ما ابتلى
المؤمنون ، وزلزلوا زلزلا شديداً .

وقدمت على الملك الكامل تهاني الشعراء بهذا الفتح ، فكان أولهم إرسالاً شرف
الدين بن عنين ، بكلمته التي أولها : —

(١) في س بأهليه . (٢) الشاو ، والشلا ، الجسد أو العضو من أعضائه . (محيط المحيط) .

(٣) في س مجدل . (٤) كذا في س ، وقد تقدمت بصورة الجمع ، في البيت عينه ، سطر ٤ .

سلوا صهوات الخليل يوم الوغى عنا
 غداة التقينا دون دسياط جحفلا
 قد اجتمعوا رأيا وديننا وهممة
 تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت
 وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا
 فما برحت سمر الرماح تنوشهم
 سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
 لقد صبروا صبرا جريلا ودافعوا
 بدا الموت من زرق الأسنة أحرا
 وما برح الإحسان مناسجية
 وقد جربونا قبلها في وقائع
 أسود ووغى لولا وقائع سمرنا
 وكم يوم حرّ ما وقيننا هجيريه
 فإن نعم الملك في وسطه الشقا
 يسير بنا من آل أيوب ماجد
 كريم الثنا عار عن العار باسل
 سرى نحو دسياط بكل سُمَيْدَع
 مآثر مجد خدّرتهم سا سيوفه
 وقد عرفت أسيافنا ورقابهم
 منحناهم منا حياة جديدة
 ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا
 إذا جهلت آياتنا والقننا اللدنا
 من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
 وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سنا
 جموع كأن الموج كان لهم سفنا
 إلينا سِراعا بالجهاد وأرقلنا
 بأطرافها حتى استجاروا بشامنا
 وكيف ينال الليل من عدم الأمننا
 طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
 فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
 نورّتها من صيد آبائنا الابنا
 تعلم غمر القوم منا بها الطعنا
 لمالبسوا قيدا ولا سكنوا سجننا
 وكم يوم فر ما طلبنا له كِنا
 يُنال وحلو العيش من سره يُجنّى
 أبى عزمه أن يستقر بنا معنى
 جميل الحيا كامل الحسن والحسنى
 إمام يرى حسن الثنا المغمى الأسنى
 طوال المدى يفنى الزمان ولا تنفى
 مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
 فعاشوا بأعناق مقلدة منا
 ولو غا ولكننا ملكنا فأسبحنا

وقال :

قسما بما ضمت أباطح مكة وبين حواء من الحبيج الموقف
(١٠٨) لولم يقم موسى بنصر محمد لرقى على درج الخطيب الأسقف
لولا ما ذل الصليب وأهله في ثغر دمياط وعز المصحف
ووردت أيضا قصيدة القاضي الأجل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي القوصي ، وغيره
من الشعراء .

وفيها ملك التتر مراغة وهذان وأذربيجان وتبريز^(١) . وفيها مات الملك الصالح
ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان^(٢) بن سقمان بن أرتق الأرتقي ، صاحب حصن كيفا ؛
وقام من بعده ابنه الملك المسعود داود . وفيها ركب الملك الكامل من قلعة الجبل إلى منظره
الصاحب صفى الدين بن شكر - التي على الخليج بمصر - في ذى القعدة ، وتحدث معه
في نفى الأسراء الذين وافقوا الفاتز . وكاوا في جيزة دمياط لمارتها ، فكتب لهم بالتوجه من أرض
مصر إلى حيث شاءوا ، فمضوا بأجمعهم من الجيزة إلى الشام ، ولم يتعرض [الملك الكامل] لشيء
من موجودهم ، وفرق أخبازهم على عماليكه . وفيها مات أمين الدين مرتفع بن الشعار ، وإلى
مصر ، في يوم الجمعة ثالث محرم . ومات متولى تونس وبلاد إفريقية الأمير أبو محمد عبد الواحد
ابن أبي حفص عمر بن يحيى بن أبي حفص عمر بن ونودين^(٣) الهنتاني^(٤) ، في يوم الخميس أول
المحرم ، و [كان] قد ولي [تونس] من قبل الناصر أبي عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن
يوسف القسري^(٥) بن عبد المؤمن ، ملك الموحدين ، سنة اثنتين وستمائة . و [كان أبو محمد قد]
قدم أكبر بنيه ، الشيخ أبا زيد عبد الرحمن بن عبد الواحد ، فقام بأمر تونس ، حتى قدم
أخوه أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد ، متوليا إفريقية من قبل العادل عبد الله بن

(١) في س توريز ، وبغير ضبط ، وإبدال الباء واوا هو التطق " الجارى على السنة العامة " .

الفاشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٣٥٧ (٢) في س قرا أرسلان .

(٣) مضبوطة هكذا في س (انظر ص ٦٢ ، حاشية ١) . (٤) بغير ضبط في س . انظر

(٥) مضبوطة هكذا في س . (Enc. Isl. Arts. Hafside)

المنصور يعقوب ، [ملك الموحدين] ، في خامس رمضان منها ، فاستمرّ [أبو محمد عبد الله] حتى قام أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد . [هذا] والأمير أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص هو أول من قام من الحفصيين بإمرة تونس ، وهو جدّ ملوك تونس الحفصيين ،

سنة تسع عشرة وستمائة . فيها قدم الأشرف موسى إلى مصر ، فأقام بها عند [أخيه] السلطان [الملك الكامل] مدة ، ثم عاد في رمضان . وفيها أوقع التتر بالكرج . وفيها قدم المظفر موسى على أخيه الكامل بمصر . و [فيها] قدم الملك المسعود يوسف ابن الكامل من اليمن ^(١) إلى مكة في ربيع الأول ، وقد رحل عنها الشريف حسن ابن قتادة ^(٢) ، وقدم معه راجح بن قتادة [إلى] مكة . فردّ الملك المسعود على أهل الحجاز أموالهم ونخلهم ، وما أخذ لهم من الدور بمكة والوادي ، ثم عاد إلى اليمن بعد ما حج ، ومنع أعلام الخليفة من التقدم ، وقدم أعلام أبيه على أعلام الخليفة . وبدا منه بمكة ما لا يُحمد ، من رمى حمام الحرم بالبندق من فوق زمزم ، ونحو ذلك . فهمّ أهل العراق بقتاله ، فلم يقدروا على ذلك عجزاً عنه . واستناب [الملك المسعود] بمكة الأمير نور الدين عمر بن علي ابن رسول ^(٣) ، ورتب معه ثلثمائة فارس — وكان الشريف حسن بن قتادة قد نزل ينبع . وولى [الملك المسعود] أيضاً راجح بن قتادة السريّ ^(٤) وحلّى ^(٥) ونصف الخلاف ^(٦) . فجمع الشريف حسن وسار إلى مكة ، وكسر ابن رسول ، وملك منه مكة .

-
- (١) تولى الملك المسعود ، واسمه صلاح الدين يوسف ، بلاد اليمن سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، بعد المظفر سليمان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 79, 98-99.) (٢) انظر ص ٢٠٦ .
(٣) المعروف أن الملك المسعود أسند ولاية مكة ، في تلك السنة ، إلى علي بن رسول ، والد نور الدين عمر بن علي بن رسول ، المذكور هنا . (Lane-Poole Muh. Dyns p. 99.) (٤) بنير ضبط في س ، وهي بلد قريب من مكة ، على ساحل البحر ، قرب جدة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٩ .)
(٥) مضبوطة هكذا في س ، ويسمى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٧) الحال ، وهي بلدة على الحدود ، بين اليمن والحجاز ، وبقرىها جبل حلى وقيبتها مرسى حلى . (Enc. Isl. Art. Halli.)
(٦) كذا في س ، بنير ضبط ، ولعل المقريزي قصد الخفافة ، وهي موضع أسفل مكة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .) أما الخلاف فهو مرادف الكورة ، وتسمى كورات اليمن الخالف ، وقد ذكرها ياقوت (نفس المرجع والجزء ، ص ٤٣٤ — ٤٤٠ ؛ ج ٦ ، فهرس) ، وعدتها تسعة وعشرون ومائة .

وفيها مات الأمير عماد الدين أبو العباس أحمد بن الأمير سيف الدين أبي الحسن على ابن أحمد المكارى ، المعروف بابن المشطوب ، أحد الأمراء الصلاحية ، في الاعتقال بحران ، في ربيع الآخر .

سنة عشرين وستمائة . فيها أخذ المعظم عيسى المرة وسلمية^(١) ، ونازل حماة . فشق ذلك على أخيه الأشرف — وكان بمصر — وتحدث مع السكامل في إنكار ذلك . فبعث [السلطان السكامل] إلى المعظم يسأله في الرحيل عن حماة ، فتركها وهو حنق . وفيها حج^(٢) الملك الجواد^(٣) والملك الناصر من القاهرة ، وقدما علم الخليفة على علم السلطان الملك السكامل في طلوع عرفة^(٤) . وفيها خرج الأشرف من مصر إلى بلاده ، ومعه خلع الملك السكامل والتقليد بسلطنة حلب للعزیز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازي . فوصل إلى حلب في شوال ، وتلقاه العزيز — وعمره عشر سنين — فأفاض عليه الخلع الكاملية ، وحل الفاشية^(٥) بين يديه ، وأقام عنده أياما ، ثم (٥٨ ب) سار إلى حران .

وفيها عم الجراد بلاد العراق والجزيرة ، رديار بكر والشام . وفيها وقع التتر بالروس . وفيها شق سهم الدين عيسى والى القاهرة نفسه — وهو معتقل بدار الوزارة — ليلة الخميس سادس شوال .

(١) بنبر ضبط في س ، وهى ملبدة من ناحية الرية ، من أعمال حماة ، بينهما مسيرة يومين ، " ولا يعرفها أهل الشام إلا بسلمية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٣) .
(٢) يوجد فوق هذين اللطين في س كلمة " حد " . (٣) اسمه يونس ، وهو ابن مودود ابن العادل بن أيوب . (أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ص ١١٤ ، و Rec. Hist. Or. I.) .
(٤) بلى هذا في س بباض ، قدر سطر تقريبا ، فيه آثار كثرة محو تاما .
(٥) أسل الفاشية الجل أو العطاء المزركش ، الذى يوصع على ظهر العرس ، فوق البردة . وكان سلاطين الأيوبيين — والمالكيك بعدهم — يخرجون في المواكب وبين أيديهم عاشية ، وميها يقول القافشدى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧) ما نصه : " وهى عاشية سرج من أديم محروزة بالذهب ، يخالها الناطر جيمها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة ، كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب حارية ، رافعا لها على يديه ، يلفها يمينا وشمالا ، وهى من خواص هذه الملكة " .
انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

سنة إحدى وعشرين وستمائة . فيها ملك التتر قم^(١) ، وقاشان^(٢) ، وهذان . وفيها اختلاف الحال بين المظفر غازي ، صاحب إربل ، وبين أخيه الأشرف . فخرج المعظم من دمشق يريد محاربة الأشرف ، فبعث إليه الكامل يقول له : "إن تحركت من بلدك سرت وأخذته منك" . فخاف وعاد إلى دمشق . وفيها مات الوزير الأعز أبو العباس أحمد ، المعروف بفخر الدين مقدم بن شكر ، في آخر شعبان بالقاهرة . وفيها أخذ عسكر مصر ينبع من بني حسن ، وكانوا قد اشتروها بأربعة آلاف مثقال ، فلم تزل بيد المصريين إلى سنة ثلاثين .

سنة اثنتين وعشرين وستمائة . فيها فر الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود^(٣) من مصر في البحر ، خوفاً من عمه الملك الكامل ، ولحق بعمه المعظم . وفيها تخوف الكامل من أمرائه ، لميلهم إلى أخيه الملك المعظم . فقَبِضَ على جماعة ، وبعث إلى الطرقات من يحفظها ، وبعث عدة رسل إلى الملوك الذين في خدمة أخيه الأشرف يأمرهم بالاتفاق والأيخافوه .

وفيها عاد السلطان جلال^(٤) الدين بن خوارزم شاه [علاء الدين محمد بن تكش] إلى بلاده ؛ وقوى أمره على التتر ، واستولى على عراق العجم ، وسار إلى ماردين وأخذها ، وسار إلى خوزستان . وشاقق [جلال الدين] الخليفة الناصر [لدين الله] ، وسار حتى وصل بفقوباً^(٥) ، وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ ، فاستعد الخليفة للحصار . ونهب جلال الدين البلاد ، وأخذ

(١) بغير ضبط في س ، وهي من بلاد الفرس ، بالعراق المعجمي ، بين إصفهان وساعة . وكان اسمها في الأصل كُشْمُندَان ، فأسقط بعض حروفها ، وعربت إلى قم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧٥ — ١٧٧ ؛ و (Enc. Isl. Art. Kūmī) . (٢) بغير ضبط في س ، وهي بالعراق المعجمي أيضاً ، على مسيرة ثلاثة أيام من إصفهان ، وتذكر عادة مع قم ، التي تبعد عنها اثني عشر فرسخاً . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥ ؛ و (Enc. Isl. Art. Kashān) . (٣) في س مودود . (انظر الصفحة السابقة ، حاشية ٣) . (٤) في س جلال الدين ، بسائر الصفحة في س ، وقد صححت بغير تنبيه بعد هذه المرة . انظر ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٠٦ وغيرها) . (٥) بغير ضبط في س ، ويقال لها باعقوباً أيضاً ، وهي من أعمال طريق خراسان ، وتبعد عن بغداد عشرة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٧٢) .

منها ما لا يقع عليه حصر، وفعل أشنع ما يفعله التتر. فكاتبه الملك المعظم، واتفق معه معاندة لأخيه الكامل، ولأخيه الملك الأشرف، صاحب البلاد الشرقية. فسير السلطان جلال الدين ابن القاضي مجد الدين - قاضي المالك - في الرسالة إلى الملك الأشرف، ثم إلى الملك المعظم، ثم إلى الملك الكامل، فتظاهر بأنواع الفسوق. وسار جلال الدين إلى عراق العجم، فلك همدان وتبريز^(١)، وأوقع بالكرج.

وفيها مات الملك الأفضل على بن صلاح الدين يوسف، صاحب سميساط، فجأة^(٢) بسميساط في صفر، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس - وقيل ست - وستين وخمسة^(٣). وهو أكبر أولاد أبيه، وإليه كانت ولاية عهده. وسمع [الأفضل] من ابن عوف وابن برى. واستقل بمملكة دمشق بعد موت أبيه، فلم ينتظم له أمر لقلة حظه، وأخذها منه أخوه العزيز عثمان، صاحب مصر. ثم صار [الأفضل] أتابكا للمنصور ابن العزيز (١٠٩١). وحصر دمشق، وبها عمه [العاذل]، وأشرف على أخذها منه؛ فقطع عليه سوء الحظ، وعاد إلى مصر، وفي أثره عمه العادل، فانتزع منه مصر، ولم يبق معه سوى صرخد. ثم قصد [الأفضل] دمشق ثانيا، مع أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، فلم يتم أمرهما لاختلافهما، وصار بيده سميساط لا غير. فلما مات أخوه الظاهر طمع في حلب، وخرج إليها مع السلطان عز الدين كيكاوس السلجوقي ملك الروم، فلم يتم لهما أمر. وعاد [الأفضل] إلى سميساط، فلم يزل بها يتجرع النقص حتى مات كدرا. وكان فاضلا أديبا حليما، حسن السيرة متجاوزا، يكتب الخط المليح، جامعاً لعدة مناقب، إلا أنه كان قليل الحظ. وشعره جيد: كتب إلى الخليفة الناصر [لدين الله] - لما انتزع منه دمشق أخوه العزيز عثمان وعمه العادل أبو بكر - في سنة اثنتين وتسعين وخمسة، كتابا يشكو إليه اغتصابهما ميراثه من أبيه، وأوله:

مولاي ! إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذوا بالسيف إرث علي
فانظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقي من الأواخر مالاقي من الأوّل

(١) في س توريز. (٢) هذا اللفظ مطبوس بمداد في س، ولكنه في ب (٧٠ ب).

(٣) ولد الأفضل على سنة ٥٦٦ هـ. (Lane-Poole: Saladin, Table II, in Pocket).

وله أيضا في معناه :

أما آن للسعد الذي أنا طالب لإدراكه يوما يرى وهو طالب
تري [هل] يربى الدهر أيدى شيعى تمكّن يوما من نواصي النواصب
فأجابه الخليفة بقوله :

وافى كتابك يا بن يوسف معلنا بالود يخبر أن أصلك طاهر
غضبوا عليا حقه إذ لم يكن بعد النبي له يثرب ناصر
فابشر فإن غدا يكون حسابهم واصبر فناصرك الإمام الناصر
ومن شعره :

أيا من يسود شعره بخضابه لعماء من أهل الشيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظى مرة ولك الأمان بأنه لا ينصل^(١)
وقام من بعده بسمياط أخوه الملك المفضل قطب الدين موسى شقيقه ، فاختلف عليه
أولاد الأفضل .

وفيها مات الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المستضى بأمر الله الحسن بن المستنجد
بالله يوسف ، في ثاني شهر شوال ؛ ومولده في العاشر من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين
وخمسمائة . وله في الخلافة سبع وأربعون سنة ، غير ستة وثلاثين يوما . وكانت أمه أم ولد ،
يقال لها زمرد ، وقيل نرجس^(٢) . وكان شهما أبي النفس ، حازما متيقظا ، صاحب فكر
صائب ، ودهاء ومكر . وكان مهيبا^(٣) ، وله أصحاب (٥٩ ب) أخبار — بالعراق وفي الأطراف —
يطالعونه بجزئيات الأمور وكيانها . فكان لا يخفى عليه أكثر أحوال رعيته ، حتى أن أهل
العراق يخاف الرجل منهم أن يتحدث مع امرأته ، لما يظن أن ذلك يطلع عليه الخليفة ،

(١) العبارة الآتية مكتوبة بهامش الصفحة في س ، بخط مخالف ، ونصها : " هذان البيتان ...
الأفضل " ، واليباس مكان ألفاظ تعذرت قراءتها . ويلاحظ أن خط هذه العبارة يشبه كثيراً خط كاتب
الجملة " ملكة محمد القرينى " ، الواردة بصفحة العنوان . (انظر ص ٥ ، حاشية ٥) .

(٢) لم يترجم (Blochet: Op. cit. P. 361) بعد هذا اللفظ شيئا مما هنا من أخبار الناصر لدين الله ،
مع وروده بمخطوطة السلوك التي ترجم منها . (٣) في س مهابة .

فيعاقب عليه . وعمل شخص دعوة ببغداد ، وغسل يده قبل أضيافه ، فلم الخليفة بذلك من أصحاب أخباره ، فكتب في الجواب : ”سوء أدب من صاحب البلد ، وفضول من كاتب المطالعة^(١)“ . وكان ردى السيرة في رعيته ، ظلماً عسواً : خرب العراق في أيامه ، وتفرق أهله في البلاد ، فأخذ أملاكهم وأموالهم . وكان يحب جمع المال ، ويباشر الأمور بنفسه ، ويركب بين الناس ويجتمع بهم ، مع سفكه للدماء ، وفعله للأشياء المتضادة : فيفتصب الأموال ويتصدق . وشغف برمي الطير بالبندق ، ولبس سراويلات الفتوة ، وحل أهل الأمصار على ذلك^(٢) ؛ وعمل سالم بن نصر الله بن واصل الحموي في ذلك رسالة بديعة . وصنف الناصر [لدين الله] كتاباً في مروياته ، سماه روح العارفين ، وأسمعه [للقهاء بمصر^(٣) والشام] ، وله شعر . وفي خلافته خرب التتر بلاد الشرق ، حتى وصلوا إلى همدان ؛ وكان هو السبب في ذلك : فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد ، خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، لما هم بالاستيلاء على بغداد ، وأن يجعلها دار ملكه ، كما كانت السلجوقية . ولم يمت [الخليفة الناصر لدين الله] حتى عمى ، وقيل كان يبصر بإحدى عينيه . وقام من بعده في الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله^(٤) أبو نصر محمد — بهمد من أبيه — يوم مات أبوه ، وعمره ما ينيف على خمسين سنة . وكان يقول ”من يفتح دكانه العصر متى يستفتح“^(٥) . ولما ولى

(١) في هامش الصفحة في س العبارة الآتية : ”انظر إذا تقدم الشخص أضيافه لغسل يديه“ ، ومي بخط مخالف . (٢) انظر ص ١٧٢ ، سطر ٤ . (٣) انظر ص ١٨٠ ، سطر ١٥ . (٤) لهذه التسمية سبب ، وهو — كما جاء في ابن الأثير (الكمال في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧) — أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد خلع ولده أبا نصر محمد ، وهو أكبر ابنه ، من ولاية العهد ، وولى بدله ولده الصغير علياً ، لشدة حبه له . ثم حدث أن علياً توفي سنة ٦١٢ هـ ، (انظر ص ١٨١ ، سطر ٧) ، فاضطر الخليفة إلى إعادة أبي نصر محمد إلى ولاية العهد . فلما توفي الناصر ، وأصبح أبو نصر خليفة ، لقب نفسه بالظاهر بأمر الله ، وقصد بذلك أن أباه أراد صرف الأمر عنه ، فظهر وولى الخلافة بأمر الله . (٥) في س أبي . (٦) أفاض ابن الأثير (الكمال في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٩) في ذكر أعمال الخليفة الجديد ، ومما قال : ”ولما ولى [الظاهر بأمر الله] الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به عهد العمرين ، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر ابن عبد العزيز مثله لكان القائل (كذا) صادقا : فإنه أعاد من الأموال المعصوبة ، في أيام أبيه وقبله ، شيئاً كثيراً ... (٢٨٢) ... ومن حسن نيته للناس أن الأسعار في الموصل وديار الجزيرة كانت غالية ، فرخصت الأسعار . وأطلق حل الأطعمة إليها ، وأن يبيع كل من أراد البيع للثقة ... وأمر أن يباع من الأهرام التي له طعام أرخص مما يبيع غيره ، ففعلوا ذلك ، فرخصت الأسعار عندهم أيضاً ، أكثر مما كانت أولاً ... ولقد سمعت كلمة أعجبتني جداً ، وهي أنه قيل له في الذي يخرجه وطلقه من الأموال ، التي لا تسمع نفس بيعها ، فقال لهم : ”أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فأركوني أنتم الخير ! فكم أعيش ؟“ .

أظهر العدل ، وأزال عدّة مظالم ، وأطلق أهل السجون ، وظهر للناس ، وكان من قبله من الخلفاء لا يظهرون إلا نادرا :

وفيهما وصل الملك المسعود من اليمن إلى مكة ، ومضى إلى القاهرة من طريق عيذاب ، فقدم على أبيه الكامل بقلعة الجبل ، ومعه هدايا جليلة . وفيها مات الوزير صاحب صفى الدين عبد الله بن أبي الحسن على بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن ابن منصور بن إبراهيم بن عمار بن منصور بن علي الشيبى ، أبو محمد المعروف بابن شكر ، الفقيه الدّميرى^(١) السالكى ، فى يوم الجمعة ثامن شعبان — وقيل شوال — بالقاهرة ؛ ودفن برباطه منها . وكان مولده بدميرة ، إحدى قرى مصر البحرية ، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسةائة ؛ وسمع من ابن عوف وغيره ، وحدث . وكان جبارا (١٦٠) جَبَّاهَا عاتيا ، عانيا بتقدمة الأراذل وتأخر الأماثل ؛ أفقرَ خلقا كثيرا .

وفيهما قدم الشريف قاسم الحُسَيْنى أمير المدينة ، بمسكر إلى مكة ، وحصرها نحو شهر ، وبها نواب الملك الكامل ، فلم يتمكن منها ، بل قُتل .

سنة ثلاث وعشرين وستمائة . فيها تأكدت الوحشة بين المعظم وبين أخويه الكامل والأشراف . وفيها بعث الخليفة الظاهر بأمر الله النشريف للوك بنى أيوب ، على يد محيى الدين أبى المظفر بن الحافظ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى^(٢) : فبدأ بالأشرف موسى صاحب البلاد الشرقية ، وأفاض عليه الخلع الخليفية ؛ ثم بالعزير غياث الدين محمد ابن الظاهر صاحب حلب ، فأفاض عليه فرجية واسعة السكم سوداء ، وحمالة سوداء مذهبة ،

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى دميرة ، وهى إحدى قرىتين متقابلتين على النيل ، تسمى كل منهما دميرة ، قرب دمياط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٠٢) . (٢) اشتهر فى عالم التأليف من أسرة ابن الجوزى اثنان ، وهما : عبد الرحمن بن على بن محمد أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزى ، الحنبلى الفقيه المؤرخ ، صاحب كتاب المنتظم والمتنقط الملتزم فى التاريخ ، مات ببغداد سنة ٥٩٧ هـ ، (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzi) وسبط ابن الجوزى ، واسمه شمس الدين أبو المظفر يوسف بن كزوغلو ، وهو ابن بنت عبد الرحمن المذكور ، ولد ببغداد سنة ٥٨٢ هـ ، وتوفى بدمشق سنة ٦٥٤ هـ ، وهو صاحب كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان . (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzi, Šibt) .

وثوباً^(١) مطرزا بالذهب أيضا؛ ثم ألبس المعظم عيسى، صاحب دمشق، بدمشق. وسار إلى القاهرة بالتقليد والخلع للملك الكامل، ولأولاده الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك المسعود، وللصاحب صفى الدين بن شكر. فبرز الملك الكامل إلى ظاهر القاهرة، ولبس الخلع الخليفية هو وولده^(٢). وكان صاحب صفى الدين قدماء، فألبس [الكامل] الخلعة التي باسمه للقاضي فخر الدين سليمان بن محمود بن أبي غالب أبي الربيع الدمشقي، كاتب الإنشاء. وعبر [الكامل] من باب النصر، وشق القاهرة إلى أن صعد قلعة الجبل، فكان يوما مشهودا.

وفيها قبض الملك الكامل على أولاد صاحب صفى الدين بن شكر، وأحاط بجميع موجوده، واعتقل ابنه تاج الدين يوسف، وعز الدين محمد، في قاعة سهم الدين، بدرج الأسواني^(٣) من القاهرة. ولم يستوزر [الكامل] بعد ابن شكر أحدا.

وفيها سافر الملك المسعود من القاهرة إلى اليمن. وفيها كثروهم الملك الكامل من عسكره، فإن المعظم أرسل إليه في جملة كلام: "وإن قصدتني لا آخذك إلا بعسكر". فوقع في نفسه الخوف ممن معه، وهم أن يخرج من مصر؛ فلم يحسر. وخرج المعظم فنازل حمص، وخرب قراها وسزارعها، ولم يزل من قلعتها شيئا، لا متناعها هي والمدينة عليه. فلما طال مقامه على حمص رحل عنها، لما أصاب عسكره ودوابه من الموت. وقدم عليه أخوه الأشرف جريدة، فسر به سروا عظيما، وأكرمه إكراما زائدا.

وفيها مات الخليفة الظاهر بأمر الله [أبو نصر] محمد بن الناصر، في رابع عشر شهر رجب، فكانت خلافته تسعة أشهر وتسعة أيام؛ وكان حسن السيرة كثير المعروف. واستقر في الخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وعمره عشرون سنة؛ فوردت عليه رسل ملوك الأطراف. وبعث الملك الكامل (٦٠ ب) في الرسالة معين الدين حسن

(١) في س: والثوب الطرز. (٢) في س: ولديه. (٣) يقول المقرئ

(المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٧)، في باب ذكر الدروب والأزقة، إن درج الأسواني "ينسب إلى القاضي أبي محمد الحسن بن هبة الله الأسواني، المعروف بابن عتاب"، غير أنه لم يذكر شيئا عن قاعة سهم الدين.

ابن شيخ الشيوخ [صدر الدين] بن حمويه^(١)؛ فلما قدم بغداد قال نيابة عن الملك الكامل ، وهو بين يدي الوزير مؤيد الدين أبي الحسن محمد بن محمد القتيبي : ” عبد الدولة المقدسة المستنصرية يقبل العتبات ، التي يستشفى بتقريب ثراها ، ويستشفى بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها ، ويوالي شكر الله تعالى على إمالة ليل العزاء ، الذي عم مصابه ، بصبح المناء الذي تم نصابه ، حتى ترحل عن شمس الهدى شفق الإشفاق ، فجل كلتها العليا ، وكلة معادها السفلى ، وزادها شرفاً في الآخرة والأولى “ . وفيها قدم رسول علاء الدين كيقباد ، ملك الروم ، بتقديمه جليلة إلى الملك الكامل .

سنة أربع وعشرين وستمائة . فيها سافر الأشرف إلى بلاده من دمشق ، بعد ما حلف المعظم أنه يعاضده على أخيه الملك الكامل ، وعلى الملك المجاهد صاحب حمص ، والناصر صاحب حماة . وفيها سافر رسول [علاء الدين كيقباد] ، ملك الروم ، من مصر إلى مخدومه . وفيها تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف ؛ وخاف [الكامل] من اتقاء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، فبعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ [صدر الدين]^(٢) بن حمويه إلى ملك^(٣) الفرنج ، يريد منه

(١) تقدم ذكر شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، في أخبار الملك العادل ، تحت سنة ٦١٤ هـ ، (انظر ص ١٨٦) . وقد توفي بالموصل سنة ٦١٧ هـ ، وترك من الأولاد أربعة ، عرف كل منهم بأبن الشيخ ، وهم فخر الدين وعماد الدين وكمال الدين ومعين الدين . وذكرهم المقرئ حيا فيما يلي ، عند ذكر وفاة السلطان الكامل ، فترجم لهم ، وقال إن أهمهم — وهي ابنة القاضي شهاب الدين بن عسرون ، أرضعت الملك الكامل ، فهم إخوته من الرضاعة . انظر أيضاً أبا القداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ٩٥ ، ١١٤ ، في (Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) انظر الحاشية السابقة . (٣) يقصد المقرئ بملك الفرنج فردريك الثاني (Frederic II.) ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان هذا الإمبراطور قد نذر يوم تنويجه ، سنة ١٢١٥ م (٦١٢ هـ) ، أن يرافق الحملة الصليبية ، المعروفة في التاريخ الأوروبي بالحلمة ، والتي كان غرضها الديار المصرية . غير أن أمورا داخلية عاقته ، فلم يستطع الوفاء ، وسارت الحملة بقيادة (Jean de Brienne) ، وحاصرت دمياط (انظر ص ١٨٨ ، وما بعدها) . على أن الإمبراطور لم يأل جهداً في بث الدعوة للحملة في أنحاء بلاده ، بل أرسل نجدة ألمانية سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) ، شاع أنه سيرافقها ، ولكنه لم يفعل . وهذه الحملة هي التي وصلت الشواطئ المصرية بعد إمضاء شروط الصلح بين الملك الكامل والصليبيين ، (انظر ص ٢٠٨ ، وما بعدها) . ولقد كان سلوك الإمبراطور مجلبة لغضب البابوات ، الذين تماقوا على كرسى =

أن يقدم إلى عكا ، ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه ^(١) المعظم ؛ فتجهز الإمبراطور ^(٢) ملك الفرنج لقصد الساحل .

وبلغ ذلك المعظم ، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل ، ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، فسير إليه [جلال الدين] خلة لبسها ، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل . فبلغ ذلك الكامل ، فخرج من القاهرة بمساكره ، ونزل بلبليس في شهر رمضان . فبعث إليه المعظم : ” إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدى أتصدق بألف دينار ؛ فإن جميع عسكرك معي ، وكتبهم عندي ، وأنا آخذك بعسكرك “ . وكتب [المعظم مكاتبة] بهذا في السر ، ومعها مكاتبة في الظاهر [فيها] : ” باني مملوكك ، وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وحاشاك أن تخرج وتقابلني ، وأنا أول من أنجدك ، وحضر إلى خدمتك ، من جميع ملوك الشام والشرق “ . فأظهر الكامل هذا بين الأمراء ، ورجع من العباسية إلى قلعة الجبل ، وقبض على عدة من الأمراء (١٦١) ومماليك أبيه ، لمكاتبتهم المعظم : منهم فخر الدين الطنبا الحُبَيْشِي ^(٣) ، وفخر الدين الطن ^(٤) الفيومي

== البابوية بروما ، فأراد الإمبراطور ، سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) ، أن يستجلب رضا البابا القائم إذ ذاك ، وهو (Gregory IX) ، فأبحر من جنوى لإيطاليا ، على رأس حملة صليبية ضخمة . غير أنه اضطر إلى العود قبل أن تبرح سفنه المياه الإيطالية ، بسبب حى انتابته . فاعتبر البابا المرس تمارسا ، وأعلن سخطه على الإمبراطور ، وصب جام غصه عليه ، بإعلان حرمانه من الكيسة . (Excommunication) . بل إنه لما شى الإمبراطور ، وعزم عزما أكيدا على الذهاب إلى الشام ، منعه البابا من الرحيل منها . ورغم ذلك أبحر الإمبراطور ، وعلى رأسه حرمان الكيسة ، وحملته في المعروفة في التاريخ الأوروبي بالسادسة . ووصل الإمبراطور عكا ، في سبتمبر سنة ١٢٢٧ ، (شوال سنة ٦٢٤ هـ) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East. pp. 307-310) . هناك جاءه فخر الدين بن حمويه ، رسولا من عند الكامل ، وستأنى بقية أخبار السلطان والإمبراطور فيما يلي .

(١) عبارة السلوك هنا مشابهة لما في أبي القداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ١٠٢ ، في (Rec. Hist. Or. I) ، وهذا يرجح الظن بأن المقرئى اقتبس هنا من أبي القداء ، مباشرة أو عن طريق غير مباشر .

(٢) في س الانبرطوز ، وهذه قراءة غريبة للفظ (Imperator) اللاتينى ، أو ما يرادفه في اللغات الأوربية الحديثة ، ولعل التشويه مقصود . أما الصيغة الغالبة في كتب المؤرخين المسلمين لهذا اللفظ فهي ” الانبرور “ ، وهي قريبة من منطوقة في الفرنسية والإنجليزية .

(٣) مضبوط في س ، بضم الحاء ، وكسر الباء ، فقط . واسمه في العيني (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٤١) فخر الدين الطينا .

(٤) كذا في س . واسمه في العيني (نفس المرجع والجزء والقسم والصفحة) فخر الدين الفيوى .

— وكان أمير جانداره ؛ وقبض أيضا على عشرة^(١) أسراء من البحرية^(٢) العادلية ، واعتقلهم وأخذ سائر موجودهم ؛ وانفق في العسكر ليسير إلى دمشق .

وفيهما وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنوية وتحف غريبة إلى الملك الكامل ؛ و[كان فيها] عدة خيول ، منها فرس الملك ، بركب ذهب مرصع بجوهر فاخر . فتلقاه الكامل بالإقامات ، من الإسكندرية إلى القاهرة ؛ وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه ، وأكرمه إكراما زائدا ، وأنزله في دار الوزير صفى الدين بن شكر ، واهتم الكامل بتجهيز هدية سنوية إلى ملك الفرنج ؛ فيها من تحف الهند واليمن ، والعراق والشام ، ومصر والعجم ، ما قيمته أضعاف ما سيره ؛ وفيها سرج من ذهب ، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية . وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين^(٣) بن منقذ الشيزرى .

وفيهما وصل رسول الأشكرى^(٤) في البحر إلى الملك الكامل . فسار المعظم من دمشق لتخريب القدس ، فخرّب قلاعاً وعدة صهاريج^(٥) بالقدس ، لما بلغه من حركة ملك الفرنج . وفيها جهز الملك الكامل كمال الدين ومعين الدين ، ولدى شيخ الشيوخ ابن حمويه — ومعهما الشريف شمس الدين الأرموى ، قاضى العسكر — إلى المعظم . و[أمر السلطان الكامل] أن يسير الكمال بجواب المعظم إلى [الملك] المجاهد [أسد الدين شيركوه] بمحمص ، ويعرفه الحال ؛ و[أن] يتوجه المعين إلى بغداد ، برسالة إلى الخليفة ، فتوجه في شعبان . وفيها اتفق عيد القنطرة يوم عيد اليهود وعيد النصارى . [وفيها] خُتِنَ الملك العادل أبو بكر ابن الملك الكامل في تاسع شوال .

(١) في س عشر . (٢) ورود لفظ "البحرية" هنا يوجب الالتفات ، فالمعروف أنه لم يطلق على أجداد السلاطين الأيوبيين إلا بعد أن أسس الملك الصالح أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ) جيشا جديدا من المالك ، أسكنهم قامة الروضة على بحر النيل ، "وشتم بهذا الاسم" . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ و Enc. Isl. Art. Bahri) (٣) انظر ص ١٢٥ ، حاشية ٤ .

(٤) إمبراطور الدولة البيزنطية في نيقية تلك السنة هو (John III Ducas Vatatzes) ، ١٢٢٢ — ١٢٥٤ م ، ٦١٩ — ٦٥٢ هـ (Camb. Med. Hist. IV. pp.427-428) . انظر أيضا ص ١٧٩ ، حاشية ٢ . (٥) انظر مدى التخريب الذي أحدثه المعظم بالقدس في (Enc. Isl. Art. El-Kuds) .

وفيهما مات الملك المعظم أبو الفتح عيسى بن الملك العادل ، صاحب دمشق ، يوم الجمعة سلخ ذى القعدة بدمشق ؛ ودفن بقلعتها ، ثم نقل إلى الصالحية . ومولده بدمشق ، في سنة ثمان وسبعين وخسمائة^(١) . وكان قد خافه الملك الكامل ، فسُرَّ بوفاته . وكان كريما شجاعا ، أدبيا ليِّنا ، فقيها متغاليا في التعصب لمذهب أبي حنيفة — رحمه الله — ، وشارك في النحو وغيره . وقال له أبوه [سره] : ” كيف اخترتَ مذهب أبي حنيفة ، وأهلكَ كلهم شافعية ؟ “ فقال : ” يا خوند^(٢) ! أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم ؟ “ وصنف كتابا سماه السهم المصيب ، في الرد على الخطيب [البندادي] ، أبي بكر أحمد بن ثابت ، فيما تكلم به في حق أبي حنيفة ، في تاريخ بغداد . وكان مقداما ، لا يفكر في عاقبة ، جبارا مُطَرِّحا لللباس ، وهو الذي أطعم الخوارزمي في البلاد . وكانت^(٣) مدة ملكه — بعد أبيه — ثمانى (٦١ ب) سنين وسبعة أشهر غير ثمانية أيام . فقام من بعده ابنه الملك الناصر داود ، وعمره إحدى وعشرون^(٤) سنة . وسير^(٥) [الناصر] كتبه إلى عمه الملك الكامل ، فجلس [الكامل] للعزاء ، وسير إليه الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى بالخلعة وسنجدى السلطنة ، وكتب معه بما طيَّب^(٦) قلبه . فلبس [الناصر] خلعة الكامل وركب بالسندى . ثم أرسل إليه الكامل يريد منه أن يترك له قلعة الشوبك ، ليجعلها خزانة له . فامتنع من ذلك ، وبهذا وقعت الوحشة بينه وبين عمه الكامل .

وفيهما أمر الملك الكامل بتخريب مدينة تنيس ، فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكيئة ، ولم يكن بديار مصر أحسن منها ، واستمرت من حينئذ خرابا .

وفي شهر رجب من هذه السنة دعا لنفسه بتونس الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد ابن أبي حفص ، وتلقب بالسلطان السعيد . فلم ينازعه أحد في مملكة إفريقيه ، وكان قد ضعف أمر بني عبد المؤمن .

(١) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة في س ، وهى بخط مخالف ، ونصها : ” مات الملك المعظم عيسى رحمه الله تعالى عليه “ : (٢) لفظ تركى أو فارسى ، وأصله خنداوند بضم الخاء ، ومعناه السيد أو الأمير ، ومخاطب به الذكور والإناث على السواء . والخوند فى اصطلاح عشائر لبنان من كان فى الرتبة دون الأمير ، وفوق الشيخ أو المقدم . (يحيط المحيط ؟ و . Dozy : Supp. Dict. Ar .) .

(٣) فى س وكان . (٤) فى س عشرين . (٥) فى س فسير . (٦) فى س طلب .

* * *

سنة خمس وعشرين وستمائة . فيها سیر الملك الكامل شيخ^(١) الشيوخ ابن حمويه بالخلع ، إلى ابن أخيه الناصر داود بن المعظم ، بدمشق . فحل الرسول الغاشية بين يديه ، ثم حملها عمّاه^(٢) : [الملك] العزيز [عثمان صاحب بانياس] ، و [الملك] الصالح [عماد الدين إسماعيل ، صاحب بصرى^(٣)] . و [فيها] جهز [الملك الكامل] أيضا بالخلع للجهاد ، صاحب حمص .

وفيهما استوحش الملك الكامل من ابن أخيه الناصر داود ، وعزم على قصده ، وأخذ دمشق منه . وعهد [الكامل] إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده [بدار مصر] ، وأركبه بشعار السلطنة ، — وشق [الصالح] القاهرة ، وحلت الغاشية بين يديه ، تداول حملها الأسراء بالتوبة — وأنزله بدار الوزارة ، وعمره يومئذ نحو اثنتين وعشرين سنة . وفيها ظلم الأجدد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه — صاحب بعلبك — وتعدى ، وأخذ أموال أهل بعلبك وأولادهم . فقام عدة من جنده مع العزيز فخر الدين عثمان بن العادل في تسليمه بعلبك ، فسار [العزيز] إليها ونازلها . فقبض الأجدد [على] أولئك الذين قاموا معه ، وقتل بعضهم ، واعتقل بآقيهم . ثم إن الناصر داود ، صاحب دمشق ، بعث إليه من رحّله عن بعلبك قهرا ، فغضب وسار إلى الملك الكامل ، ملتجئا إليه . فسر به [الكامل] ، ووعدته بانتزاع بعلبك من الأجدد وتسليمها إليه .

وفيهما ظلم الناصر داود أهل دمشق ، وأخذ أموالهم ، واشتغل باللهو ، وأعرض عن مصالح الدولة . فشق ذلك على الكامل ، وجعله سببا يؤاخذ به ، ويجهّز في شهر رجب للسير لمحاربته ؛ واستناب على مصر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، ليحصل الأموال ويدبر أمور المملكة . وخرج [الكامل] من القاهرة يوم الأحد تاسع عشر شعبان — في عساكره المتوافرة — ومعه المظفر تقي الدين محمود

(١) يقصد الميرزى واحدا من أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه . (انظر ص ٢٢١ ، ملاحظة ١) .

(٢) في س اعمامه . (٣) أضيف ما بين الأقواس من العيني (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٥٨) .

ابن المنصور ، وقد وعده أن يسلمه حماة ، [وكانت بيد أخيه^(١) قلعج أرسلان] ؛ والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل ، وكان قد رباها معه الملك الكامل بعد موت أبيه ، وأقطعه البحيرة من ديار (١٦٢) مصر .

فلما بلغ الناصر خروج عمه لم يعل إلى استعطافه ، والتجأ إلى عمه الأشرف . فسار الكامل بالعسكر والعربان إلى تل العجول ، وبَعَثَ منها إلى نابلس والقدس وأعمالها . وسير [الكامل] الأمير حسام الدين أبا علي بن محمد أبي علي الهذباني — أحد أصحاب المظفر تقي [الدين] محمود — إلى القاهرة ، فاستخدمه الملك الصالح ، وجعله أستاذه . فاستولت أصحاب الملك الكامل على نابلس والقدس .

وبلغ ذلك الناصر ، فحلف عسكره ، واستعد للحرب . وقدم إليه عمه الصالح صاحب بصرى ، والأمير عز الدين أيوب من صرخد ، [وأحله مملوك^(٢) أبيه المعظم] ، فقويت بهما نفسه . وسير [الناصر] يستدعي عمه الأشرف من البلاد الشرقية ، مع الأمير عماد الدين بن موسك ، وفخر القضاة نصر الله بن بصافة ؛ وأردفهما بالأشرف بن القاضي الفاضل . فأجاب [الأشرف] إلى معاونته ، واستتاب في بلاده الملك الحافظ بن العادل ، وسار [إلى دمشق] . فتلقاه [قلعج أرسلان] صاحب حماة ، من سلمية ، بأموال وخيول ؛ وتلقاه [أسد الدين شيركوه] ، صاحب حمص ، وأولاده . وقدم [الأشرف] إلى دمشق ، فتلقاه الناصر في أخريات شهر رمضان ، وزين دمشق لقدمه ؛ فدخل القلعة وعليه شاش علم كبير ، وهو مشدود الوسط بمنديل^(٣) . وقد سر الناصر به سرورا كبيرا ، وحكّمه في بلاده وأمواله . فأعجب^(٤) الأشرف بدمشق ، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه من الناصر ثم قدم [إلى خدمة الأشرف^(٥) بدمشق] المجاهد

(١) انظر ص ٢٠٥ ، سطر ٩ ، وما بعده .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ح ١٢ ، ص ٣١٦) .

(٣) عبارة المقرئ هنا تشبه كثيرا ما يقابلها في أبي الفداء (المختصر في أخبار البقر ، ص ١٠٣ ،

في (Rec. Hist. Or. I. (٤) في ص فعبج .

(٥) أضيف ما بين القوسين من أبي الفداء (المختصر في أخبار البقر ، ص ١٠٣ ، في

(Rec. Hist. Or. I. .

أسد الدين شيركوه بن محمد ، صاحب حصص . وسار المزيز بن العادل إلى خدمة الملك الكامل ، وهو في الطريق ، فسر بقدمه ، وأعطاه شيئاً كثيراً .

وسير الأشرف إلى الكامل الأمير سيف الدين علي بن قلعج ، يشفع في الناصر ، ويطلب منه إبقاء دمشق عليه ، ويقول : ” إنا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك “ ؛ فأكرم الملك الكامل الرسول . ثم سار الأشرف — ومعه الناصر — من دمشق ، يريدان ملاقاته الملك الكامل والتراحم عليه ، ليصلح الأمر بينهما . فلما بلغ الكامل مسيرهما شق عليه ، ورحل من نابلس يريد العود إلى القاهرة . فزل الأشرف والناصر بنابلس ، فأقام بها الناصر ، ومضى الأشرف والمجاهد إلى الكامل . فبلغه قدوم الأشرف وهو بتل العجول ، فقام إلى لقائه ، وقدم به إلى معسكره . ونزلا فكان الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيها الناصر داود ، وأن تكون للملك الأشرف وما معها إلى عقبة فيق ؛ ويكون للكامل (٦٢ ب) ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون ، وهو الفتح الصلاحي بأسره ؛ ويكون للناصر — عوضاً من دمشق — حران والرقعة وسروج ورأس عين ، وهي ما كان مع الأشرف ؛ وأن تُنزع بعلبك من الأجد بهرام ، وتعطى لأخيها المزيز عثمان ؛ و [أن] تُنزع حماة من الملك الناصر قلعج أرسلان بن المنصور ، وتعطى للعظفر تقي الدين محمود بن المنصور ؛ وأن تؤخذ من المظفر سلمية ، وتضاف إلى المجاهد صاحب حصص . وفيها مات طاغية الغل والتتر جنكزخان^(١) ، بالقرب من صارو هاليق^(٢) ، وحُل ميتاً

(١) في س جنكس قان .

(٢) كذا في س بشير ضبط ، وليس في المراجع المتداولة في هذه الحواشي ما يخبر بشيء عن هذا البلد . على أنه ورد في (Enc. Isl. Art. Bālik) أن لفظ بالق تركي قديم ، معناه بلد ، وأنه كثيراً ما يضاف إلى اسم آخر ، مثل خان بالق وبشبالق ، وهذا الثاني اسم بلد في التركستان الصيني ، ومعناه المدين الخمس (Pentapolis) ، انظر (Ibid. Art. Bishbālik) . راجع أيضاً القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧٩ — ٤٨٠) ، إذ يقول إن خان بالق عاصمة الصين ، ولأنها بأقصى العراق عند بلاد الخطا ، ولأنها عبارة عن مدينتين ، قديمة وجديدة ، والجديدة منها اسمها ديدو . ويقول القلقشندي أيضاً (نفس المرجع والجزء ، ص ٤٨١ ، ٤٨٤) إن بيلاد الصين بلداً اسمه جالق ، وأنه قاعدة بلاد الخطا . أما عن مكان وفاة جنكزخان فالمعروف أنه مات قرب بلدة (Tsīn-tou) ، في أرض مملكة (Hsia) ، وهي مقاطعة (Kan-su) ، بالصين الحالية . (Lamb : Genghiz Khan : pp. 192-194. & Enc. Isl. Art. Clugiz-Khan.)

إلى كرسي ملك الخطا^(١). ورُتّب بعده ابنه الأصغر عوضه خانا كبيرا^(٢)، على كرسي مملكة الخطا؛ وأخذ إخوته الثلاثة بقية الأقاليم.

وفيهما خرج التتار إلى بلاد الإسلام، فكانت لهم عدة حروب مع السلطان جلال الدين [خوارزم شاه]، كُسر فيها غير مرة، ثم ظفر أخيرا بهم، وهزمهم. فلما خلا سره منهم سار^(٣) إلى خلاط — من بلاد الأشرف — فنهب وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وخرّب القرى، وفعل ما لا يفعله أهل الكفر. ثم عاد إلى بلاده، وقد زلزل بلاد حران والرها وما هنالك، ورحل أهل سروج إلى منبج. وكان [قد] هزم على قصد بلاد الشام، لكن صرفه الله عنها.

وفيهما قدم الإمبراطور^(٤) ملك الفرنج إلى عكا، باستدعاء الملك الكامل له، كما تقدّم، ليشغل سرّ أخيه المعظم، فاتفق موت المعظم. ولما وصل ملك الفرنج إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل، وأمره أن يقول له: "الملك يقول لك كان الجيّد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء، ولا أجيء^(٥) إليهم. والآن قد كنتم بذاتكم لنائي — في زمن حصار دسباط — الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا. وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم. ومن نائي؟ [إن] هو إلا أقل غلمانى، فلا أقل من إعطائى ما كنتم

(١) بغير ضبط فى س، والخطا اسم يطلق على بلاد متاخمة للصين، يسكنها جنس من الترك. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٨٣). ويطلق اسم الخطا أيضاً على بلاد الصين حيةما فى القرون الوسطى. (Enc. Isl. Art. Khitā)، وقد دُفن جنكزخان بالتركستان الصينى، فى بلدة برخان خلدون (Burkhan-Khaladun)، عند منابع نهري (Onon & Kerulen)، وهى وطنه الأصل. (Enc. Isl. Art. Cingiz-Khan; Lamb: Op. cit. pp. 243-244.)

(٢) فى س فان كبير. وقد ترك جنكزخان إمبراطورية متباعدة الأطراف، تمتد من بحر قزوين إلى شواطئ الصين. وقسمها فى حياته بين ثلاثة من أولاده، وهم نولى وجوشى وشغطاي. أما رابعهم — وهو أصغرهم، واسمه أوغطاي، — فقد آلت إليه أملاك آبيه الأصلية، وذلك حسب العرف المولى، وكانت عبارة عن بلاد التركستان الصينى، التى ورثها جنكزخان عن آبيه يسوجان. (Enc. Isl. Art. Cingiz Khan)

(٣) فى س وسار. (٤) فى س الانبرطور.

(٥) فى س اخى.

بذلتموه له". فصحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ؛ فراسله ولاطفه ، وسَفَر بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ . وشرع الفريخ في حارة صيدا — وكانت مناصفة بين المسلمين والفريخ ، وسورها خراب — فعمروها وأزالوا من فيها من المسلمين . وخرجت السنة والكامل على تل المعجول ، وملك الفريخ بسكا ، والرسل تتردد بينهما .

سنة ست عشرين وستمائة . فيها غلت الأسعار بالساحل ودمشق ، ووصلت نجدة من حلب إلى الغُور . و [فيها] قفز [الأمير عز الدين] ^(١) أيدمر المظلي إلى الملك الكامل عليه ، وعاد إلى دمشق . فبلغ الأشرف وهو بتل المعجول ذلك ، فسار ليدركه ، فوافاه بقصير ابن معين الدين من الغور ، تحت عقبة فيق . وأعلمه [الأشرف] — بحضور الملك الصالح إسماعيل ، والملك المغيث ، والأمير عز الدين أبيك المظلي — أنه اجتمع بالملك الكامل للإصلاح بينهما ، وأنه اجتهد وحرَّص "على أن يرجع عنك فامتنع ، وأبى إلا أن يأخذ دمشق . وأنت تعلم أنه سلطان البيت وكبيرهم ، وصاحب الديار المصرية ، ولا يمكن الخرج عما يأسر به . وقد وقع الاتفاق على أن تسلم إليه دمشق ، وتُعَوِّض عنها من الشرق كذا" ؛ وذكر ما وقع الاتفاق عليه .

فلما فرغ [الأشرف] من كلامه قام الأمير [عز الدين] أبيك ، [وهو أكبر أمير] ^(٢) مع الناصر داود ، وقال : "لا كيد ولا كرامة ، ولا نسلم من البلاد حجرا واحدا ؛ ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم ، ومعنا العساكر المتوافرة" . وأمر الملك الناصر بالركوب فركبا ، وقُوِّضت الخيام ، وسارا ^(٣) إلى دمشق ؛ وتغلب عن الناصر عمه الصالح ، وابن عمه المغيث .

(١) انظر ص ٢٣٣ ، سطر ٤ . (٢) أضيف ما بين القوسين بعد سراجة ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣١٦) . وعز الدين أبيك هو أول سلاطين المماليك البحرية بمصر ، بعد شجر الدر . (أبو شامة : كتاب الروشتين ، ص ٢٠٠ ، في Rec. Hist. Or. V.) .

(٣) في س ساروا .

ولما وصل الناصر إلى دمشق استعد للحصار ، وقام معه أهل البلد ، لمحبته في أبيه . وسار الأشرف بمن معه ، وحاصر دمشق ، وقطع عنها أنهارها^(١) — باناس^(٢) ، والقنوات^(٣) ، [وبزيد^(٤) وثورا] — فخرج إليه العسكر وأهل البلد وحاربوه .

وفي أثناء ذلك كثرت ردّة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والشريف شمس الدين الأرموي قاضي العسكر ، بين الملك الكامل وبين الإمبراطور^(٥) فردريك ملك الفرنج ، إلى أن وقع الاتفاق أن ملك الفرنج يأخذ القدس من المسلمين ، ويبقيها على ما هي من الخراب ، ولا يحدد سورها ؛ وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين ، لا يحكم فيها للفرنج ؛ وأن الحرم — بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى — يكون بأيدي المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام من المسلمين ، وقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة ؛ وأن تكون القرى التي فيما بين عكا وبين يافا ، وبين لدة وبين القدس ، بأيدي الفرنج ، دون ما عداها من قرى القدس . وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج ، وخاف من غائلته ، عجزا عن مقاومته . فأرضاه بذلك ، وصار يقول : ”إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدور خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، وإلى المسلمين متحكم في الأعمال والضياع“ . فلما اتفقا على ذلك عقدت الهدنة بينهما ، مدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما ، أولها ثامن (٦٣ ب) عشرين شهر ربيع الأول من هذه السنة . واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جأه ، ما كلف السلطان شيئا من ذلك ، ماله غرض في القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ نأموه عند الفرنج

(١) في س نهر (انظر حاشية ٣) . (٢) نهر من نهيرات دمشق ، وهو نال فروع نهر بردى السبعة (انظر حاشية ٣) ، ومخرجه منه عند بلدة دمر ، وعلى صفته إقليم باناس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٥٥٦) . ويسمى هذا النهر أيضا نهر باناس . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 266) .

(٣) رابع فروع بردى ، ويسمى أيضا نهر القناة . أما فروع بردى الأخرى ، فهي نهر يزيد ، ونهر ثورا ، ونهر مزه — وأولته — ، ونهر بردى ، وهو السام . (Le Strange : Op. cit. pp. 265-267) .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة أبي شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٨٦ ، في Rec. Hist. Or. V) .

(٥) في س الانبرطوز .

وحلف الملك الكامل وملك الفرنج على ما تقرر ؛ وبعث السلطان فنودى بالقدس بمخرج المسلمين منه ، وتسليمه إلى الفرنج . فاشتد البكاء ، وعظم الصراخ والعيويل ؛ وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان . فعزّ عليه ذلك ، وأمر بأخذ ما كان معهم من الشُّتور والقناديل الفضة والآلات ، وزجرهم . وقيل لهم : "امضوا إلى حيث شئتم" . فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار .

وبعث الإمبراطور^(١) بعد ذلك يطلب تبين أعمالها ، فسلها الكامل له . فبعث يستأذن في دخول القدس ، فأجابه الكامل إلى ما طلبه ، وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته ، فسار معه إلى المسجد المقدس ، وطاف معه ما فيه من المزارات^(٢) . وأعجب [الإمبراطور] بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة ؛ وصعد درج المنبر ، فرأى قسيساً بيده الإنجيل ، وقد قصد دخول المسجد الأقصى ، فزجره وأنكر مجيئه ، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن لياخذن ما فيه عيناه ، "فإنما نحن عمالك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس ، على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره" ، فانصرف القس وهو برعد خوفاً منه . ثم نزل الملك في دار ، وأمر [شمس الدين] قاضي نابلس المؤذنين ألا يؤذّنوا تلك الليلة ، فلم يؤذّنوا البتة . فلما أصبح قال الملك للقاضي : "لم لم يؤذّن المؤذنون على المنائر ؟" فقال له [القاضي] : "منعهم المملوك إعظاماً للملك ، واحتراماً له" . فقال له [الإمبراطور] : "أخطأت فيما فعلت ، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في^(٣) الليل" .

(١) في س التاريخ .

(٢) يقول (Blochet : Op. cit. P. 373. N. I.) إن المقرئ نقل تفاصيل زيارة الإمبراطور لبيت المقدس من كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ، وإن هذا الأخير كتب تلك الأخبار من حديث له مع القاضي شمس الدين ، الذي رافق الإمبراطور .

(٣) نقل العيني (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٨٢ — ٨٣) من كتاب مرآة الزمان ، لسيوطي ، أخباراً طريفة عن زيارة الإمبراطور فردريك لبيت المقدس ، وهي على طريقتها مهمة =

ثم رحل [الإمبراطور] إلى عكا . وكان هذا الملك عالما متبحرا في علم الهندسة والحساب والرياضيات^(١)، وبعث إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشككة في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى - المعروف بتعاسيف - وغيره، فكتب جوابها . وعاد الإمبراطور^(٢) من عكا إلى بلاده في البحر، آخر جمادى الآخرة . وسير الكاملُ جمال الدين الكاتب الأشرفي إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة، في (١٦٤) تسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرج القدس .

وفي خامس جمادى الأولى - وهو يوم الأحد - وقعت الحوطة على دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل؛ وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل، في سادس عشره، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة . وحمل من داره - في ثالث جمادى الآخرة - خشب خزائن الكتب مفصلة، [وحملها] تسعة وأربعون مجلدا^(٣) . و [كانت] الجمال التي حملت الكتب تسعة وخمسون مجلا، ثلاث دفعات^(٤) .

= أيضاً، لاختلاف الرواية بخصوص ما حدث من المؤذنين بالقدس . ونصها: - "وفي المرأة: وجرى للأنبروز (كذا) عجيب، منها أنه لما دخل [قبة] الصخرة رأى قيسا فاعدا عند القدم، يأخذ من الفرج (٨٣) قراطيس . فغاء إليه [الأنبروز]، كأنه يطلب منه الدعاء، فلكه فرماه إلى الأرض، وقال يا خنزير! السلطان تصدق علينا بزيارة هذا المكان، [وأنتم] تفعلون فيه هذه الأفاعيل؟ أئن عاد [و] دخل واحد مسك على هذا الوجه لأفنته . قال السبط: وحكى لي صورة الحال قوام الصخرة؟ [قال]، ونظر [الأنبروز] إلى الكتابة التي في القبة، وهى: "طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين"، فقال ومن هم المشركون؟ وقال [الأنبروز] للقوام: هذه الشاك التي على أبواب الصخرة من أجل أيش؟ قالوا لا يدخلها المصابير، فقال قد أتى الله إليكم بالنازير قالوا ولما دخل وقت الطهر، وأذن المؤذنون قام جميع من كان معه من الفرائشين والعلماء، وعلمه وكان من صقلية يقرأ عليه المطق، فصولا وكانوا مسلمين . قالوا وكان الأنبروز أشقر أعمط، في عينيه صمغ، لو كان عبدا ما يباوى مائتي درهم . قالوا والطاهر من كلامه أنه كان دهريا، وإنما كان يتلاعب بالنصراية . قالوا وكان الكامل قد تقدم إلى القاضي شمس الدين، قاضي نابلس، أن يأمر المؤذنين مادام الأنبروز في القدس [أن] لا يصعدوا المائر، ولا يؤذنوا في الحرم . فأنسى القاضي أن يعلم المؤذنين، فصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة وقت السحر، والأنبروز نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تخفف بالنصارى، مثل قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد)، (ذلك عيسى بن مريم)، ونحو هذا فلما طلع الفجر، استدعى القاضي عبد الكريم، وقال له إيش عملت؟ السلطان رسم بكذا وكذا، قال فاعرتنى التوبة . فلما كانت الليلة الثانية، ما صعد عبد الكريم المأذنة . فلما طلع الفجر استدعى الأنبروز القاضي، وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذى سلم إليه القدس . فقال له يا قاضى! أين ذاك الرجل الذى طلع بارحة أمس المتارة، وذكر ذلك الكلام؟ فمرته أن السلطان أوصاه، فقال الأنبروز أخطأتم يا قاضى! تفتيرون أنهم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجل؟ فلو كنتم عندي في بلادى، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفلتوا . هذا أول ما تنقصون عندنا " . (١) في س الرياضى . (٢) في س الأنبرطور . (٣) في س جلا بالحاء، وقد وردت كلمة حل، التي تليها، بالحاء أيضا . (٤) في س بلا دفعات .

وفي يوم السبت ثاني عشرى رجب منها ، مُحلت الكتب والخزائن^(١) من القلعة إلى دار الفاضل ؛ وقيل إن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب ، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك^(٢) والنصون ، لأبي العلاء المَعْرِي ، في ستين مجلدا .
وفيها وصل ملك مَلطِيَّة^(٣) ، فكثرت غاراته وقتله وسبيته^(٤) . وفيها اشتد تشنيع الملك الناصر [داود] بدمشق على عمه الملك الكامل تسليمه القدس للفرنج . فنفرت قلوب الرعية ، وجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزي بجامع دمشق ، وذكر فضائل بيت المقدس ، وحَزَنَ الناس على استيلاء الفرنج عليه ، وبَشَعَ القول في هذا الفعل . فاجتمع في ذلك المجلس ما لا يحصى عدده من الناس ، وعلت أصواتهم بالصراخ ، واشتد بكائهم ، وأشد الحافظ شمس الدين قصيدة ، أبياتها ثلثمائة بيت ، منها :

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات^(٥)
فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم .

وكان الأشرف على منافزة دمشق ، فبعث إلى الكامل يستحثه . فرحل [الكامل] من تل العجول بعد طول مقامه بها ، فتلقاه في قرية^(٦) يُدَبِّتَا [أخوه^(٧)] العزيز عثمان ، صاحب باناس

(١) في س " محلت الكتب من القلعة إلى دار الفاضل والخزائن " . (٢) يقول ابن خلكان (وفيات الأعيان ، Wüstenfeld ، ج ١ ، ص ٥٩) في ترجمة أبي العلاء ، عن ذلك الكتاب ، مانصه : " وبلغني أن له كتابا سماه الأيك والنصون ، وهو المعروف بالهزمة والردف ، يقارب مائة جزء ، و [هو] في الأدب أيضا . وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة ، من كتاب الهزمة والردف ، وقال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد ... " .

(٣) ملك مَلطِيَّة في تلك السنة هو علاء الدين أبو الفتح كيقباد بن غياث الدين كيشيرو ، ٦١٦ — ٦٣٤ هـ . (Enc. Isl. Arts. Kaikobad & Malatiya) . ومَلطِيَّة مدينة قديمة ، شمال أعلى الفرات ، وينطقها العامة بكسر الطاء وتشديد الياء ، وهي بغير ضبط في س . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٣٣ — ٦٣٥) .

(٤) هذه العبارة ، من أول السطر هنا ، غير مترجمة في (Blochet : Op. cit p. 877) ، على أنها واردة في ب (٧٦) . (٥) أخذ السبط هذا البيت الثاني من قصيدة لـعبل الخزاعي . (أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ص ١٠٤ ، في (Rec. Hist. Or. I.) . ويلاحظ أن (Blochet : Op. cit. p. 378) ترجم هذين البيتين ، وهذا على غير عادته ، فإنه يحذف الشعر في ترجمته .

(٦) مضبوطة في س بفتح النون ، وهي بليدة قرب الرملة ، وبها قبر أحد الصحابة ، بعضهم يقول هو قبر أبي هريرة ، وبعضهم يقول قبر عبدة بن أبي سرح . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٠٧) .

(٧) انظر أبا الفداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ٨٦ ، في (Rec. Hist. Or. I.) .

بابنه الظاهر غازى . فوصل [الكامل] العزيز بخمسين ألف دينار ، وابنه غازى بعشرة آلاف دينار ، وقماش نفيس وخلع سنية . وأمر [الكامل] فضربت^(١) له خيمة عظيمة ، وحولها بيوتات ، وسائر ما يحتاج إليه من الآلات والخيام ، برسم أصحابه ومماليكه . ثم وصل إليه أيضا الأمير عز الدين أيدمر المعطى ، فدفع إليه [الكامل] عشرة آلاف دينار — وقيل عشرين ألف دينار — وكتب له على الأعمال القوصية بعشرين ألف أردب غلة ، وأعطاه أملاك صاحب صفى الدين بن شكر ، ورباعه وحمامه .

وسار [الكامل] إلى دمشق ، فنزل على ظاهرها فى جمادى الأولى ، وجدّ هو والأشرف فى حصارها ، حتى اشتد عطش الناس فى دمشق ، لانقطاع الأنهار عنهم ؛ ومع ذلك فالحرب بينهم قائمة فى كل يوم إلى آخر رجب . ففلت الأسعار ، ونفدت أموال الناصر ، وفارقه جماعة من أصحابه ، وصاروا إلى الكامل والأشرف . فأخذ الناصر فى ضرب أوانيهِ من الذهب والفضة دنانير ودرام ، وفرقةا حتى نفذ أكثر ما كان عنده من الذخائر . وناصحته العامة مناصحة كبيرة ، وأبلوا فى عسكر الكامل والأشرف بلاء عظيما .

[وفى أثناء ذلك] قدم^(٢) القاضى بهاء الدين بن شداد ، ومعه أكابر حلب وعدولها ، من عند الملك العزيز [محمد بن الظاهر غازى بن صلاح^(٣) الدين] ، صاحب حلب ، لتزويج ابنة الملك الكامل بالملك العزيز . فخرج الملك الكامل من (٦٤ ب) نخيمه بمسجد القدم إلى لقائه ، وأنزله قريبا منه . ثم أحضره ، فقدم مقدمة كانت معه من الملك العزيز . وعقد العقد للملك العزيز على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ^(٤) ، على صداق مبلغه خمسون ألف دينار ، فقبل العقد ابن شداد فى سادس عشر شهر رجب .

فضمف قلب الملك الناصر [داود] ، وقلت أمواله ؛ فخرج ليلا من قلعة دمشق فى آخر شهر رجب ، ، ومعه نفر يسير ، وألقى نفسه على باب نخيم الكامل . فخرج إليه [الكامل] ،

(١) فى س نضرب . (٢) فى س تقدم . (٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Halab) . وقد تولى العزيز حلب سنة ٦١٥ هـ ، وهو ابن بنت الملك العادل ، وخاله الملك الكامل . (٤) فى س " وعقد العقد على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ للملك العزيز " .

وأكرمه إكراما زائدا ، وبأسطه وطيب قلبه ، بعد عتب كثير ، وأمره أن يعود إلى القلعة ، فعاد إليها . ثم بعد يومين بعث الكامل بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى القلعة — وكان يوم جمعة — فصلّى بها الجمعة ؛ وخرج ومعه الناصر داود إلى الملك الكامل ، فتحالفا . وعوّضه [الكامل] عن دمشق بالكرك والشوبك وأعمالها ، مع الصلات والبقاء والأغوار جميعها ، ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل . ثم نزل الناصر عن الشوبك للكامل فقبلها ، وصار للكامل مع الشوبك بلد الخليل عليه السلام ، وطبرية وغزة ، وعسقلان والرملة ولدّ ، وما بأيدي المسلمين من الساحل .

وفُتحت أبواب دمشق في أوّل يوم من شعبان ، فشق ذلك على أهل دمشق ، وتأسفوا على مفارقة الناصر ، وكثُر بكائهم . ثم تسلمها الملك الأشرف . وبعث الكامل قصاده لتسلم بلاد الأشرف ، وهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والحداد شمس الدين صواب ، وجماعة . فتسلما حران والرها وسروج ، ورأس عين والركة ، وغير ذلك .

وسافر الناصر داود بأهله إلى الكرك . وسار الكامل إلى حماة ، [وسها الناصر صلاح الدين قلعج أرسلان بن المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب] . وقدم [مع الكامل] المظفر تقي الدين محمود بن المنصور محمد بن [تقي الدين^(١)] عمر بن شاهنشاه بن أيوب في جماعة ،

(١) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣١٧ — ٣١٨) . وسبب تدخل الكامل بين الأخوين ، حسما جاء في نفس المراجع والجزء والصفحة ، أن أباها المنصور محمد صاحب حماة ، كان قد حلف أكابر دولته ، قبل وفاته سنة ٦١٧ هـ ، على تولية ابنه الأكبر المظفر تقي الدين من بعده . فلما توفى المنصور كان المظفر عند حاله الملك الكامل ، يعاونه في مقاتلة الصليبيين على دمياط (انظر ص ٢٠١ ، سطر ٣ — ٦ ، ص ٢٠٥ ، سطر ٩ — ١٣) . وكان أخوه الناصر صلاح الدين قلعج أرسلان ، عند حاله الملك المعظم ، صاحب دمشق . فاتهز قلعج أرسلان فرصة غياب أخيه ، وذهب إلى حماة ، واستولى عليها وعلى قلعتها . ثم حاول المظفر أن يأخذها منه ، فلم يفلح ، فرجع إلى الكامل ، وأقام في خدمته . (انظر ص ٢٥٠ ، سطر ١٣ — ١٧) . فلما سار الكامل لمحاربة الناصر داود ، كان المظفر تقي الدين معه ، وقد وعده الكامل أن يسلمه حماة . (انظر ص ٢٢٦ ، سطر ١) . فلما انتهى الملك الكامل من أمر الناصر ، سار إلى أرسلان جيشاً ، حاصر حماة عدّة أيام . ثم قرر قلعج تسليمها ، فنزل من القلعة ، وذهب إلى الكامل ، وهو في طريقه إلى حران والبلاد الشرقية ، فاعتقله حتى سلمت حماة وقلعتها إلى المظفر تقي الدين . (راجع أيضا أبا الفداء: المختصر في أخبار البشر ، ص ٩٥ ، في (Rec. Hist. Or. I) .

فنازل حماة حتى سلم صاحبها الناصر قلج أرسلان ، وسبق إلى الملك الكامل وهو بسلية ، فأهاناه واعتقله . وتسلم المظفر حماة ، فكانت مدة الناصر بحماة تسع [سنين] تنقص شهرين . وبعث الكامل بالناصر صاحب حماة إلى مصر ، فاعتقل بها .

ثم سار الملك الكامل يريد البلاد الشرقية ، فقطع الفرات ، ودخل قلعة جعبر . ثم توجه إلى الرقة ، وخافه ملوك الشرق ، فعيد بالركة عيد الفطر . وسار إلى حران والرها ، واستخدم بها عسكريا [هدته] نحو أنى فارس . فقدمت عليه رسل ماردین وآمد ، والموصل وإربل ؛ و [حضر إليه أيضا] عدة ملوك . وبعث [الكامل] فخر الدين بن (١٦٠) شيخ الشيوخ إلى الخليفة ؛ وأطلق ابن أخيه الملك الناصر قلج أرسلان من اعتقاله ، وخلع عليه ، وأعطاه بارين^(١) ، وكتب له بها توقيعا ، وأمر أن يحمل إليه ما كان في قلعة حماة — وهو أربعمائة ألف درهم — وكتب إلى المظفر تقي الدين بتسليم ذلك إليه . فوصل [الناصر^(٢)] إلى بارين [وتسلمها] .

ثم ورد^(٣) الخبر على الكامل بأن [جلال الدين] خوارزم^(٤) شاه نازل خلاط ، ونصب عليها عشرين متجنقا ، [وكان وصوله إليها] في نصف شوال . و [كانت خلاط للملك الأشرف ، وبها عسكره ، فأرسلوا إلى الملك الكامل^(٥)] يسألون في نجدة ، فلم يرسل الكامل إليهم أحدا . وورد الخبر بإقامة الخطبة في ماردین للملك الكامل ، وضربت السكة باسمه [هناك] . ثم تواتت الرسل من خلاط ، وكلها تطلب إلى الكامل أن يبعث الأشرف لنجدة البلد . فبعث الكامل يطلب عساكر حلب وحماة حمص ، فخرجت عساكر حلب [إلى خلاط ، ومعها الأشرف^(٦)] . ثم ورد^(٧) الخبر بأن الفريج قد أغارت على بارين ، [وأنهم نهبوا ما بها ، وأسروا وسبوا^(٨)] .

(١) في س نرين . انظر ص ٦٠ ، حاشية ٣ . (٢) في س فوصل إليها وتسلمها . راجع ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣١٨) . (٣) في س فور . (٤) في س الجوارزي . (٥) أضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣١٨ — ٣٢٠) . (٦) أضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣٢٠) . (٧) في س فور . (٨) أضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣١٩) .

وفيها مات الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل بمكة ، عن ست وعشرين سنة ، منها مدة ملكه باليمن أربع عشرة سنة ، [وهو آخر ملوك بني أيوب ببلاد^(١) اليمن] . وترك [المسعود] ابنا يقال له صلاح الدين يوسف ، ولقب بالملك المسعود ، كلقب أبيه . [وبقي يوسف هذا حتى^(٢) مات في سلطنة عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صاحب مصر] . ثم ولي^(٣) ابنه موسى بن يوسف بن يوسف [بن الكامل] مملكة مصر ، ولقب بالأشرف ، شركة مع المعز أيبك ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

فاشتدَّ حزن الملك الكامل على^(٤) [ولده يوسف] ، وتسلم ممالিকে وخزائنه وأولاده ، ولبس لشدة حزنه البياض . وكان المسعود قد استخلف على اليمن نور الدين علي بن رسول التركاني^(٥) ، فتغلب عليها ، وبعث إلى الملك الكامل عدة هدايا ، وقال : ” أنا نائب السلطان على البلاد “ ، فاستمرَّ ملك اليمن في عقبه بعد ذلك .

سنة سبع وعشرين وستمائة . أملت واللك الكامل بحران ، والخوازمي على خلاط ، والأشرف محاصر بعلبك . وفيها قدم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من بغداد . و [فيها] ورد رسول الإمبراطور^(٦) ، ملك الفرنج ، بكتابه إلى الملك الكامل بحران ، ومعه أيضا كتاب للأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ . وفيها سار الكامل من حران إلى الرقة . وفيها استولى الأشرف بن العادل على بعلبك ، بعد ما أقام على حصارها عشرة أشهر . وعُوِّضَ الأُمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه^(٧) بن نجم الدين أيوب بن شادي ،

(١) كره الملك المسعود اللقب باليمن ، لما أصابه من الرمس بها ، وكان قد تولاهما منذ سنة ٦١٢ هـ ، أي في عهد جدّه العادل . (انظر ص ١٨١ ، سطر ٩ — ١٣) . ثم استدعاه أبوه الملك الكامل إليه ، سنة ٦٢٦ هـ ، ليؤليه دمشق ، وذلك بعد وفاة الملك العظيم عيسى . فسار المسعود عن اليمن قاصدا الشام ، فتوفي بمكة ، وهو آخر ملوك اليمن من الأيوبيين . (انظر ج ١ ، ص ٣٠ — ٤٤ ؛ والقلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من المعنى (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٩٧ — ٩٨) .

(٣) في س فولي . (٤) في س عليه .

(٥) الصبارة الآتية واردة بهامش الصفحة ، بخط مخالف ، ونصها : ” أول مدة استيلاء اولاد رسول على مملكة بلاد اليمن “ . (٦) في س الانبرطوز .

(٧) في س شاهان شاه .

عوضاً من بعلبك وأعمالها ، قُصِيرَ^(١) دمشق والزبداني^(٢) ؛ فكانت مدة ملكه بعلبك تسعاً وأربعين سنة . فبعث الكامل الأمير نحر الدين عثمان الأستاذار إلى الأشرف ، في مهمات تتعلق به ؛ وولى كمال الدين بن شيخ الشيوخ نائباً بالجزيرة

و [فيها قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي ، (٦٥٠ ب) صاحب الروم ، على الملك الكامل ؛ [وأخبره] بأنه جهز خمسة وعشرين ألفاً إلى أرزنجان^(٣) ، وعشرة آلاف إلى ماطية ، ” وأنا حيث تأمر “ . فطاب قلب السلطان [الكامل] بذلك ، وكان مهتماً من أمر الخوارزمي .

وفيها سار الأشرف ، صاحب دمشق ، من الشام إلى جهة الشرق ، فوصل إلى الكامل وهو بالرقه ؛ ووصل أيضاً مانع بن حديثة أمير العرب . وفيها ملك الخوارزمي مدينة خلاط ، بعد حصار طويل ، وقتال شديد ، في ثامن عشرى جمادى الأولى ؛ فوضع السيف في الناس ، وأسرف في القتل والنهب . فرحل الملك الكامل يريد مصر ، لأمر من منها أنه بلغه موت ولده [الملك] المسعود [صاحب اليمن] ، فكنتمه . و [كان قد] ورد عليه [أيضاً] ، من أم ولده العادل ، كتاب تشكو فيه من [ابنه] الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأنه قد عزم على التوثب على الملك ، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك ؛ وأنه أخذ مالا جزيلا من التجار ، وأتلف جملة من مال بيت المال ؛ ” ومتى لم تتدارك البلاد ، وإلا غلب عليها ، وأخرجني أنا وابنتك الملك العادل منها “ . فانزعج [الكامل] لذلك ، وغضب غضبا شديداً ثم ورد عليه الخبر بأن ابنه الصالح اشترى ألف مملوك ، [فعزم على الرحيل إلى مصر] . فرتب الطواشي

(١) معر ضبط في س ، وهي ضيعة بشمال دمشق ، على الطريق بينها وبين حمص ، وبها خان يعرف بالقصير ، قبائنه عمرى ماء . ويخترق الطريق من القصير إلى دمشق سائلة من البساتين . (يا قوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٠٣ ؛ و Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 489) .

(٢) بغير ضبط في س ، وهي كورة بين دمشق وبعلبك ، ومنها يخرج نهر بردى ، وتطلق أحيانا زبدان ، وبها بلدة اسمها الزبداني أيضاً . (يا قوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩١٣ ؛ و Le Strange : Op. cit. P. 558) .

(٣) بغير ضبط في س ، وهي من بلاد أرمينية ، بين خلاط وأرزن الروم ، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف . (يا قوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥) .

شمس الدين صواب العادلى نائباً في أعمال المشرق ، وأعطاه إقطاع [أمير] مائة^(١) فارس ، زيادة على ما بيده من الديار المصرية ، وهى أعمال أخميم بكالها ، وقاى والقبايات ودجوة^(٢) ، بإمرة مائتين وخمسين فارساً ، فصار أمير ثلاثمائة وخمسين فارساً . ورتب [الملك الكامل] كمال الدين ابن شيخ الشيوخ وزيراً .

(١) تقدم ذكر رتبة أمير مائة عمرضا (انظر ص ٧٥ ، سطر ٣) ، وأرجى الكلام عنها إلى هنا . وهى مرتبة حرية ، خاصة بأرباب السيف ، وتقرن عادة بلقب مقدم ألف ، فيقال أمير مائة مقدم ألف . والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة ، يكون فى خدمة حاملها مائة مملوك (فارس ٩) ، وهو فى نفس الوقت مقدّم فى الحروب على ألف جندى من أجناد الحلقة . وكان أصحاب هذه المرتبة أعلى مراتب الأمراء ، من عهد السلاجقة بالشرق إلى عهد المماليك بمصر . وربما زاد الواحد منهم العشرة أو العشرين مملوكاً ، أو أكثر من ذلك ، فيكون أمير ثلاثمائة ، كما ورد هنا (انظر سطر ٣) ، والظاهر أن هذا كان عربياً نادراً . وكان بيد هؤلاء الأمراء ، أيام المماليك بمصر ، جميع المناصب العليا ، فكان منهم نائب السلطنة ، ونائب القبية ، ونائب الوجه البحرى ، والدوادار الكبير ، والأستادار ، ونائب دمشق ، ونائب حلب ، وما يساوى ذلك من الوظائف الكبرى .

وبل هؤلاء الأمراء من يحمل رتبة أمير أربعين ، ويسمون أمراء طليخاناه ، لأحقبتهم فى دق الطبول على أبوابهم ، كما يفعل السلطان وأمراء اللغات ، ولكن على صورة مصغرة . ويظهر أنهم كانوا يسمون بأمراء الطليخاناه تمييزاً لهم عن من هم أقل منهم فى الرتبة ، وليس لهم طليخاناه . وقد تزيد رتبة أمير أربعين إلى إمارة سبعين أو ثمانين ، أى أن يكون فى خدمته ما يساوى أحد هذين العددين . ومن الوظائف التى جرى إسنادها إليهم وظيفة الدوادار الثانى ، ووالى القاهرة ، ووالى القلعة ، ونائب الإسكندرية ، ونائب طرابلس وحما بالشام .

ويأتى بعد هؤلاء أمراء العشرات ، ومن هذه الطبقة سفار الولاة ونحوهم ، مثل والى القسطنطينية ، وشاد الدواوين ، ووالى القرافة .

ثم تأتى أمراء الخسرات ، وهؤلاء كانوا قليلين ، وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين ، تعطى للواحد منهم هذا الرتبة رعاية لسلفه ، وكان يعتبرون من أكابر الأجناد . الفلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤ — ٢٨ ، ٥٠ — ٥١ ، ٦٣ — ٦٧ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١١ — ١٢٠ ؛ المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٥ — ٢٢٠ . (انظر أيضاً : O. Demombynes (Op. cit. Pref. PP. XXXIII et seq ; P. 139) أما عن أصل هذا التقسيم العشرى ، فالظاهر أن السلاجقة والأيوبيين ، والمماليك من بعدهما ، تقلوه بتعديل من أوطانهم الأولى : ففى (Morier : Hajji) (Baba of Ispahan , p. 31) أن قبيلة من التركان بىمالى فارس كانت تستعد للغزو ، فدعى رئيسها أصحاب العشرات وأصحاب اللغات .

ومما يجب ملاحظته أن هذا التقسيم العشرى المذكور فى (Morier : Op. cit. pp. 187, 206) فى وصف بعض رتب الجيش الفارسى فى القرن التاسع عشر ، مثل (Min Gashi) ومعناه مقدّم ألف ، و (On Bashi) ، أى مقدم عشرة ، و (Penja Bashi) ، أى رئيس خمسين . وهذا التقسيم موجود أيضاً فى الجيش العثمانى والجيش المصرى الحالى . (٢) تقدم التعريف بقاى والقبايات . انظر ص ٨٢ ، حاشية ١ ؛ ص ٩١ ، حاشية ٣ . أما دجوة — بغير ضبط فى س — فعل الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، جنوبى بنها الحالية ، أى أنها من مديرية القليوبية . انظر (P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 1. Pl. II. a) . وكانت دجوة فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٥٥) من أعمال كورة الشرقية ، وذلك قبل أن تصبح القليوبية قسماً إدارياً منفصلاً ، (انظر ص ٢٠٢ ، حاشية ٢) . لكن ياقوت يقول إنها على فرع رشيد ، ويرجع أيضاً نطقها بضم الدال .

وتوجه [الكامل] إلى مصر ، فدخلها في رجب ، وتغير على ابنه الملك الصالح تغيراً كثيراً ، وقبض على جماعة من أصحابه وسجنهم ، وألزمهم إحضار الأموال التي فرط فيها الملك الصالح ، وخلع الصالح من ولاية العهد^(١).

وفيها واقع الملك علاء الدين كيقباد السلطان جلال الدين^(٢) [خوارزم شاه] ، وكسره ، وقتل كثيراً ممن كان معه . وخلص [جلال الدين] في عدة من أصحابه إلى تبريز^(٣) ، وكان ذلك في سابع عشر رمضان . فلك الأشراف ، صاحب دمشق ، مدينة خلاط .

وفيها بلغ قاع النيل بمقياس مصر ذراعين ، وانتهت زيادة ماء النيل ثلاثة عشر ذراعاً وثلاثة عشر أصبعاً لا غير ، فارتفعت الأسعار .

وفيها قصد الفرنج حماة فأوقع بهم الصالح أيوب ، وقتل عدة منهم ، وأسر كثيراً ، وذلك في رمضان .

وفيها (١٦٦) مات الملك الأحمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب ، صاحب بعلبك ، ليلة الأربعاء ثامن عشر شوال . وكانت مدة ملكه تسعاً وأربعين سنة ، وكان أديباً شاعراً . ومات الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان يعرف بالمشمر^(٤).



سنة ثمان وعشرين وستمائة . فيها عاد الأشراف إلى دمشق . وفيها انفرد العزيز صاحب حلب بالملك ، وقد بلغ ثمان عشرة سنة ، ونسلم الخزائن من أتابكه شهاب الدين

(١) العبارة الآتية واردة في س ، ولكنها مشطوبة ، وهي : ”وعهد إلى ابنه الملك العادل أبي بكر ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة ، وكان الكامل يحبه ويحب أمه جاكياً“ . وهذه العبارة واردة بالمتن (انظر سنة ٦٣٠ هـ) ، فالراجح أن المفريزي تدارك ذلك التكرار ، فشطبه هنا .
(٢) في س جلال الله .

(٣) في س توريز ، وفي ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، س ٣٢٠) أن جلال الدين مضى منهزماً إلى آذربيجان ، فنزل عند مدينة خُشُوى ، بضم الحاء وفتح الواو . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، س ٥٠٢) .

(٤) يقول ابن خلكان (المختار من ترجمة السلطان صلاح الدين ، س ٤٢٧ ، في Rec. Hist. Or. III. إن الظاهر خضر عرف بهذا اللقب ، ومعناه المستعد ، ”لأن أباه — رحمه الله تعالى — لما قسم البلاد بين أولاده الكبار ، قال : وأنا مشمر ، فغلب عليه هذا اللقب“ .

انرييل . فقام بتدبير الملك قياما مشكورا ، وسير القاضى بهاء الدين بن شداد إلى الملك الكامل ، بسبب إحضار صبية خاتون ابنة الكامل — [وهى] زوجة العزيز — ، فأقام لقاهرة [حتى ^(١) سنة تسع وعشرين وستمائة] . وفيها قدم الأشرف من دمشق على الملك الكامل — ومعه الملك المعظم ، صاحب الجزيرة — فى عاشر جمادى الأولى ، فسر لسلطان بقدمهما .

وفيها سار الملك الكامل إلى الإسكندرية ، وترك الأشرف بالقاهرة ، واستصحب معه صاحب الجزيرة ، بعد ما أنعم عليه بإنعاما موفورا .

وفيها تحرك التتر . و [فيها] قدم الملك مجير الدين بن العادل إلى القاهرة ، وكان مأسورا عند الخوارزمى . فسر به الكامل ، وأكرمه هو وأخوه تقي الدين عباس .

وفيها مات السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، بعد ما هزمه التتر ببعض قرى ميافارقين ^(٢) ؛ قتله بعض الأكراد . و [فيها] وصل التتر إلى إربل ، وقتلوا من المسلمين ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم .

وفيها شرع الملك الكامل فى حفر بحر النيل ، الذى فيما بين المقياس وبر مصر ^(٣) ؛ وعمل فيه بنفسه ، واستعمل الملوك والأمراء والجند . فلما فرغ [من الحفر] صار فى أيام احتراق النيل يُنشى من المقياس والروضة إلى بر الجزيرة ، واستمر الماء فيما بين مصر والروضة لا ينقطع فى زمن الاحتراق ألته . وكان السلطان قد قسّط حفر هذا البحر على الدور التى بالقاهرة ، ومصر والروضة ، بالمقياس ^(٤) . واستمر العمل فيه — من مستهل شعبان إلى آخر شوال — مدة ثلاثة أشهر .

(١) انظر ص ٢٤٣ (سطر ١٣) .

(٢) كان جلال الدين بن خوارزم شاه آخر بيته ، وكان نفل المغول على بلاده نذير السوء والخطر على العالم الإسلامى ، إذ بدأوا بعد ذلك يغيرون على العراق . وقد خلف البيت الخوارزمى فى كرمان ، جنوبى فارس ، أحد رجال جلال الدين ، واسمه براق حاجب ، واعترف بولايته عليها أوغطاي ابن جنكركخان ، ومنحه لقب قطلغ خان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. P. 179) .

(٣) بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية ، بخط مخالف : ” انظر حفر النيل بين المقياس ومصر ” .

(٤) كذا فى س ، بغير ضبط . انظر المقرئ (المواظ والاعتبار) ج ١ ، ص ٢٤٥) حيث ورد ، فى هذا الصدد : ” وقسط [الكامل] مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس ” .

وفيها قدم رسول الخليفة [المستنصر بالله] بالخلع والتقليد للملك الكامل ؛ ومُيزَ بزيادات كثيرة ، لم تُفعل في حق غيره ، من السلجوقية وغيرهم . و [وردت] خلع للملك الأشرف أيضا . وفيها تسلطن عمر بن علي بن رسول باليمن ، ونشر دعوته .

سنة تسع وعشرين وستمائة . فيها تكل استيلاء التتر على إقليم أرمينية و خلاط ، وسائر ما كان بيد الخوارزمي . فاهتم الخليفة [المستنصر بالله^(١)] غاية الاهتمام ، (٦٦ ب) وسير عدة رسل يستنجد الأشرف من مصر ، ويستنجد العربان وغيرهم . وأخرج [الخليفة] الأموال ، فوق الاستخدام في جميع البلاد لحركة التتر .

و [فيها] خرج الملك الكامل من القاهرة في جمادى الآخرة ، واستخلف على مصر ابنه الملك العادل أبا بكر ، وأسكنه قلعة الجبل مع أمه ؛ وأخرج الصالح أيوب معه ، وقدم الأشرف — والمعظم صاحب الجزيرة — بالعساكر . ومضى الكامل جريدة إلى الشوبك والكرك ، وسار إلى دمشق ، ومعه الناصر داود صاحب الكرك بمساكره ، وقد زوجه بابنته عاشوراء خاتون ، وعقد عقده عليها بمنزلة اللجون^(٢) . وأقام [الكامل] بدمشق يسرح العساكر ، وجعل في مقدمتها ابنه الملك الصالح أيوب .

وورد الخبر بدخول التتر بلاد خلاط ، فأسرع [الكامل] في الحركة ، وخرج من دمشق فنزل سلمية — وقد اجتمع بها عساكر يضيق بها الفضاء — ، وسار منها في أخريات رمضان على البرية . وتفرقت العساكر في عدة طرق لكثرتها ، فهلك منها عدة كثيرة من الناس والدواب ، لقلة الماء .

(١) يرجع اهتمام الخليفة المستنصر بأمر التتر إلى ثلاثة أمور : أولها أن غارات التتر ، التي ستؤدي إلى اجتياح الدولة العباسية من بغداد ، كانت قد وصلت أراضي العراق الأعلى ؛ وثانيها أن بعض البلاد التي استولى عليها التتر من جلال الدين خوارزم شاه ، كانت قبل ذلك من أملاك الخليفة ؛ وثالثها أن جلال الدين كان قد عزم على الاستنجد بالخليفة ، ولم يمنعه من ذلك سوى مطاردة التتر له ، واضطراره إلى الاختفاء ، حتى وماته . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ٣٢٣ — ٣٣٠) .

(٢) بغير ضبط في س ، وهي بلدة بالأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، س ٣٥١) .

وأنته رسل ملوك الأطراف ، وهم عز الدين بيقرا^(١) ، وفخر الدين بن الدامغانى ، رسل الخليفة المستنصر بالله ، وألبسوه خامة السلطنة . فاستدعى [الكامل] عند ذلك رسل الخوارزمى^(٢) ، ورسول السكرج ، ورسول حماة وحمص ، ورسول الهند ، ورسول الفرنج ، ورسول أتابك سعد صاحب شيراز ، ورسول صاحب الأندلس^(٣) ؛ ولم تجتمع هذه الرسل عند ملك فى يوم واحد قط غيره . وقدم عليه بهاء الدين اليزدى — شيخ رباط الخلاطية — من بغداد ، وجماعة من النُّحَّاس^(٤) ، يحثونه على الغزاة .

فرحل التتر عن خلاط ، بعد منازلها عدة أيام . وجاء الخبر برحيلهم والكامل بمران ، فجهز عماد الدين بن شيخ الشيوخ رسولا إلى الخليفة . وسار إلى الرها ، وقدم العساكر إلى آمد ، وسار بعدهم . فنزل على آمد ، ونصب عليها عدة مجانيق . فبعث إليه صاحبها يستعطفه ، ويبذل له مائة ألف دينار ، وللأشرف عشرين ألف دينار ، فلم يقبل . وما زال عليها حتى أخذها ، فى سادس عشر ذى الحجة ، وحضر صاحبها إليه بأمان ، فوكل به حتى سلم جميع حصونها . فأعطى السلطان حصن كيفا لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وفى فيها وردت هدية من ماردين . وفيها سار ابن شداد من القاهرة بالستر العالى الصاحبة غازية خاتون ، ابنة الكامل وزوجة الملك المظفر ، صاحب حماة ؛ والستر العالى الصاحبة فاطمة ، ابنة الكامل وزوجة [الملك] العزيز ، صاحب حلب . وخرج معهما أيضا الأمير فخر الدين البانياسى ، والشريف شمس الدين قاضى العسكر .

(١) فى س اسرا . والرسم الوارد هنا منقول من (Blochet : Op. cit. P. 391) .

(٢) تقدمت وفاة جلال الدين الخوارزمى ، تحت سنة ٦٢٨ هـ (انظر ص ٢٤١) ، وأمل المقرئ يقصد بالخوارزمى هنا السلطان براق صاحب ، الذى استقل بكرمان بعد وفاة جلال الدين . (انظر ص ٢٤١ ، حاشية ١) .

(٣) كانت الهند الإسلامية (Hindustan) تابعة للدولة الغورية ، منذ سنة ٥٨٦ هـ ، حين فتحها عز الدين محمد الغورى ، وولى عليها مملوكه قطب الدين أيبك . ثم استقل قطب الدين هذا بالهند الإسلامية ، سنة ٦٠٢ هـ ، بعد وفاة عز الدين وانقسام الدولة الغورية . وكذلك استقل ناصر الدين كباشا بالسند ، وهو مملوك غورى آخر . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 293—299) .

(٤) لعل المؤلف يقصد بنى نصر مملوك غرناطة ، وأولهم محمد بن غالب بن يوسف بن نصر (٦٢٩ — ٦٧١ هـ) (Lane-Poole : Muh Dyns. pp. 27—29) . (٥) فى س النحاس .

وفيهما مات الأمير فخر الدين عثمان بن قزل ، أستاذار الملك الكامل ، [و] صاحب المدرسة الفخرية بالقاهرة ، في ثامن عشر ذى الحجة ، بحران .
وفيهما بعث الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ، صاحب اليمن ، [عسكرا إلى مكة^(١)] ، فيه الشريف راجع بن قتادة ، فلكهما من الأمير شجاع الدين طغتكين ، نائب الملك الكامل ، في ربيع الآخر . وفر [شجاع الدين] إلى نخلة^(٢) ، ثم إلى ينبع ، وكتب يعلم الملك الكامل بذلك . فبعث إليه [الكامل] عسكرا سار بهم إلى مكة ، فقدموها^(٣) في شهر رمضان ، وملكوها بعد ما قتلوا جماعة ، وكان مقدّم العسكر الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ .

سنة ثلاثين وستمائة . فيها أنعم الكامل على ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بحصن كيفا ، وسيره^(٤) إليها . وعاد [هو] إلى الديار المصرية ، ومعه الملك المسعود ، صاحب آمد . فلما وصل قلعة الجبل أفرج عنه ، وأحسن إليه ، وأعطاه إمرة بديار مصر .
و [فيها] قبض [الكامل] على جماعة من الأسراء المصرية . وفيها استولى الملك المظفر ، صاحب حماة ، على حصن بارين^(٥) ، وانتزعه من أخيه (١٦٧) الناصر قليج أرسلان . فسار [قليج أرسلان] إلى خاله الكامل ، فقبض عليه ، واعتقله في قلعة الجبل حتى مات .
وفيهما جهز الملك الكامل عسكرا من الفز والهربان إلى ينبع ، من أرض الحجاز — عليهم علاء الدين آق سنقر الزاهدي . .^(٦) — في شوال ، وعدتهم سبعمائة . وسبب ذلك ورود الخبر

(١) ما بين القوسين محبوب بورقة ملصقة في س ، ولكنه وارد في ب (٧٩ ب) .

(٢) بشير ضبط في س : وهي الرحلة الأولى للصادر عن مكة ، واسمها نخلة عمود ، تميزها لها عن نخلة الشامية ، الواقعة على طريق اليمن ، على مسافة ليلتين من مكة ؟ وتتميزا عن نخلة الليمانية ، التي تقع على الطريق بين مكة والبصرة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٦٩ — ٧٧٠) . (٣) في س قدموها .
(٤) قصد الملك الكامل بهذا أن يبعد الصالح عن مصر ، فيخلو بذلك الجو له ، ولولده العادل ، وليّ

المعهد من بعده . انظر (Blochet : Op. cit. p. 893. N. 1.) .

(٥) في س يفرين .

(٦) يباس في س .

بمسير الشريف راجع من اليمن بعسكر إلى مكة ، وأنه قدمها في صفر ، وأخرج من بها من المصريين بغير قتال . فقدم الزاهدى في الموسم ، وتسلم مكة ، وحج بالناس ، وترك بمكة ابن محلى^(١) ، ومعه خمسون فارسا ، ورجع إلى مصر .

وفيهما توفى الفخر سليمان بن محمود بن أبى غالب الدمشقي ، كاتب الإنشاء^(٢) . فاستحضر الملك الكامل ناسخا يقال له الأمين الحلبي ، كان عند الأمير عز الدين أبيك — أستاذار الملك

(١) في س مجلى ، وبغير ضبط ، وهو مترجم إلى (Ibu Mahalla) في (Biochet : Op. cit. P. 394) .
انظر الخرجى (العقود الأولوية ، ج ١ ص ٥٠) ، وكذلك الترجمة الإنجليزية للرجع نفسه ، (Vol. I. P. 97) .
(٢) يوجد في (Biochet : Op. cit. p. 395, N. I.) ثبت لأسماء أصحاب ديوان الإنشاء بمصر ، من عهد الخليفة العزيز بن المنز العاطى ، (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) ، إلى حكم سلطان الأشرف إيتال ، (٨٥٧ — ٨٦٥ هـ) ، أحد سلاطين دولة المماليك البرجية . وقد كان لديوان الإنشاء النصيب الأكرم من عناية الذين كتبوا في موضوع الأنظمة الحكومية المصرية في القرون الوسطى ، وأهم الكتب التى ألفت فيه ، وأكثرها ذبوعا ، كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ، لشهاب الدين بن عمى الدين بن فضل الله العمري ، الذى نقل في ديوان الإنشاء بمصر ، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) ، انظر (Enc. Isl. Art. Fadl Allah) ؛ وكتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء ، ومؤلفه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن القلقشندي ، المتوفى بالقاهرة في عاشر جمادى الثانية سنة ٨٢١ هـ ، راجع (Enc. Isl. kalikashandi) ؛ وكتاب القصد الرفيع للنشأ الهادى لصناعة الإنشاء ، لبهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبد الله بن عبيد الله العمري الخالدي ، وقد كتبه حوالى سنة ٨٣٦ هـ ، انظر (G. - Demombynes: Op. cit. Pref. pp. V-VI.)

أفرد القلقشندي الجزءين الأول والثاني من كتابه في التعريف بهذا الديوان ، وتعدد الصفات والمؤهلات التى تلزم لصاحبه ، وفي بحث نشأته في الإسلام إلى زمنه ، وسيقتصر هنا على الموضوع الأخير . يقول القلقشندي (ج ١ ، ص ٩١ — ١٠٤ ؛ ج ٣ ، ص ٤٩٠ — ٤٩٢ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥) إن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام : وذلك أن النبي عليه السلام ، كان يكتب أمراءه وأصحاب سراياه ، وقد كتب أيضا إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ؛ ومن استكتبه عليه السلام أبابكر الصديق وعلى بن أبى طالب . وفي الدولة الأموية كان أمرا الكتابة مفوضا إلى كاتب ، وعرف متوليا بهذا الاسم . ومن اشتهر من كتاب الأمويين عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وكان في عهد مروان ابن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين بدمشق . فلما جاءت الدولة العباسية كان ديوان الإنشاء يضاب تارة إلى الوزارة ، وتارة يعهد إلى كاتب يختص به . وفي الحالة الأولى أضيف لقب الكتابة إلى الوزارة ؛ أما في الثانية ، حيث كان الديوان معهودا بديوان الرسائل ، كما في العصر العباسي الأول ، لقب متولى بصاحب ديوان الرسائل ، أو متولى ديوان الرسائل ، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات ، أو متولى ديوان المكاتبات ؛ وحيث كان الديوان معهودا بديوان الإنشاء ، لقب متولى بصاحب ديوان الإنشاء ، وربما جمع لفظ الديوان =

المعظم - في خدمته يكتب له . فلما حضر [الأمين] ليكتب بين يديه خلع عليه ، وأعادته إلى صاحبه ، فترهّد استحياء من الناس . وبعث الكامل إلى ميفارقين ، فأحضر الجلال بن نباتة ليستكتبه ؛ فلما حضر خلع عليه ، وأعادته ولم يستكتبه ، فاستكتبه الأشرف صاحب دمشق .

== تعظيما لتوليّه ، فيقال صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . ومن اشتهر من وزراء العباسيين وكتابهم يحيى بن خالد الرمكى ، وابن المقفع مترجم كتاب كيلة ودمنة .

ولما كانت بلاد المغرب والأندلس الإسلامية بأيدي نواب الخلفاء ، لم يكن أولئك النواب ديوان الإنشاء في ولايتهم ، لغربهم من البداوة ، واقصر غاية الولاية على الكتابة لديوان الخلافة . فلما هرب طائفة من بني أمية إلى الأندلس ، وتأسست على يدهم دولة مستقلة عن الدولة العباسية ، جرى أمرهاؤها على سنن ما كان عليه آباؤهم بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين بني العباس بعداد . فأقاموا شعار الخلافة ، واتخذوا ديوان الإنشاء ، واستخدموا بلقاء الكتاب . ومن اشتهر عندهم من الكتاب أبو الوليد بن زيدون ، وابن الخطيب وزير ابن الأحمر ، صاحب غرناطة .

أما ديوان الإنشاء بمصر ، فله خمسة أدوار : الدور الأول ما كان عليه الأمر من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية (٣٠ - ٢٥٤ هـ) ، وفيه لم يكن لنواب الخليفة عناية بديوان الإنشاء ، لاقصر المكاتبات على ما يلزم لأبواب الخلافة . والدور الثاني ما كان عليه الأمر في الدولتين الطولونية والإخشيديّة (٢٤٥ - ٣٥٨ هـ) ، وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بمصر ، ومن اشتهر من كتاب الطولونيين أبو جعفر محمد بن أحمد بن مردود بن عبدكان . والدور الثالث ما كان عليه الأمر زمن الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٥ هـ) ، وفيه صرف الفاطميون مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء ، وكان يعرف صاحبه بكتاب الدست العريف ، ووليه في زمنهم جماعة من أكابر الكتاب ، ما بن مسلم وذو ، مثل الحافظ الشيخ الأجل أبي الحسن علي بن أسامة الحلبي ، وأبي منصور بن سوردين النصراني ، وابن أبي الدم اليهودي . وقد تخرج القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي في ديوان الإنشاء الفاطمي ، في عهد العاضد ، آخر خلفاء تلك الدولة . والدور الرابع من ابتداء الدولة الأيوبية إلى اقراضها (٥٦٥ - ٦٤٧ هـ) ، وفيه أسند السلطان صلاح الدين كتابة الإنشاء إلى القاضي الفاضل ، ومن تولاهما أيضا في تلك الدولة بهاء الدين زهير ، في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . والدور الخامس ما كان عليه الأمر في دولتي المماليك البحرية والجلبية (٦٤٧ - ٩٢٢ هـ) ، وفي أوائل هذا الدور كان صاحب ديوان الإنشاء يلقب نارة بلقبه أيام الدولة الفاطمية - وربما عبر عنه أحيانا بكتاب الدرج - ونارة وليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست . وبقي الأمر على ذلك إلى أن ولي الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر ، في أيام السلطان المنصور قلاوون ، فلقب بكتاب السر ، ونقل لقب كاتب الدست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان ، واستمر ذلك إلى زمن القلقشندي . ومن مشاهير أصحاب ديوان الإنشاء إلى عهده يحيى الدين بن فضل الله العمري ، وهو والد شهاب الدين صاحب التعريف ، ومنهم شهاب الدين نفسه ، وأخوه بدر الدين . (انظر أيضا المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٩٣ - ١٠٢ ؛ و Q. Demombynes : Op. cit. Pref. pp. V. LXVI.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان سلطن الملك الكامل ولده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ، وأركبه بشعار السلطنة ، وشق به القاهرة ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة . وكان الكامل يحبه ، ويجب أمه حبا زائدا .

وفي ذى القعدة وصل محبي الدين يوسف بن^(١) الجوزي من بغداد ، بالتقليد من [الخليفة] المستنصر [بالله] للملك الكامل .

وفيها أبطل السلطان المعاملة بالفلوس^(٢) ، في القاهرة ومصر ، فتلف مال كثير للناس . وفيها مات الأمير حسام الدين مانع بن حديثة ، أمير العربان من آل فضل ، فأمر الأشرف بعده ابنه مهنا^(٣) . وفيها قدم الناصر داود صاحب الكرك إلى مصر ، فنزل بدار الوزارة من القاهرة ، وركب في خدمة عمه الملك الكامل .

وفيها مات العزيز فخر الدين عثمان بن العادل بدمشق ، يوم الاثنين عاشر رمضان . و [فيها] مات الملك المعظم مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك ، ملك إربل ، في تاسع عشر شعبان ، عن أربع وثمانين سنة ؛ وكان يهتم بعمل المولد النبوي في كل سنة اهتماما زائدا . فتسلم إربل من بعده نواب الخليفة ، وصارت مضافة إلى مملكة بغداد .

سنة إحدى وثلاثين وستمائة . فيها قصد السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو السلجوقي ، صاحب بلاد الروم ، مدينة خلاط . فخرج الملك الكامل من القاهرة بمسكوه ، ليلة السبت خامس شعبان ، واستناب ابنه الملك العادل . فوصل إلى دمشق ، وكتب إلى ملوك بني أيوب يأمرهم بالتجهيز ، للمسير بهساكرهم إلى بلاد الروم .

(١) انظر ص ٢١٩ ، حاشية ٢ . (٢) كانت الفلوس في مصر على نوعين ، أحدهما المطبوع بالسكة ، وثانيهما غير المطبوع . وكان النصف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر ، أو الأصفر ، ويعبر عنها بالتمق . (الملقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤) . (٣) القبائل العربية بالشام عنصر مهم في تاريخ تلك البلاد ، انظر (Gibb : Damascus Chronicle. Introd. pp. 17-19) وكانت ديار آل فضل ممتدة من حمص إلى جبص ، وإلى الرجة والبصرة ، على الفرات . وآل فضل لم الفخذ الأول من ربيعة بن حازم ، وقد نشأ ربيعة هذا في أيام الأتابك زنكي ، وهو ينتسب إلى عزيز بن سلمان .. ابن طيء بن كهلان بن قطان . (الملقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ج ٤ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٨) .

وخرج [الكامل] من دمشق ، فنزل على سلمية في شهر رمضان ، ورتب عساكره ، وسار إلى منبج ، فقدم عليه عسكر حلب ، وغيره من العساكر فسار وقد صار معه ستة عشر دهليزاً^(١) ، ستة عشر ملكاً — وقيل بل كانوا ثمانية عشر ملكاً . فعرضهم [الكامل] على البيرة أطلاباً^(٢) بأسلحتهم ، فلكثر ما أعجب بنفسه قال : ” هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام “ . وأسربها فسارت شيئاً بعد شيء نحو الدربند^(٣) ، وقد جدّ السلطان علاء الدين في حفظ طرقاته بالمقاتلة . ونزل الكامل على النهر^(٤) الأزرق ، وهو بأول بلد الروم . ونزل عساكر الروم فيما بينه (٦٧ ب) وبين الدربند ، وأخذوا عليه رأس الدربند ، وبنوا عليه سوراً يمنع العساكر من الطلوع ، وقاتلوا من أعلاه ، فقلت الأقوات عند عسكر الكامل .

واتفق — مع قلة الأقوات وامتناع الدربند — نفور ملوك بني أيوب من الملك الكامل ، بسبب أنه حفظ عنه أنه لما أعجبه كثرة عساكره بالبيرة ، قال لخواصه : ” إن صار لنا ملك الروم فأنا نعوض ملوك الشام والشرق بملك الروم ، بدل ما بأيديهم ؛ ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى ملك مصر “ . فحذر من ذلك المجاهد صاحب حصص ، وأعلم به الأشرف موسى صاحب دمشق . فأوجس في نفسه خيفة موسى ، وأحضر بني عمه وأقاربه من الملوك ،

(١) الدهليز هنا الحمية ، التي ترافق السلطان في الحرب وتختلف عن غيرها — من الخيم والدمالير الكبيرة ، التي تقام للسلطين في الصيد والنزه — بكونها خيمة قائمة بذاتها ، ليس بجوانبها خيم صغيرة ، كالتي تقام عادة لتجهيز ساحات السلطان في أيام السلم . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) هم طلب ، وهو امط كردي ، معاه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام السلطان صلاح الدين ، ثم عدل مدلوله ، فأصبح يطلق على السكتية (bataillon) من الجيش . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) بغير ضبط في س . وليس المراد هنا بلدة الدربند ، المسماة أيضاً باب الأبواب ، والواقعة على الشاطئ الغربي لبحر قزوين ، شمالي باكو ، وقالة تفليس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦٤) . إنما هي لفظ فارسي ، معناه في الأصل سبلة من حديد ، يقفل بها باب الدكان ، ويقال لها دروند أيضاً . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . ثم استعملت كما هنا ، بمعنى المضايق والطرقات ، (محيط المحيط) ، وأراد المقرئ بها المعابر الضيقة ، الواقعة شمالي البيرة والنهر الأزرق . (انظر الحاشية التالية) .

(٤) أحد نهيرات المرات الأعلى ، ويمر بين بهسنا وحصن منصور . (ياقوت : معجم البلدان ،

وأعلمهم ذلك . فاتفقوا على الملك الكامل ، وكتبوا إلى السلطان علاء الدين بالميل معه وخذلان الكامل وسيروا الكتب [بذلك] ، فاتفق وقوعها في يد الملك الكامل ، فكتبها ورجل راجعا .

فأخذ [السلطان علاء الدين كيقباد] ، ملك الروم ، قلعة خَرْتَبِرْت^(١) ، وست قلاع أخر كانت مع الملوك الأرتقية ، في ذى القعدة . فاشتد حنق^(٢) [الملك الكامل] ، لما حصل على أسرائه وعساكره من صاحب الروم في قلاع خرتبرت ؛ ونسب ذلك إلى أهله من الملوك ، فتذكر ما بينه وبينهم .

وفيها مات الملك المفضل قطب الدين موسى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، في ذى الحجة . وفيها بعث المنصور [عمر بن علي بن رسول] ، ملك اليمن ، عسكرا وخزانة مال إلى الشريف راجح [بن قتادة^(٣)] ، فأخرج من بمكة من المصريين .

وفيها حضر أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي سَمَاعًا ، بزقاق الطباخ^(٤) بمدينة مصر ، في أول يوم من شهر رجب ؛ و [كان] هناك الشيخ أبو عبد الله القرشي^(٥) ، وأبو عباس القسطلاني ، وجماعة [غيرها] . فلما أشد القوال صفق أبو يوسف الدهماني يديه ، وارتفع عن الأرض متربعا ، إلى أن بلغ إلى أنبذارية^(٦) المجلس ، ودار ثلاث دورات ، ثم نزل إلى مكانه . فقام الشيخ القرطبي ، وقد ارتفع الأنبدارية ، فكان أطول من قامته رافعا يديه .

(١) في س خربت ، في الموضعين (سطر ٦) ، بنير ضبط ، وإسقاط التاء الوسطى هكذا جاء في الشعر . وهو اسم أرمي ، يطلق على حصن زياد ، من بلاد الروم ، في أقصى ديار بكر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١٩) .

(٢) في س حنقه . (٣) انظر الخزرجي (العقد الاثني عشر ، ج ١ ، ص ٤٩ — ٥٠ ، ٥٤ — ٥٥ ، ٦١ — ٦٢) لمراجعة تفاصيل محاولات ابن رسول نحو مكة . (٤) ليس بالمواضع والاعتبار للمقريزي ذكر لهذا الزقاق ، في باب أزقة القاهرة ومصر ، غير أنه يوجد جامع الطباخ (نفس المرجع : ج ٢ ، ص ٣١٥) ، وقد جددته الحاج على الطباخ ، قبيل سنة ٧٤٦ هـ ، وموقع هذا الجامع بخط باب اللوق ، بجوار بركة الشفاف .

(٥) في س القرسي . (٦) مضبوطة على منطوقها في (Blochet : Op. cit. P. 404. N. 1.) ، حيث هي مترجمة إلى (Iambria) ، أي السقف .

* * *

سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . فيها عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل من بلاد الشرق — في جمادى الأولى — ، وقد توحش ما بينه وبين أخيه الأشرف ، صاحب دمشق ، وغيره من الملوك . فقبض [الكامل] على السعود صاحب آمد ، واعتقله في برج هو وأهله ، يوم الاثنين . سادس عشر جمادى الأولى ، لما لأنه لم . فلك صاحب الروم الرها وحران بالسيف ، وعاد إلى بلاده ، بعد ما استولى على ما كان بهما من الأموال . فلما بلغ الكامل ذلك أمر العساكر أن تتجهز للسير إلى الشرق ، وأقطع ابن الأمير صلاح الدين الإربلى صناقير^(١) بالقلوبية ، وجعل أقارب والده ومماليكه معه ، وعدتهم سبعة عشر رجلا .

وفيهما بعث ابن رسول إلى الشريف راجح [بن قتادة] بخزانة مال ، ليستخدم عسكريا . فلم يتمكن من ذلك ، لأنه بلغه أن السلطان الملك الكامل بعث الأمير أسد الدين جفريل^(٢) ، أحد المماليك الكاملية ، إلى مكة بسبعماية فارس . [وحضر جفريل إلى مكة] ، ففر منه الشريف راجح بن قتادة إلى اليمن ، وملك [جفريل مكة^(٣)] في شهر رمضان ، وأقام المعسكر بها .

وفيهما مات الملك الزاهر أبو سليمان مجير الدين داود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، صاحب البيرة ، في سابع صفر . فاستولى العزيز ، صاحب حلب ، عليها من بعده . و [فيها] مات (١٦٨) الأمير شمس الدين صواب ، الطواشي الكاملى ، بحران في أواخر شهر رمضان .

* * *

سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . فيها استمر وباء كثير عصر مدة ثلاثة أشهر ، فمات بالقاهرة ومصر خلق كثير ، بلغت عدتهم زيادة على اثني عشر ألفا ، سوى من مات بالريف .

(١) بغير ضبط في س ، وهي بمركز قلوب ، غربي ناحية بهادة ، وشمالى كفر الحارث . وإليها ينسب الشيخ يحيى بن على الصنافى ، المتوفى سنة ٨٧٧٢ هـ (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٢٤ — ٢٦) . هذا وبالقاهرة الحالية طريق اسمه شارع الصنافى . (٢) في س جفريل ، وبغير ضبط ؟ وفى القلشندي (مسيح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٧٣) جبريل ؟ وفى الخزرجي (المقود الأولى ، ج ١ ، ص ٥٥) جبريل . انظر (Blochet : Op. cit. P. 406. N. 2.) (٣) في س "ملكها في شهر رمضان" ، وقد أضيف ما بين الأقواس ، بعد مراجعة الخزرجي (نفس المرجع والجزء والصفحة) .

وفيها سار التتر إلى جهة الموصل ، فقتلوا ونهبوا وسبوا ، وفيها سار الناصر داود ، صاحب الكرك ، إلى الخليفة [المستنصر بالله] ، خوفاً من عمه الملك الكامل ، فإنه كان قد ألزمه حتى طلق ابنة الكامل ، فخشى أن ينتزع منه الكرك . فوصل إلى بغداد ، فأكرمه الخليفة ، ومنعه من الاجتماع به ، رعاية لذلك الكامل . ثم اجتمع به سرا ، وخلع عليه ، وبعث معه رسولا مُشْرِئاً^(١) من خواصه إلى الكامل ، يشفع فيه . فلما وصل [الرسول] إلى الكامل تلقاه ، وقبل الشفاعة

وفيها سار الملك الكامل من القاهرة بساكره يريد بلاد الشرق ، فنازل الرها حتى أخذها ، يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى ؛ وأسر منها زيادة على ثمانمائة من الأمراء ، وهدم قلعتها . ونازل حران ، وأخذها بعد حصار وقتال ، في رابع عشر جمادى^(٢) الآخر ؛ وأسر من كان بها من أجناد السلطان علاء الدين ، وأسرائه ومُقدِّميه الصُّوباشِيَّةِ^(٣) ، وكانوا سبعمائة وخمسة وعشرين رجلا ، فمات كثير منهم في الطرقات . ثم نزل [الكامل] على دُنَيْسَر^(٤) ، وخرَّبها . فورد عليه الخبر بأن التتر قد وصلوا إلى سنجار ، في مائة طُلب ، كل طُلب خمسمائة فارس . وأخذ [الكامل] قلعة السَّوَيْدَاءِ عنوة ، وأسر من بها في سابع عشر جمادى [الآخر] ، وهدمها ؛ وأخذ^(٥) قَطِينَا ، وأسر من بها في رجب . وفي تاسع عشره بعث [الكامل] جميع الأسرى إلى ديار مصر ، وعدتهم تزيد على الثلاثة آلاف ، وعاد إلى دمشق ، وسلم الشرق لابنه الملك الصالح [أيوب] .

(١) الشريوش قلنسوة طويلة أعجمية ، (محيط المحيط) ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمرءاء ، فلا يلبسها رجال العلم ، كالقضاة والكتاب وغيرهم . وقد أُلِّقَ استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية .
(Dozy: Supp. Dict. Ar) (٢) في س "ربيع" ، وهفوة القريري هنا طاهرة . (٣) في س السوباشية ، بغير ضبط . والصوباشي لفظ فارسي ، معناه "الوكيل في الضيقة" ، من قبل صاحبها ؛ وفي اصطلاح أرباب السياسة الأمين الذي تحبس النساء في بيته . والعامة تقول الشوباشي ، (محيط المحيط ؛ و Dozy: Supp. Dict. Ar) ، ولعل رسم القريري نطق عامي آخر . (٤) بغير ضبط في س ، وهي بلدة كبيرة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين ماردين فرسخان ، ويقال لها فوج حصار . (ياقوت معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦١٢) .
(٥) بغير ضبط في س ، وهي بلدة قرب حران . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٩٧) .
(٦) بغير ضبط في س ، أو في ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٠٢) ، وهي بلدة على نه الزاب الأعلى ، شمالي الموصل . انظر . (Blochet : Op cit. p, 408) .

وفيها هدمت دنيسر ، وعدة بلاد كثيرة من بلاد صاحب ماردين . وفيها خرج عسكر الروم ، بعد عود الكامل ، وحاصر آمد وأخرب دارا^(١) ، في خامس ذى القعدة .

وفيها استولى الفرنج على مدينة قرطبة بالأندلس . وفيها قُدم أنبا كيرلس داود بن لقلق بطركا على الإسكندرية لليعاقية^(٢) ، في يوم الأحد ثالث عشرى يؤونة ، سنة إحدى وخمسين وتسعمائة للشهداء ، الموافق لتاسع عشرى رمضان فأقام [في البطركية] ، سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أعوام ؛ وكان عالما ، محبا للرياسة ، وجمع المال ، وأخذ الشرطونية . وكانت أرض مصر قد خلت من الأساقفة ، [قبيل اعتلائه كرسى^(٣) البطركية] ، فقدّم جماعة من الأساقفة بمال كبير . وصرّت به شذائد كثيرة ، فإن الراهب عماد^(٤) المشار كان قد سمى في ولايتا البطركية ، وشرط عليه ألا يقدم أسقفا إلا برأيه ، فلم يف له ، ولا التفت إليه . فاحمرف عنه ورافعه ، فوكل عليه وعلى عدة من أقاربه وأزواجه وقام أيضا عليه الشيخ السني^(٥) بن التبعان الراهب وعانده وذكر مثالبه ، وأنه إنما تقدم بالرشوة ، وأنه أخذ الشرطونية ، فلا تصح له كهنوتية ، على حكم القوانين . ومال معه جماعة ، وعقدوا له مجلسا بحضور صاحب (٦٨ ب) معين الدين ابن شيخ الشيوخ ؛ في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأثبتوا عليه أمورا شتعة ، وعزموا على خلع . فقام معه الكتاب المستوفون بديار مصر ، وتحدثوا مع صاحب معين الدين ، فقرر مالا حله [البطريك] إلى السلطان^(٦) ، واستمر [أنبا كيرلس] على بطركيته حتى مات ، يوم

(١) بلدة في لف جبل ، بين نصيبين وماردين . (ياقوت : معجم البلدان ، ح ٢ ، ص ٥١٦ —

٥١٧) .

(٢) انظر ص ١٨٣ — ١٨٤ . (٣) أصيف مابن القوسين بعد مراجعة (Butcher : Op cit, II, p, 139.)

(٤) كذا في س ، بعيرصط ، وفي (Ibid: Op. cit, II, P, 142,) ، راهبا اسمه (Hamid) ، وكان زعيم الثورة ضد البطريق . وقد يكون لفظ المرشار تعريبا لاسم دير (Macarius) بوادى النطرون ، وهو أحد الأديرة الكبيرة بمصر ، في القرون الوسطى ، وعماد هذا — أو حامد — راهبا به . وكان الدير تابعا للبطريك مباشرة ، فلعل طبعه في أموال الدير أحفظ الراهب عماد — أو حامد — وأثاره ، على الوجه المذكور بالمت . (Ibid : Op. cit, II, P, 140,) (٥) مضبوط هكذا في س . ولعله سني الدولة . انظر (Blochet: Op. cit. P. 409) .

(٦) تفاصيل هذه الحوادث موجودة في (Butcher : Op. cit. II. pp. 140-151) .

الثلاثاء رابع عشر برمهات ، سنة تسعمائة وتسع وخمسين للشهداء ، الموافق لسابع رمضان سنة أربعين وستمائة ؛ وخلا السكري بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما .

وفيها بعث الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ، ملك اليمن ، عسكريا إلى مكة ، مع الشهاب بن عبد الله ، ومعه خزانة مال ، فقاتله المصريون وأسروه ، وحلوه إلى القاهرة مقيدا .

• • •

سنة أربع وثلاثين وستمائة . فيها سار الملك الكامل من دمشق يريد القاهرة ، فوصل إليها ، وصعد قلعة الجبل في ... (١) ثم خرج إلى دمياط ، فقدم عليه محي الدين يوسف بن الجوزي رسولا من الخليفة ، وهو بها . وسافر [محي الدين ؟] إلى [السلطان علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلع أرسلان (٢)] ، صاحب الروم ، ومعه الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذرى ، رسولا من جهة الملك الكامل .

وفيها مات الملك العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، صاحب حلب ، يوم الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الأول ، عن ثلاث وعشرين سنة وأشهر . وقام من بعده ابنه الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ، وعمره نحو السبع سنين . وقام بتدبير أسره الأميران إياؤا الأميني ، وعز الدين عمر بن تحي (٣) ، وبينهما وزير الدولة جمال الدين الأكرم ، تراجع الستر الرفيع ضيفة خاتون ابنة الملك العادل ، على لسان جمال الدولة إقبال . وحضر الأمير بدر الدين بدر بن أبي الهيجاء ، وزير الدين قاضي حلب ، إلى الملك الكامل ، بزردية العزيز وكُرَاعْنْدَه (٤) ، وخوذته ومركوبه . فأظهر [الكامل] الألم لموته ، وقصّر في إكرامهما ؛ وحلف للناصر ، وشرط أشياء ، وأعاد الرسولين . ثم أرسل خلعة للناصر بغير مركوب ، ومعهما عدة خلع للأسماء الحليين ، وخلعة للصالح

(١) يباس في س . (٢) انظر الصفحة التالية ، (سطر ١٢) .

(٣) في س على ، بغير ضبط ، وقد تقدم مثل هذا الاسم ، (س ٢٤٥ ، سطر ٣) ، وصحيح هناك كما هنا بالمتن . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. P. 411) .

(٤) الكُرَاعْنْدَه المعطف القصير ، يلبس فوق الزردية ، ويصنم من القطن — أو الحرير — المبطن بالنجد (rembourrée et Piquée) ، والجمع كُرَاعْنْدِيَات . وهو لفظ فارسي (محيط المحيط ، Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، ويقابله في الإنجليزية لفظ (Surcoat) ، انظر (Scott : Talisman, P. 3) ، وفي الفرنسية (Jacquette) .

صلاح الدين أحمد بن الظاهر غازي ، صاحب عينتاب فاستوحشت أم الظاهر من أخيها الكامل ، ولم توافق على لبس أحد من الأمراء الخلع . فلبس الناصر وحده خلع الكامل ، ورُدَّ الرسول الوارد إلى الصالح [صلاح الدين] بخلعته .

وفيهما تنكر الأشرف ، صاحب دمشق ، على الملك الكامل ؛ وراسل أهل حلب ، فوافقوه على منع الكامل من بلاد الشام ، ومكاتبة السلطان علاء الدين ، صاحب الروم ، ليكون معهم . فانتظمت كلمة ملوك الشام على مخالفة الملك الكامل ، فانزعج الملك الكامل ، وعز ذلك عليه . وكان حين بلغه الخبر بالإسكندرية ، فخرج منها ليلاً ، وسار إلى قلعة الجبل ، وشرع في تدبير أمره

فاتفق موت السلطان علاء الدين كيقباد^(١) بن غياث الدين كيخسرو بن قلعج أرسلان ، ملك الروم ، وقيام ولده غياث الدين كيخسرو بن [علاء الدين] كيقباد من بعده ، في سابع شوال ، قبل اجتماعه بالحافظ زكي الدين عبد العظيم [المنذرى]^(٢) ، رسول السلطان . (٦٩١) فبعث ملوك الشام رسالهم إلى السلطان غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد^(٣) بن كيخسرو بن قلعج بن أرسلان السلجوقي ، صاحب الروم ، يعزونه في أبيه ، ويحلفونه على ما اتفقوا عليه من مخالفة الملك الكامل . وسير الكامل أفضل الدين محمد الخوئي يعزى غياث الدين بأبيه ، ومعه ذهب رسم الصدقة عنه ، وثياب أطلس برسم أغشية القبر . وفيها كان الوباء أشد من السنة الماضية . وفيها ضرب الملك الكامل الفلوس .

وفيهما بعث [الملك الكامل] القاضي الأشرف بن [القاضي] الفاضل إلى الملك الناصر داود ، صاحب الكرك ، يدعو إلى موافقته فرحل^(٤) [الملك الناصر] إلى القاهرة ، مع القاضي الأشرف ،

(١) عبارة س كالاتي : "فاتفق موت السلطان علاء الدين وقيام ولده من بعده ... " ، وقبلتها هامش نصح : "كي قباز (كذا) بن غياث الدين كيخسرو قلعج أرسلان ملك الروم ، وملك بعده ابنه عماد الدين كيخسرو بن كي قباز" . وقد أدمج هذا الهامش على النحو الوارد بالمتن . (٢) انظر ص ٢٥٣ (سطر ١٠) . (٣) في س كيقباد . (٤) معظم عبارة المقرئ ، من هنا إلى آخر أخبار هذه السنة ، مشابهة في أسلوبها وألفاظها ، لما في أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ١١٢ - ١١٣ ، في Rec. Hist. Or. 1 . وقد أضيف ما بين الأقواس من ذلك المرجع .

فسر الكامل بقدمه ، وركب إلى لقائه ، وأنزله بدار الوزارة وقدم له أشياء كثيرة ، وخلع عليه .
وقلده [الكامل] دمشق ، وأمر من عنده من الأسراء والملوك الأيووية ، فحملوا العاشية بين
يديه بالنوبة ، فكان أول من حملها الملك العادل أبو بكر بن الكامل ، ثم البقية واحداً بعد واحد ،
إلى أن صعد قلعة الجبل . وجدّد [الناصر] عقده على مطلقة عاشوراء خاتون ابنة الكامل ،
في تاسع عشر ذى الحجة . فلما بلغ الأشرف ذلك أوقع الحوطة على نابلس ، وأخذ ما كان
فيها للناصر داود .

و [فيها] سير الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، صاحب حصن كيفا ، يستأذن
أباه في استخدام من خالف [السلطان غياث الدين كيخسرو] ، صاحب الروم ، من
الخوارزمية . فأذن له في ذلك ، واستخدمهم عنده بالبلاد الجزرية ، فتقوى بهم .
وفيها استولى التتار على إربل ، وقتلوا كل من فيها ، وسبوا ونهبوا ، حتى نثنت من
كثرة القتلى ؛ ثم رحلوا عنها .

وفيها قدم من جهة ملوك الشام إلى الملك الكامل رسول ، فبلغه عنهم أنهم قالوا :
”إنا انعمت كلمتنا عليك ، فلا تخرج من مصر إلى الشام ، واحلف لنا على ذلك“ . فاتفق سررض
الأشرف بالذرب^(١) ، فكان لا يستقر بباطنه طمام البتة ، حتى انقضت السنة وهو مريض ،
من شهر رجب .

وفيها قدم عسكر من اليمن إلى مكة ، فخارهم الأمير أسد الدين جفر ل^(٢) ، وكسرم .
فقدم الملك المنصور عمر بن رسول ، وملك مكة بغير قتال ، وتصدق بمال ، وترك بها جماعة .
فقدم الشريف شiche^(٣) بن قاسم ، أمير المدينة ، وملك مكة منهم ، ونهبهم ، ولم يقتل أحداً .

(١) في س بالدرب . والذرب عند الأطباء مرض استطلاق البطن المتصل ، والفرق بينه وبين الهیضة
أن الذرب لا يكون معه قء ، وهو من الأمراض الزمنة . أما الهیضة فيكون معها قء ، وهي من الأمراض
الحادة . (محيط المحيط) .

(٢) كذا في س ، وبغير ضبط . انظر س ٢٥٠ ، حاشية ٢ .

(٣) في س شعة . انظر (القلقشندی : صبح الأعشى ، ج ٤ ، س ٣٠٠) .



سنة خمس وثلاثين وستمائة . فيها مات الأشرف موسى بن العادل أبي بكر
 ابن أيوب ، صاحب دمشق بها ، يوم الخميس رابع المحرم ؛ وعمره نحو من ستين سنة ؛
 ومدة ملكه بدمشق ثمانى سنين وأشهر . ولم يترك سوى ابنة ، [تزوجها الملك الجواد
 يونس ^(١) بن مودود بن الملك العادل] . فقام من بعده بدمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين
 إسماعيل ، صاحب بصرى ، بمهد من أخيه ^(٢) له . فاستولى [الملك الصالح عماد الدين] على
 دمشق وبعلبك ؛ وبعث ابنه الملك المنصور محمود ^(٣) إلى الشرق ، ليتسلم سنجار ونصيبين
 والحلبور من نواب الأشرف ؛ وبعث إلى المجاهد صاحب حمص ، وإلى المظفر صاحب
 حماة ، وإلى الحلبيين [أيضا] ، ليحلفوا له ويتفقوا معه — على القاعدة التي تقررت بينهم
 (٦٩ ب) وبين الأشرف — على مخالفة الكامل . فأجابوا إلا صاحب حماة ، فإنه مال
 مع الكامل ، وبعث إليه يعلمه بميله إليه ؛ فسر الكامل بذلك ثم إن [الملك] الصالح
 [عماد الدين] صادر جماعة من الدماشقة ، الذين قيل عنهم إنهم مع الملك الكامل ، منهم
 العلم ^(٥) تماسيف ، وأولاد مزهر ؛ وحبسهم في بصرى .

فتجهز الكامل ، وخرج من قلعة الجبل بمساكره ، بكرة يوم الخميس ثالث عشرى صفر ،
 واستناب على مصر ابنة الملك العادل وأخذ معه الناصر داود ، وهو لا يشك أن ^(٦) الملك الكامل
 يسلم إليه دمشق ، لما كان قد تقرّر بينهما ^(٧) . فكانت [الكامل ^(٨)] نائب قلعة عجلون

(١) أضيف ما بين القوسين من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ١١٣ ، في Rec. Hist. Or. I. (٢) قبالة هذه العبارة ، بالهامش في س ، فقرة بماها تقريرا ، ونصها : "واستخلف بعده
 اخاه الملك الصالح عماد الدين اسمعيل ، وحلف له الامرا ، واركبه في حياته بالنجق" . (٣) في س محمود .
 (٤) بغير ضبط في س ، والحلبور اسم لنهر كبير ، منبعه عند رأس عين ، ومصبه في الفرات ، بعد
 أن يلتقى بنهر نصيبين وغيره . وتقع على نهر الحلبور بلدان جهة ، علب على كثير منها اسمه ، (ياقوت : معجم
 البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨٣) ، فيكون البلد الوارد بالمتن أحدهما . (٥) أى علم الدين . انظر ص ٢٣٢ ،
 سطر ٣ . (٦) ، (٧) الصبارة بين الرقين ، منقولة بنصها من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر ،
 ص ١١٣ ، في Rec. Hist. Or. I. ، وقد وضعت بدل ماورد في السلوك ، لوضوحها عنه ، وهذا نصه :
 "... وهو لا يشك أنه يتسلم دمشق لما تقرّر" . (٨) في س : "فكانت نائب قلعة عجلون ، حتى
 سلبها . ونزل الكامل على دمشق ، بمسجد القدم" . انظر (Blochet: Op. cit. p. 417. N. 2) .

حتى سلمها . ونزل على دمشق بمسجد القدم ، في ثالث عشرى ربيع الاول ، وقد تحصنت وأتتها النجدات ، فحاصرها وقطع عنها المياه ، وضايقتها حتى غلت بها الأسعار ، وأحرق العُقَيْبَةُ^(١) والطَّوَّاحِينَ^(٢) ، وألح على أهلها بالقتال . وكان الوقت شتاء ، فأذعن الصالح [إسماعيل] ، وسلم دمشق لأخيه الكامل ، فموضه عنها بعلبك والبقاع ، وبصرى والسواد . وكان السفير بينهما صاحب محبي الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ، رسول الخليفة ، الوارد ليقوم الصلح بين ملوك بني أيوب .

فتسلم الكامل دمشق في عاشر جمادى الأولى ، وسار الصالح [إسماعيل] إلى بعلبك ، لإحدى عشرة بقية من جمادى الأولى . فنزل الملك الكامل بالقلعة ، وأمر بنصب الدهليز بظاهر دمشق ، وسير المظفر صاحب حماة إلى حمص ، وأطلق الفلك^(٣) المسيرى من سجن قلعة دمشق — وكان قد سجنه الملك الأشرف — ، ونقل الأشرف إلى تربته .

وأمر [الكامل] في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة ألا يصلى أحد من أئمة الجامع المغرب ، سوى الإمام الكبير فقط ، لأنه كان يقع بصلاتهم تشويش كبير على المصلين .

وورد الخبر باستيلاء الصالح [نجم الدين^(٤) أيوب] بن الكامل على سنجار ونصيبين والخابور . وقدم رسول الخليفة بمال إلى الملك الكامل ، ليستخدم به عسكرياً للخليفة ، فإنه بلغه توجه التتر إلى بغداد . فقام الملك الكامل لما سلم إليه كتاب الخليفة ، ووضعه على رأسه ؛ وكان جملة ما حضر من المال مائة ألف دينار مصرية . فأمر الملك الكامل أن يُخْرَج من بيت المال مائتا ألف دينار ، ليستخدم بها العساكر ؛ وأن يُجَرَّد من عساكر

(١) بغير ضبط في س ، وتسمى أيضاً العُقَيْبَةُ ، وهي قرية من ضواحي دمشق . : G.—Demombynes ؛ Op. cit. pp. 26, 36. ؛ وياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٥٧ .

(٢) بغير ضبط في س ، وهي حسبما جاء في ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٤٤) موضع قرب الرملة ، غير أن القرائن تدل على أنها موضع قرب العقبة ، من ضواحي دمشق .

(٣) في س الفلك . انظر (Blochet : Op. cit. P. 418) حيث عدل هذا الاسم ، وترجم إلى (Falak-ad-Din) .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مهاجمة أبي القداء (المختصر في أخبار البشر ص ١١٥ ،

في (Rec. Hist. Or I.

مصر والشام عشرة آلاف ، نجدة للخليفة ؛ وأن يكون مقدم العساكر الناصر داود ؛
والأبصار عما حضر من المال شيء ، بل يعاد بكاله إلى خزانة الخليفة . فتولى استخدام
الأجناد الأميران ركن الدين الهيجاوى ، وعماد الدين ابن موسك ، وأن يكونا مع الناصر
[داود] فى خدمته . فاستخدم [الناصر] العسكر ؛ وسار إلى بغداد ، ومم نحو ثلاثة
آلاف فارس .

وشرع الكامل يتجهز لأخذ حلب ، فخاف المجاهد صاحب حمص ، وبعث ابنه
[المنصور ^(١) إبراهيم] فتقرر الأمر على أن يحمل [المجاهد] كل سنة للملك الكامل
ألفى ألف درهم ، ففعا عنه .

وكان منذ دخل الكامل إلى قلعة دمشق قد حدث له زكام ، فدخل فى ابتدائه إلى
الحمام ، وصب على رأسه الماء الحار . فاندفعت المواد إلى معدته ، فتورم وعرضت له حمى ،
فنهأ الأطباء عن القيء ، وحذروه منه . فاتفق أنه تقياً (١٧٠) لوقته ، فى آخر نهار
الأربعاء حادى عشرى شهر رجب ، بقاعة الفضة من قلعة دمشق ، فدفن بها بكرة الغد ،
وعمره نحو من ستين سنة ؛ وذلك بعد موت أخيه الأشرف بنحو ستة أشهر . فكانت
مدة ملكه دمشق هذه المرة أحد ^(٢) وسبعين يوماً ؛ ومدة مملكته بمصر ، بعد موت أبيه
عشرين سنة وثلاثة وأربعين يوماً — وقيل وخسة وأربعين يوماً — ، و[كانت] فى
أيام أبيه نحوها . فحكم مصر قريباً من أربعين سنة ؛ ومولده فى الخامس والعشرين من
ربيع الأول ، سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان يحب أهل العلم ، ويؤثر مجالستهم ؛ وشغف بسماع الحديث النبوى ، وحدث
بالإجازة من أبى محمد بن برى ، وأبى القاسم البوصيرى ، وعدة من المصريين ، وغيرهم . وتقدم
عنده أبو الخطاب بن دحية ؛ وبنى له دار الحديث السكلمية ^(٣) بالقاهرة ، وجعل عليها أوقافاً .

(١) أنشأ ما بين القوسين بعد مراجعة (Lane-Poole : Saladin. Table II. in pocket) .
هذا وفى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١١٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.) أن المجاهد أرسل
نساءه إلى الملك الكامل ، ليشفعن له عنده " فدخل على الملك الكامل ، فلم يلتفت إلى ذلك " .
(٢) فى س احدى .

(٣) كانت تلك المدرسة ، حسباً فى المقرئى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٥) أول
بيت للحديث بالقاهرة ، وفيها يقول : " هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة ، وتعرف بدار ==

وكان يناظر العلماء ، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فن أجاب عنها قدّمه وحظى عنده . و [كانت] تبيت عنده بالقلمة جماعة من أهل العلم : كالجمال البجلي النحوي ، والفقير عبد الظاهر ، وابن دحية ، والأمير صلاح الدين الإربلي — وكان أحد الفضلاء — فينصب لهم امرأة ينامون عليها بجانب سريرهم ، ليسامروهم^(١) . فنفتت العلوم والآداب عنده ، وقصده أرباب الفضائل ، فكان يطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الدارّة . فمن قصده التاج بن الأرموي ، وأفضل الدين الخوئي ، والقاضي الشريف شمس الدين الأرموي ، فاضى العسكر ؛ وهؤلاء أئمة وقهم في المنقول والمقول .

وكان مهيباً^(٢) ، حازماً شديد الآراء ، حسن التدبير لماليه ، عفيفاً عن الدماء . وبلغ من مهابته أن الرمل — فيما بين العريش ومصر — كان يمر فيه الواحد ، بالذهب الكثير والأحمال [من] الثياب ، من غير خوف . وسُرق مرة فيه بساط ، فأحضر [الكامل] العربان الذين يخفرون الطريق ، وألزمهم بإحضاره وإحضار سارقه . فبذلوا عوضه شيئاً كثيراً ، وهو يأبى إلا إحضار السارق ، أو إتلاف أنفسهم وأموالهم بدله ، فلم يجدوا بداً من إحضار السارق والبساط .

وكان يباشر أمور الملك بنفسه ، من غير اعتماد على وزير ولا غيره . واستوزر أولاً الصاحب صفى الدين بن شكر ، ست سنين ، وانكف بصره وهو يباشر الوزارة حتى مات ،

== الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى بن مهوان ، في سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وهي ثاني دار عملت للحديث ، فإن أول من بى دارا [للحديث] على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق . ثم بى الكامل هذه الدار ، ووقفها على المشتعين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية . ووقف عليها الربع الذى بجوارها ، على باب الخرنفش ، ويمتد الى درب المقابل للجامع الأقر . وهذا الربع من إنشاء الملك الكامل ، وكان موصعه من حلة القصر العربى ، ثم صار موصعاً يسكنه الفقهاء . وكان موضع المدرسة سوقا الرقيق ، وداراً تعرف بابن كستول . وأول من ولي تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحية ، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على بن دحية ، ثم الحافظ عبد العظيم المنذرى ، ثم الرشيد المطار . وما برحت بيد أعيان الفقهاء ، إلى أن كانت الحوادث والمحن ، منذ سنة ست وثمانمائة ، فتلاشت كما تلاشت غيرها ، وولى تدريسها مى ، لا يشارك الأناسى إلا بالضرورة ، ولا يمتاز عن البهية إلا بالمنطق ؛ واستمر فيها دهرها لا يدرس بها ، حتى نسيت ، أو كادت تنسى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) فى س ليسامروه . (٢) فى س مهابا .

وكان الأمير فخر الدين عثمان الأستاذار يتردد إليه في الأشغال . فلما مات الصاحب [صفى الدين] لم يستوزر [الكامل] بعده أحداً ، بل كان يستنهض من يختار في تدبير الأشغال (٧٠ ب) : فأقام^(١) معين الدين بن شيخ الشيوخ مدة ، وسماه نائب الوزارة ؛ ومرة أقام تاج الدين يوسف بن الصاحب صفى الدين ، ومرة جمال الدين بن البورى . وصار يباشر أمور الدولة بنفسه ، ويُحضر عنده الدواوين ، فيحاققهم ويحاسنهم . وإذا ابتدأت زيادة النيل خرج بنفسه وكشف الجسور ، ورتب في كل جسر من الأسراء من يتولاه ، ويجمع الرجال لعمله . ثم يشرف على الجسور بعد ذلك ، فتي اختل جسر عاقب متوايه أشد العقوبة ؛ فعمرت أرض مصر في أيامه عمارة زائدة .

وأخرج [الكامل] من زكوات الأموال ، التي كانت تُجَبَى ، سهمى الفقراء والمساكين ، وجعلهما مصروفين في مصارفهما ، ورتب عليهما جامكيات الفقهاء والفقراء والصلحاء . و[كان] يجعل في كل ليلة جمعة مجلساً لأهل العلم عنده ، ويجلس معهم المباحثة . وكان كثير السياسة ، وأقام [في] كل^(٢) طريق خفراء تحفظ المسافرين . إلا أنه كان مُقرى بجمع المال ، مجتهداً في تحصيله : وأحدث في البلاد حوادث سماها الحقوق ، لم تكن في أيام من تقدمه وله شعر ، منه قوله :

إذا تحققتُم ما عند صاحبكم من الغرام فذاك القدر يكفيه
أنتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وفيه يقول البهاء زهير بن محمد ، من قصيدة عند فتح دمياط : —

هو الكامل المولى الذى إن ذكرته فيا طرب الدنيا ويا فرح العصر
به ارتجعت دمياط قهراً من العدى وطهرها بالسيف والملة الطهر
لك الله من ملك إذا جاد أو سطا فناهيك من عرف وناهيك من نسكر
يقصر عنه المدح من كل مادم ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر

(١) في س « وأقام » .

(٢) هذا اللفظ مكرر في س .

وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه هم أكابر دولته وأعيانها، وهم الأمير فخر الدين يوسف، وعماد الدين عمر، وكال الدين أحمد، ومعين الدين حسن. وكان فخر الدين [قد] ترك لبس العمامة، ولبس الشربوش والقباء، ونادم السلطان. وكان فاضلاً أديباً، يشارك في فنون، وإخوته لهم فضائل، وإليهم مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، وتدرّس المدرسة^(١) الناصرية، بجوار قبر الشافعي من القرافة، وتدرّس المشهد الحسيني بالقاهرة. وما منهم إلا من تقدّم على الجيوش، وبأثر الحرب. وأرضعت أمهم — [وهي] ابنة القاضي شهاب الدين ابن عصرون — الملك الكامل، فصاروا إخوته من الرضاع.

فلما مات السلطان [الكامل] اتفق أولاد الشيخ، والأمير سيف الدين علي بن قايق، وأخوه الأمير عماد الدين، والملك الناصر داود، وأرباب الدولة، على تحليف الأجناد للملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل — وهو يومئذ يخلف أباه بقلعة الجبل — على ديار مصر؛ وأن يُرتَّب الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبي بكر بن أيوب، في نيابة دمشق. وكتبوا ذلك [الأمر الثاني] عن الناصر داود، وحلفوا [على ذلك] في يوم الخميس ثاني عشر رجب. وبعثوا الأمير نور الدين علي بن (١٧١) الأمير فخر الدين عثمان الأستاذار إلى الناصر داود، فأخرجه من دمشق إلى الكرك، واستقر الجواد بدمشق، نائباً لأبن عمه الملك العادل. وسار العسكر من دمشق إلى مصر، وتأخر بدمشق أمراء [عدة] — في جمع من عسكر مصر وعماليك الأشرف — لحفظها، ومقدّمهم عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ. فبذل الجواد الأموال، وطمع في الاستبداد بملك دمشق، وألزم الخطيب بذكره في الخطبة بعد العادل.

(١) المدرسة الناصرية أول مدرسة بديار مصر، أنشأها السلطان الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي، سنة ٥٦٦ هـ برسم الفقهاء الشافعية، وكان حيثئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاصد العاطمي، وأول من ولي التدريس بها ابن زين التجار، فعرفت به. ثم عرفت بالمدرسة الشريفة، نسبة إلى الشريف القاضي شمس الدين الأرموي، فاسم العسكر، وكان قد درس بها أيضاً. واشتهرت بهذه النسبة الثانية إلى زمن المقرئ، أي حتى القرن التاسع الهجري. (المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٤٥ — ٣٤٦).

كَمَل طبع القسم الأول من الجزء الأول
من كتاب "السلوك للمقرئى" بمطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر فى يوم الخميس ٢٢
صفر سنة ١٣٧٦ (٢٧ سبتمبر سنة ١٩٥٦)



